التاريخ السياسي
للدولة العربية

عصر الخلفاء الأمويين

٢

تأليف

الدكتور عبد المنعم ماجد

الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة عين شمس

الطبعة الثانية

١٩٦٠

مزيدة ومنقحة

ملتزم الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

التاريخ السياسي للدولة العربية

عصر الخلفاء الأمويين

٢

تأليف

الدكتور عبد المنعم ماجد

أستاذ مساعد بكلية الآداب بجامعة عين شمس

الطبعة الثانية

١٩٦٠

[مزيدة ومنقحة]

ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة الأنجلو المصرية

١٦٥ شارع محمد بك فريد (عماد الدين سابقا)

مطبعة مخيمر

٥٩ شارع الجيش تليفون ٤٣٣٢٣

وما نقموا من بنى أمية إلا م
أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم معدن الملوك فلا
تصلح إلا عليهم العرب

عبيد الله بن قيس الرقيات

فهرس الكتاب

افتتـــــــاح

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

تناول الجزء الأول — الذى ظهر فى العام الماضى — التاريخ السياسى لعصور الجاهلية والنبوة والخلفاء الراشدين. ويتناول هذا الجزء الثانى عصر الخلفاء الأمويين ونهاية الدولة العربية ؛ أى تاريخ الفترة من سنة ٤١ / ٦٦ إلى سنة ١٣٢ / ٧٥٠ .

وتبين أهمية هذه الفترة فى أنها تعرض للفتوحات العربية ، التى بلغت أقصى ما عرفته حركة الفتح والاتساع فى الإسلام ؛ فامتدت من قرب سور الصين حتى قرب باريس ؛ بحيث أن العباسيين الذين أتوا بعد الأمويين لم يستطيعوا أن يحتفظوا بكل ما فتح فى عهد سابقيهم . وفوق ذلك تتميز هذه الفترة بأن الدولة العربية اتخذت فيها طابعها النهائى بالتعريب ، وأن الإسلام بدأ ينتشر فى معظم البلاد المفتوحة ؛ ولا يزال التعريب والإسلام جزءين من تاريخ هذه البلاد حتى وقتنا الحاضر .

وإنّا نذكر فضل المستشرق الأوربى لامنس « Lammens » ، الذى توفر على دراسة العصر الأموى ،وكرّس له معظم مؤلفاته:فألقى على نواحيه المتعددة أضواءً ساطعة . إلاّ أنه كان لا بد لهذا العصر من مؤرخ شرقى ،

ينظر إليه من وجهة نظره الشرقية ، ويعرضه فى القالب المنهجى الحديث .
وإذا لم يكن فى هذا الكتاب شىء من جدة ، فأرجو ألا يعوزه الوضوح والصدق .

المؤلف (*)

(*) كل نسخة مباعة تكون ممضاة من المؤلف .

الجزء الثاني

الخلفاء الأمويون

٤١ – ١٣٢ = ٦٦١ – ٧٥٠

	هجرية	ميلادية
معاوية بن أبي سفيان	٤١ — ٦٠	٦٦١ — ٦٨٠
يزيد بن معاوية	٦٠ — ٦٤	٦٨٠ — ٦٨٣
معاوية بن يزيد	٦٤	٦٨٣
مروان بن الحكم	٦٤ — ٦٥	٦٨٣ — ٦٨٥
عبد الملك بن مروان	٦٥ — ٨٦	٦٨٥ — ٧٠٥
الوليد بن عبد الملك	٨٦ — ٩٦	٧٠٥ — ٧١٥
سليمان بن عبد الملك	٩٦ — ٩٩	٧١٥ — ٧١٧
عمر بن عبد العزيز	٩٩ — ١٠١	٧١٧ — ٧٢٠
يزيد بن عبد الملك	١٠١ — ١٠٥	٧٢٠ — ٧٢٤
هشام بن عبد الملك	١٠٥ — ١٢٥	٧٢٤ — ٧٤٣
الوليد بن يزيد	١٢٥ — ١٢٦	٧٤٣ — ٧٤٤
يزيد بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦	٧٤٤
إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك	١٢٦	٧٤٤
مروان بن محمد	١٢٧ — ١٣٢	٧٤٤ — ٧٥٠

الفصــل الأول

عصر الخلفاء الأمويين

معاوية مؤسس الخلافة الأموية — حصار القسطنطينية الأول — فتح إفريقية — توريث يزيد الخلافة — وقوع الفتنة الثانية — مقتل الحسين — فتنة ابن الزبير — معاوية بن يزيد والنزاع بين اليمنية والقيسية — مروان ووقعة مرج راهط — تولية عبد الملك — عصبية اليمنية والقيسية — فتنة عمرو ابن سعيد الأشدق — فتنة المختار — إخماد فتنة ابن الزبير — إخماد فتنة الخوارج — إخماد فتنة ابن الأشعث — التعريب — العودة إلى حروب الروم — فتح المغرب — تولية الوليد — العمائر الأموية — حرب الروم — فتح بلاد الأندلس — فتح بلاد ما وراء النهر — فتح بلاد السند — تولية سليمان — حصار القسطنطينية الثانى — فتح بلاد بحر قزوين — تولية عمر بن عبد العزيز — إسلام الشعوب المفتوحة — سياسته الخارجية — تولية يزيد بن عبد الملك — سياسته — تولية هشام — ثورة الولايات — تفاقم الخطر الخارجى .

كان مقتل علىّ بن أبى طالب سبباً فى حدوث تحول هام فى رئاسة الدولة العربية ، إذ أعلن معاوية بن أبى سفيان الخلافة ، التى بقيت وراثية فى ذريته ، حتى سقوط هذه الدولة .

*

ويرجع طموح بيت معاوية إلى الرئاسة إلى أيام الجاهلية ، فهو من « بنى أمية » (١) — نسبة إلى « أمية(٢) » جد معاوية لأبيه — الذى كان يعمل على

---

(١) البلاذرى ، أنساب الأشراف ، تحقيق Goitein طبعة القدس ١٩٣٦ ، ٥ ص ٢٢ س ٩ ؛ ابن الأثير ، الكامل (طبعة مصر) ، ٣ ص ٣٧ س ١٣ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl (art Umaiyades) t4, p. 1052.

(٢) هو أمية بن عبد شمس بن عبد مناف بن قصى . انظر . المقريزى ، النزاع والتخاصم =

السيطرة على وظائف الكعبة فى مكة (١) ، فدعا عمه هاشم — جد النبي لأبيه — إلى المنافرة على عادة العرب بالاحتكام إلى الكهان (٢) ، فلما عجز عن الحصول عليها رحل إلى الشام ؛ فكانت هذه أول عداوة وقعت بين بيتى هاشم وأمية ، كما يلاحظ المؤرخون . وقد استمر النزاع بين حرب بن أمية وعبد المطلب بن هاشم ، وتمادت العداوة بين البيتين (٣) . وعلى العكس كان لسفيان بن حرب ، المسمى أيضاً صخراً (٤) — وهو أبو معاوية — الزعامة الفعلية فى مكة وقت ظهور الإسلام ؛ إذ كان يشرف على زمام تجارتها (٥) ، وعنده اللواء (٦) أو الراية — إحدى وظائف الكعبة الهامة — يأخذها من يناط به قيادة قريش وحراسة قوافلها . فكان أبو سفيان من أشد المعارضين للنبي حتى لا تعود زعامة بنى هاشم (٧) ، وقاد معظم الحملات المكية ضد النبي ، ولم يسلم إلا قبيل فتح النبي مكة (٨) ، وأسلم ابنه

= فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، تحقيق Vos ، طبعة Leiden ، ١٨٨٨ ، ص ٨ فما بعدها ؛ ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبرى ، تحقيق Sachau ، ١/١ ص ٤٣ — ٤٤ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art Umaiya) t 4, p. 1049-1051.

(١) عنها ، انظر . ابن هشام ، السيرة النبوية ، تحقيق Wust ، ١ ص ٢٧٢ ؛ انظر . قبله ما جد ، التاريخ السياسى للدولة العربية ، القاهرة ١٩٦٠ ، ١ ص ٨٠ .

(٢) عن معنى هذه الكلمة ، انظر . لسان العرب ، ٧ ص ٨٤ .

(٣) النزاع والتخاصم ، ص ١١ س ١٢ — ١٥ ؛ الكامل ، ٢ ص ٩ .

(٤) عن سيرته ، انظر . ابن حجر ، كتاب الإصابة فى تمييز الصحابة ، مصر ١٩٠٧ ، ٣ ص ٢٣٧ فما بعدها ؛ ابن قتيبة ، المعارف ، تحقيق Wust ، طبعة Gottingen ، ١٨٥٠ ، ص ١٧٥ ؛ ابن الأثير ، أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، مصر ١٢٨٥ هـ ، ٥ ص ٢١٦ ؛ انظر .
: Ency. de l'Isl, (art Abû Sufyân) t 1, p. 110.
انظر قبله . التاريخ السياسى ، ١ ص ١١٢ فما بعدها .

(٥) الكامل ، ٢ ص ٨٠ .

(٦) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، مصر ١٢٩٣ هـ ، ٢ ص ٤٥ س ١٩ ؛ انظر . العقاد ، معاوية بن أبى سفيان فى الميزان ، الطبعة الأولى ، ص ٣٢ . يذكر الأزرق أن اللواء كان بيد أمية ، انظر . كتاب أخبار مكة ، تحقيق Wust ، طبعة Leipzig ، ١٨٥٨ ، ص ٧١ فما بعدها

(٧) النزاع والتخاصم ، ص ٢ و ١٦ .

(٨) المعارف ، ص ١٧٥ ؛ ابن الطقطقى ، الفخرى فى الآداب السلطانية ، تحقيق Derenbourg ، طبعة Paris ، ١٨٩٥ ، ص ١٥٣ — ١٤٤ .

معاوية يوم الفتح (١) ، كما أسلمت زوجته هند ، وهي التي مثلت بحمزة عم النبي في وقعة أحد ، لأنه كان قد قتل رجالاً من أقاربها .

ومع أن النبي منذ فتح مكة قد ألغى وظيفة اللواء نهائياً (٢) ؛ فقضى بذلك على سلطة بني أمية الحربية إلا أنه وضع أساس تقريبهم (٣) ؛ لينتزع من نفوسهم الحقد نحو بني هاشم ويتقي عصبيتهم : فعامل أبا سفيان معاملة كريمة ، وأعلن أن من يدخل دار أبي سفيان فهو آمن (٤) ، ثم استماله إليه ؛ ويبدو أنه قد « حسن إسلامه (٥) » . كذلك أشركه في بعض مغازيه ، وذهبت عينه في إحداها (٦) ، وتزوج ابنته أمّ حبيبة (٧) ، واستخدم ابنه معاوية في الكتابة (٨) ، واستعمل عدداً كبيراً من أفراد البيت الأموي على الصدقات ، وولاهم بعض الأعمال (٩) .

وقد جرى أبو بكر ومن بعده عمر على هذا التقليد في تقريب بني أمية : فاستعمل أبو بكر أبا سفيان عاملاً له على ما بين آخر حد الحجاز وآخر حد نَجْران (١٠) ،

---

(١) المعارف ، ص ١٧٧ . لا نعرف تاريخ ميلاده بسبب الاختلاف في سني عمره (الكامل ، ٣ ص ٢٦٠) ، كما لا نعرف شيئاً يذكر عن سيرته قبل إسلامه . انظر أسد الغابة ، ٤ ص ٣٨٥ ؛ المعارف ، ص ١٧٥ ؛ ١٧٧ فما بعدها ؛ الفخري ، ص ١٤٣ فما بعدها ؛ انظر . Lammens : Etudes sur le règne du calife Omaiyade Mo'âwia 1er. Leipzig, 1908 ; Ency. de l'Isl, (art Mu'âwiya) t 3, p. 660 sqq.

؛ انظر . مراجع أخرى وردت في الهوامش .

(٢) ابن هشام ، ٢ ص ٩٦٨ ؛ انظر قبله : التاريخ السياسي ، ١ ص ١٢٢ وهامش (٦) .

(٣) النزاع والتخاصم ، ص ٣٣ — ٣٤ .

(٤) ابن حجر ، الإصابة ، ٣ ، ص ٢٣٨ ؛ ابن هشام ، ٢ ص ٨١٤ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسي ، ١ ص ١٢١ .

(٥) النزاع والتخاصم ، ص ١٧ س ١٥ .

(٦) نفسه ، ص ٤٨ ؛ المعارف ، ص ١٧٥ .

(٧) قد يكون أيضاً تزوجها قبل ذلك ، وهي توفيت عام ٦٦٤/٤٤ . انظر . المعارف ، ص ١٧٥ ؛ ابن سعد ، ٨ ص ٦٨ — ٧٠ ؛ أسد الغابة ، ٥ ص ٥٧٣ — ٥٧٤ .

(٨) المعارف ، ١٧٧ ؛ الفخري ، ص ١٤٣ .

(٩) النزاع والتخاصم ، ص ٣٢ — ٣٣ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، تحقيق Houtsma ، طبعة Lugd-Bat ، ٢ ص ٨١ .

(١٠) البلاذري ، فتوح ، تحقيق De Goeje ، ص ١٠٣ (آخر الصفحة) .

وابنه يزيد على أحد الجيوش الرئيسية فى الشام(١) . ولما تولى عمر بعد أبى بكر أقر يزيد فى قيادة جيش الشام ، وولاه بعض أجزائها ، واستعمل معاوية على مكة (٢) ، ثم على فلسطين (٣) ، وقد حارب يزيد فى مواقع الشام المعروفة وتحت قيادته أبوه الذى أبلى بلاء حسناً ، حيث ذهبت فى اليرموك عينه الأخرى(٤) ، وافتتح معاوية بعض مدن ساحل الشام(٥) . وعندما توفى قواد الفتوح ، ومنهم يزيد فى طاعون عَـمَـواس المشهور سنة ١٨/٦٣٩(٦) ، جعل عمر معاوية أميراً على سائر الشام (٧) .

ويبدو أن نفوذ بنى أمية قد رجع قوياً منذ إسلامهم ، حتى أنهم تدخلوا فى إختيار عثمان بن عفان (٨) — وهو واحد من كبرائهم — من بين أهل الشورى خلفاً لعمر ، واستبعاد علىّ بن أبى طالب من بنى هاشم . وعلى الرغم من أنه قد أخذت على عثمان المواثيق والعهود قبل توليته الخلافة ، ألا يحمل بنى أميَّة على رقاب الناس(٩) ، فإنه جعلهم أوتاد خلافته(١٠) . فأقر معاوية على

---

(١) المعارف ، ص ١٧٥ ؛ أنظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ١٧٦ فما بعدها .

(٢) العقد ، ٢ ، ص ٣٠٠ .

(٣) سعيد بن بطريق ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، تحقيق شيخو ، بيروت ١٩٥٠ ، ٢ ص ٢٠

(٤) توفى أبو سفيان حوالى ٣٢/٦٥٢ ، فى خلافة عثمان . انظر . المراجع السابقة .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٢٧ ؛ ١٤٠ — ١٤٢ . بخاصة عسقلان وقيسارية .

(٦) نفسه ، ص ١٣٩ — ١٤٠ . عن عمواس ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، طبعة الخانجي ، ٦ ص ٢٢٦ .

(٧) المعارف ، ص ١٧٥ . الأمير هو لقب عامل الخليفة . القلقشندى ، صبح الأعشى ، (طبعة دار الكتب) ، ٣ ص ٢٥٦ .

(٨) الكامل ، ٣ ص ٣٧ س ١٣ ؛ انظر قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٣٩ — ٢٤٠ . هو عثمان بن عفان بن أبى العاصي (أو العاص) بن أمية . أسد الغابة ، ٣ ص ٣٧٦ فما بعدها ؛ النزاع والتخاصم ، ص٦٨ .

(٩) أنساب ، ٥ ص ٢٢ س ٨ — ٩ .

(١٠) النزاع والتخاصم ، ص ١٨ س ١٧ .

الشام، ثم جمع له الجزيرة فى سنة ٢٥/٦٤٥[1]، وعين فى بقية الأمصار أقرباءه[2]. فلما ثار عرب الأمصار ضد عثمان بتحريض من بنى هاشم، وأفضت الثورات إلى قتله فى سنة ٣٥/٦٥٦ [3]، أتيحت الفرصة لمعاوية لينفرد بالشام [4]، ويتزعم عصبة بنى أمية فى المطالبة بدم عثمان من علىّ الذى تولى بعد عثمان ؛ إذ يصف المؤرخون معاوية بشيمتى : « الحلم »، و « الدهاء » [5]، وهما أقصى ما يميز ذوى الحنكة من رجال السياسه فى زمنه .

ومن المحقق أن حكم معاوية الطويل فى الشام طوال أيام الخلفاء الثلاثة، أتاح له تأكيد سلطته، حتى أنه لم يظهر فيها ممتعض ضد حكمه [6]، على نقيض ما حدث فى بقية الأمصار، ومكنه ذلك من تكوين جيش قوى ناجز به عليًّا فى صفّين[7]، وأرغمه على عقد صحيفة التحكيم فى أذرح [8] ؛ بقصد النظر فى لم شعث الأمة الإسلامية وإصلاحها ؛ على أساس ما ورد فى كتاب الله وسنة نبيه . فكان قبول علىّ للتحكيم هو أول الوهن : إذ أعلن فى أذرح سنة ٣٨/٦٥٨ ، خلعه من

---

(١) فتوح ، ص ١٧٨ س ٩ .

(٢) انظر ماذكرناه فى كتابنا التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٥٤ ـ ٢٥٥ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٢٥٨ ـ ٢٥٩ .

(٤) أسد الغابة ، ٤ ص ٣٨٦ .

(٥) انظر أقوال المؤرخين : المعارف ، ص ١٧٥ ؛ أسد الغابة ، ٤ ص ٤٠٢ س ٢ ؛ أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، مصر ١٣٢٥ هـ ، ١ ص ١٨٨ ؛ الفخرى ، ص ١٤٥ ؛ انظر.

Mo'â, 1er, p. 66spq; 213 sqq: Lammens.

(٦) الكامل ، ٣ ص ٧٥ س ١

(٧) انظر . الدينورى ، الأخبار الطوال (طبعة مصر) ص ١٧٠ ؛ عن صفين ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧٠ . انظر قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٦٣ فما بعدها .

(٨) الكامل ، ٣ ص ١٦٢ ـ ١٦٣ ؛ انظر . حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، القاهرة ١٩٤١ ، ص ٢٨١ فما بعدها . عن أذرح ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ١ ص ١٦١ ؛ انظر قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٦٥ .

الخلافة وتوليتها معاوية ، الذى استولى على مصر بعد ذلك ، وأثار ضد علىّ الاضطرابات فى العراق والحجاز(١). وأخيراً جاء مقتل علىّ غيلة فى سنة ٤٠ هـ(٢)/٦٦١م، متمماً لفوزه السياسى ؛ مما جعله يعلن الخلافة لنفسه فى بيت المقدس(٣) ؛ وإن كانت قد أعلنت له من قبل يوم اجتماع الحكمين(٤) .

ولم يكن قتل علىّ ليجعل باب الخلافة مفتوحاً على مصراعيه لمعاوية ؛ فقد ورث الحسن(٥) بن علىّ مقام أبيه فى العراق ؛ ولكن يبدو أنه لم يرث طموحه . فلم يحاول السير إلى معاوية ليفاجئه بالحرب، وإنما كتب طالباً إليه أن يبايعه(٦). ولعل الحسن لم يكن يثق فى عسكره من أهل العراق لتلونهم(٧) ؛ خصوصاً وأن معاوية كان يدس بينهم ، ويستميل قوادهم بالمال ، حتى أنهم تطاولوا عليه وهاجموا خيمته وجرحوه . فلما سار معاوية إلى العراق بجيش قوى من أهل الشام ؛ فضل الحسن طريق المفاوضات ، بقصـــد حقن دماء المسلمين وصلاح الأمة الإسلامية(٨) — كما فعل أبوه من قبل — وذلك على الرغم من أن أخاه الأصغر

(١) الكامل ، ٣ ص ١٧٨ ؛ ١٨٨ ؛ ١٩٠ ؛ ١٩٣ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ١٩٨ ؛ ٢٠٢ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٧٨ ؛ ٢٠٢ .

(٤) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ١٨٤ .

(٥) لانعرف تاريخ ميلاده بالضبط ، ولعله فى السنة الثالثة للهجرة . انظر سيرته فى : أسد الغابة ، ٢ ص ٩ فما بعدها ؛ أبو الفرج الأصبهانى ، مقاتل الطالبيين ، النجف ١٣٥٣ هـ ، ص ٣٣ فما بعدها ؛ النوبختى ، فرق الشيعة ، تحقيق صادق ، النجف ١٣٥٥/١٩٣٦ ، ص ٢٤ — ٢٥ ؛ المعارف ، ص ١٠٧ ، انظر .

Ency. de l'Isl, (art al-Hasan) t2, p. 291.

(٦) مقاتل الطالبيين ، ص ٣٧ .

(٧) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٥٥ ؛ الأخبار الطوال ، ص ٢١٨ — ٢١٩ ؛ انظر .

The Arab Kingdom and its Fall transl. : Wellhausen. M. G. Weir. Calcutta, 1927, p. 104.

(٨) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٥٦ ص ٣ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٠٥ س ١٨ .

الحسين بن عليّ ناشده التمسك بالخلافة(١) . ولكن الحسن خلع نفسه منها ووادع معاوية ، الذى دخل الكوفة ونال بيعتها(٢) . وأصبح خليفة العراق ، كما كان فى الشام ومصر ، ثم ذهب إلى الحجاز ونال بيعتها ، ووعد بنى هاشم بأنه لن يتعرض لهم وأنه سيصون دماءهم(٣) . فكان العام الذى تنازل فيه الحسن عن حقه فى الخلافة يعرف بعام الجماعة(٤) — وهو عام ٤١ / ٦٦١ — لأن معاوية نال فيه بيعة جميع الأمصار .

ومن المؤكد أن الحسن لم يكن مهيئاً لحمل عبء منصب الخلافة، إذا يتبين من سيرته أنه كان يحب الحياة السهلة : فبعد تنازله سار حتى وافى المدينة(٥) ، لينعم فيها بحياة الحواضر . كذلك قبل من معاوية صحيفة بيضاء مختوماً فى أسفلها(٦) ، ليكتب فيها ما يشاء من الشروط ، ولا سيما ما يختص بالأموال والضياع(٧) ، كما خصص معاوية للحسين بعض المال(٨) . واختلف فى معرفة سبب وفاة الحسن وسنتها(٩) ؛ وإن كانت الروايات الشيعية تحاول أن تجعل منه شهيداً(١٠) ، وأن زوجته سمته بتحريض من معاوية ، الذى كان قد دس له السم عدة مرات . ولكننا نستبعد

(١) ابن العبرى ، تاريخ مختصر الدول ، تحقيق انطون صالحانى ، بيروت ١٨٩٠ ، ص ١٨٦ ؛ انظر بعده .

(٢) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ؛ العقد ، ٢ ص ١٧٠ .

(٣) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٦٤ ؛ ٢٦٦ .

(٤) أسد الغابة ، ٤ ص ٣٨٧ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، طبعة حيدر آباد ١٣٦٤ هـ ، ١ ص ٢٠ ؛ انظر .

Ency. de l'Isl (art Mu'âwiya), t3, p. 659.

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٢٢٢ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٢٠٣ س ٢٠

(٧) ابن العبرى ، ص١٨٦ . يقول الدينوى إنها مال الأهواز (الأخبار الطوال ،ص٢٢٠)، وهي الاسم العربي لخوزستان . معجم البلدان ، ١ ص ٣٨٠ فما بعدها .

(٨) الأخبار الطوال ، ص ٢٢٠ .

(٩) لدينا تواريخ مختلفة : ٤٧ ، ٤٩ ، ٥٠ ، ٥١ . أسد الغابة ، ٢ ص ١٠ ؛ ١٤ — ١٥ ؛ النوبختى ، ص ٢٤ .

(١٠) مقاتل الطالبيين ، ص ٥١ — ٥٢ ؛ انظر .

Ency. de l'Isl, t2, p. 291.

قيام معاويه بذلك ، فيقول الدينورى(١) : « لم ير الحسن ولا الحسين طول حياة معاوية منه سوءاً فى أنفسهما ولا مكروهاً ولا قطع عنهما شيئاً مما كان شرط لهما . . . » . فلعل وفاة الحسن كانت بسبب إسرافه فى حياة اللهو : فقد تزوج كثيراً من النساء بلغن سبعين إمرأة(٢) ، إذا لم يكن مثله أحد فى منظره(٣) ، وعرف بأنه كثير الطلاق « مطلاق(٤) » . وكذلك قد تكون وفاته من أثر الجراحة(٥)، التى أصابته حينما تنحى عن محاربة معاوية .

نستخلص إذن أن معاوية أخذ الخلافة بالسيف من غير مشاورة(٦) ، وأنه لم يكن من الراشدين(٧) : أى صحابة النبى الذين تولوا الخلافه بعده، وكانوا مرشدين من قبله للسير على سنته فى الحكم، فلهذا سيلازم الخلافة فى عهده طابع سياسى أكثر منه دينى(٨) ، وأصبحت كلمة ملك — بمعنى الحاكم المطلق (أوتقراطى) — يطلقها المؤرخون عليه وعلى خلفه(٩) ، وينسبون إليه قوله : « أنا أول الملوك(١٠) » . ولكننا لا يجب

(١) الأخبار الطوال ، ص ٢٢٦ .

(٢) الذهبى ، دول الإسلام ، ١ ص ٢٤ ، أنظر . دونلدسن ، عقيدة الشيعة ، مصر ١٩٤٦ ، ترجمة عربية ، ص ٩٨ .

(٣) الأصفهانى ، كتاب الأغانى (طبعة بولاق) ، ١١ ص ٥٦ .

(٤) أبو الفداء ، المختصر ، ١ ص ١٨٣ س ١٤ .

(٥) النوبختى ، ص ٢٤ (آخر الصفحة) .

(٦) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ١٨٦ س ١٢ .

(٧) الكامل ، ٣ ص ١٧٨ . انظر . لسان العرب ، ٤ ص ١٥٦ ؛ أنظر . قبله التاريخ السياسى ١ ص ٢٧١ .

(٨) انظر . Ency.de l'Isl, (art Khalifa), t2, p.934 ؛ انظر : Lammens : Mo'â., p. 191.

(٩) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٥٧ س ١١ ؛ لسان ، ١٢ ص ٣٨١ فما بعدها ؛ السيوطى، حسن المحاضرة ، القاهرة ١٣٢٧ هـ . وهم لا يطلقونه فقط على الخلفاء ، بل حتى على ولاتهم . الأغانى ، ١٧ ص ١٦١ . انظر أيضا عن تسميتهم بالملوك . فتوح البلدان ، ص ٤٦٥ س ٣ ؛ الأغانى ، ٤ ص ١٧٨ س ١٠ ؛ انظر . Ency. t 4, p. 1053

(١٠) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٧٦ س ١٣ .

أن نبالغ[١] فى ماهية الطابع السياسى للحكم الأموى، فإنه من الثابت أن معاوية وإن طلب الملك إلا أنه كان يحرص على أن يبقى شيخ العرب أكثر من ملكهم، وأن الصفة العامة للدولة بقيت دينية بحكم أن دستورها الإسلام، الذى هو دين ودولة.

إلا أنه من المسلم به أن معاوية استحدث للخلافة أموراً لم تكن لها من قبل: فبنى لنفسه قصراً سماه الخضراء[٢]، واتخذ فيه السرير للجلوس[٣] — وهو المكان المرتفع — ووضع حوله الستائر، وأحاط نفسه بالحجاب[٤]، وجعل الحراس تمشى بالحراب بين يديه[٥]، وأوجد الشرطة[٦] لحراسته. وكان إذا صلى فى المسجد جلس فى بيت منفرد بجدران عُرف: «بالمقصورة[٧]»، بقصد

(١) انظر . Ency. de l'Isl, t. 4, p. 1052

(٢) المسعودى، التنبيه والاشراف، تحقيق de Goeje (B.G.A)، طبعة Lugd-Bat، ١٨٩٤، ص ٣٠٢. هو بناها فى دمشق.

(٣) اليعقوبى، تاريخ، ٢ ص ٢٧٦. عنه، أنظر. ابن خلدون، المقدمة، مصر ١٣٢٢هـ، ص ٢٠٥—٢٠٦.

(٤) يعنى هذا اللقب فى الدولة الأموية من كان يحجب الخليفة عن العامة، ويغلق بابه دونهم (المقدمة، ص ١٩٠)، ويضيف اليعقوبى أيضا لفظة «البوابين»، ولعلهم الحجاب. أنظر. تاريخ، ٢ ص ٢٧١.

(٥) يقصد بهم حرس الليل. الكامل، ٣ ص ١٩٨.

(٦) اليعقوبى، تاريخ، ٢ ص ٢٧٤. الشرطة غير الحرس، أوجدها معاوية بقصد قيامها حوله إذا سجد (الكامل، ٣ ص ١٩٨ س ٥)، ولعل عثمان هو الذى أوجدها (ابن سعد، ٤/١ ص٢١س ٢٧)، وسيتسع نطاق عملها، فتكون أداة القضاة لتنفيذ الأحكام (الكامل، ٣ ص ٢٧٢). ومع ذلك فيقول ابن خلدون إن أصل وضعها كان فى الدولة العباسية. المقدمة، ص ١٩٨؛ انظر أيضا: Ency. de l'Isl. (Art Shurta), t 4 p. 408

(٧) جمعها «مقصورات» من «قصر» أى قصرت على الإمام دون الناس (لسان، ٦ ص ٤١١). وقد اختلف فى أول من عملها: لعله عثمان (المقريزى، الخطط، القاهرة ١٣٢٦هـ، ٤ ص ٧ س ٥)، أو معاوية (نفسه، ٤ص ١٢ س ١٣)، أو حتى مروان بن الحكم (فتوح البلدان، ص ٦ س ١٦—١٧)؛ وأنه يبدو أن الأمويين هم — على كل حال — أول من عملوها فى الإسلام. عن المقصورة، انظر. ابن خلدون، المقدمة، ص ٢١٢—٢١٣؛
Early Muslim Architecture I, Umayyads, : Creswell
La Mosquée omeyyade de Médine, : Sauvaget; Oxford,1932, p. 33
Ency. de l'Isl. (art Masdjid), t3 p. 305—385 ; Paris, 1947, p. 150.

حمايته أثناء الصـ[illegible] ة مكان خاص للشاورة(٢) . وكانت هذه الأمور غير معروفة من العرب ، ولكنها — على حسب ملاحظة ابن خلدون (٣) — تُعتبر من سنن الملوك قبل الإسلام فى دول العجم ؛ لتمييز السلطان عن الناس .

ولم يبق معاوية فى الحجاز مثل الخلفاء الراشدين ، بل أقام فى « الشام(٤) » ، واتخذ « دمشق(٥) » عاصمة لخلافته . فقد كانت الشام منذ فتحها فى عهد عمر تُعتبر فى نظر العرب : الجنة(٦) لغناها ، وسرة الدنيا(٧) لموقعها الممتاز ، ومقدسة لوجود الصخرة(٨) التى هى معراج النبى إلى السماء ، ومباركة لورود الرسـل والأنبياء(٩) إليها ، حتى ظن الناس أن عمراً حينما جاء الشام جاءها ليقيم بها(١٠) ، وذاعت بين العرب أحاديث نبوية(١١) ، توصى بسكنى الشام وأهله . كذلك كان اختيار دمشق عاصمة للخلافة الأموية يتوافق مع العقلية العربية فى سكنى المدن :

---

(١) الفخرى ، ص ١٤٨ .

(٢) الأغانى ، ١٧ ص ١١٦ س ٦ ؛ انظر . Lammens : Mo'â 1êr, p. 203

(٣) المقدمة ، ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٤) وتسمى أيضا « سورية » ، انظر . ياقوت ، معجم البلدان ، ٥ ص ١٧١ أو حتى « الشأم » . نفسه ، ٥ ص ٢١٧ فما بعدها .

(٥) وتسمى أيضا « دمشق الشام » . نفسه ، ٤ ص ٧٢ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Damas), tl p. 926 sqq.

(٦) معجم البلدان ، ٥ ص ١٧١ س ١٢ .

(٧) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، دمشق ١٩٥١ ، ١ ص ١٧٨ فما بعدها .

(٨) الواقدى ، فتوح الشام ، تحقيق W. N. Lees ، طبعة Calcutta ، ١٨٥٤ ، ٢ ص ٢٧١ ؛ المعارف ، ص ٧٥ س ١٥ ، انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ١٠١ .

(٩) ابن عساكر ، ١ ص ٩ — ١٣ ؛ ١٢٩ فما بعدها ؛ ياقوت ، معجم ، ٤ ص ٧٢ .

(١٠) الواقدى ، فتوح الشام ، ٢ ص ٢٧١ .

(١١) ابن عساكر ، ٦١ فما بعدها ؛ ياقوت ، معجم البلدان ، ص ٢١٩ فما بعدها .

فهذه المدينة القديمة[1] ، التي كانت عاصمة الغساسنة[2] ، ومتجراً[3] لقوافل الصيف التي تأتيها من الحجاز بقيادة سادة قريش من بني أمية قبل الإسلام ، ثم معسكراً عند الفتح[4] ، كانت كمدن الأمصار لا تكون على الساحل حتى تهاجمها المراكب ، وإنما في الداخل[5] . فهي تقع على حافة بادية البَلْقاء[6] ، في واحة الغُوطَة[7] الخصيبة ، يغذيها نهر بَرَدَى[8] المعروف ، وتحيط بها من جميع جهاتها سلسلة جبال شاهقة ، مثل جبل قَاسِيُون[9] . وهكذا تنازلت الحجاز والمدينة للشام ودمشق عن كل نفوذ سياسي حصلا عليه منذ ظهور الإسلام ؛ كما أصبح تغيير العاصمة منذ ذلك الوقت ، يعني في تاريخ المسلمين سقوط أسرة حاكمة وقيام أخرى .

بيد أن معاوية أبقى على نظام حكم الدولة الإسلامية الذي وضعه عمر[10] ، دون تغيير . فأبقى في دواوين الشام الكتّاب النصارى من أهل البلاد لكثرتهم[11] ؛

---

(١) وجدت حتى قبل غزو الإسكندر . ابن عساكر ، ص ٩ — ١٣ .

(٢) كانت جلق — إحدى عواصمهم — هي دمشق . ياقوت ، معجم ، ٣ ص ١٢٦ ؛ انظر Ency. de l'Isl (art Djillik) tl, p. 1074 ؛ انظر . قبله التاريخ السياسي ١ ص ٨٨ .

(٣) ياقوت ، معجم ، ٥ ص ٢١٨ س ٢١ ؛ انظر . العدوى ، الامويون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٣ ص ١٢٥ ؛ انظر التاريخ السياسي ، الجزء الأول .

(٤) كانت الجابية معسكراً (الواقدي ، فتوح الشام ، ٢ ص ٢٧١) ؛ وهي قرية من قرى دمشق . انظر . ياقوت ، معجم ، ٣ ص ٣٣ .

(٥) انظر . Sauvaget : Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas. Paris, 1935 (Ext. R. E. 1) p. 423.

(٦) عنها ، انظر . ياقوت ، معجم ، ٢ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٧) نفسه ، ٤ ص ٧٤ ؛ ٦ ص ٣١٤ .

(٨) نفسه ، ٢ ص ١١٨ — ١١٩ .

(٩) نفسه ، ٤ ص ٧٤ .

(١٠) انظر ما أوردناه في كتابنا التاريخ السياسي ، الجزء الأول ص ٢٣١ فما بعدها .

(١١) اليعقوبي ، تاريخ ، ٢ ص ٢٧٦ . كتب سرجون بن منصور النصراني في أيام معاوية . الخطط ، ١ ص ١٥٩ .

يكتبون باليونانية(١) ، وترك العملة السائدة من قبل عليها الصليب(٢) . ولكي يشرف على إدارة الدولة إشرافاً دقيقاً ، أوجد « ديوان الخاتم(٣) » وقد استمر فى عهد بنى العباس ، وكان عمله أنه يقوم بإنفاذ كتب الخليفة والختم عليها بعلامته ، وإثبات نسخها فيه . كذلك يُنسب إلى معاوية ابتكار نظام البريد(٤) ؛ لتسرع إليه أخبار البلاد من جميع أطرافها ومتجددات الأحوال ؛ ويظهر أنه استعان فى إنشائه بالروم والفرس : فوضع الخيل المضمرات فى عدة أماكن ، فإذا وصل صاحب الخبر المسرع إلى مكان منها ، وقد تعب فرسه ركب غيره فرساً مستريحاً ، وكذلك يفعل فى المكان الآخر والآخر حتى يصل بسرعة ، وفى بعض الأحيان إذا لم تتوافر الدواب ، كانت تؤخذ بالسخرة(٥) . وقد أعطى عبد الملك لهذا النظام طابعه النهائى ؛ فكان يعرف للعرب بجناح المسلمين(٦) .

---

(١) يقول المقريزى : كان ديوان الشام يكتب بالرومية ، ولم ينقل للعربية إلا فى عهد عبد الملك أو هشام بن عبد الملك . الخطط ، ١ ص ١٥٨ ـــ ١٥٩ ؛ انظر . بعده .

(٢) انظر . بعده .

(٣) الفخرى ، ص ١٤٩ . عن هــذا الديوان ، انظر . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٨ ـــ ٢١٠ . قد يكون أصل هذا الديوان عربياً ، إذ أن لجميع الخلفاء منذ النبى خاتم ، وهو الآلة التى تجعل فى الأصبع ؛ وان كان هذا اللفظ أصبح يطلق على الكتب والكتاب ومكان جلوسهم .

(٤) الفخرى ، ص ١٤٨ ؛ صبح الأعشى (دار الكتب) ، ١٤ ص ٣٦٨ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Barîd) t,1, p. 675.

هذا النظام أصله غامض ؛ كما أن كلمة بريد غامضة ، لعلها من العربية « برد » أى ثبت بما تستقر عليه الأخبار ، أو من الفارسية « بريده دم » لأن الفرس كانت تستعمل البغال وتقص أذنابها (صبح ، ص ١٤ ص٢٦٧) ، أو حتى من اللاتينية « Veredus » أى خيل. انظر Ency. t,1 p. 675 . عن هذا النظام وتطوره ، انظر .
La Poste aux Chevaux. Paris, 1941. : Sauvaget

(٥) ابن سعد ٥، ص ٢٧٦ س ١٠

(٦) صبح ١٤ ص ٢٧ .

ولكى يوطد معاوية دعائم خلافته ؛ اصطنع فى الأمصار عدة رجال دهاة مثله، حيث كانت تنتظرهم مهمة شاقة هى السيطرة على عرب الأمصار، الذين شاركوا فى قتل عثمان وأيدوا عليّا. ونلحظ أن اختياره الموفق لأتباعه دليل على عبقريته، وفهمه لعقلية الرجال : فقد كان يبحث عنهم حتى بين من كانوا من أنصار علىّ وأشد مؤيديه، وقد جعلهم أشبه بملوك لهم المقصورة والحرس[١]؛ وأوجد فى أيديهم سلطة رهيبة هى الشرطة[٢] ، التى كانت تنفذ أوامرهم ، وتقوم على حمايتهم . لذلك تفانوا فى الإخلاص له، وملأوا المحابس[٣] بأعداء البيت الأموى ، وأجبروا رعاياهم على لعن علىّ وسبه ، فى الخطب من على منابر المساجد فى الأمصار[٤] . وفوق ذلك اعتمد معاوية على أسرته العريقة ، ووجد فى تأييدها ما يوطد حكمه ، ففتح لأقربائه وخاصته خزائن المال ، ومنحهم الجوائز السنية والصلات السخية[٥] ؛ كما استعملهم فى الأعمال ؛ ولكنه لم يقع فيما وقع فيه عثمان ، فرفض أن يكون حبيس أقربائه ؛ أو الخليفة المستضعف[٦] .

فولى الكوفة[٧] — مركز المقاومة الشيعية بالعراق ، وعاصمة علىّ السابقة —

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٢٢٢ ؛ ٢٤٢ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٢١٢ .

(٣) نفسه، ٣ ص ٢١٣ س ٢١ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٠٧ ؛ ٢٣٤ ؛ الأغانى ، ١٦ ص٧ س ١ .

(٥) الفخرى ، ص ١٤٥ فما بعدها ؛ انظر . Lammens : Mo'â, p. 25

(٦) هذا قول الخليفة عبد الملك عن عثمان . انظر بعده ؛ العقد ، ٢ ص ٢١٧.

(٧) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٩٥ فما بعدها .

المغيرة بن شعبة (١) : وهو صحابي (٢) من قبيلة ثقيف : اشتهر بجرأته فى الفتوح الفارسية والشامية ، حتى أنه ذهبت عينه يوم اليرموك (٣) ؛ كما تولى عمل البصرة والكوفةعدة مرات (٤) ، وكان عبده لؤلؤة هو الذي قتل الخليفة عمرا بن الخطاب(٥) . وعلى الرغم من أن المغيرة كانقد اعتزل الفتنة ، فإن معاوية عرف كيف يضمه إلى جانبه ؛ خصوصاً وأن المغيرة كان موصوفاً بالدهاء، فهو الذى كان قد نصح علياً بأن يكتب لمعاوية بتولية الشام ، وأخذ البيعة له ، بدلاً من عزله ؛ إذا أراد أن يتفادى حربه(٦) . وقد بدأتخدمةالمغيرةلمعاوية حينما أرسله إلى الحسن فى العراق ليسترضيه ، فنجح فىمهمته ، وقبل الحسن الموادعة ، وتنازل عن الخلافة لمعاوية(٧) . ولما تولى المغيرة عمل الكوفة سنة ٤٢/٦٦٢ ، حفظه على الرغم من وجود كثير من الشيعة والخوارج به (٨) ، فلم يفتش بين أهل الأهواء عن أهوائهم ، ما داموا لم ينتقلوا من الكلام إلى الأفعال (٩) ؛ كما استخدم فى سبيل ذلك كل الوسائل حتى غير المشروعة منها مثل بذل المال ؛ إذ أعتبر أول من رشا فى الإسلام(١٠) .

وأقام فى البصرة(١١) — وهى المصر الآخر بالعراق ومركزمقاومة الخوارج

---

(١) عن سيرته ، انظر . أسد الغابة ، ٤ ص ٤٠٦ — ٤٠٧ ؛ المعارف ، ص ١٥٠ ؛ الأغانى ، ١٤ ص ١٤٠ فما بعدها ؛ انظر .

Etudes sur le Siècle des Omeyyades. Beyrouth, 1930, : Lammens Ency de l' Isl. (art al-Mughîra b. Shu'ba) t, 3, p. 683 ; p. 27 sqq

(٢) يذكر الذهبى أنه كان سياف النبى : انظر . دول الإسلام ، ١ص ٢٤ .

(٣) الكامل ،٣، ص ٢٢٨ ص٢٢ — ٢٣ .

(٤) عزل فى عهد عمر لأنه شهد عليه بالزنا . الأغانى ، ١٤ ص ١٤٢ — ١٤٥ ؛ أسد الغابة ، ٤ ص ٤٠٧

(٥) الكامل ، ٣ ص ٢٦ س ٣ .

(٦) الأغانى ، ١٤ص ١٤٣ — ١٤٤ .

(٧) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٥٥ .

(٨) الكامل ، ٣ ص ٢١٢ فما بعدها .

(٩) الطبرى ، ٢ ص ١٩ — ٢٠ .

(١٠) المعارف ، ص ٢٧٦ ؛ أسد الغابة ، ٤ ص ٤٠٧ .

(١١) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ١٩٢ فما بعدها .

على الخصوص — عاملاً من قبيلة ثقيف أيضاً اسمه زياد (١) سنة ٦٦٥/٤٥، كان عليّ والحسن قد استعملاه على فارس . ويبدو أن معاوية كان يعرف قدر زياد ، وأراد أن يتقوى به لاشتهاره بالرأى والدهاء (٢)، وأنه من الخطباء والفصحاء (٣)؛ فلعله استماله عن طريق المغيرة بن شعبة (٤) ، الذى كان استكتبه فى البصرة من قبل . ولكى يجعله يترك العلويين وينضم إليه استلحقه بنسبه (٥) ، لما قدم عليه بالشام سنة ٦٦٢/٤٢ ؛ فجعله أخاً له من ولد أبى سفيان ، مع أن زياداً لم يكن يُعرف له أب ، ويدعونه بزياد بن أبيه ، أو بزياد بن سميه باسم أمه سمية (٦) ، إحدى عاملات البغايا بالطائف ؛ كما أنه لم يطالبه بمال فارس أثناء ولايته لعلّ والحسن . ولما مات المغيرة بالطاعون فى سنة (٧) ٦٧٠/٥٠ ، أضاف معاوية لزياد ولاية الكوفة ، وبقى أميراً على العراق كله حتى وفاته سنة ٦٧٢/٥٣ ، وما يتبعه من إقليمى خراسان وسجستان ، وجمع له الهند والبحرين وعُمان (٨) ، وكاد أن يوليه أيضاً على الحجاز (٩) . ويتبين حزم زياد فى حكمه بالعراق من خطبته المعروفة : «بالبتراء (١٠)» ، التى ألقاها فى البصرة أول ولايته، أعلن فيها أنه يأخذ

(١) المعارف ، ص ١٤٧ ، ١٧٦ ؛ أسد الغابة ، ٢ ص ٢١٥ — ٢١٦ ؛ العقد ، ٣ ص ٢ — ٦ ؛ الفخرى ، ص ١٥٢ فابعدها؛ ابن خلدون ، العبر، القاهرة ١٢٨٤ هـ، ٣ ص ٧ فابعدها؛ أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ١٨٤ — ١٨٥ ؛ انظر Lammens : Etudes p. 41sqq; Ency. de l'Isl , (art Ziyâd b. Abîhi), t4, p. 1302 - 3 طه حسين ، على وبنوه ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ٢٢٢ — ٢٣٢ .

(٢) الفخرى ، ص ١٥٢ س ٤ .

(٣) أسد الغابه ، ٢ ص ٢١٥ .

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ٢ ص ٢٥٩ .

(٥) وهو كره العلويين كرهاً شديداً ؛ انظر . الأغانى ، ١٦ ص ٣ .

(٦) هى جارية من ثقيف تعرف باسم بنت الأعور أو سمية أو مرجانة . النوبختى . ص ٢٥ . كذلك كان يسمي زياد بن عبيد الثقفى ، الذى كان مملوكا لرجل من ثقيف ، وتزوج سمية . أسد الغابة ، ٢ ص ٢١٥ .

(٧) تاريخ وفاته غير دقيق فلعله أيضا سنة ٤٩ و ٥١ هـ . الكامل ، ٣ ص ٢٢٨ .

(٨) نفسه ، ٣ ص ٢٢٢ س ١١ — ١٢ .

(٩) نفسه ، ٣ ص ٢٤٤ — ٢٤٥ .

(١٠) نفسه ، ٣ ص ٢٢٢ — ٢٢٣ ؛ العقد ، ٢ ص ١٨٣ — ١٨٤ .

بالظنة ، ويعاقب بالشبهة ، مما جعل الناس تخافه خوفاً شديداً (١) . وبذلك أكد زياد الملك لمعاوية ، وضبط ما تولاه (٢) ، وقضى على حركات الشيعة والخوارج فى المصرين ، فكان يقيم بالبصرة ستة أشهر ، وبالكوفة مثل ذلك (٣) .

وولى معاوية مصر وما فى غربها عمرو بن العاص ؛ بناء على كتاب بينهما أن تكون له ما عاش (٤) ؛ بسبب أنه دبر التحكيم ، واسترد له مصر . وقد كان معاوية يخاف عمراً لدهائه ، بل لعلهما كانا يتباغضان سراً (٥) ، خصوصاً وأن عمراً كان يرى أن ولاية مصر تعدل الخلافة ؛ فلما صارت هذه فى يد معاوية استكثر تولية مصر لعمرو ما عاش ؛ فأعيد كتابة الكتاب الذى بينهما ، على أن يتولاها عمرو سبع سنين فقط (٦) . ولكن عمراً لم يحكم مصر أكثر من سنتين ، وتوفى عام ٦٦٣/٤٣ ؛ فولاها معاوية لعبد الله بن عمرو (٧) ، ثم عزله وولاها أخاه عتبه ابن أبى سفيان ، فلما توفى ولاها لغيره من المخاصين له (٨) .

---

(١) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ١٨٥ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٢٢٤ .

(٣) الأغانى ، ١٦ ص ٣ س ٢ ؛ الأخبار الطوال ، ص ٢٢٥ .

(٤) ابن سعد ، ٢/٤ص٢ — ٣؛الأخبار الطوال ، ص١٦٠؛ اليعقوبى،تاريخ،٢ص٣٦٣ . عن سيرته . انظر ، المعارف ، ص ١٤٥ — ١٤٦ ؛ ابن سعد ، ٢/٤ ص ٢ فما بعدها ؛ أسد الغابة ، ٤ ص ١١٥ فما بعدها ؛ انظر .
: Ency. de l'sl. (art 'Amr B. al-'As) tl, p. 338-9.
انظر . قبله التاريخ السياسى ، الجزء الأول .

(٥) الفخرى ، ص ١٤٧ س ٥ .

(٦) ابن سعد ، ٢/٤ ص ٦ س ٤ .

(٧) المعارف ، ص ١٧٦ .. كان عبد الله يكتب عن النبى ، وشهد مع أبيه فتح الشام ، كما شهد صفين وقاتل أنصار على ، وتوفى زمن معاوية أو بعده (عن سيرته . أسد الغابة ، ٣ ص ٢٣٣ — ٢٣٥) ؛ أما عتبة فقد شهد الجمل مع عائشة وذهبت عينه يومئذ ، كما شهد صفين مع أخيه ، وحضر التحكيم وكان له فيه أثر كبير . عن سيرته ، انظر . أسد الغابة،٣ص٣٦٠ـ٣٦١ .

(٨) فمثلاً وليها معاوية بن حديج ، الذى قتل محمد بن أبى بكر واليها من قبل على (الكامل، ٣ص٢٢٦) ؛ كما وليها بعد ذلك مسلمة بن مخلد . (نفسه ، ٣ص ٢٣٠) ؛ عنهما انظر . بعده .

وجعل ولاية الحجاز — وهى التى كانت تقيم فيها عصبة بنى هاشم — لأفراد بيته من بنى آمية، ليكون بنو هاشم تحت مراقبتهم . ولما كان معاوية لا يريد أن يكون مثل عثمان حبيس أقاربه، فإنه استعمل بنى عمه على التوالى(١) : مروان بن الحكم سنة ، وسعيد بن العاص سنة ؛ فكان يولى أحدهما إذا عزل الآخر . كما استعمل على اليمن أحد أبناء الفرس الذين أسلموا(٢) ، مثلما كان الحال فى عهد النبى . ومن المحقق أن سكان جزيرة العرب لم يكونوا وقتذاك - بعد انتقال الخلافة إلى الشام - يهتمون بأمور السياسة ، بقدر اهتمامهم بدراسة الحديث (٣) ، والتنعم بسماع قصائد الشعر(٤) ، وبخاصة سماع الغناء ، حتى اعتبر أصل الغناء فى أمهات القرى من بلاد العرب(٥) ؛ فمثلاً فى عهد ولاة معاوية على المدينة كانت تعقد مجالس للغناء يحضرها الأمير (٦) .

ولما وطد معاوية دعائم ملكه اتجه بالعرب شطر الفتوح ، التى كانت قد توقفت بسبب الفتنة . ومن المؤكد أن معاوية(٧) كان مثل عثمان يرمى باستئناف

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٢٤٦ ؛ انظر Mo'â, p 32 : Lammens. عن مروان ، انظر بعده . أما سعيد بن العاص بن سعيد بن العاص بن أمية ، فهو أحد الذين كتبوا لعثمان ، واستعمله على الكوفة . واعتزل الفتنة إلى أن ولاه معاوية . وتوفى سنة ٥٩/٦٧٨ . ابن سعد ، ٥ ص ١٩ — ٢٤ ؛ أسد الغابة ، ٢ ص ٣٠٩ — ٣١١ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art Sa'id. B. al-'As) t4, p. 68.

(٢) الكامل ، ٣ ص ٢٤٦ . هم الطبقة الارستقراطية من الفرس المسلمين . البلاذرى ، فتوح ، ص ١٠٥ ؛ انظر قبله . التاريخ السياسى ، ١ ص ١٥٥ .

(٣) الخطيب البغدادى ، تقييد العلم ، صوره وحققه وعلق عليه يوسف العش ، دمشق ١٩٤٩ ، ص ٤٠ و ٤١ و ٨٢ و ٨٤ .

(٤) العقد ، ٣ ص ١٣٥ ؛ انظر . Hell : Mo'â, p. 373 : Lammens
The Arab Civilization transl. from the German by Khuda Bakhsh. Lahore, 1943, p. 85.

(٥) المقصود بها المدينة والطائف وخيبر ووادى القرى ودومة الجندل واليمامة . العقد ، ٣ ص ٢٤١ س ٢٣ — ٢٤ ؛ انظر . Mo â. p. 373 : Lammens

(٦) المرجع السابق ، ٣ ص ٢٤١ .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٧٥ س ٨ ؛ انظر قبله . التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٤٥ .

الفتوح إلى شغل العرب عنه ؛ فأبقى على لقب : «أمير المؤمنين[١]»، الذى كان عمر قد أوجده بمناسبة حركة الفتوح ؛ ليعبر — دون أى لقب آخر — عن لقب الخلافة فى زمنه . ومن ناحية أخرى كان العرب أنفسهم تواقين إلى إنتهاء الفتنة ليعودوا إلى الجهاد، الذى كان يعنى وقتذاك الدفاع عن الإسلام، ومحاربة أعدائه، كما يظهر من كلامهم[٢] .

فنجد العرب فى عهد معاوية تقصـــد غزو بلاد آسية الصغرى الواسعة ، أوما يعرف للعرب : « بالرو ُم[٣]» . وهذه التسمية « بالروم » تعنى جيلا من الناس ، أو أنها كلمة فارسية أو تركية . وإن قصد العرب بها الدولة الـكبرى الأخرى ، التى كانت تسيطر قبل الإسلام مع العجم[٤] ،وقد ذكرها القرآن [٥] . ومهما يكن فإن الروم كانت هى وارثة الرومان فى الشرق بعد أن قضى على دولتهم البرابرة[٦] فى أوربا . وقد كانت تـُعرف للعرب أيضاً باسم: «بوزنطيا[٧]» نسبة إلى بوزنطية «Byzantium[٨]» ، وهى البلد اليونانية القديمة التى اتخذها

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٥٧ س ١٢ — ١٣ ؛ صبح الأعشى ، ٧ ص ٣٨٩ .

(٢) ابن سعد ، ٥ ص ٦٨ س ١٠ — ١١ .

(٣) ياقوت ، معجم ، ٤ ص ٣٢٦ فما بعدها ؛ أنظر. Le Strange : The Lands,
: of th Eastern Caliphate. Cambridge, 1930, p.128.
Ency de l'Isl. (art Rûm) t 3, p. 1255.

(٤) المسعودى ، مروج الذهب (Prairies d'or) ، ٢ ص ٣٢٠ س ٥ .

(٥) القرآن ٣٠ : ١ .

(٦) هى عناصر متعددة من الهون والقوط والوندال . انظر . بعده .

(٧) أبو الفدا ، تقويم البلدان ، تحقيق de Slane & Reinaud ، طبعة Paris ، ١٨٤٠ ، ص ٢١٢ . أو بيزنطية (اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٧٢) أو بزنطية . ياقوت ، معجم ، ٧ ص ٨٦ .

(٨) انظر . Procopius : Hist. of the wars. transl. Dewing, : London, 1954 , 2 : 14; 8 (vol I, p. 282 —283) ، إنشئت هذه المدينة ٦٥٢ ق.م ، قرب البوسفور . انظر . Runciman (Runc) : La Civilistation, : byzantine 330—1443, trad. Lévy. Paris, 1952, p. 9—14 . انظر قبله : التاريخ السياسي ، ١ ص ١٦١ .

الامبراطور قنسطنطين الأكبر « Constantinus » عاصمة له فى سنة ٣٣٠ م ، عند تأسيسه لهذه الدولة فى الشرق ، ولو أنه غلب على هذه المدينة اسمه : القُسطَنْطينيّة (١) « Constantinople » .

لم تكن الروم دولة رومانية إلا اسماً : « Rômaioi » (٢) ، ذلك لأن آسية الصغرى منذ زمن بعيد كانت مجالاً لسكنى أجيال اليونان ، الذين ظهرت لهم مستعمرات عديدة أقدمها يرجع إلى عصر هومر . وقد زادت هجرة اليونان إليها تحت ضغط البرابرة فى أوربا بحيث أصبحوا قبل الإسلام يكونون أغلبية سكانها (٣) ، فيتكلمون اليونانية (٤) الدارجة وليست اللاتينية ، وهم الذين عرفوا للعرب « بالروم » أو حتى « بنى الأصفر (٥) » ، لكثرة الشقر فيهم . وكذلك وجد بينهم خليط من : الحيثيين والميتانيين والإيرانيين والأرمن ، أو من عناصر جبلية لعلها من أصل سامى ، كانت تسكن المنطقة الجبلية الفاصلة لحدود الروم الشرقية تمتد حتى البحر الأسود (٦) ، وتُعرف لسكان سوريه باسم : الجراجمة (٧)

---

(١) ياقوت ، معجم ، ٧ ص ٨٦ — ٨٧ ؛ انظر .
Ency de l'Isl (art Constantinople) t 1, p· 888 ؛ انظر بعده .

(٢) انظر . Runc. p. 26 sqq·

(٣) Ibid., p. 246.

(٤) كانت لغة الدولة الرسمية اللاتينية إلى عهد جستنيان " Justinianus " (٥٢٧—٥٦٥)
انظر Le Monde Musulman et Byzantin. : Demombynes et Platanov. Paris, 1931, p. 454-5.

(٥) ياقوت ، معجم ، ٤ ص ٣٢٧ (آخر الصفحة) .

(٦) انظر . Runc., p. 190

(٧) انظر . Chronique, trad franc. Par, : Michel le Syrien
Chabot. Paris, 1899-1910. 2 fasc. 3 p. 455 ؛ انظر أيضاً فتوح ، ص ١٥٩ ؛
سعيد بن بطريق ، التاريخ المجموع ، ١ ص ١٧ س ١١ فما بعدها ؛ انظر أيضاً . Ency. de l'Isl,
(art Mardaïtes) t3, p. 288-289. ؛ انظر أيضاً Theophanis : . Chronographia
ed. de Boor, p. 391.

أوالجرامقة ، نسبة إلى بلد تسمى الجُرْجُومة [١] قرب أنطاكية ، أوحتى باسم المردة [٢] « Mardaïtes » ؛ أى العصاة .

وقد تحولت هذه الدولة منذ نشأتها فى الشرق إلى المسيحية وتعصبت لها ؛ حتى أن أهلها كانوا يكرهون أن يتسموا بالإغريق [٣] — مع أنهم يونان — لأن هذا اللفظ مرادف لوثنى . ولكن الدين المسيحى كان سبباً فى اضطراب شئونها ؛ فمنذ قيامها لم تهدأ فى البحث عن مخرج له فى المجامع الدينية التى كانت تعقدها ، مثل : مجمع نيقية « Nicaea [٤] » فى ٣٢٥ م ، وأفسس [٥] « Ephesus » فى ٤٣١ م ، وخلقيدونية [٦] « Chalecdon » فى ٤٥١ م . وفى زمن هرقل « Heraclius » (٦١٠—٦٤١ م) — الذى عاصر ظهور الإسلام — ظهرت محاولة فاشلة لم تنجح إلا فى خلق هرطقة مهدت لانفصال كنيسة روما [٧] ، التى بدأت تشعر بقوتها نتيجة لتحول البرابرة فى أوروبا إلى المسيحية . وفى عهد خلفه قنسطانز الثانى « Konstansll » (٦٤١— ٦٦٨ م) ، وُجد مجمع لعن [٨] فيه أصحاب الطبيعة الواحدة للمسيح ؛ ذلك لأن

---

(١) عن هذه البلدة : فتوح البلدان ، ص ١٥٩ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ٨٠ — ٨١ .

(٢) اصلها كلمة آرامية (انظر . Michel. 2, fasc 3, p. 455; n (4)) ، أوحتى عربية (انظر . Lammens : Mo 'â ler, p. 16 ؛ العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٠٩ .

(٣) بتلر ، فتح العرب لمصر ، عربه محمد فريد أبو حديد ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٠٥ هامش (١) .

(٤) المسعودى ، مروج ، ٢ ص ٣١٣ — ٣١٤ . ساويرس بن المقفع ؛ تاريخ المجامع (pat. or) ، حققة وترجمه Leroy ، ٦/٣ ص ٤٨٥ فما بعدها ؛ تاريخ النسطوريين (pat. or) نشره وترجمه إلى الفرنسية scher ، ٤/١ ص ٢٧٦ [٦٦] ؛ سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٤٥ س ١٩ ؛ ١٤٦

(٥) ساويرس ، تاريخ المجامع ، ٦ / ٢ ص ٥١٢ [٤٨] ؛ سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٥٥ س ٢٠ ؛ ١٥٧ س ٣ .

(٦) سعيد بن بطريق ، ١ ص ١٥٦ س ٧ .

(٧) نفسه ، ٢ ص ٢٨ — ٣٠ . انظر . رسالة بطريرك روما إلى هرقل .

(٨) نفسه ، ٢ ص ٣٥ س ١٠ .

اعتقاد بيزنطة كان فى الطبيعتين الإلهية والبشرية (١) ، أو ماعرف لمؤرخى العرب بالذهب الملكانى(٢)، نسبة إلى الملك أو الأمبراطور البيزنطى . وستتأثر عقيدة الدولة البيزنطية نفسها بدعوة الإسلام فى منع عبادة الصور، وهو ماعرف بالأيقونات(٣). فكانت هـــذه المحاولات الدينية المتعددة تجر إلى الثورات والفتن والخراب ، وقتل المخالفين للعقيدة أو هروبهم ، وكان جنود الدولة يثورون على قوادهم ، إذا كانوا على عقيدة مخالفة (٤) .

ونحن نعرف أن العرب فى أيام الخلفاء الأوائل استولوا على أجزاء كثيرة من أملاك الروم فى البحر الأبيض(٥) ، وأرجعوهم إلى بلادهم فى آسيا الصغرى . ولعل الروم لم يستغلوا انشغال العرب بفتنة عثمان ؛ بسبب الضربات القاضية التى كانوا قد تلقوها منهم ، وبسبب أن حدود بلادهم الغربية كانت تحت ضغط هجرات العناصر السلافية من الصرب والكروات (٦) . ولكنهم خلال هذه الفتنة استولوا على بعض الأجزاء المجاورة لهم من أرمينية (٧)، وهو الصقع الكبير الذى كان قد فتح فى عهد عثمان . وقد سعى العرب من جانبهم إلى استمالة

---

(١) نفسه ، ١ ص ١٨٢ س ١٨ ؛ أنظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٢١٣ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٤٦ ؛ بتلر ، فتح العرب لمصر ، ص ٣٤ هامش (٢) . لعل هذه الكلمة أيضاً نسبة إلى شخص ظهر ببلاد الروم . الشهرستانى ، الملل والنحل ، تحقيق Cureton ، طبعة London ، ١٨٤٦ ، ١ ص ١٧٣ .

(٣) انظر . Gaud et Plat : Op. cit., p. 455.

(٤) Sebêos : Histoire d'Héraclius. trad. de l'arménien, et annotée par Macler. Paris , 1904., p. 130.

(٥) انظر . قبله التاريخ السياسى .

(٦) انظر عن هذه الشعوب وتنقلاتها O'Hsson : Des Peuples du Caucase, Paris, 1828, p. 223 sqq; n 31 ; Runc, p. 40; 45; 296.

(٧) انظر . Sebêos,. p. 134; 138 . عن أرمينية ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٢٠٣ فما بعدها ؛ فتوح البلدان ، ص ١٩٧ .

بعض العناصر المخلصة لهم ، وأرسلوا بعض الأمراء من الأرمن الأسرى فى دمشق ، ليحكموها لهم (١) . ولا ريب أن الفتنة جعلت أهل أرمينية أنفسهم يستقلون بأجزاء كثيرة منها ؛ خصوصاً وأن أغلب مناطقها كان يعتمد فى خضوعه للعرب على معاهدات الأمان (٢) ، أكثر من الاحتلال الفعلى . وفوق ذلك كان الروم يثيرون ضد العرب عناصر الجراجمة الجبلية الساكنة على حدود سورية (٣) ، مع أن العرب كانوا قد صالحوهم حينما فتحوا الشام فى عهد عمر بن الخطاب ، على أن يكونوا أعواناً للمسلمين وعيوناً ضد الروم ؛ على شريطة ألا يطلب منهم الجزية (٤) . فكان نتيجة هذا التحريض أن قام الجراجمة بالسلب والنهب فى أراضى شمال سورية .

ومن المحقق أن معاوية أحس بنوايا الروم ؛ وإن كان قد اضطر أثناء الفتنة إلى عقد هدنة مع الامبراطور قنسطانز الثانى قبل اشتباكه مع علىّ سنة ٣٦/٦٥٧ : حتى لا ينتهز الروم الفرصة فيهجمون على سورية التى كان أميراً عليها منذ عمر ؛ فرد أسراهم وسألهم الموادعة (٥) . وكذلك عُقد صلح فى أول خلافته يعتبر امتداداً للصلح الأول فى سنة ٤٢ (٦) / ٦٦٢ ؛ كما صالح الجراجمة ودفع لهم أتاوة (٧) ؛

---

(١) انظر . Denys de Tell-Mahré : Chronique. Publiée et traduite, par Chabot. Bibl. de l'école des Ḥtes; Ets. 112, 4ème partie (الجدول الخاص بحكام أرمينية) ؛ Paris, 1895, p. XXXVII ؛ انظر . Laurent : L'Arménie entre Byzance et les Arabes. Paris 1919 p. 90; 92; 191 ; Cheïra : La lutte entre Byzance et les Arabes. Alex 1947, p 114.

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٩٧ — ١٩٨ ؛ ٢٠٤ ؛ انظر . حيد الله ، مجموعة الوثائق السياسية ، ص ٢٥٨ — ٢٦١ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٤٨ .

(٣) انظر . Michel le Syrien 2,P 455.

(٤) فتوح البلدان ، ص ١٠٩ .

(٥) نفسه ، ص ١٥٩ — ١٦٠ ؛ Sebêos, P. 139 ؛ الأخبار الطوال ، ص ١٥٩ — ١٦٠ ؛ المسعود ، مروج ، ٢ ص ٣٣٥ س ٣ — ٥ ؛ انظر . Cheïra : La lutte., p. 105; n (1) ؛ ماجد ، التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٦٣ . التاريخ هنا أورده البلاذرى .

(٦) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٥٧ — ٢٥٨ ؛ انظر . Cheïra : La lutte, p. 113.

(٧) فتوح البلدان ، ص ١٦٠ س ٨ .

ليتفرغ إلى المشكلات العاجلة التي نشأت من إعلانه الخلافة . ولكن ما أن انتهى من مشاغله ، حتى شنها حرباً عاتية على الروم في بلادهم ذاتها ؛ بحيث أنه شغلهم بالدفاع عن أراضيهم طول مدة حكمه . حقا إن العرب غزوا في أرض الروم منذ فتح الشام(١) ، وأن معاوية إبان إمارته عليها غزاهم بنفسه في سنتي ٢٥ / ٦٤٥ و ٣١/٦٥١(٢) ، ولكن هذه الغارات كانت بقصد الدفاع والاستطلاع ، ولم تكن من العمق والدوام مثلما حدث في عهد خلافته ؛ فقد كان هدفها هذه المرة تحطيم حصون الروم ، والاستيلاء على عاصمتهم القسطنطينية ؛ وهذا مالم يحدث من قبل .

وقد اشتهرت حرب العرب مع الروم باسم : حرب « الثغور » ، أي الحدود ؛ وهي لفظة مفردها « الثَّغر » (٣) ، تعني كل موضع يكون في أرض العدو في بطن واد أو فرجة جبل ، قرب أرض المسلمين . فقد كانت حدود الروم تتكون من سلاسل جبلية شاهقة ، منها جبل اللُّكام (٤) الهائل « Ammanus » ، الممتد على طول الثغور من البحر الأبيض حتى بحر قزوين ؛ وتتميز بطرقها الكثيرة التي تعرف « بالدروب » — مفردها « الدَّرْب (٥) » — وبمسالك أنهارها ، مثل : سَيْحَان(٦) وجَيْحَان(٧) وقُوَيْق(٨) والبَرَدَان(٩) والأُرُنْد(١٠) ، وهذا

---

(١) نفسه ، ص ١٦٤ . في عهد الأمير أبي عبيدة .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ١٧ س ٨ فما بعدها .

(٣) نفسه ، ٣ ص ١٦ ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٣٤ س ١٤ — ١٥ ؛ لسان ، ٥ ص ١٧١ ؛ ١٧٣ ؛ أنظر Ency. de l'Isl (art Thughûr) t4, p. 777

(٤) معجم البلدان ، ٧ ص ٣٢٠ ؛ ٣٣٦ — ٣٣٧ ؛ Ency de l'Isl, t3, p. 288

(٥) معجم البلدان ، ٣ ص ١٧ س ١ ؛ ٤ ص ٤٨ .

(٦) هو نهر كبير بالثغر ، يصب في بحر الروم . نفسه ، ٥ ص ١٩١ .

(٧) نهر بالثغر الشامي ، يصب في بحر الروم أيضاً . نفسه ، ٣ ص ١٨٦ .

(٨) نهر مدينة حلب . نفسه ، ٧ ص ١٨٨ .

(٩) نهر يصب في بحر الروم . نفسه ، ٢ ص ١١٥ ؛ ٦ ص ٣٩ .

(١٠) نفسه ، ١ ص ٢٠٦ .

الأخير سماه العرب العاصى (١) ؛ لأنه يخرج من بلاد الإسلام ليدخل فى أرض العدو . وتميز من هذه الثغور جناحين (٢) : أحدهما من ناحية الشام عرف : بثغور الشام ، والآخر من ناحية الجزيرة عرف : بثغور الجزيرة ؛ وهى حصون عديدة فى الجبال ، أو مسالح أى مواضع للعسكر للمراقبة (٣) ، أو حتى مدن حصينة على ملتقى الطرق أشبه بالبلاد (٤) ، مثل : مَنْبِج (٥) وأنطاكية (٦) وطَرَسُوس (٧) وأَذَنَة (٨) والمَصِّيصة (٩) وبَيَّاس (١٠) ومَرعَش (١١) من ناحية الشام — وقد سميت المدن الداخلة منها فى حدود سورية :

---

(١) نفسه ؛ انظر ناصر خسرو ، سفر نامة ، تحقيق الخشاب ، ص ١٢ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٦٣ فما بعدها ، ١٨٣ فما بعدها ؛ قدامة ، نبذ من كتاب الخراج ، (B . G . A) ، تحقيق de Goeje ، طبعة Lug - Bat ، ١٨٨٩ ، ص٢٥٣ ؛ الاصطخرى ، مسالك ، ص٥٥ ؛ انظر . The Lands of the Eastern Caliphate , : Le Strange p. 128.

(٣) فتوح البلدان ، ص ١٦٣ . المسالح جمع المسلحة ، وهى قوم فى عدة بموضع رصد ؛ وكانوا به بإزاء ثغر ، وهو أيضاً كالثغر والمراقب . لسان العرب ، ٣ ص ٣١٧ .

(٤) معجم البلدان ، ٣ ص ١٦ س ٩ ؛ ٢٣٧ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٦٣ .

(٥) معجم البلدان ، ٨ ص ١٦٩ — ١٧١ . فتحت فى عهد أبى عبيدة .

(٦) نفسه ، ١ ص ٣٥٣ فما بعدها . فتحت على يد أبى عبيدة بن الجراح ، الذى سار إليها من حلب .

(٧) مدينة بثغور الشام بين أنطاكية وحلب وبلاد الروم ، كانت فى يد العرب منذ إمارة معاوية . نفسه ، ٣ ص ١٧ ؛ ٦ ص ٣٨ فما بعدها ؛

Ency . de l'Isl (art Tarsus)t4, p . 712-713 .

(٨) بلد من الثغور قرب نهر سيحان ، كان بيد العرب منذ إمارة معاوية . معجم البلدان ، ١ ص ١٦٥ — ١٦٦ ، ٣ ص ١٧ ؛ انظر .

Ency . de l'Isl (art Adana) 2ed, tl, p. 187 sqq .

(٩) مدينة قديمة من ثغور الشام بين أنطاكية وبلاد الروم ؛ كانت بيد العرب . معجم البلدان ، ٨ ص ٨٠ — ٨١ .

(١٠) مدينة صغيرة شرقى أنطاكية قرب البحر . المرجع الأخير ، ٢ ص ٣١٧ — ٣١٨ .

(١١) نفسه ، ٨ ص ٢٥ ؛ انظر .

Ency,de l'Isl, (art Mar 'ash) t3, p. 284 sqq .

فتحت على يد خالد بن الوليد ، بناها معاوية ، وأسكنها جنداً فى خلافته . فتوح البلدان ، ص ١٨٨ .

« بالعواصم »(١) فى العصر العباسى ، وبخاصة الموجودة منها حول أنطاكية — وزِبَطْرَةَ (٢) وسُمَيْسَاط(٣) ومَلَطْيَّة(٤) من ناحية الجزيرة .

ولما كانت منطقة الثغور خالية من الناس إلا من الجراجمة النصارى ؛ لأن الروم نقلوا أهلها منذ فتح الشام(٥) ، حتى أنها سميت بالضواحى(٦) لقلة سكانها ، فإن العرب منذ عهد عثمان عملوا على إنزال القبائل العربية بها : فأنزلت قيس وأسد من الحجاز فى ثغور الجزيرة بين مصر وربيعة (٧) ، ونقلت جماعات من أهل الجزيرة وحمص وبعلبك ومن المصرين الكوفة والبصرة إلى نواحى أنطاكية(٨) ، التى أسكنها معاوية أيضا عناصر هندية من السند تعرف: « بالزط(٩) » ،

---

(١) المرجع الأخير ، ص ١٣٢ ؛ ١٦٣ ؛ معجم البلدان ، ٦ ص ٢٣٧ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl (art al - Aâwsim) tl, p. 523 - 5 .
هذه الكلمة جمع « عاصم » ، وترجع التسمية إلى وقت هارون الرشيد . فتوح البلدان ، ص ١٦٣ . وربما دخل فى العواصم ثغور المصيصة وطرسوس . معجم البلدان ، ٦ ص ٢٣٧ .

(٢) مدينة فى طرف بلاد الروم فتحها العرب (المرجع الأخير ، ٤ ص ٣٧٤؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٣٤ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٠٠). لعلها مدينة: « Germanikeia » انظر.
Ency. t 3, p. 284.

(٣) مدينة على شاطىء الفرات فى طرف بلاد الروم ؛ فتحت سنة ١٨ / ٦٣٩ . معجم البلدان ، ٥ ص ١٣٨ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٩٢ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl (art Sumaisât) t4, p 576 .

(٤) كانت بلدة قديمة للروم ، فتحت على يد معاوية . معجم البلدان ، ٨ ص ١٥٠ ؛ انظر . Ency de l'Isl (art Malatya) t 3, p. 208sqq .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٦٣ س ٢ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٦ (آخر الصفحة) .

(٦) الطبرى (Annales) ، تحقيق de Goeje ، ٢ : ١٣١٧ .

(٧) فتوح البلدان ، ص ١٧٨ س ١٢ .

(٨) نفسه ، ص ١٤٨ س ٦ . هو يقول الفرس ، ولكن فى (ص ١٦٤ س. ١٧) ، يقول أهل الشام والجزيرة . وياقوت يقول انتقل إليها قوم من أهل حمص وبعلبك . معجم البدان ، ١ ص ٣٥٧ (آخر الصفحة) .

(٩) فتوح البلدان ، ص ١٦٢ ؛ ص ٣٧٣ فما بعدها (وهو يذكر أيضاً السيابجة وغيرها من الأسماء) . انظر منهم De Goeje : Mémoire sur les Migrations de, Tsiganes à Travers l'Asie. Leyde, 1903, p. 17sqq ; Ency. de l'Isl, (art Zott) t4, p. 1305 - 1306 .
وهو أسكنهم فى بلدة بوقا(أوبوقاس) من قرى أنطاكية ، من بلاد الثغر . فتوح البلدان ، ص ١٦٢ .

كانت قد استقرت على الخليج الفارسي ، ووجدهم العرب عند فتحهم فارس والعراق، واعتنقوا الإسلام . ولقد سمى العرب سكان الثغور: «بالمرابطة (١)» ، لملازمتهم ثغر العدو للجهاد ؛ وهو «الرباط» جمع «ربط» أو «رابطة» ؛ فكانوا يعيشون مع نسائهم وأولادهم(٢) ، على عادتهم في الحرب ، وتقطعهم الخلافة القطائع ، وتمنحهم العطاء(٣) . وبذلك أصبحت منطقة الثغور موطناً للعرب الصالحين (٤) ، الذين كان بعضهم يحارب ومعه مصحف عثمان (٥) ، ومدرسة (٦) يتعلمون فيها الجهاد ؛ خصوصاً وقد ظهر جيل جديد منهم ، أحب الحروب التي خاضها الآباء ، وأصبح يتندر بشجاعتهم وفروسيتهم .

وقد كان أن وضع العرب نظاماً لحرب الثغور : فكانت تخرج بانتظام حملات سنوية على بلاد الروم منذ سنة ٦٦٣/٤٣ (٧) ، في الشتاء والصيف (٨) ؛ عرفت بالشواتي جمع شاتية أو مشتى ، والصوائف جمع صائفة ؛ حيث أن حملات المشتى غالباً ما كانت تتكرر في السنة الواحدة (٩) . فكانت هذه الحملات يقودها

---

(١) المرجع الأخير ، ص ١٤٧ (آخر الصفحة) ؛ معجم البلدان ، ١ ص٣٥٧ س٢١ ؛ ٨ ص ٨٠ ؛ أنظر . Ency. de l'Isl (art Ribât) t 3, p. 1230sqq . وهي كلمة وردت في القرآن (سورة ٨ آية ٦٠) ؛ وأصل الرباط أن يربط فيه الخيل (لسان ، ٩ ص ١٧٣ — ١٧٤) ؛ كذلك ربط النبي في أحاديث كثيرة بين الخيل والجهاد . ابن هذيل الأندلسي ، حلية الفرسان وشعار الشجعان ، تحقيق عبد الغني ، طبعة دار المعارف ، ص ٤٣ ؛ أنظر قبله . التاريخ السياسي ، ١ ص ٢٣١ — ٢٣٢ ؛ وهامش (١٢) .

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٦٧ س ١٢ — ١٣ .

(٣) نفسه ص ١٣٣ ؛ ١٤٧ — ١٤٨ .

(٤) معجم البلدان ، ٨ ص ٨٠ .

(٥) أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٢٢٩ .

(٦) انظر . La Lutte, p. 108. : Cheïra

(٧) اليعقوبي ، تاريخ ، ٢ ص ٢٥٨ . يحدد ابن سعد أول مشتى في سنة ٦٢٢/٤٢ . طبقات ، ٥ ص ١١٦ س ١٠ .

(٨) فتوح البلدان ، ص ١٦٣ س ١ ؛ قدامة ، الخراج ، ص ٢٥٩ . كذلك يذكر قدامة غزاة ربيعية ، وهي بعد أن يربعوا دوابهم ، أو لعلها تكون في الربيع .

(٩) الكامل ، ٣ ص ٢٢٦ . نسمع عن خروج حملات المشتى مرتين في سنة ٦٦٧/٤٧ .

ولاة الشواتي والصوائف (١) من مشهوري قواد العرب ، أمثال : عبد الرحمن ابن خالد(٢)، وهو ابن البطل المغوار خالد بن الوليد — الذي لقبه النبي بسيف الله(٣) — فكان عبد الرحمن كأبيه يغزو في قوة وبأس من سنة ٤٤ / ٦٦٤ إلى سنة ٤٦/٦٦٦ . ويبدو أن معظم الهجوم كان من ثغر الشام . أما ثغر الجزيرة فظهره الحراسة (٤) . وقد كان هدف العرب من غاراتهم المتكررة الاستيلاء على حصون للعدو جديدة ، يصالحونها أو يتعهدونها بالتحصين ، فيرتبون فيها المرابطة (٥)؛ أما الحصون القديمة المجاورة لهم وهدمها الروم من قبل ، فكانوا يضعون فيها جنداً كثيفاً لحفظ أعقابهم ، خصوصاً وأن الروم كانوا يكمنون لهم عند بعضها وهم عائدون من الغزو(٦) . ولعل أهم الحصون التي استولى عليها العرب في عهد معاوية هو حصن مَلَطْيَة (٧)، الذي رتبت فيه حامية قوية ، وجُعل طريقاً للصوائف.

ومن ناحية أخرى كان للروم نظام للدفاع عن حدودهم ؛ خصوصاً وأن بلادهم منذ عهد جستنيان (٥٢٧ — ٥٦٥ م) ، كانت مقسمة إلى أقسام حربية تسمى :

---

(١) فتوح البلدان ، ص ١٦٤ س ٣ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٦ (آخر الصفحة) .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٢١٨ ؛ ٢٢٥ ؛ الطبرى (Annales) ١ : ٢٠٩٣ ؛ أسد الغابة ، ٣ ص ٢٨٩ — ٣٩٠ ؛ انظر

Ency de l'Isl (art 'Abd al-Rahmân B. Khâlid B. al-Walîd) 2ed
. انظر . بعده ؛ Mo'â ler, p. 4sqq. : Lammens : t I, p. 87 — 88.

(٣) الكامل ، ٢ ص ١٦٠ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ١٤٨ .

(٤) انظر هذه الملاحظة عند La Lutte, p. 109. : Cheïra

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٣٣ ، ١٦٧ ؛ ١٨٥ ؛ ١٨٨ س ١٤ ؛ انظر أيضاً . معجم البلدان ، ٣ ص ٢٣١ س ٧ .

(٦) نفسه ، ص ١٦٤ س ٢ ؛ نفسه ، ٣ ص ١٦ .

(٧) فتوح البلدان ، ص ١٨٥ ؛ أغابيوس (Agabios) ، العنوان ، تحقيق وترجمة Vasiliev (P. O) ، طبعة Paris ، ٨/٢ ص ٤٨٤ [٢٢٤] . فتحت أثناء حكم عثمان على يد معاوية ، لما جمع له الشام والجزيرة .

«Themae»[1] وهى تقابل «الجند»[2] ، أو المناطق الحربية فى الشام . فبثوا فى هذه الأقسام ، وبخاصة المجاورة منها لأراضى المسلمين الجيوش العديدة[3] ، التى تقدر بالآلاف ، وكانت تقيم عادة فى حصون منيعة فى الجبال ، أو على الساحل . ولدينا أسماء متعددة يذكرها ياقوت لمن يشرفون على هذه الأقسام ، ويعتذر لقارئه عن تحقيقها وضبطها ، منها : « الاصطرطغوس » (ولعله Strategos) وهو قائد الحصن وأعلاهم مرتبة ، وما يسميه « كيليرج » (ولعله من Purgos أى حصن)، بمعنى صاحب الدروب ، وغير ذلك من الأسماء المعقدة . فكان هذا التنظيم الحربى فى رأى Theophonis[4] - المؤرخ اليونانى - هو السياج الذى يحمى بلاد الروم من المسلمين .

وبعد أن سبر العرب غور قوة الروم بغاراتهم الشتوية والصيفية تطاولوا إلى

---

(١) أومان ، الامبراطورية البيزنطية ، تعريب طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣ ، ص ١٣١-١٣٢ ؛
L'Origine du régime des thèmes dans l'empire byzan- : Diehl
: Diehl et Marçais : tin (Etudes Byzantines) 1905, p. 276 — 292
Le Monde Orientale de 395 à 1081 2ed , p. 223 ; 224; 285.

(٢) جمعه أجناد ، والجند التجمع (معجم البلدان ، ١ ص ١٢٥ — ١٢٦) ؛ كذلك هى كل ناحية لها جند (فتوح البلدان ، ص ١٣٢) . انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ١٧٣ ؛ ٢٣١ وهامش .

(٣) معجم البلدان ، ٤ ص ٣٣٠ .

(٤) انظر . Op. Cit., : Diehl et Marcais : Chronog, p. 364
p. 244

أخذ القُسطَنطينيّة[١] ـ دار ملك الروم ـ التى طالما سمعوا عن تحضرها وغناها، وكانت تلمع أمام أعينهم كالسراب ، وتعرف لهم : « بالمدينة » . وقد كانت القسطنطينية منيعة : فهى تطل على بحر « الخَليج »[٢] (مرمرة) ، الذى يخرج من بحر « بُنطس » [٣] (الأسود) ويطيف بوجهيها الأوربى شمالاً والأسيوى جنوباً ؛ كما كانت تحيط بها من كل الجهات ــ حتى من ناحية البحر ــ عدة أسوار متينة[٤]، عرضها ثلاثون ذراعاً وأقصرها عشرة ، أقيم عليها أبراج عديدة، بناها الأباطرة منذ عهد قنسطنطين الأكبر . وكان من الممكن غلق الخليج ، ومنع المراكب المعادية من دخوله ، إذا ألقيت السلسلة بين لسان الأرض المعروف بالقرن الذهبى [٥] ، وبين الساحل الأسيوى .

ولقد اغتنم العرب اضطراب شئون الروم الداخلية للهجوم على القسطنطينية: فقد قتل الامبراطور قنسطانز الثانى[٦] «Konstansll» فى سنة ٤٨/٦٦٨ ، وثار صابور «Saborius» [٧] أحد حكام المناطق المجاورة لأرمينية، وأرسل

---

(١) عنها ، انظر ، ياقوت ، معجم البلدان ، ٧ ص ٨٦ — ٨٧ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ٢ ص ٣٩ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Constantinople) t 1, p. 888 ؛ انظر . قبله .

(٢) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٤٦٠ ؛ ٤ ص ٣٢٨ ؛ ٧ ص ٨٧ س ٢ ؛ الأصطخرى ؛ مسالك ، ص ٨؛ المسعودى ، مروج ، ٢ ص ٣١٦ — ٣١٧ .

(٣) هو خاص بالبحر الذى منه خليج قسطنطينية . ياقوت ، معجم ، ٢ ص ٢٩٣ .

(٤) المسعودى ، مروج ، ٢ ص ٣١٨ — ٣٢٠ . يقول ياقوت إن سورها الكبير سمكه واحد وعشرون ذراعا . معجم البلدان ، ٧ ص ٨٦ و ٨٧ .

(٥) انظر . Runc : Op. cit., p. 34.

(٦) انظر . Diehl et Marçais : Op. cit. p. 240 ؛ Cheira : La Lutte, p. 128.

(٧) أغابيوس ، ٨/٢ ص ٤٨٩ [٢٢٩] ؛ ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ١٨٧ ؛ Michel le Syrien 2, fasc 3, p. 451 ؛ Theophanis. p. 350 ؛ انظر . Well : Die Kampfe der Araber mit den Rômaern (Nachri-
= chten der Konig. Gesellschaft der Wissensch. Phil. Hist. Klasse

رسولاً إلى معاوية بغية التعاون معه. ومع أن صابور مالبث أن توفى (١)، وأن ابن الامبراطور المقتول قنسطنطين الرابع «ConstantinusIV» (٦٦٨-٦٨٨م)، بعث مندوباً للصلح (٢)، فإن معاوية صمم على مهاجمة عاصمة الروم؛ فسير جيشاً كثيفاً معه بعض أبناء الصحابة (٣): منهم ابن العباس وابن عمر وابن الزبير، والصحابي أبو أيوب الأنصاري (٤)، وجعل قيادته إلى ابنه يزيد بن معاوية (٥)، الذي لم يكن عمره يتجاوز ثمانية عشر عاماً؛ فاشتهر بسبب ذلك: «بفتى العرب (٦)». فأوغل هذا الجيش فى آسيا الصغرى، وخضعت له كل أهل البلاد سواء من سكان الجبال أو السهول (٧)، وبعد عدة معارك وصل إلى القسطنطينية، وضرب حولها الحصار.

Les Expéditions des Arabes, : Canard ؛ Gottingen 1901, p. 422. = contre Constantinople dans I,Histoire et dans la légende J. A. اسم رسوله . La Lutte, p. 117 — 118 ؛ Jan - Mars 1926, p. 68, سابورهو سرجيوس .

(١) لعله سقط عن حصانه انظر المراجع السابقة بخاصه أغابيوس و Theophanis

(٢) انظر . Michel le Syrien 2, p. 452 ؛ ابن العبرى، ص ١٨٧ ؛ Sebêos, p. 140 . اسم الرسول Andréas . انظر . Cheîra :
La Lutte, P. 118 ; n (1)

(٣) الكامل، ٣ ص ٢٢٧، أبو الفدا، المختصر، ١ ص ١٨٦ . عن سيرتهم، انظر . بعده .

(٤) هو شخصية آوت النبى فى المدينة، وحضر جميع مغازيه، وكان من أنصار على واشترك معه فى معظم المواقع، وهى: الجمل وصفين والنهروان، ثم أنه غزا فى أيام معاوية أرض الروم عند مدينة القسطنطينية . انظر . سيرته فى أسد الغابة، ٥ ص ١٤٣ — ١٤٤ ؛ ابن سعد، طبقات، ٣/٢ ص ٤٩ — ٥٠ ؛ انظر . بعده .

(٥) القيادة غير واضحة فهي أيضاً لسفيان بن عوف الأزدى . الكامل، ٣ ص ٢٢٧ . وهو استمر فى الخروج بالصوائف فى سنتى ٥٠ و ٥٢ و ٥٥، وتوفى بأرض الروم . نفسه، ٣ ص ٢٢٨ ؛ ٢٤٤ ؛ ٢٤٨ .

(٦) نفسه ؛ الأغانى، ١٦ ص ٣٣ .

(٧) انظر . Sebêos, p. 140 ؛ Well : Die Kampfe, p. 423.

وليس فى أيدينا المعلومات الوافية عن هذه الحملة ومدى نجاحها ، كما اختلف المؤرخون فى مدتها وتاريخها ، وإن استقر مؤرخو العرب على أنها كانت صائفة حائلة فى سنة ٤٩/٦٦٩ أو ٥٠/٦٧٠ (١) ، ثم تعددت بعدها الشواتى والصوائف سنة بعد سنة (٢) ، حتى نهاية حكم معاوية . ولكن من الجائز أن يكون حصار القسطنطينية قد دام أكثر من صائفة ، بسبب الاختلاف فى سنة استشهاد أبى أيوب الأنصارى ؛ فقيل سنة ٤٨ أو ٤٩ أو ٥٠ أو ٥١ أو ٥٢ (٣) . وقد دفن أبو أيوب بالقرب من حصون القسطنطينية بأرض الروم (٤) ، حيث كشف قبره للترك العثمانيين فى عهد السلطان محمد الثانى .

وفوق ذلك لدينا مزيد من المعلومات عن نشاط العرب فى البحر ، فيتحدث المؤرخون عن غزوات البحر على أنها بين شاتية وصائفة (٥) ، كما هى فى البر . فمنذ أن تولى معاوية إمارة الشام وهو متحمس للغزو فى البحر : فهو الذى يرجع إليه الفضل فى تأسيس البحرية الإسلامية فى عهد عثمان ، وكان هو نفسه أول من غزا فى البحر (٦) ، فذهب فى المراكب للإغارة على قُبْرُس فى سنة ٢٨ (٧)/٦٤٨

---

(١) العقد ، ٢ ص ٣٠١ — ٣٠٤ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٢٧ .

(٢) عنها ، انظر . اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٨٥ ، وأيضاً الكامل ، ٣ ص ٢٢٨ — ٢٥٦ .

(٣) أبو الفدا يقول سنة ٤٨ (المختصر ، ١ ص ١٨٦) ، ابن والأثير يقول سنة ٤٩ أو ٥٠ (الكامل ٣ ص ٢٢٧) ، وفى مكان آخر يقول سنة ٥٢ (نفسه ، ٣ ص ٢٤٤) ، ونفس المؤرخ يقول فى مرجع آخر سنة ٥٠ أوأه (أسد الغابة ، ٥ ص ٣٣) .
عن مناقشة هذه التواريخ ، انظر . La Lutte, p. 119; n (1) : Cheira

(٤) ابن سعد ، ٣/٢ ص ٥٠ ؛ انظر . Ency. de l'Isl tl, p. 889 - 390 ; Canard Les Expéd, p. 73 . يقول ابن الأثير يستشفون به . الكامل ، ٣ ص ٢٢٨ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٠٨ س ٢٦ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٣٠٨ س ٢٣ — ٢٤ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٥٢ .

(٧) فتوح البلدان ، ص ١٥٣ ؛ الكامل ، ٣ ص ٤٨ . عن قبرس ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٢٦ .

أو ٢٩/٦٤٩ ، وإن لم يستول العرب عليها إلا حينما غزاها أسطول الشام فى سنة ٣٣[(١)]/ ٦٥٤ . وقد يكون خوف قنسطانز الثانى من أن يغزو أسطول معاوية القسطنطينية[(٢)] ، هو الذى دعاه إلى خوض موقعة ذات السوارى فى سنة ٣٤/[(٣)] ٦٥٥ ، التى أنزل فيها الأسطول الإسلامى بمراكب الروم خسائر فادحة ، حتى أنها شبهت باليرموك[(٤)] . ومع ذلك فإن العرب لم يستفيدوا مباشرة من انتصارهم الباهر فى مهاجمة القسطنطينية التى كان من الممكن أن تسقط بين أيديهم[(٥)] .

وقد زاد نشاط العرب فى البحر زمن خلافة معاوية ، فقاموا بترتيب الروابط[(٦)] والحفظة[(٧)] على طول الساحل ، وإعداد المراكب[(٨)] العديدة ، التى كانت تبنى من خشب غابات لبنان . ويظهر أن خطة غزو القسطنطينية كانت تقضى بتعاون الأسطول مع الجيش ؛ وإن ذكرت بعض المراجع أن بعض مراكب العرب كانت وصلت إلى القسطنطينية سنة ٤٤[(٩)]/ ٦٦٤ ، حتى قبل وصول جيوشهم.

---

(١) فتوح البلدان ، ص ١٥٣ ؛ أنظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٤٣ .

(٢) أغابيوس ، ٨/٢ ص ٤٨٣ [٢٢٣] .

(٣) هكذا سميت لكثرة سوارى المراكب (الكامل ، ٣ ص ٥٨ ؛ الخطط ، ٣ ص ٣٠٩) . وهي تسمي أيضا بوقعة فونيقية لوقوعها قرب فونيقية « Phoenicus » ، على ساحل آسيا الصغرى. انظر أغابيوس، ٨/٢ ص٤٨٤ [٢٢٤] ؛ Theophanis, p. 345؛ انظر . Les Expéd. p. 64 : Canard ؛ التاريخ السياسى ، ١ ص٢٤٤ . وهي تكتب أحيانا الصوارى .

(٤) انظر. Die Kampfe,p.420 ؛ Les Expéd, p. 64 ؛ Theophanis, p. 332.

(٥) انظر . Les Expéd. , p. 67

(٦) فتوح البلدان ، ص ١٤٢ (آخر الصفحة) بلغت رابطة الإسكندرية وحدها فى عهد معاوية سبعة وعشرون ألفاً (ابن عبدالحكم ، كتاب فتوح مصر وأخبارها ، تحقيق Torrey ، طبعة New Haven ، ١٩٣٢ ، ص ١٩٢ س ١٢ .

(٧) فتوح البلدان ، ص ١٦٣ س ٢ — ٣ .

(٨) نفسه .

(٩) الطبرى (Annales) ، ٢ ص ٨٦ ؛ انظر Ency. de l'Isl, t 1, p. 889.

ولكن المصادر المسيحية على الخصوص تصف لناحملة بحرية أخرى على القسطنطينية بشيء من الإسهاب ، دون أن تحدد تاريخها ، وإن كان يبدو فى الغالب أنها أرسلت وقت إرسال الحملة البرية ، التى اختلف فى تاريخها أيضاً(١) . فقد أرسل معاوية ثلثمائة مركب ثقيلة عليها أسلحة الحصار من المنجنيقات ، تحمل الواحدة ألف رجل ، وخمسمائة مركب خفيفة تحمل الواحدة مائة (٢) . ولقد أخضع هذا الأسطول فى طريقه سكان السواحل ، ووصل إلى القسطنطينية (٣)، واستمر محاصراً لها سبع سنوات(٤) .

ومن ناحية أخرى تقدم المراجع العربية بعض المعلومات عن فتح العرب للجزر التى كان يسيطر عليها الروم فى البحر الأبيض ، مما هيأ لمراكبهم السيطرة على أجزاء كثيرة من سواحل آسيا الصغرى إلى القسطنطينية . ولم يكن العرب إلى عهد خلافة معاوية يحتلون غير قُبرس ، ولكن بفضل غزوات الصحابى جنادة بن أبى أمية (٥) تمكنوا من السيطرة على جزر أخرى هامة . وكان أول مافتح جنادة جزيرة رُودِس فى سنة ٥٣ / ٦٧٢ (٦) — ٦٧٣ ، التى تقع قرب

(١) انظر . قبله .

(٢) انظر . Sebeôs, p. 140

(٣) انظر . Ibid, p. 141 . يقول إنه اصطف أمام خلقيدونية ، وهي من العاصمة

(٤) انظر . Ency. tl, p. 889 ; Theophanis, p. 253 suiv . تاريخ الحصار ومدته غير محددة : فالمؤرخ Theophanis يذكر أنه بدأ فى سنة ٦٦٦م (٦١٥٩) ، واستمر سبع سنوات ، أى أنه انتهي سنة ٦٧٢ م . ولكن مؤرخي العرب يذكرون وجود أسطولهم أمام القسطنطينية ابتداء من سنة ٥٤/٦٧٣ ، وأنهم انسحبوا فى آخر خلافة معاوية ، أو فى أوائل خلافة يزيد . انظر . بعده .

(٥) هو أحد رواة الحديث ، مات فى سنة ٨٠/٦٩٩ . فتوح البلدان ، ص ٢٣٦ س ١ — ٢ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٢٤٤ ؛ ٢٥٩ (يقول أيضا سنة ٦٠) ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٣٦ [يقول سنة ٥٢] ؛ انظر . أغابيوس ، ٨/٢ ص ٤٨٢ [٢٢٢] ؛ انظر . Ency. de l'Isl (art Rhodes) t 3, p. 1225 sqq ؛ انظر عنها أيضا ياقوت معجم البلدان ، ٤ ص ٣٠٠ .

ساحل آسيا الصغرى ، وكان الروم يغيرون منها على مراكب العرب ويأخذونها ، ويهاجمون سواحلهم كما حدث بنزولهم على البرَلس — بليدة [١] قرب البحر فى مصر — فى نفس هذه السنة . وحينما فتحت رودس أنزل معاوية فيها قوماً من المسلمين ، ورتب لهم العطاء ، وأصبحت قاعدة هامة للمسلمين مثل قبرس ، بحيث أخافت العدو ، وإن كان العرب أغاروا عليها منذ عهد عثمان [٢] . وفتح جنادة أيضا جزيرتين أخريين فى سنة ٥٥/٦٧٤ : إحداهما أرْوَاد [٣] قرب القسطنطينية ، التى أقام فيها حامية ، والأخرى أقريطش [٤] (كريت) ، وهى جزيرة كبيرة مقابلة للوبية ، غزاها بعد فتح أرواد . كذلك يذكر البلاذرى [٥] أنه فى أيام معاوية غُـزيت جزيرة صِقلّـية ، التى كانت تعد من أخصب الجزائر.

ولكن أجبر العرب على رفع هذا الحصار البحرى عن القسطنطينية وضاعت سيطرتهم على الجزر التى استولوا عليها ؛ بسبب ظهور اختراع حربى جديد على يد مهندس

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣٠٩ . عن البرلس ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ١٥٣ .

(٢) الكامل ٣ ص ٢٤٤ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ٢٣٦ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٢٠٧ . لا نعرف اسم هذه الجزيرة حالياً ، فلعلها إحدى جزر الخليج (مرمرة) ، مثل مرمرا ومصطكى (أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ١٨٩) . وقد تكون أرواد هي تسمية أخرى لرودس — كما يقول أستاذنا شعيرة — بسبب أن غزوها وغزو رودس كان على يد جنادة فى نفس العام . (انظر . Theophanis التى ذكرها « Cyzique » أو هى ، (La Lutte, p. 136 : Cheira وكان العرب يشنون غاراتهم منها ، وإن لم يذكر العرب هذا الاسم. انظر .Chronog, p. 345؛

Les Expéd, p. 78 : Canard ؛ Die Kampfe, p. 419 : Weil

(٤) فتوح البلدان ، ص ٢٣٦ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٣١١ — ٣١٢ . وقيل فتحت فى عهد العباسيين.

(٥) فتوح البلدان ، ص ٢٣٥ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧٣ فما بعدها.

يونانى اسمه كالينيكوس « Kallinikos »⁽¹⁾، يعرف بالنار الإغريقية أو اليونانية، وهى عبارة عن مادة أساسها النفط « Naphta » تسير على الماء دون أن تنطفىء بل تزيد اشتعالاً ، حتى تصل إلى المراكب فتحرقها . ولقد استفاد الروم من هذا الاختراع بحرق الأسطول العربى المحاصر للقسطنطينية [٢] ، وساعد على زيادة اشتعال النار فيه هبوب عاصفة استمرت ستة أيام[٣]. ومع أن المؤرخين المسلمين لم يشيروا إطلاقاً إلى حرق مراكبهم أمام القسطنطينية ، إلا أنهم ذكروا أن معاوية أو ابنه يزيد — الذى تولى الخلافة بعده — أمر بانسحاب العرب من جزيرتى رودس وأرواد[٤]، بعد أن بقوا فيها سبع سنوات ؛ وهى قد تكون مدة حصار القسطنطينية الأول . ولدينا تفاصيل أخرى تبين أنهم انسحبوا أيضاً من قبرس[٥] ؛ وأن الأسطول اليونانى لم يعد يسمح بنشاط غيره فى البحر الأبيض ، بل هاجم صور وصيدا[٦] على الساحل السورى ، وأن معاوية اضطر من جديد إلى عقد هدنة[٧]، استمرت نافذة حتى بعد موته .

---

(١) انظر . Théophanis : Michel le Syrien t2. fasc. 3. p. 455 ; Les Expéd, p. 98 : Die Kampfe. p. 425 : Well . انظر ؛ p. 353 Ency. de l'Isl tI, p. 889. ؛ عبادة ، فن الأسطول الإسلامى ، القاهرة ١٩١٣ ، ص . ٢٣ . كان كالينيكوس مخترع النار نجاراً هرب من سورية ، وإن كانت على ما يبدو معروفة من قبل عند الروم (Michel 2, fasc. 3, p. 455) . أما تسميتها « Feu Grégeois » فهى حديثة . انظر . Gibbon : Decline and fall of the, Roman Empire, ed. Smeaton. London, 1950, p. 5;395. انظر أيضا عن هذا الموضوع Reinaud et Favé : Feu Grégeois, Paris 1845, p. 100—101

(٢) أغابيوس ، ٢/٨ ص ٤٩٢ [٢٣٢] .

(٣) انظر . Sebêos, p. 1 : Ghévond : Histoire des guerres et des conquêtes des Arabes en Arménie trad.par, Chahnazarian. Paris 1856, p. 13.

(٤) الكامل ، ٣ ص ٢٤٤ ؛ ٢٤٦ ؛ فتوح البلدان ، ٢٣٦ . يقول ساويرس إنهم أخذوا السواحل وجزائر كثيرة فى عهد يزيد . انظر . سير البيعة ، تحقيق Seybold ، ٢/١ ص ١٤ — ٥

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٥٤ س ١ — ٢ .

(٦) أغابيوس ، ٢/٨ ص ٤٩٢ — ٤٩٣ [٢٣٢ — ٢٣٣] .

(٧) انظر Theophanis ' p. 354 ؛ Die Kampfe, p. 425 ؛ Canard : La Lutte, p. 130 : Cheïra : Les Expéd, p. 78 .

قصارى القول : إن العرب لم ينجحوا فى حصارهم للقسطنطينية براً وبحراً فى عهد معاوية ، كما لم ينجح الفرس من قبل فى عهد خسرو سنة ٦٢٣ م[1] . ولكن العرب بحصارهم العاصمة البيزنطية ، وبحملات الشواتى والصوائف ، شغلوا الروم بالدفاع عن أنفسهم .

*

كذلك فى عهد معاوية ، وجه العرب همهم إلى غزو البلاد التى تلاصق مصر من جهة الغرب ، وهى التى كانت تسمى قديماً : لوبية[2]: « Libya » ويعرفها العرب : « بالمغرب[3] » : وهى بلاد واسعة تقع على ساحل البحر الأبيض ، وتتكون من جبال ورمال عظيمة متصلة من الشرق إلى الغرب ، وتمتد من بَرْقَة[4] إلى المحيط[5] ، كما تمتد جنوباً إلى مفاوز بلاد السودان المسماة : نيسر[6] .

وقد كان يسكن هذه البلاد جيل من الناس عرف للعرب : « بالبربر[7] »

(١) بل ، مصر ، ترجمة عواد وعبد اللطيف ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢٥٤ — ٢٥٥ .

(٢) معجم البلدان ، ٧ ص ٣٤١ ؛ The Geog. trad. Jones. , : Strabo
London, 1949. 1 : 2 ; 25 (Books 1—2), p. 119.

(٣) معجم البلدان ، ٨ ص ١٠٣ . لعلها تسمية للاتجاه ضد المشرق .

(٤) نفسه ، ٢ ص ١٠٤ ؛ أبو الفدا ، تقويم ، ص ١٢٢ . فتلا قد تدخل الأندلس فى حدود بلاد المغرب (معجم البلدان ، ٨ ص ١٠٣) ، أو تدخل فيه مصر وبرقة (ابن عذارى ، كتاب البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، نشر وتحقيق كولان وليفى بروفنسال ، طبعة Leyden ، ١٩٤٨ ، ١ ص ٥) ، أو حتى لا تدخل فيه مصر أو برقة ، وأنما حده طرابلس وما بعدها . ابن خلدون ، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، بولاق ١٢٨٤ هـ ، ٦ ص ١٠١ س ٢٠ ؛ انظر أيضا . Ency. de l'Isl (art Maghrib) t 3, p. 113—4,

(٥) يعرف أيضا ببحر الظلمات أو الأخضر ، ويسميه الأعاجم بحر أوقيانوس . العبر ، ٦ ص ٩٨ س ١٣ — ١٤ .

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ٤٥ .

(٧) معجم البلدان ، ٢ ص ١٠٤ فما بعدها ؛ العبر ، ٦ ص ٨٩ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl (art Berbères) t 1, p. 716 sqq.
وهى تسمية عربية ، وذلك لرطانتهم بلغة غير مفهومة . العبر ، ٦ ص ٨٩ . وقد تكون مشتقة من اللاتينية « Barbari » بمعنى غير متحضرين ، أو حتى من اسم سكان بربره على ساحل البحر الأحمر (عنها ، انظر . معجم البلدان ، ص ١٠٦) ؛ الذين كانوا أصل سكان إفريقية . انظر . Les Civilisations de l'Afrique du Nord. Paris, 1921, p. 39. : Piquet

وبهم سميت البلاد ، وللبيزنطيين باسم : « Maurousioi »[١] ، ومنه أخذت التسمية الأوربية فى العصور الوسطى: « Mauri »[٢] . ولعل البربر ينتمون فى أصلهم إلى الجنس الحامى[٣]، أو إلى أجناس البحر الأبيض ، وإن كانوا من نفس العنصر الليبى القديم الذى عرفه الفراعنة[٤] . ويرجع بعض مؤرخى العرب أصلهم العربى السامى نتيجة لغزوات أو هجرات يمنية قديمة ؛ خصوصاً وأن أكثر البربر طول تاريخهم الإسلامى قد حاولوا أن يوجدوا لهم نسباً عربياً[٥] . ومن جهة أخرى يرجع البربر فى أصلهم إلى جذمين عظيمين : البرانس والبُتر ، وهما من أصل واحد كما يلاحظ ابن خلدون[٦] . ولا نعرف أصل هذا التقسيم : فقد ينسبان إلى جدّين بهذين الاسمين ، أو إلى نوع من الحياة : فالبرانس هم الذين يعيشون فى الساحل أو الريف ولهم الحواضر[٧] ؛ أما البتر فهم الظواعن الذين يعيشون فى طور البداوة ، فيتخذون البيوت من الشعر ، وينتجعون المراعى بين الوديان

---

(١) Procopius : Hist of the Wars.transl, Dewing, London, 1954, 2 ; 2 : 8 (p. 266 — 267.).

(٢) انظر . Brémond : Berbères et Arabes. Paris, 194?, p 301.

(٣) انظر . Seligman : Les Races de l'Afrique. trad. franc, Payot. Paris, 1935, p 86.

(٤) انظر . Drioton et Vandier : Les Peuples de l'Orient, Méditerranéen. Paris, 1946, p. 171.

(٥) العبر ، ٦ ص ٨٩ ؛ ٩١ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ١٠٤ .

(٦) العبر ، ٦ ص ٨٩ س ٢١ فما بعدها .

(٧) نفسه ، ٦ ص ٨٩ ؛ ٩٨ س ٢٥ .

ـو الصحارى ، وقد يكون أيضا بسبب زى البُرنس[١]، الذى لا يزال المغاربة يلبسونه إلى الآن ، ولم يكن يعرف فى مصر والشرق إطلاقاً ، فكان البرانس يتزيون به ، من دون البتر الذين لا يتزيون به . ويذكر ابن خلدون أنه عند الفتح العربى كان معظم البربر من نوع البتر فى طور البداوة[٢] ، يعيشون فى جيل وشعوب وقبائل أكثر من أن تحصى[٣] ؛ كما فى الجزيرة العربية ، وأغلبهم وثنى يضحون بالبشر[٤]، ويؤمنون بالسحر والكهانة ، وقليل منهم انتشرت بينهم النصرانية أو اليهودية أو حتى المجوسية ؛ فهذه الديانات قد جاءتهم مع الغزاة ممن غلبهم من الأمم ، أو عن طريق مصر[٥] .

وقد كان وقوع بلاد المغرب على ساحل البحر الأبيض ، مما جعلها مطمع الأمم المسيطرة فيه : فتوالى على احتلالها الفينيقيون ثم الرومان[٦] . وفى بداية القرن الخامس الميلادى جاءتها غزوات طارئة من عناصر الشمال المعروفة بالوندال «Bandiloi» ، الذين استولوا عليها من الرومان[٧] . كذلك كان القوط[٨] «Gothoi» — ويسميهم العرب بالفرنجة[٩] — قد قضوا على دولة الرومان فى إيطاليا . ونزلوا

---

(١) نفسه ، ٦ ص ٨٩ س ١٣ — ١٤ ؛ انظر . Op. cit, Brémond p. 308 - 30 ؛ مؤنس ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ٨ — ٩ وهامش (٢) ؛ Ency. de l'Isl (art Berbères) t 1, p. 716 . البرنس هنا يبدو أنه لباس للرأس .

(٢) المقدمة ، ص ٣٩٤ ؛ انظر . مؤنس ، فتح ، ص ٨ — ٩ .

(٣) العبر ، ٦ ص ١٠٦ — ١٠٧ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ١٠٤ س٢ فما بعدها .

(٤) انظر . Op. cit, p. 154 : Brémond

(٥) العبر ، ص ١٠٦ ؛ أنظر . L' Islamisme et le, : Bonet Maury Coup, :Bel : Christianisme en Afrique Paris, 1906, p. 8 — 9;63 d'œil sur l'Islam en Berbérie. Paris, 1917.

(٦) انظر . Ency de l'Isl, tI, p. 716 sqq.

(٧) Hist. of the Wars 2 : 2 ; 8 — 9 (p. 266 — 267) : Procopius

(٨) انظر Id ؛ العبر ، ٦ ص ١٠٧ س ١٠ .

(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٩٣ — ٢٩٤ ؛ العبر ، ٦ ص ١٠٧ . وهو الاسم الذى أطلق على الأوربيين طوال العصور الوسطى .

فى إسبانيا ، واحتلوا بعض أجزاء من شمال إفريقية ، وبخاصة سبتة « Ceuta » ،ومرساها الحصين[١]. ولما ورثت بيزنطة امبراطورية الرومان فى الشرق، نجد أن إمبراطورها جستنيان « Justinianus» (٥٢٧—٥٦٥م)، أرسل قائده بلزاريوس «Belisarius»[٢] فى سنة ٥٣٣ م ، الذي استولى على الجزء الأكبر من بلاد البربر ، ولم يجد مقاومة من الوندال الذين كانوا قد تحولوا إلى المسيحية، وغمرتهم الحضارة الرومانية[٣] ؛ ولكنه قوبل بمقاومة من البربر استطاع التغلب عليها[٤] ؛ فامتدت سيطرة بيزنطة حتى برقة[٥] . ولكنه لم يتمكن من الاستيلاء على منطقة سبتة ، التى بقيت تبعث بطاعتها إلى القوط من وراء البحر فى إسبانيا[٦] .

وقد كان البيزنطيون يحكمون البربر عن طريق حاميات تعيش فى مدن محصنة أوقصور « Castra » على الساحل ، أهمها قرطاجنّة[٧]. المدينة القديمة الحصينة على ساحل البحر ، التى أصبحت مستقر سلطانهم ، ومقر الحاكم «Praefectus» .

---

(١) عنها ، انظر. معجم البلدان ، ٥ص ٢٦ — ٢٧ .

(٢) Procopius : Hist. of Wars 2 :2; 8 —9 (p. 266 — 267);
انظر . Julien : Hist. de l'Afrique du Nord. Paris. 1952, p. 9.

(٣) انظر . Brémond : Op cit, p. 126 ; Piquet : Op. cit, p. 34 — 35 .

(٤) Procopius : Hist . of the Wars 2 : 2 ; 8 — 9 (p. 266 — 267).

(٥) انظر . قبله التاريخ السياسي ، ١ ص ٢٢٥ ، كانت برقة على ما يبدو خاضعة للبيزنطيين منذ فتح مصر ، على عكس طرابلس التى ألحقت بالامبراطورية البيزنطية فى عهد موريس «Mauricius» (٥٨٢ — ٦٠٢ م) . انظر ما أورده شميرة عن ذلك والمراجع فى كتابه : La lutte, p. 63

(٦) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٩٤ س ٢ — ٣ .

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ س ١١ — ١٢؛ معجم البلدان ، ٧ ص ٥٢؛ ابن عذارى، البيان ، ١ ص ٢٠ . انظر ما أورده شميرة عن كلمة «Castra» فى كتابه La lutte, p. 64 ; n(1) (وهو يعتمد فى ذلك على كتاب Maspero :
Organisation militaire de l Egypte byzantine (Bibl. de l'Ecole des Hautes Etudes. fasc. 201). Paris, 1912, p. 1— 159 .

ويبدو أنه كان يؤيد حكمهم فى المغرب أخلاط من سلالة أجنبية تعرف : بالأفارق أو الأفارقة[١]، تعمل فى الزراعة، والصناعة، ويصفهم مؤرخو العرب بأنهم خدم الروم. ولما اضطربت شئون الدولة البيزنطية بسبب الحرب الفارسية ، استقل بحكم المغرب البطريرك جريجوريوس «Gregorius» ، الذى يسميه العرب «جُرْجير»،[٢] فقد كان يحقد على ابن أخيه هرقل[٣] «Heraclius» (٦١٠ — ٦١٤م) ، أن يصعد على عرش الامبراطورية من دونه : فخلع هرقل وسك العملة باسمه[٤] ، وربما أعلن نفسه امبراطوراً بتشجيع بابوية رومية التى كانت تنافس الكنيسة اليونانية[٥] ، إذ كان يعرف للعرب بالملك الأكبر[٦] . فكان جُرجير يحكم منطقة واسعة فى بلاد المغرب، امتدت من طَرَابُلس إلى طَنْجة[٧] ، وهى البلاد التى عرفت للعرب فى العصر الأول باسم : «إفريقيّة[٨]» . ولكن بسبب

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٠ س ١٠ — ١١ ؛ الكامل ، ٣ ص ١٣ س ٩ ؛ انظر . Ency . de l'Isl (art IFrikiya) t 2, p. 482

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ س ١٢ ؛ انظر . Brémond : Op. cit. , p. 179 - 180 ؛ مؤنس ، فتح ، ص ٣٤ فما بعدها

(٣) عن هذه القرابة ، انظر . مؤنس ، فتح ، ص ٣٨ — ٣٩ وهامش (١) ؛ Tauxier : Gregoire d'Afripue. Rev Afr. 1885.

(٤) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ س ١٣ — ١٤ .

(٥) انظر . Diehl et Marçais : Le Monde, p.238.

(٦) الواقدى ، فتوح إفريقية ، تونس ١٣١٥ ، ١ ص ٥٧ .

(٧) ابن عبد الحكم ، ص١٨٣ س١٣ . طرابلس هى البلاد المجاورة لبرقة (معجم البلدان ، ٦ ص ٣٤ — ٣٥) ، وطنجة بلد على ساحل البحر الأبيض مقابل لإسبانيا . نفس المرجع الأخير ، ٦ ص ٦١ — ٦٢ .

(٨) العبر ، ٦ ص ١٠٧ . هى اسم آخر للمغرب (ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣) ، وإن اختلف فى تحديدها : فيرى ياقوت أنها البلاد الواسعة الواقعة قبالة جزيرة صقلية وينتهى آخرها إلى قبالة الأندلس (معجم البلدان ، ١ص٣٠٠) . أما الأصطخرى فيدخل فيها برقة (مسالك ص ٣٦ ، ٤٥) . واسم افريقية مجهول الأصل ؛ وإن كان العرب ينسبونه إلى شخص أو مدينة (معجم البلدان ، ١ ص ٣٠٠) أو من الفعل فرق (المفرقة) [البكرى ، معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٤٥ ، ١ ص ١٧٦ — ١٧٧) ، أو لأنها فرقت بين مصر

فتوح العرب فى بلاد البحر الأبيض فى عهدى أبى بكر وعمر ، يبدو أنه وجد اتفاق بينه وبين بيزنطة ، فكان يحمل بعض المال إليها ؛ كما يذكر ابن الأثير .(١) أما بقية بلاد المغرب فلم تخضع فى أى وقت للبيزنطيين أو لنفوذهم (٢) ، مثل : قبائل البربر الساكنة فى الجبال بأقاصى المغرب ، وفى الصحارى الواسعة وراء السواحل ، وفى بلاد السُّوس التى تجاور المحيط (٣) ؛ فكان البربر يتمتعون فى هذه الأماكن بحريتهم . وقد لاحظ ابن خلدون ذلك ، فقال(٤) : إن وراء السواحل توجد للبربر قوة وملوك، ورؤساء وأقيال وأمراء ؛ لا يستطيعون أن يصل إليهم الروم أو الفرنج .

= وبلاد المغرب (معجم البلدان، ١ص٣٠٠). ولكن لعله مأخوذ من الاسم اللاتينى «Africa» الذى أطلقه الرومان على الدولة التى أقاموها حين محاربتهم قرطاجنة ، ثم أطلقوه على القارة كلها (Ency. de l'Isl, (art 1Frikıya) t 2, p. 481) ، أو لعله أخذ أيضاً من «Aphri» اسم معدل لقبيلة أورينة ، التى كانت تقيم بجوار قرطاجنة ، أطلقه الفينيقيون أو اليونان أو الرومان على سكان البلاد من حدود مصر إلى المحيط . انظر . L'Isl. et, : André les Races, p. 105. ؛ انظر. مؤنس ، فتح ، ص ١ وهامش .

(١) الكامل ، ٣ ص ٤٦ . هو يسمى المال الخراج .

(٢) المالكى ، رياض النفوس ، تحقيق مؤنس ، القاهرة ١٩٥١ ، ١ ص ١٤ ؛ انظر . Brémond : Op. cit, p. 158

(٣) عنه، انظر. معجم البلدان، ٥ص١٧١ — ١٧٢؛ ٨ ص١٠٣ ؛ انظر. Ency de l'Isl, (art al-Sûs al-Aksâ) t 4, p. 5?6 - 8.

اختلف فى تقسيم بلاد المغرب فى العصور الوسطى ، الذى ربما كان يتبع الحالة السياسية (مؤنس ، فتح ، ص ٢) . ففى عهد هشام قسم المغرب سياسياً إلى إفريقية والمغرب الأقصى والسوس (العبر ، ٦ ص ١١٨ — ١١٩) . ويذكر أبو الفدا أنه يشمل ثلاث قطع : المغرب الأقصى ، والمغرب الأوسط وإفريقية (تقويم البلدان ، ص١٢٢) . ويذكر الأصطخرى أنه ينقسم إلى قسمين غربى وشرق ، فالشرق من برقة إلى البحر المحيط ، وأما الغربى فهو الأندلس (مسالك ، ص ٣٦ — ٣٧) . كذلك ابن عذارى يقسمها تقسيما آخر (انظر . البيان ، ١ ص ٥) . أما التسميات الحديثة : تونس والجزائر ومراكش ، فهى نسبة إلى مدن إسلامية ظهرت فى العصور الوسطى : فتونس مدينة محدثة (معجم البلدان ، ٢ ص ٤٣٢) ، والجزائر أنشئت فى عهد الدولة الحمادية (نفسه ، ٣ ص ٩٣) ، ومراكش فى عهد دولة الموحدين (نفسه ، ٨ ص ٧) .

(٤) العبر ، ٦ ص ١٠٧ س ٥ — ٦ .

ونحن نعرف أنه فى أيام عمر بن الخطاب فتح عمرو بن العاص برقة وطرابلس (١) ، وطرد منها حاميات الروم ، وأخضع قبائل البربر فيهما ، مثل : لَوَاتة وهَوّارة ونُفوسة . ولكنه لما استأذن عمر فى فتح إفريقية لم يأذن له ، وتذكر الرواية العربية أنه رد عليه بقوله (٢) : إنها المفرّقة ، أى التى تغدر بغزاتها . ومن المرجح أن المغرب وقتئذ لم يكن يثير حماس الخليفة بسبب إنشغاله بتمكين فتوحات الشرق وتنظيمها ، ولم يكن هدفه من فتح برقة وطرابلس إلا تأمين فتح مصر ، حتى أن العرب لم يبقوا فيهما العساكر (٣) ، وإنما اكتفوا بفرض الجزية على سكانهما ، وأجازوا لهم بيع أبنائهم ليدفعوها ، فكانوا يبعثون بها دون أن يدخلها جابٍ من قبل العرب .

وفى عهد عثمان قام العرب بغارة هائلة فى إفريقية التى كان بها الروم ، فقد أراد الخليفة شغل عرب الأمصار بالجهاد وإرضاءهم بإيجاد مجال يحصلون فيه على الغنائم (٤) ، حيث كانت إفريقية تعرف لهم بالأرض الخضراء (٥) ؛ لكثرة مزروعاتها . وكذلك ربما أحست الخلافة بأطماع روم هذه البلاد ؛ فيذكر الواقدى أن أهل إفريقية كانوا يعتبرون أنفسهم أكثر قوة من أهل الشام والعراق ومصر (٦) . ولكن ابن الأثير يذكر : أن غزوها جاء بناء على اقتراح من عبد الله بن سعد بن أبى سَرْح (٧)

---

(١) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٢٤ — ٢٢٥ ؛ انظر . التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٢٥ — ٢٢٦ .

(٢) ابن عبد الحكم ، ص ١٧٢ — ١٧٣ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٣٠١ س ٦ — ٧ ؛ انظر قبله . عن المفرقة .

(٣) فتوح البلدان ، ص ٢٢٤ ؛ السيوطى ، حسن المحاضرة ، طبعة مصر ١٣٢٧ هـ ، ١ ص ٦٣ .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٧٥ س ٨ ؛ المالكى ، رياض النفوس ، ١ ص ٨ .

(٥) الواقدى ، فتوح إفريقية ، ١ ص ١٠٢ س ١ .

(٦) فتوح إفريقية ، ١ ص ٦ س ٨ .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٤٤ — ٤٥ ؛ انظر . La lutte, p 82 ;n (2) : Cheïra هو أخو عثمان من الرضاعة ، وكان من جند غزاة مصر ، شهد مع معاوية صفين ، وتوفى بعسقلان أو بافريقية سنة ٣٦ أو ٣٧ أو ٥٩ . عن سيرته ، انظر . ابن الأثير ، أسد الغابة ، ٣ ص ١٧٣ — ١٧٤ ؛ انظر أيضاً . Ency. de l'Isl, (art 'Abd Allâh B. Sa'd) t 1, p. 30—31.

والى مصر ، الذى تولاها بعد عمرو بن العاص . فلعل ابن أبى سرح طلب الجهاد ، ليكفر عن ماضيه ، إذا أن النبى كان قد أهدر دمه ، بسبب تغييره فى القرآن عند كتابة الوحى [١] ، أو أنه كان قد ارتد ولحق بالمشركين فى مكة ؛ وإن شفع فيه عثمان [٢] .

وقد تحولت هذه الغارة إلى غزو حقيقى ، حتى أن الخليفة عقد لها المشورة : [٣] فتوجه ابن أبى سرح على رأس جيش كبير من شجعان المسلمين فى سنة ٦٤٦/٢٦ أو ٢٧ / ٦٤٧ [٤] ؛ ليتقابل مع الروم يساعدهم البربر [٥] ، فتقهقر هؤلاء إلى سُبَيْطلَة [٦] « Sbeitla » ، وطلبوا النجدة من القسطنطينية ورومية [٧] . ولعل اختيار سبيطلة للقتال من دون قرطاجنة هو رغبة الروم فى إيقاع العرب بين القاعدتين ، أو حتى لا يهاجم العرب قرطاجنة ؛ عاصمتهم . ولكن ابن أبى سرح جاءه مدد به أبناء الصحابة [٨] ، وبعض أفراد البيت الأموى ، فهاجم سبيطلة وخربها ، كما تمكن عبد الله بن الزبير من قتل جُرجير . لذلك طلب الروم الصلح مع العرب على أن يؤدوا لهم المال [٩] ؛ فقبل ابن أبى سرح مصالحتهم ، وعاد إلى مصر ومعه كثير من المال والسبى والمواشى [١٠] ، وإن لم يول [١١] عليهم

---

(١) المعارف ، ص ١٥٣ ؛ انظر . مؤلس ، فتح ، ص ٧٨ .

(٢) البيان المغرب ، ١ ص ٩ .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ س ٩ .

(٤) نفسه ، ص ١٨٧ ؛ الكامل ، ٣ ص ٤٤ — ٤٥ وقيل سنة ٢٧ ، ٢٨ و ٢٩ . معجم البلدان ، ١ ص ٣٠١ س ١٥ . انظر عن هذه الغزوة أيضا : Theophanis, p. 285

(٥) الواقدى ، فتوح أفريقية ، ١ ص ١٥ .

(٦) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٣٣ .

(٧) الواقدى ، فتوح أفريقية ، ١ ص ٤ س ٥ .

(٨) مثل عبد الله بن عمر ، وعبد الله بن الزبير ، وعبد الرحمن بن أبى بكر . الخ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٢٦ . عن قتل جرجير ، انظر . الأغانى ، ٦ ص ٥٩ ؛ مصعب الزبيرى ، كتاب نسب قريش ، تحقيق Lévi-Provençal ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ٢٣٧ — ٢٣٨ ؛ انظر أيضاً ما كتبه حسين مؤنس بصحيفة المعهد المصرى بمدريد ، المجلد الثانى ١٩٥٤ ، ص ٢٣٤ ،

(٩) انظر مثلا . الكامل ، ٣ ص ٤٦ . أخذ منها ثلاثمائة قنطار من الذهب ، فتوح ، ص ٢٥٧ .

(١٠) معجم البلدان ، ١ ص ٣٠١ س ١٦ . تكثر المواشى فى شمال إفريقية .

(١١) ابن عبد الحكم ، ص ١٨٣ س ١٩ ؛ العبر ، ٦ ص ١٠٨ س ١٠ فما بعدها .

أحداً . ولقد كان قتل جُرجير ضربة قوية ضعضعت روم إفريقية وأذلتهم ، حتى أن الخليفة عثمان احتفل فى مسجد المدينة بعودة عبدالله بن الزبير[1] ، الذى أصبح اسمه منذ ذاك الوقت ، يتوافق مع اسم كبار الغزاة مثل خالد وعمرو .

وبعد أن استولى معاوية على مصر من علىّ ، كان ولاته يجردون منها الحملات على بلاد البربر للغارة[2]. ولم يكن هناك نظام للثغور كما فى آسيا الصغرى، وإنما كانت ترسل الحملات من الفسطاط . فلا تلبث أن تعود إليها بعد انتهائها[3]. كذلك كان عقبة بن نافع [4] — أحد أصحاب النبى الصالحين — يقيم بصفة دائمة فى نواحى برقة [5] فى الشمال . وزَوِيلة [6] فى الجنوب ، منذ فتحهما على يد عمرو ؛ فكان يغزو البربر منهما ، ويعمل على تحويلهم إلى الإسلام .

وقد كان نجاح حملات العرب فى إفريقية سبباً جعل معاوية يسعى إلى إنشاء قاعدة للعسكر فيها ، ولم يحدث هذا من قبل قط . ويبدو لنا أن معاوية قرر ذلك؛ لخوفه من بيزنطة . التى أخذت تعمل على استرداد نفوذها فى إفريقية ، فبعد قتل جُرجير ، ، قام بأمرها رجـــل آخر من الروم [7] . ولكن بيزنطة تمكنت

(١) النويرى ، نهاية الأرب (بدار الكتب) ٢٢ ورقة ١٦٦ ؛ انظر . Gibbon : Decline, 5 ,p. 355. عنه ، انظر . بعده .

(٢) مثلا معاوية بن حديج غزا ثلاث مرات فى سنوات ٣٤/٦٥٤ و ٤٠/٦٦٠ و ٥٠/٦٧٠ (ابن عبد الحكم ، ص ١٩٣ — ١٩٤) ، أو حتى أيضا فى سنة ٤٥/٦٦٥ (العبر ، ٦ ص ١٠٨ س ١٣) . وهو معاوية بن حديج السكونى الذى قتل محمد بن أبى بكر والى مصر من قبل على فى سنة ٣٨/٦٥٨ ، بأمر من عمرو بن العاص ، ولعله ولى مصر بعده أو بعد عبد الله بن عمرو ؛ وقد توفى سنة ٥٢/٦٧٢ . عن سيرته ، انظر ، اسد الغابة ، ٤ ص ٣٨٣ — ٣٨٤ ؛ الذهبى ، دول الإسلام ، ١ ص٢٥ ؛ إبن عذارى ، ١ ص١٤ فابعدها .

(٣) ابن عبد الحكم ، ص١٩٧ س١٦ ؛ انظر . Cheira : La lutte, p. 64

(٤) فتوح البلدان ، ص ٢٣٤ . هو ابن خالة عمرو ، ولد أيام النبى ، وغزا فى البربر ؛ سنة ٤١/٦٦١ و ٤٢ ٦٦٢ و ٤٣/٦٦٣ و ٤٦/٦٦٦ . ابن عبد الحكم ، ص ١٩٤ ؛ اسد الغابة ، ٣ ص ٤٢٠ — ٤٢١ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art'Ukba B Nâfi') t 3, p. 1040 sqq.

(٥) عنها ، انظر ، معجم البلدان ، ٢ ص ١٣٣ فما بعدها .

(٦) نفسه ، ٤ ص ٤١٨ — ٤١٩ .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٤٦ .

من طرده ، فلجأ إلى معاوية يحضه على غزو إفريقية . كذلك كان قنسطانز الثانى قد بعث بعساكره فى البحر من القسطنطينية ، ولكن العرب هزموهم (١) ، فذهب قنسطانز الثانى بنفسه إلى صقلية ، ربما ليعد حملة على بلاد المغرب ، ولكنه مالبث أن قتل فيها سنة ٤٨/٦٦٨ (٢) ، كما أن أسطول العرب بقيادة معاوية بن حديج شن على صقلية غارة قوية (٣) . ونرجح أيضاً أن نجاح معاوية فى شغل الروم فى آسيا الصغرى بالدفاع عن أنفسهم ، جعله يشعر بحرية العمل فى إفريقية .

وقد عهد معاوية إلى عقبة بن نافع القيام بإنشاء هذه القاعدة ، وهو الذى كان معروفاً بشجاعته ومثابرته فى حرب البربر . فذهب عقبة على رأس عشرة آلاف فى سنة ٥٠/٦٧٩ (٤) ؛ ليخضع القبائل الثائرة مثل مزاته فرع لواته ، وأعاد سيطرة المسلمين على المدن الساحلية فى طرابلس (٥) ، ثم سار إلى فَزّان (٦) ، ووصل حتى لامس بلاد السودان بفتح غَدامِس (٧) ، ومنها اتجه إلى جنوب إفريقية . وهناك فى أحد الأودية البعيدة عن الساحل ، التى لا تدركها مراكب العدو ، اختط قاعدة سماها : « القَيرُوَان » ، أو « قيروان إفريقية » (٨) ؛ فكانت مثل مدن

---

(١) العبر ، ٦ ص ١٠٨ س ١٤ . وربما تكون فى ولاية معاوية بن حديج .

(٢) انظر . Diehl : Michel le Syrien 2, fasc, 3, p. 450sqq : Diehl et Marçais : L'Afrique byzantine. Paris, 1896, p. 569—570 : La lutte, p. 126: Cheïra : Le Monde, p. 239 ؛ العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ٩٩ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ٢٣٦ . لعلها فى سنة ٤٩/٦٦٩ . عن هذا التاريخ ، انظر ما أورده Cheira فى كتابه : La Lutte, p. 127; n (2).

(٤) فتوح البلدان ، ص ٢٢٧ . لدينا تواريخ أخرى ، مثلا سنة ٤٩/٦٦٩ انظر . أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ١٨٦ — ١٨٧ ،

(٥) انظر . قبله .

(٦) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٣٧٤ — ٣٧٥ .

(٧) عنها ، انظر . نفسه ، ٦ ص ٢٦٨ .

(٨) رياض النفوس ، ص ٦ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٣٠١ ؛ ٧ ص ١٩٣ فما بعدها ؛ انظر . Ency de l'Isl (art Kaïrwân) t 2, p. 686sqq . ولعل كلمة « قيروان » معربة من الفارسية « كروان » بمعنى القافلة . لسان ، ٢٠ ص ٣٦ .

الأمصار الأخرى تشتمل على الخطط ودار الإمارة ، والمسجد الذى لا يزال يحمل اسمه (١). وبذلك أصبح للعرب معسكر متقدم فى إفريقية ، يقف كقلعة (٢) حصينة أمام قبائل البربر العديدة، التى عرفت بجرأتها (٣)، فى جبال أوراس (٤) .

ونحن لا نعرف سبب عزل عقبة بعد ذلك ، فلعله جاء من قبل عامل الخليفة فى مصر ، الذى أصبحت إفريقية جزءاً من عمله : فقد عزل معاوية عامله فى مصر معاوية بن حديج ، وولاها مسلمة بن مخلد سنة ٦٧١/٥١ ، فقام هذا الأخير بعزل عقبة عن إفريقية ، وولاها أبا المهاجر (٥) . ويبدو لنا أن عزل عقبة جاء نتيجة للشدة ، التى سار عليها فى معاملة البربر ، مما جعلهم ينفرون من العرب (٦). وعلى النقيض كان أبو المهاجر يغزو البربر ، ولا يخرج من إفريقية ، ويقيم فيها الشتاء والصيف (٧) ، إلا أنه كان يعمل على استمالتهم ومعاملتهم باللين ، فاستطاع اكتساب زعيم قبيلة أورْبَة الكبيرة إلى صفه ، وهو الذى كان يعرف تارةً باسم:

---

(١) فيقال مصرت . انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ١٩٤ س ٨ ، ابن عبد الحكم ، ص ١٩٦ — ١٩٧ ؛ الكامل ، ٣ص ٢٣٠ يبدو أن القيروان بنيت بجوار المعسكر ، الذى كان قد اختطه معاوية بن حديج فى إحدى غزواته ، واسمه القرن ، ولكن لم يعجب عقبه ، فبنى القيروان . أسد الغابة ، ٣ ص ٤٢١ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٩٣ س ١٣ .

(٢) انظر Julien. Op. cit, p. 16.

(٣) العبر ، ٦ ص ١٠٧ س ٢٠ .

(٤) انظر عنه. معجم البلدان ، ١ ص ٣٧٠ .

(٥) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٦ — ١٩٧ . كان مولده حين قدم النبى المدينة مهاجراً ، وقد شهد بعد النبى فتح مصر وسكنها ، وكان من أصحاب معاوية وشهد معه صفين ، واستعمله على مصر والغرب ، وتوفى سنة ٦٨١/٦٢ . انظر . أسد الغابة ، ٤ص ٣٦٤ — ٣٦٥ .

(٦) أبو الفدا ، ١ ص ١٨٦ — ١٨٧ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٣٠ .

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ١٩٧ س ١٧ .

كسيلة (أوكسيلة) بن لمزم[١] . أو بابن الكاهنة[٢] ؛ وإن كان البلاذرى[٣] لايذكره إطلاقاً : فمع أن كسيلة كان قد خرج على عقبة[٤]، إلا أنه تحول على يد أبى المهاجر إلى الإسلام وانضم إليه[٥] . وقد تبع انضمام كسيلة ،وتحوله إلى الإسلام؛ إسلام قبائل عديدة من البربر ؛ إذ يصفه المؤرخون بأنه كان على رأس القبائل البرنسيّة . وفوق ذلك نزل أبو المهاجر على قرطاجنة[٦]؛ ليحارب الروم مدة عامين سنة ٥٩/٦٧٨ ، بحيث أنها كانت ملحمة عظمى كما يقول الذهبى . ولكن العداء ضد الروم ربما يكون قد توقف فى السنة الأخيرة من حكم معاوية ؛ بسبب عقد معاهدة صلح ، وإن لم يتوقف العرب عن ضم قبائل البربر إليهم .

من هذا نرى أن معاوية لم يكتف بإرسال السرايا من مصر للإغارة فى إفريقية، ولكنه أقام فيها قاعدة متقدمة ، مما مهد إلى فتح المغرب كله فى عهد خلفه .

---

(١) العبر ، ٦ ص ١٠٨ ص ١٧ — ١٨ ؛ المالكى ، رياض النفوس ، ١ ص ٢١ و ٢٥ — ٢٦ . يبدو أن كسيلة بصيغة التصغير من اختراع المؤرخين . انظر . مقالة Lévi-Provencal ، فى صحيفة المعهد الإسلامى ، المجلد الثانى ١٩٥٤ ، (ترجمة حسين مؤنس ، بعنوان : نص جديد عن فتح العرب للمغرب لعبيدالله (وهو ابن أبى على صالح ، الذى اعتمد عليه ابن عذارى) ، ترجمة ص ٢١٠ ، نص ص ٢٢٠ .

(٢) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٧٢ . سنسمع عن ملكة للبربر اسمها الكاهنة فى عهد عبد الملك ، ظهرت فى جبال أوراس . العبر ، ٦ ص ١٠٧ ، انظر . بعده .

(٣) انظر . Julien : Op. cit. . p.26 .27,

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٧٢ .

(٥) العبر ، ٦ ص ١٠٨ . لعله كان على دين النصرانية قبل ذلك ، إذ كان البرانس يختلطون بالروم .

(٦) الذهبى ، دول الاسلام ، ١ ص ٢٢ .

(٧) انظر . Theophanis, p. 355 : Diehl et Marçais: Le Monde, p. 24,1 ؛ انظر . قبله .

إبان هذا كان معاوية يمهد لتوريث ابنه يزيد الخلافة من بعده (١) ، وبذلك استحدث تقاليد جديدة : فقد رأينا أن النبي لم يستخلف ، وأن عليّا لم يرض أن يذهب إليه ويسأله استخلافه(٢) . وبعد موت النبي اختار العرب أبا بكر(٣) — وهو من غير أسرة النبي — خليفة المسلمين من بعده ، وإن وضعوا مبدأ أن تكون الخلافة في قريش(٤) . ثم كان لظروف الفتوح الأولى أن مرت مسألة الخـــلافة بدون ضجيج ، فتولاها عمر بعهد من أبي بكر(٥). وعند قتل عمر كره أن يستخلف ابنه عبد الله(٦) ، وعين أهل الشورى وعددهم ستة ؛ ليختاروا المسلمين واحداً منهم ، فاختاروا عثمان(٧) . فلما قتل عثمان ، قبل عليّ الخلافة من عرب الأمصار ، وكبار أهـــل المدينه لما عرضوها عليه (٨) . وعلى العكس كان المبدأ الوراثي في الحكم معروفاً عند البيزنطيين والفرس ؛ فكان ملوكهم يعينون أولياء عهودهم من بين أبنائهم(٩) . وقد لاحظ

---

(١) كان لمعاوية ابن أكبر اسمه عبد الرحمن مات صغيراً ، وابن آخر أحمق اسمه عبد الله لم يكن يصلح للخلافة . الكامل ، ٣ ص ٢٦١ . عن سيرة يزيد ، أنظر بخاصة : المسعودي ، مروج (طبعة Paris) ، ٥ ص ١٢٦ — ١٦٥ ؛ المعارف ، ص ١٧٨ — ١٧٩ ، أنظر : Ency. de l'Isl, (art Yaîd B. Mu'âwiya) t 4, p. 1226 — 7 ; Lammens : Mo'â 1er, p. 363 sqq. ؛ أنظر . بعده.

(٢) ابن سعد ، ٤/١ ص ١٨ — ١٩ .

(٣) النويري ، نهاية الأرب (طبعة دار الكتب) ، ٧ ص ٢٢٣ فما بعدها ؛ انظر قبله التاريخ السياسي ، ١ ص ١٣٩ فما بعدها .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٥) الكامل ، ٢ ص ٢٩٢ س ١٠ ؛ أنظر قبله التاريخ السياسي ، ١ ص ١٨٠ فما بعدها

(٦) الكامل ، ٣ ص ٣٤ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٣٤ فما بعدها ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٦ .

(٨) أنساب ، ٥ ص ٧٠ ؛ أنظر . قبله التاريخ السياسي ، ١ ص ٢٦١ .

(٩) انظر . Homo : Roman Political Institutions. London, 1929, p. 295.

الجاحظ أن معاوية غيّر فى سنة السلف . وتشبّه بملوك الفرس والبيزنطيين ؛ فقال إنه حوّل الخلافة إلى : « ملك كسروى وعصب قيصرى [1] » .

ويبدو لنا أن معاوية قصد من وراء توريث يزيد الخلافة القضاء على افتراق كلمة الأمة الإسلامية ووقوع الفتنة ، مثلما حدث بعد عثمان[2] . ولعله أيضاً أراد أن يوجد حلاً للمسألة التى تركها النبى دون حل ، وهى إيجاد سلطة دائمة للإسلام . ومن المحقق أن معاوية لم يكن له مندوحة من أن يفعل ذلك ؛ خوفاً من غضب بنى أمية ، الذين لم يكونوا يرضون بتسليم الأمر إلى سواهم[3] .

ونأبى أن نقبل ماتذكره الرواية العربية من أن تولية يزيد جاءت بإيعاز من جانب المغيرة بن شعبة بالذات ، الذى حرض يزيد ليطلبها من معاوية ، حتى يبقى فى عمله بالكوفة[4] . فما كان معاوية ليخفى عنه هذا القصد ، وهو الذى كان يعد ابنه منذ صغره ليجعله : من « فتيان قريش الذين ينتفع بهم »[5]: فأحسن تربيته[6]، وأسكنه معه فى سقيفته[7] (أى فى بيته) ، ليكون تحت ملاحظته ؛ كما أشركه منذ عهد مبكر فى الصوائف ، وأرسله إلى حصار القسطنطينية.[8] وأرجح الرأى أن معاوية الداهية لم يرض أن يظهر بمظهر المتخذ لهذا القرار ؛ لأنه كان

---

(١) رسالة فى معاوية والأمويين ، عنى بنشرها وصححها عزت العطار ، القاهرة ١٣٦٥/٦: ١٩ ، ص ١٦ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٢٤٩ س ١٣ ؛ ٢٥٠ س ١٤ — ١٥ ؛ ٢٥١ س ٢ ؛ ٢٥٢

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٣ س ١ — ٢ .

(٤) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٦١ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٤٩ .

(٥) الأغانى ، ٧ ص ١٠٤ س ٨ — ٩ ؛ أنظر . Lammens : Mo'â. 1er, p. 442.

(٦) الفخرى ، ص ١٤٦ ؛ انظر . Lammens : Moâ 1er. p. 375.

(٧) الأغانى ، ٧ ص ١٠٤ س ٣ ؛ انظر . Lammens : Moâ 1er, p. 36.

(٨) اليعقوبى ، ٢ ص ٢٧١ — ٢٧٢ .

يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم (١) ؛ ولوجـــود كثير من المرشحين للخلافة بين الصحابة والتابعين (٢) . على كل حال أعتبر المغيرة ثانى الذين أفسدا الأمة الإسلامية ، وهما : عمرو بن العاص يوم أشار على معاوية برفع المصاحف، أما المغيرة فبسبب أنه أشار ببيعة يزيد ؛ ولولا مشورته ، لكانت الخلافة شورى إلى يوم القيامة (٣) .

وقد ابتدأ معاوية فأظهر تعيين يزيد دون أن يقرر البيعة (٤) ؛ ليرى وقعها فى الأعمال ، وكتب إلى عماله بتقريظ يزيد ووصفه (٥) ، وبذلك أراد أن يقضى على دعوى أعداء الأمويين فى وصف ابنه بالخلاعة وشرب الخمر وإيوائه للمغنين (٦) ، حتى أنهم كانوا يسمونه : يزيد الخمـــور أو يزيد الخليع . ثم هيأ لهذا القرار مبدأ الشورى (٧) : فجاءته الوفود من الأمصار إلى دمشق بإيعاز من عماله فى الأمصار ، كما أن بعضها اشترى بالمال . ولما كان أهل الشام يريدون استخلاف عبد الرحمن بن خالد ، وهو الذى اشتهر فى حرب الثغور ، وكان أبوه محبوبا لهم لفتحه الشام وبقائه فيه حتى بعد أن عزله عمر إلى أن مات ودفن بحمص ؛ فإن الرواية العربية تقول — كما قالت من قبل عن وفاة الحسن — إن معاوية دس لعبد الرحمن فسقاه سماً فمات (٨) . وكذلك راجت بين العرب أحاديث منقولة عن النبى صدقاً أو كذباً ، تذكر أن الخلافة بعده ثلاثون سنة — أى حتى خلع الحسن لنفسه منها — ثم تعود ملكاً عضوداً (٩) .

ولما مهد معاوية الأرض وروض الناس (١٠) ، قرر أخذ البيعة ليزيد

(١) الكامل ، ٣ ص ٢٥٠ س ٣ — ٤ .
(٢) الأغانى ، ١٨ ص ٧١ .
(٣) السيوطى ، تاريخ الخلفاء ، ص ٧٩ .
(٤) العقد ، ٢ ص ٣٠٢ .
(٥) الكامل ، ٣ ص ٢٥٠ س ٢٤ .
(٦) الأغانى ، ١٦ ص ٧٠ (آخر الصفحة) ؛ انظر . Lammens : Mo'à.ler, p. 385.
(٧) الكامل ، ٣ ص ٢٤٩ — ٢٥٠ .
(٨) الأغانى ، ١٥ ص ١٣ س ٤ ؛ انظر . Lammens : Mo'a, Ier, p. 6; 7; 8. عن سيرة خالد ، انظر . أسد الغابة ، ٣ ص ٢٨٩ — ٢٩٠ ؛ انظر ، قبله .
(٩) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ١٨٣ .
(١٠) العقد ، ٢ ص ٣٠٢ س ٩ .

فى سنة ٥٦ / ٦٧٥ — ٦٧٦ (١) ؛ وتعنى هذه الكلمة فى القرآن عقداً بين الحاكم والمحكومين (٢) ، وتكون بضرب اليد على المبايع أو ببسطها (٣) . فكان معاوية يأخذ بنفسه بيعة ابنه من وفود الأمصار (٤) ، فيأخذ يد المبايع فى يده حتى وهو كاره (٥) . وقد أتاح مجىء الوفود إلى دمشق قيام احتفالات أدبية اشترك فيها الخليفة والشعراء والخطباء (٦) . ومنذ معاوية أصبح كل خليفة يأخذ البيعة لخلفه فى حياته ، وهى لن تكون بالضرورة للأبناء ، وإنما أيضاً للأخوة وللأقارب .

ولكن الحجاز دون بقية الأعمال رفض المبايعة فى أول الأمر ، مما جعل معاوية يذهب بنفسه إليه ؛ خصوصاً وأن حصول بيعته ضرورية لأنه مهد الإسلام ، ولأن به الصحابة وأبناءهم ، وبخاصة ثلاثة من سادة العرب كان لابد أن يكون لهم رأى فى الأمر ، هم (٧) : عبدالله بن عمر ، والحسين بن علىّ ، وعبدالله بن الزبير ؛ فالأول والثانى ابنا خليفتين ، والثالث كان والده قد قاتل فى سبيل الخلافة ، وله أنصار يبايعونه . وقد هدد معاوية بالسيف والضرب والسجن كل من لم يبايع ،

(١) الكامل ، ٣ ص ٢٤٩ فما بعدها .

(٢) القرآن ٤٨ : ١٠ .

(٣) ابن هشام ، ١ ص ٣٠٠ س ٤ ؛ ٢ ص ١٠١٦ س ١١ ؛ انظر . التاريخ السياسى ، ١ ص ١٤٢ — ١٤٣ .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٢٥١ — ٢٥٢ ؛ ابن قتيبة ، كتاب الإمامة والسياسة ، صححه محمود الرافعى ، القاهرة ١٣٢٢/١٩٠٤ ، ١ ص ٢٦٣ .

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٢٥١ س ٧ ، انظر . ديوان الأخطل ، عنى بطبعه الأب أنطون صالحانى ، بيروت ١٨٩١ ، ص ١٤٦ فما بعدها ، ص ١٦٧ فما بعدها .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٢٥١ — ٢٥٢ . يضاف إليهم عبد الرحمن بن أبى بكر ، ولكن يظهر أنه توفى قبل بيعة يزيد فى سنة ٥٣/٦٧٢ — ٦٧٣ (نفسه ، ٣ ص ٢٥٢ آخر الصفحة) . كذلك لا يذكر ابن عبد ربه إلا الثلاثة (العقد ، ٢ ص ١٧٢) . كما يبدو أنه لم يكن عبد الرحمن يهتم بالخلافة إطلاقاً ، بقدر اهتمامه بالنساء واللهو . الكامل ، ٣ ص ٢٥٩ . انظر عن آباء الثلاثة التاريخ السياسى الجزء الأول .

وأوهم أهل الحجاز بأن هؤلاء الثلاثة بايعوا مع أنهم عارضوه[١] ، وأن عائشة طلبت منه أن يرفق بهم[٢]. ولعل ابن عمر قد تردد[٣]، وأن معاوية قد نجح فى أن يحصل على بيعته[٤]، خصوصاً وأنه كان زاهداً فى الخلافة ، وأن أباه كان رفضها له[٥] .

فالمحصل أن معاوية كان يهفو إلى السلطة ، فحول الخلافة إلى سلطة مطلقة (أوتقراطية) على أن تبقى وراثية فى ذريته ، فاعتبر مؤسس الدولة الأموية . وقد كانت همته فى توسيع امبراطورية العرب وتنظيمها دليلاً على كفاءته ؛ إذ يوصف بأنه كأنما خلق للملك[٦] .

* * *

تولى يزيد الخلافة بعد موت أبيه ، الذى أكد له أنه أخضع[٧] رقاب

(١) نفسه ، ٣ ص ٢٥٢ س ٢٠ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٢٥١ (آخر الصفحة) . وهى توفيت حوالى سنة ٥٨/٦٧٧ (انظر . نفسه ، ٢ ص ٢١٠) أوسنة ٥٧/٦٧٦ . انظر . الذهبى ، دول الإسلام ، ١ ص٢٨ .

(٣) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٧١ . هو أكبر أبناء الخليفة عمر أسلم بمكة مع أبيه ، وهاجر إلى المدينة صغيراً ، ولم يشترك فى بدر وأحد ، وحارب يوم الخندق . وقد شهد فتوح الشام ومصر وفارس وآذربيجان ، واعتزل الفتنة ولم يبايع علياً ، ولم يشترك فى حروب على ، وحضر دومة الجندل . وفى خلافة معاوية اشترك فى حرب الصوائف مع يزيد ، وتوفى فى سنة ٧٣ أو ٧٤/٦٩٢ — ٦٩٣ . عن سيرته ، انظر . ابن سعد ، ٤/١ ص١٠٥ — ١٣٧ ؛ أسد الغابة ، ٣ص٢٢٧ فابعدها ؛ المعارف ، ص٩٢ ؛ وفيات الأعيان ، بولاق ١٢٧٥/١٨٥٩ ، ١ ص ٣٤٩ — ٣٥٠ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art 'Abd Allah B. 'Omar B. al-Khattâb) t I, p. 29 — 30 ؛ انظر بعده .

(٤) روى المؤرخون أن معاوية أرسل إليه مائة الف درهم . الكامل ، ٣ ص ٢٥٠ س ١٣ ؛ ابن سعد ، ٤/١ ص ١٣٤ .

(٥) الكامل ، ٣ ص ٢٥٩ ؛ انظر . قبله .

(٦) الذهبى ، تاريخ الدول ، ١ ص ٢٢ .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٢٥٩ س ١٤ .

العرب ، وذلك فى سنة ٦٠/٦٨٠[١] . وقد كتب يزيد إلى سائر الأمصار بتوليته فبايعته[٢]، إلا أنه امتنع عن مبايعته اثنان عظيمان : الحسين بن علىّ ، وعبد الله بن الزبير ، وهما من النفر الذين رفضوا بيعته بولاية العهد[٣] ، وكان معاوية قد حذره منهما[٤]. وعلى الرغم من أن يزيد طلب من عامله على المدينة إلزامهما بمبايعته ، فإنهما رفضا وتمكنا من اللحاق بمكة[٥] — وهى البلد الحرام التى لا يقاتل فيها — مما جر إلى وقوع الفتنة من جديد بين المسلمين .

هذه الفتنة عرفت عند المؤرخين الحديثين بالفتنة الثانية ، ويقصد بها كالأولى — التى وقعت بعد عثمان — انفصام وحدة المسلمين السياسية واختلاف آرائهم[٦]، وكانت هذه الوحدة قد تمت على يد معاوية منذ بايعه الحسن بن علىّ ، واستمرت أكثر من تسعة عشر عاماً[٧]. ولكن مراجلها كانت أشد غلياناً من الأولى ، ودامت فترة أطول ؛ إذ استمرت طوال حكم ثلاثة خلفاء بعد معاوية ، واستطاع الرابع إخمادها والاحتفاظ بالخلافة فى أسرته ؛ لتبقى حتى سقوط الدولة العربية .

---

(١) نفسه ؛ المعارف ، ص ١٧٨ .

(٢) أبو مخنف ، كتاب فى مقتل الحسين ، نشره الشيرازى ، بمباى ١٣٦١ هـ ، ص ٦ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٢٦٣ . يبدو أن عبد الله بن عمر بايع يزيداً ، وكان قد بايعه فى حياة معاوية ، وينسب إليه قوله : «إن كان خيراً رضينا وإن كان بلاء صبرنا» (ابن سعد ، ٤/١ ص ١٣٤) . ولعله أيضاً لم يبايع ، خصوصاً أن الأمويين لم يكونوا يتخوفونه (الكامل ، ٣ص ٢٦٥س١٧) . أما عبد الرحمن بن أبى بكر ، فكان قد توفى قبل ولاية يزيد العهد . انظر قبله .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٢٥٩ .

(٥) نفس المرجع ، ٣ ص ٢٦٣ ؛ أبو مخنف فى مقتل الحسين ، ص ٦ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، ٣ ص ٢٨٧ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٢٦٤ — ٢٦٥ . عن معناها ، انظر . لسان ، ١٧ ص ١٩٣؛ ١٩٦ .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٢٦٠ س ٥ .

وكان أول الخارجين على خلافة يزيد الحسين بن عليّ(١) : وهو الابن الثاني لعليّ وفاطمة ، ولد سنة أربع أو ثلاث ، وكان أشبه الناس بالنبي ، حتى عُرف هو وأخوه الحسن : « بسبطي رسول الله(٢) » ، أي حفيديه ، ابني بنته . وقد شهد الحسين أحداث الفتنة الأولى مع أبيه ، وخلع أخيه من الخلافة ، ثم رحيلهما إلى الحجاز ، حيث خصص معاوية لهما بعض المال(٣) . ولكن الحسين اختلف في سيرته عن أخيه . فعرف لأهل الحجاز بتدينه وصرامته(٤) ، ووصف بأنه شديد العزة(٥) .

ولا نكران أن الحسين كان أكثر تحمساً لحق أسرته في الخلافة ، فكان كارهاً لما فعله أخوه من تسليم الأمر لمعاوية(٦) ، وإن لم ينقض بيعته لمعاوية لوجود أخيه ، ولأنه كان قد بايعه معه(٧) . ولكنه رفض مبايعة يزيد ، واعتبر نفسه صاحب حق في الخلافة : فيروى المؤرخون من أقوال الشيعة بأن عليّاً نص(٨)

(١) عن سيرته ، انظر : أسد الغابة ، ٢ ص ١٨ فما بعدها ؛ الخطط ، ٢ ص ٢٨٥ فابعدها ؛ مقاتل الطالبيين ، ص ٥٤ فما بعدها ؛ أبو مخنف ، في مقتل الحسين ، انظر. انظر أيضاً. Ency. de l'Isl (art al-Husaïn) t 2, p 360 ؛ دنلدسن ، عقيدة الشيعة ، ترجمة ص ٨٤ .

(٢) لسان العرب ، ٩ص١٨١ (آخر الصفحة). كذلك كان الحسين يعرف بعترة رسول الله. اليعقوبي ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٧ .

(٣) أبو مخنف ، في مقتل الحسين ، ص ٤ س ١٤ — ١٥ ؛ الأخبار الطوال ، ص ٢٢٠ ؛ انظر قبله .

(٤) الخطط ، ٢ ص ٢٨٥ ؛ أسد الغابة ، ٢ ص ٢٠ . كان يصلي في اليوم والليلة ألف ركعة .

(٥) اليعقوبي ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٣ .

(٦) أسد الغابة ، ٢ ص ٢٠ ؛ انظر . قبله .

(٧) الأخبار الطوال ، ص ٢٢٦ س ١١ — ١٢ .

(٨) انظر. Fyzee : Ismaili law of Wills. Bombay, 1933. p. 35. يردد الشيعة أن النص — تولية الإمام خلفه — مظهر لإرادة الله ، التي ظهرت بسبب أن النبي أوصى بالخلافة إلى علي ، لتكون في عقبه إلى يوم القيامة ؛ وذلك أثناء حجة الوداع ، بقرب غدير خم بين مكة والمدينة . عن ذلك ، انظر . النعمان ، دعائم الإسلام ، تحقيق فيظي ، ١ ص ٢٠ — ٢١ ؛ وانظر ما جاء في كتابنا : نظم الفاطميين ورسومهم في مصر ، القاهرة ١٩٥٣ ، ١ ص ٥١ فما بعدها .

فى وصيته على توليته بعد الحسن ، أو أنه كان قد ورد فى اتفاق الحسن مع معاوية أن تكون الخلافة للحسن بعده مما يجعله أولى بها من يزيد[١]. كذلك كان الحسين يرى نفسه أفضل بها من يزيد ربما لتجربته وكبر سنه[٢]، فقد كان يعرف بين العرب : « بالسيد[٣] » ، ولأن يزيد كان على حسب قوله يشرب الخمر[٤]. أضف إلى ذلك أن الحسين قد قدر أنه إذا بقيت الخلافة فى بيت بنى أمية ، قضى على نفوذ بنى هاشم .

ولكن أرجح الرأى أن تشوق الحسين إلى الخلافة راجع إلى تحريض أهل الكوفة له . فهذا المصر الذى أنشىء فى عهد عمر بن الخطاب لإنزال الجنود[٥]، مالبث أن اتسع بما ورد إليه من موالى الفرس[٦]، ومن رجالات قريش ، الذين سمح لهم عثمان بالانطلاق فى البلاد ، بعد أن كان عمر قد حصرهم فى الحجاز[٧]. ولما تولى علىّ الخلافة اتخذ الكوفة مركزاً له ، وقاتل بأهل العراق أهل الشام قتالا شديداً فى صفين ، حتى كره بعضهم البعض[٨] ، وأهاج العصبية القديمة بينهما . وقد امتلأت الكوفة فى عهده بشيعته ، الذين كانوا يؤمنون بحقه المقدس.

---

(١) أسد الغابة ، ٢ ص ١٣ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٣٠١ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٦٦ س ١٦ — ١٧ ؛ ٢٧٦ . اختلف فى سنه ، فهو توفى وكان عمره خمساً وخمسين أو إحدى وستين ، بينما يزيد كان عمره خمس وثلاثين أو ثمان وثلاثين أو تسع وثلاثين . الكامل ، ٣ ص ٣١٦ — ٣١٧ .

(٤) أبو مخنف ، فى مقتل الحسين ، ص ٨ .

(٥) عن هذا المصر ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٩٥ فما بعدها . مصرت فى سنة ١٧ هـ ؛ انظر عنها : Ency. de l'Isl, (art al-Kûfa) t 2, p. 1170.

(٦) الأخبار الطوال ، ص ٢٨٨ س ٢ .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٩١ س ١٣ ؛ انظر قبله . التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٥٣ .

(٨) ابن سعد ، ٤/٢ ص ٣ س ٢٥ — ٢٦ . عن نزاعهما القديم . انظر قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٨٧ فما بعدها .

فى الخلافة ؛ فقد رأينا السبئية وهى أول فرقة شيعية طعنت فى حكم الخلفاء الأوائل ، ودعت إلى ولاية أهل البيت(١) . وبعد قتل علىّ بايع أهل الكوفة الحسن ؛ إلا أن الشيعة فيها امتعضوا من تسليمه الأمر لمعاوية(٢) ؛ وإن شرط الحسن الأمان لهم(٣) . وقد كان سوء معاملة ولاة الكوفة لأهلها ، سبباً جعلهم يكرهون بنى أمية كرهاً شديداً(٤) . فكان المغيرة بن شعبة الذى ولى الكوفة سنة ٦٦٢/٤٢ — وعرف بالدهاء — يرشو أصحاب علىّ ليضمن سكوتهم (٥) . وكان زياد بن أبى سفيان ، الذى وليها من بعده سنة ٦٧٠/٥٠ ، يستعمل الشدة مع أهل الكوفة حتى خافه الناس خوفاً شديداً(٦) ؛ فعمل على قتل حجر بن عدىّ وأصحابه(٧) ، الذين كانوا يرون أن الأمر لا يصلح إلا فى آل أبى طالب(٨) . وهو نفسه كان يحتقر الشيعة ويسميهم : « الترابية »(٩) ، ويكنى علياً « أبا تراب »(١٠) ، حيث كان الأمويون يرمزون بذلك إلى جعله كقاطع طريق ، مع أن

(١) النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ٢٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art 'Abd Allah b. Saba') t 1, p. 30 (art Shî'a) t 4, p. 363 : . هى تنسب إلى عبد الله ابن سبأ ، كان يهودياً فأسلم ، وجاب عدة أقطار منها العراق .

(٢) مقاتل الطالبيين ، ص ٤٦ .

(٣) ابن العبرى ، ص ١٨٦ .

(٤) الفخرى ، ص ١٥٩ .

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٢٢٤ ؛ انظر . قبله .

(٦) أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ١٨٥ ؛ انظر . قبله .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٢٣٣ فما بعدها .

(٨) نفسه ، ٣ ص ٢٣٩ .

(٩) الأغانى ، ١٣ ص ١٦٨ س ٢٢ . مفردها ترابى .

(١٠) نفسه ، ١٦ ص ٦ — ٧ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٣٦ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, Lammens : (art Abû Turâb) t 1, p. 114 ; n (7) : Mo'â, Ier p. 184 يذكر الأصفهانى فى كتابه (مقاتل الطالبيين ، ص ١٥) ؛ أن هذه تسمية النبى لعلى ، لأنه وجده فى المسجد راقداً وقد زال رداءه عنه ، وأصابه التراب ؛ وأنها كانت أحب التسميات لعلى!!

الشيعة أنفسهم لم يكونوا يعرفون هذا الاسم من قبل، وكان يجبرهم على لعن علي"(١).
فلما تولى يزيد الخلافة جمع لعبيد الله بن زياد الكوفة(٢) ، بالإضافة إلى البصرة ، التى وليها لمعاوية منذ سنة ٥٥/٦٧٤ ؛ وذلك لأن عامل الكوفة من قبل معاوية وهو النعمان بن بشير الأنصارى (٣)، اعتبر من المستضعفين ، الذين تركوا الحبل على الغارب للشيعة ، على عكس عبيد الله بن زياد الذى عُرف كأبيه بأنه رجل قوى . ويبدو لنا أن عمال الأمويين فى مصر والكوفة والبصرة بجانب شدتهم، كانوا يعتمدون أيضا على استمالة طبقة تُعرف : « بالأشراف »(٤) ، لعلهم من الصحابة والتابعين(٥) ، الذين وفدوا إليها أو من زعماء قبائلها . ومع هذا ، فلم يتمكن الأمويون من القضاء على تأييد شيعة الكوفة لحق آل أبى طالب ؛ فهؤلاء اعترفوا بالحسين خلفاً للحسن وراسلوه(٦) ، حتى أن معاوية كتب إليه يحذره ، ولكن الحسين رد عليه مؤكداً أنه لا ينقض عهده(٧) .
وبعد موت معاوية بعثوا إليه بالرسل والكتب(٨) ، وكتب

(١) الأغانى ، ١٦ ص ٧ س ١ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٢٦٧ — ٢٦٨ . تولى لمعاوية خراسان فى ٥٤/٦٧٣ — ٦٧٤ انظر سيرته فى المعارف ، ص ١٧٦ — ١٧٧ ؛ انظر Ency. de l'Isl (art 'Ubaïd Allâh b. Ziyâd) t 4, p. 1037 . هو عرف باسم أمه ، فكان يقال له أيضاً ابن مرجانة .

(٣) ولد بالمدينة ، وكان عثمانياً ، ولعله هو الذى حمل قيص عثمان وأصابع نائلة إلى الشام ، وتولى عمل الكوفة سنة ٥٩/٦٧٨ — ٦٧٩ ؛ وقتل فى خلافة مروان ، وربما معرة النعمان تنسب إليه . انظر . ابن سعد ، ٦ ص ٣٥ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٥٦ ؛ ٢٦٧ — ٢٨٦ ؛ Ency. de l'Isl, (art al-Nu'mân B. Bachîr) t 3, p. 1018—19

(٤) الأخبار الطوال ، ص ٢٢٥ س ٦ ؛ ٢٣٩ س ١٢ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٦٨ س ٦ .

(٥) الكامل ، ٣ ص ٢٢٤ . عن طبقات من نزل الكوفة من أصحاب رسول الله ، انظر . ابن سعد ، ٦ ص ١ فما بعدها .

(٦) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٧٠ — ٢٧١ .

(٧) أبو مخنف ، فى مقتل الحسين ، ص ٤ .

(٨) الكامل ، ٣ ص ٢٦٦ — ٢٦٧ .

معهم الناس من غير الشيعة ، فبلغ ما كتبوه نحواً من مائة وخمسين صفحة ، يحرضونه على القدوم إليهم لبيعته .

والثابت أن الحسين قبل دعوة أهل الكوفة ، وهو ما كان قد توقعه معاوية : من أن أهل العراق لن يتركوه حتى يخرجوه [١] . وقد نصحه بعض أهل بيته وأنصاره بأن يبقى فى الحجاز [٢]، ويعود بمكة البلد الحرام، وإذا أبى إلا أن يخرج فليشخص إلى اليمن لكونها أرضاً واسعة فيها الحصون والشعاب ؛ وذلك لأن الكوفة بلد مشئومة ، بها قتل أبوه ، وخذّل أخوه [٣] ، وأن أهلها لم ينفوا عاملهم [٤] ، الذى تحت يده بيت المال [٥] . ولما كان الحسين لا يتمتع بمزية الدهاء — حتى أن معاوية وصفه بالرجل الخفيف [٦] — فإن كل ما اتخذه الحسين من حيطة ، هو أن بعث إلى الكوفة ابن عمه مسلم بن عقيل ؛ ليمهد له طريق البيعة [٧] ، ولم ينتظر ما يفعله ، وإنما بادر بالسير وراءه فى عدد قليل ينيف على السبعين [٨]، معظمهم من أهل بيت النبى ، متخذاً سنة أبيه فى العراق .

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٢٥٩ س ٢١ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٢٦٥ ؛ ٢٧٦ . ممن نصحوه : أخوه محمد بن الحنفية ، وابن عمه عبد الله بن العباس . انظر عن سيرتيهما فيما بعد .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٦٦ س ١٦ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٧٦ س ٧ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٢٧٥ س ١٤ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٢٥٩ س ٢١ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٢٦٧ . أنظر سيرته فى مقاتل الطالبيين ، ص ٥٥ ، ٦٨ فما بعدها ؛ ابن سعد ، ٤/١ ص ٢٩ ؛ انظر . Ency. de l'Isl (art Muslim B. 'Akîl) t 3, p. 807 — 8.

(٨) الذهبى ، تاريخ الدول ، ١ ص ٢٩ . اختلف فى العدد : فقيل ٦٢ (اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٨٩) ، أو ٧٢ منهم ٣٢ فارساً و ٤٠ راجلاً ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٨٦ س ١٤ .

ومن ناحية أخرى هال يزيد تآمر أهل الكوفة ضده ، فكتب إلى ابن زياد يأمره بطلب مسلم بن عقيل وقتله(١) ، ويذكر المؤرخون أنه هدده — إن لم يفعل — بالتبرؤ من استلحاق معاوية لأبيه(٢) . فأثبت ابن زياد علو همته: فبعد أن تأكد ليزيد من طاعة أهل البصرة(٣) ، الذين كان الحسين قد كتب إلى أشرافهم يدعوهم إلى نصرته(٤) ، أسرع ووافى الكوفة ، وأخذ بدهائه وتهديده فى تثبيط همم أهلها ، ويبدو أنه نجح فى استمالة أشرافهم عن طريق رشوتهم بالمال(٥) . ثم أطلق شرطته والعرفاء(٦) — وهم مشايخ الأسواق — للبحث عن مسلم بن عقيل ، الذى كان قد أخذ البيعة للحسين من عدد كبير من أهل الكوفة (٧) فخذّل الناس عنه حتى لم يبق معه أحد ، وتمكن من أسره بالخديعة ، وضرب عنقه مع أنه منحه الأمان(٨) ؛ فكان أول من قتله بنو أمية من بنى هاشم بعد إسلامهم . كذلك منع أهل الكوفة من النفوذ إلى ناحية الحجاز(٩) ، وأرسل خيلا لتمنع الحسين من دخول العراق(١٠) .

ويبدو لنا أن عامل يزيد على الحجاز ، لم يبذل محاولة جدية لمنع الحسين من الخروج إلى الكوفة ، بسبب وجود كثير من شيعته فى عمله ، بل لعله قدر سهولة القضاء عليه فى الصحراء بعيداً عن أنصاره ؛ بحيث أن بنى هاشم فيما بعد اتهموا

---

(١) أبو مخنف ، فى مقتل الحسين ، ص ١٢ س ١٠ .

(٢) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٨٨ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٢٦٩ .

(٤) أبو مخنف ، فى مقتل الحسين ، ص ١٢ — ١٣ .

(٥) نفسه ، ص ٢٢ ؛ الأخبار الطوال ، ص ٢٣٤ فما بعدها .

(٦) الأخبار الطوال ، ص ٢٤٠ .

(٧) نفسه ، ص ٢٣٦ . يقول ثمانية عشر ألف رجل .

(٨) نفسه ، ص ٢٤٢ ؛ مقاتل الطالبيين ، ص ٧٨ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٦٩ — ٢٧١ .

(٩) الأخبار الطوال ، ص ٢٤٣ .

(١٠) نفسه ، ص ٢٤٧ .

يزيد بأنه هو الذى دس إليه الرجال ، حتى يخرج(١) . على كل حال أفلت الحسين من مكة فى الصحراء ، ميمماً شطر الكوفة (٢) . وفى الطريق لقى الفرزدق الشاعر(٣) ، الذى كان أول أمره يكره زياداً والأمويين ، وحينما قال له الحسين كيف خلفت الناس بالعـــراق ، قال خلفتهم وقلوبهم معك وسيوفهم عليك . وقد فهم الحسين مغزى قول الفرزدق وقدر نتائجه ، حينما جاءه خبر قتل ابن عمه مسلم بن عقيل ؛ فنصح من يحب أن ينصرف بالانصراف ، فتفرقوا عنه ولم يبق معه إلا أهل بيته ومواليه ، من بينهم أولاد مسلم بن عقيل ، الذين أرادوا الأخذ بثأر أبيهم(٤) . وزاد الموقف تأزماً للحسين حينما أدركته الخيل التى إرسلت من العراق بقيادة الحرّ بن يزيد ، وقد ظنهم الحسين فى أول الأمر من أهل الكوفة ؛ جاءوا لنصرته(٥) . فكان الحرّ لا يفارقه لحظة ، حتى نزل الحسين سهلا لا ماء فيه بالقرب من الفرات على مبعدة من الكوفة ، سماه كَرْبِلاء(٦) ، بسبب أنه أرض كرب وبلاء . وما لبث أن تصدت له فئة أخرى كبيرة من عسكر الكوفة بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص(٧) ، ابن قائد فتح

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٧ . انظر نص كتاب ابن العباس ليزيد

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٢٤٤ . كان أمير الحجاز وقتئذ هو عمرو بن سعيد بن العاص . انظر . بعده .

(٣) نفسه ، ص ٢٤٥ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٣١ — ٢٣٢ ؛ ٢٧٦ . الفرزدق لقب غلب عليه بمعنى الرغيف الضخم ، الذى تجففه النساء للفتوت ، واسمه همام بن غالب بن صعصعة ، وهو توفى سنة ١١٤/٧٣٢ — ٧٣٣ . عنه ، انظر . الأغانى ، ١٩ ص ٢ فما بعدها ؛ Ency. de l'Isl, (art al-Farazdak), t 2, p. 64 — 65.

(٤) أبو مخنف ، فى مقتل الحسين ، ص ٢١ ؛ الخطط ، ٢ ص ٢٨٦ .

(٥) أبو مخنف ، فى مقتل الحسين ، ص ٢١ — ٢٢ .

(٦) نفسه ، ص ٢٤ . اختلف فى معنى هذا الاسم ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٢٩ .

(٧) أبو مخنف ، فى مقتل الحسين ، ص ٢٥ . اختلف فى عدد ما أرسله ابن زياد إلى الحسين ، فيقول أبو مخنف أنهم ثمانون ألفاً (نفسه) ، ويقول ابن الأثير أربعة آلاف . (الكامل ، ٣ ص ٢٨٢) ، ويقول الذهبى نحو ألفى فارس (تاريخ الدول ، ١ ص ٢٩) . عن سعد ، انظر . أسد الغابة ، ٢ ص ٢٩٠ فما بعدها .

فارس، وأحد أنصار عثمان المعروفين، حيث نزلت بإزائه أيضاً فى كربلاء. فعرض الحسين على ابن سعد أن يرجع إلى المكان الذى أقبل منه، أو يذهب إلى الثغور، ولكن ابن زياد كان قد أصدر أمره بأنْ يُسلّمَ الحسين أو يُقتل[1].

لم يكن إذن بد من أن يقاتل الحسين وأصحابه، فوضع حطباً وقصباً فى مكان منخفض من ورائهم، وأضرم فيه النار، لئلا يؤتوا من خلفهم[2]. وحاول الحسين أن يستميل أعداءه بخطبهم[3]، بما كان قد عرف عنه من الفصاحة، ولكن عسكر أعدائه لم يؤثر فيهم قوله. فلما عطش أرسل جماعة من أصحابه لتأتى بالماء من الفرات، فقتلهم جند ابن سعد ورُشقت قرب الماء بالنبال[4]. كذلك أرسل ابن سعد رماة النبال فقضوا على خيل الحسين، كما أحرقوا خيامه على من فيها من النساء، ورشقوهن بالنبال والحجارة[5]. فكان أهل بيت النبي يقاتلون بشدة، وهم يتقون الحسين بوجوههم ونحورهم، ويتنافسون فى أن يقتلوا بين يديه، حتى أصبح أغلبهم ما بين قتيل وجريح[6]، فقتل ولده وإخوته وبنو أخيه وبنو عمه، وهم الذين يذكرهم الأصبهانى بأسمائهم فى كتابه: مقاتل الطالبيين[7]. ولكن الحرَّ بن يزيد - الذى كان على الخيل - حركته النخوة فنزل عن ظهر جواده، وجعل يقبل يد الحسين ورجليه، ووهب نفسه للقتال[8] معه، حتى

---

(١) الكامل، ٣ ص ٢٨٤؛ الخطط، ٢ ص ٢٨٧.

(٢) الكامل، ٣ص٢٨٦ س ١٦ — ١٧.

(٣) أبو مخنف، فى مقتل الحسين، ص ٢٦ — ٢٧.

(٤) نفسه، ص ٢٧ — ٢٨.

(٥) الكامل، ٣ ص ٢٩١.

(٦) أبو مخنف، فى مقتل الحسين، ص ٣١.

(٧) مقاتل الطالبيين، ص ٥٥ فما بعدها.

(٨) أبو مخنف، فى مقتل الحسين، ص ٣٦.

قتل . وحينما أخذ الحسين طفلاً صغيراً فى حجره ؛ ليسكته من تلظيه بالعطش ، رمى رجل الطفل بسهم فذبحه[١] ؛ وأخيراً لم يبق غير الحسين ، وابن مريض[٢] وبعض النسوة[٣] .

ولقد تردد جنود ابن زياد فى أول الأمر فى قتل الحسين ، حتى أنهم كانوا يتفادونه[٤] . ولكنه لما طلب الماء ؛ أرسل أحد الجنود نحوه سهماً اخترق صدغه . ثم نزل إليه رجل آخر ليضربه بالسيف ، وانتزع سيفه منه ، الذى هو سيف النبي المسمى بذى الفقار[٥] ؛ فصار الحسين يضرب بسكين[٦] . ولكن تكاثر الجند عليه وأخذوا فى ضربه حتى استسلم ؛ فكان يقوم ويكبو . فنزل إليه رجل نكرة من الحاقدين قبيح المنظر أبرص ، اسمه شمر بن ذى الجوشن[٧] ، وركب صدره الشريف وحز رأسه ، ثم وطئت الخيل جسده . فكان قتله فى يوم الاثنين لعشر خلون من المحرم سنة ٦١/[٨] ١٠ اكتوبر ٦٨٠ ؛ ووجد فيه أكثر من ثلاث وثلاثين طعنة ، وأربع وأربعين ضربة .

---

(١) نفسه ، ص ٣٩ .

(٢) كان للحسين ابنان اثنان باسم على ، وقتل الأكبر ، وأما الأصغر وهو ابن ثلاث أو أربع وعشرين سنة ، فلم يقتل ، وعرف بزين العابدين . عن سيرته ، انظر . ابن سعد ، ٥ ص ١٥٦ فما بعدها ؛ Ency. de l'Isl, (art 'Alī B. al-Husaīn) t 1, p. 290.

(٣) انظر . بعده .

(٤) أبو مخنف ، مقتل الحسين ، ص ٤١ فما بعدها ؛ الخطط ، ٢ ص ٢٨٨ ؛ مقاتل الطالبيين ، ص ٨٦ .

(٥) كان هذا السيف قد غنمه النبي يوم بدر (ابن هذيل ، حلية الفرسان وشعار الشجعان ، طبعة دار المعارف ، ص ١٨٥) . وسمي بذى الفقار لأنه كان يشبه فى شكله فقرات الظهر (زكى ، كنوز الفاطميين ، القاهرة ١٩٤٠ ، ص ٥٤) . وقد انتقل السيف إلى حيازة العباسيين ، ومن بعدهم إلى الفاطميين . النعمان ، المجالس والمسايرات ، مخطوطة بجامعة القاهرة برقم ٢٦٠٦٠ ، ١ ورقة ١٣٨ ؛ انظر أيضاً ، ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ٦٧ — ٦٨ وهامش (٤) .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٢٩٥ س ٢٣ — ٣٤ .

(٧) أبو مخنف ، فى مقتل الحسين ، ص ٤٣ فما بعدها .

(٨) النوبختى ، ص ٢٥ . يقول الأصبهانى فى يوم الأربعاء أول المحرم . مقاتل . الطالبيين ، ص ٥٤ .

وقد حملت رءوس الحسين وأصحابه والسبايا إلى الكوفة فى موكب سارت فيه العسكر براياتها وبوقاتها ، وقد تعطلت الأسواق [(١)] . ويروى المؤرخون أن ابن زياد مد عصاه نحو الفم الملوث بالدماء يعبث به ، فقال أحد الحاضرين : « لقد رأيت شفتى رسول الله (صلعم) على هاتين الشفتين يقبلهما [(٢)] » . وكان ابن زياد عزم على قتل علىّ بن الحسين ؛ ليخلّص الأمويين من هذا النسل ، لولا أن عمته زينب تعلقت به ، فتركه [(٣)] . وقد أمر ابن زياد بأن يُطاف برأس الحسين فى الكوفة ، حيث كان المنادى يقول : « مات الكذاب بن الكذاب » ، ثم أرسل بالرءوس والسبايا إلى الشام [(٤)] . ولكن الخليفة يزيد هالته المذبحة وحاول التملص منها ، ولعله ندم على قتل الحسين [(٥)] ، خصوصاً وأن أباه معاوية كان قد طلب منه أن يصفح عن الحسين، إذا خرج عليه وظفر به لقرابتهما [(٦)] ، لذلك أمر يزيد بإطلاق سراح الأسرى ، وسمح لهم بالرجوع إلى الحجاز [(٧)] .

---

(١) أبو مخنف ، فى مقتل الحسين ، ص ٤٨ فما بعدها ؛ مقاتل الطالبيين ، ص ٨٧ . الذين نجوا من هذه المذبحة : على بن الحسين ، وعمر بن الحسن (وليس الحسين) ــ وكان صغيراً ــ وفاطمة وسكينة بنتا الحسين ، وزينب بنت على (الكامل ، ٣ ص ٢٩٩ ؛ انظر . دونلدسن ، عقيدة الشيعة ، ص ١١٤) . ولكن أبا مخنف يضيف إليهم : أم كلثوم أخت الحسين ، وبعض النسوة لعلهن من الجوارى ، وهن : عاتكة وصفية ورقية ؛ ولا يذكر فاطمة أو عمرو (انظر . فى مقتل الحسين ، ص ٦٧) . ويقول الدينورى لم ينج من أصحاب الحسين وولده وولد أخيه إلا ابناه على الأصغر ، والأعمر ، وأحد أصحابه اسمه المرقع ، ومولى له . هذا بالإضافة إلى نساء الحسين وأخواته وبناته وجواريه وحشمه (الأخبار الطوال ، ص ٢٥٦) .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٢٩٦ س ١٩ ـــ ٢٠ . ورد أيضاً أن يزيد فعل ذلك . انظر . نفسه ، ٣ ص ٢٩٨ ـــ ٢٩٩ .

(٣) أبو مخنف ، فى مقتل الحسين ، ص ٥٠ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ١٥٧ .

(٤) أبو مخنف ، فى مقتل الحسين ، ص ٥٢ .

(٥) الكامل ، ٣ ص ٣٠٠ س ٢ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٢٥٩ .

(٧) ابن سعد ، ٥ ص ١٥٧ .

لم تكن هذه الذرية تستطيع أن تعمل شيئاً ضد بنى أمية ، بعد أن قتل معظم أفرادها ، وبذلك تأكد إنتصار هؤلاء على بنى هاشم أكبر المنافسين لهم . ولكن هذه البقية من آل أبى طالب أصبحت مقدسة ، وظهر لها دعاة كثيرون بين الفرس على الخصوص ، الذين نظروا إليها نظرة كسروية ؛ لأن الحسين كان قد تزوج جها نشاه ابنة يزدجرد آخر ملوك الفرس ، وهى أم علىّ ابن الحسين[1] . فاعتبر الفرس مقتل الحسين فى كربلاء مصيبة قومية عظمى[2] ، فأقبلوا على الدعوة لآل البيت ، مما مهد إلى سقوط دولة بنى أمية ، وقيام دولة بنى العباس .

وقد إعتبر سفك دم الحسين فى سهل كربلاء عند الشيعة ؛ ذا قيمة فى التضحية تشبه سفك دم المسيح عند المسيحيين،واعتبر أنه لم يجر فى الإسلام أعظم فحشاً منه[3]. ولقد أصبحت التربة التى قتل فيها الحسين مقدسة عند الشيعة كماء زمزم ، حتى أن بعضهم يأكلها[4] ؛ وإن حرم بعض أئمة الشيعة ذلك . ولما سيطر ملوك البويهيين الشيعة على الخلفاء العباسيين فى العراق[5]، أقاموا لجسده الشريف مشهداً فخما بكربلاء[6]، كما

---

(١) النوبختى ، فرق الشيعة ، ص ٥٣ (آخر الصفحة) . وعلى العكس يقول ابن سعد إن امه اسمها غزالة . إبن سعد ، ٥ ص ١٥٦ ، انظر . بعده .

(٢) انظر . دونلدسن ، عقيدة الشيعة ، ص ١٠١ .

(٣) الفخرى ، ص ١٥٨ .

(٤) انظر . دنلدسن ، عقيدة الشيعة ، ص ١٠٤ .

(٥) هى أسرة فارسيه ، ظهرت فى نواحي الديلم ، وسيطرت على خلفاء بغداد إلى مجىء طغرلبك ، سلطان السلاجقة . انظر. Ency. de l'Isl,(art Bûyides) t I, p. 827 sqq

(٦) انظر . Ency. de l'Isl, (art Meshhed Husaïn) t 3. p. 543 sqq.

أقاموا لوالده علىّ مسجداً بالنجف بظهر الكوفة(١) ، وهى التى كان قد دفن فيها سراً عند قتله سنة ٤٠/٦٦١ ، خوفاً من أعدائه بنى أمية . أما رأس الحسين ، فاختلفت الروايات فيما جرى بشأنها ، فدفنت بعسقلان من أعمال فلسطين بعد عرضها على يزيد ، فلما جاءت الدولة الفاطمية الشيعية إلى مصر ، وهاجم الصليبيون عسقلان ، نقل الفاطميون الرأس إلى القاهرة ، وأقاموا لها مشهداً فى سنة ٥٤٩/١١٥٤ ، لا يزال يحمل اسمه إلى الآن(٢) .

وقد جرت العادة عند الشيعة على الاحتفال بذكرى مقتل الحسين فى اليوم العاشر من المحرم ، ويُعرف باسم عاشوراء(٣) . وفى عهد الدولة الفاطمية فى مصر ، كان يقام إحتفال يناسب الذكرى الحزينة(٤) : فتقفر الشوارع ، فلا يخرج إليها أحد ، وتغلق الدكاكين ، وتعطل الأسواق . وفى نهاية ذلك اليوم يذهب كبار رجال الدولة وأشياع المذهب ، ومعهم القراء إلى المشهد الحسينى ؛ ليستمعوا إلى القرآن ومراثى الشعراء ، وبعض الأناشيد الدينية ، ثم يدعى كبار الحاضرين إلى قصر الخليفة ، فيجلسون فيه على دكك خشبية أو حصر ، ويستمعون إلى القراء من جديد ، وتلقى كلمات مناسبة ، ثم يقام لهم سماط الحزن ، وتقدم إليهم المأكولات الخشنة ، مثل العدس الأسود ، والخبز المغبر لونه ، والأجبان والمخللات ، والألبان

---

(١) الأصطخرى ، مسالك ، ص ٨٢ — ٨٣ ؛ معجم البلدان ، ٨ ص ٢٢٦ ؛ انظر . آل محبوبة ، ماضى النجف وحاضرها ، صيدا ١٣٠٣ هـ ، ص١٦فما بعدها ؛ Ency. de l'Isl, (art al-Nadjaf) t 3, p. 871 sqq. ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٧٠ .

(٢) الخطط ، ٢ ص ٢٨٣ — ٢٨٤ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ١ ص ١٩١ . اختلف فيمن أحضر الرأس ، فلعله الوزير بدر الجمالى أو ابنه الأفضل . أما المشهد فقد أنشىء فى عهد الوزير طلائع بن رزيك . عن عسقلان ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ١٧٤ .

(٣) الخطط ؛ ٢ ص ٢٨٩ فما بعدها . اختلف فى أصل هذه التسمية ، فلعلها تعنى عيداً يهودياً أو عيداً من أعياد الجاهلية ؛ وإن كان يبدو أنها تعنى هنا العاشر من شهر المحرم . انظر . Ency de l'Isl (art 'Ashûrâ') t 1, p. 493.

(٤) الخطط ، ٢ ص ٢٩٠ — ٢٩١ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، ٢ ص ١٢٨ — ١٢٩ .

والعسل الأسود ، فكان البعض يأكل منه والبعض الآخر يمتنع ، وإن كان الحزن يظهر على وجوه جميع الحاضرين . وعلى خلاف ذلك كان الأمويون يحتفلون بهذه الذكرى — كما يقول البيرونى (١) — وقد لبسوا ما تجدد وتزينوا .

وقد دل انتصار يزيد على الحسين ، على أنه من طراز أبيه ، وقرين بأساتذيته ؛ فقد انتصر أبوه قبله على علىّ ؛ وإن كان من المسلم به أن الحسين قاتل كالبطل الشجاع . ولا نلقى اللوم على أهل الكوفة لتقاعسهم ، إذا لم يكونوا يستطيعون شيئاً أمام الحكم الأموى القوى .

*

ولعل يزيد تخلص من منافسة بنى هاشم بقتل معظمهم فى كربلاء ، ولكن كان هناك عبد الله بن الزبير ، الذى لم يقبل هو الآخر مبايعته ، ولحق بالحسين فى مكة ؛ وأظهر أنه « عائذ بالبيت (٢) » . ولما أرسل عامل المدينة نحوه أخاه عمرو ابن الزبير على رأس جيش أموى ، قاتله عبد الله خارج مكة وهزمه وأسره (٣) .

ونحن نعرف من سيرة (٤) عبد الله أنه كان من أبناء المهاجرين ، وأول مولود منهم بالمدينة فى الإسلام ، إذا ولد فى السنة الأولى من الهجرة (٥) ، فأبوه

---

(١) البيرونى ، الآثار الباقية ، تحقيق Sachau ، طبعة Leipzig ، ١٩٢٣ ، ص ٣٢٩ .

(٢) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٣ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٦٥ س ٢٠ ؛ ٣٠٥ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٢٦٥ . مات عمرو تحت السياط .

(٤) أسد الغابة ، ٣ ص ١٦١ — ١٦٤ ؛ المعارف ، ص ١١٦ ؛ أنساب ، ٥ ص ١٨٨ فما بعدها ؛ انظر . Quatremère : Mém. sur la Vie d'Abd Allah, Ben Zobaïr. ext. J. A. Paris, 1852, 2ed. séire IX, 289 suiv. Ency. de l'Isl (art 'Abd Allâh B. al-Zubuaïr) t 1. p. 33 — 34 ; 2ed. I, p. 56—57.

(٥) ولد بعد الهجرة بعشرين شهراً . المعارف ، ص ١١٦ .

هو الزبير أحد حواري الرسول (١)، الذي كان رابعاً أو خامساً في الإسلام، وأحد العشرة الذين سماهم للجنة ، وأمه أسماء بنت أبي بكر، وخالته عائشة ، وجدته لأبيه صفيه بنت عبد المطلب عمة النبي ، وعمة أبيه خديجة بنت خويلد (٢)؛ فهو كريم الجدات والأمهات والخالات. واشتهر منذ صغره بشجاعته ، فعندما قدم عمر بن الخطاب وهو يلعب ، فر الصبيان ووقف هو ، فقال له عمر مالك لم تفر معهم، فقال: لم أجرم فأخافك، ولم تكن الطريق ضيقة فأوسع لك (٣). وقد شهد فتوحات الدولة الإسلامية في مصر وفارس ، وبخاصة في إفريقية حينما غزاها مع عبد الله بن سعد ، وقتل ملكها جُرجير (جريجوريوس) (٤) ؛ حتى أن الخليفة عثمان احتفل بعودته في مسجد المدينة ، وأصبح اسمه يتوافق مع اسم كبار الغزاة أمثال خالد وعمرو (٥) ، واعتبر من أشجع قومه (٦) . ونخال أنه شارك أطماع أبيه في الخلافة ، إذ كان أبوه أحد أصحاب الشورى (٧) ، فبايع عثمان مع معارضته ، وبايع عليّاً ونكث بيعته (٨)؛ وكان له أنصار في البصرة يبايعونه (٩) . ولكنه بعد قتل أبيه في موقعة الجمل (١٠)، اعتزل الفتنة ، إلى تولية معاوية الخلافة ، فبايعه .

وكان ابن الزبير ذا طموح كأبيه ، يتباهى دائماً في مجالسه بأصله ، حتى خافه معاوية ، واتهمه بأنه يريد أن ينازعه خلافته (١١). ولما جاء معاوية الحجاز

---

(١) عن سيرة الزبير ، انظر . أسد الغابة ، ٢ ص١٩٦ فما بعدها ؛ المعارف ، ص ١١٣ ؛ انظر Wüst : Die Familie el-Zubeïr. Gottingen, 1878. p. 28 sqq.

(٢) أسد الغابة ، ٣ ص ١٦١ ؛ المعارف ، ص١١٢ ؛ الذهبي ، تاريخ الدول ، ١ ص٢٩.

(٣) الكامل ، ٤ ص ٢٧ .

(٤) العبر ، ٦ ص ١٠٨ ؛ انظر . قبله .

(٥) انظر . Gibbon : Decline, 5, p. 355.

(٦) أسد الغابة ، ٣ ص ١٦٢ س ٣ .

(٧) المعارف ، ص ١١٣ .

(٨) أسد الغابة ؛ الكامل ، ٣ ص ٩٩ ؛ ١١٠ .

(٩) نفسه ، ٣ ص ٨٠ س ٣ — ٤ .

(١٠) عنها ، انظر . نفسه ، ٣ ص١٠٥ فما بعدها ؛ انظر قبله . التاريخ السياسي ، ١ ، ص ٢٦١ فما بعدها .

(١١) العقد ، ٢ ص ١٣٨ .

للحصول على البيعة لابنه بولاية العهد ، رفض ابن الزبير مبايعته ؛ وخيره بأن يصنع مثل النبي أو أبي بكر أو عمر ، وكلهم لم يول أحداً من ولده ، ولا من بني أبيه[١] ؛ حتى أن معاوية قبل موته حذر يزيد من ابن الزبير ، وشبهه بالثعلب في الروغان ، وبالأسد الذي ينتظر الانقضاض[٢] . وحينما تولى يزيد ، لحق ابن الزبير بالحسين في مكة ، وامتنع من بيعة يزيد[٣]، مع أن يزيد كان قد أرسل إليه الأمان[٤] . وقد سعى ابن الزبير في أول الأمر إلى أن يواليه الحسين في الحجاز[٥]، وكان يتوق إلى أن يخلو له الجو فيه[٦] ؛ إذ أنه لا يجرؤ على منافسته . فلما دعا أهل العراق الحسين ، حرضه على الخروج إلى الكوفة من غير إخلاص في ذلك .

وبعد مقتل الحسين اغتنم الفرصة ، وسيطر على مكة، وبويع له فيها[٧] ، واتخذ لقب أمير المؤمنين[٨] . ولم يكن عمرو بن سعيد الأشدق — عامل يزيد عليها — يستطيع أن يفعل شيئاً ضده ، حتى أنه لما أمره يزيد بإرسال ابن الزبير مقيداً ، أرسل عمرو إلى ابن الزبير سلسلة من فضة[٩]، واضطر عمرو إلى ترك مكة . ولعل أهل مكة بايعوا ابن الزبير ؛ لأنهم وجدوه أحق بها من يزيد ، فهو كهل قد بلغ الستين من عمره[١٠]، صوامٌ قوامٌ طويل الصلاة[١١] ، على نقيض يزيد الذي كان صغير

(١) الكامل ، ٣ ص ٢٥٢ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ ؛ الفخري ، ص ١٥٦ — ١٥٧ .

(٣) أسد الغابة ، ٣ ص ١٦٣ .

(٤) اليعقوبي ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٣ .

(٥) الكامل ، ٣ ص ٢٧٥ (آخر الصفحة) .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٢٦٦ س ٢٠ ؛ ص ٢٧٥ — ٢٧٦ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٣٠٥ س ١٠ .

(٨) مصنف مجهول ، ص ٣ .

(٩) الكامل ، ٣ ص ٣٠٥ .

(١٠) نفسه ، ٣ ص ٢٦٥ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٨ ؛ مصنف مجهول ، ص٥٧ .

(١١) أسد الغابة ، ٣ ص ١٦٢ س ٢ — ٣ .

السن[١]، ويوصف بالسكير الخمير[٢]. وقد ظهر لابن الزبير من بينهم حزب يناصره، يعرف بالزبيرية، يتكون من مواليه، وممن تألف إليه من أهل مكة وغيرهم[٣]. هذا إلى أن أهل مكة كانوا يرون أن إرثية الخلافة لا تتفق وسنة السلف؛ فكانت بيعتهم لابن الزبير على كتاب الله وسنة نبيه، وسيرة الخلفاء الصالحين[٤]. وكان ابن الزبير نفسه يتشبه بعمر بن الخطاب، ويحمل الدرة[٥].

ولما علم أهل المدينة — وهم الأنصار — بمقتل الحسين خلعوا طاعة يزيد[٦]، بعد أن كانوا قد بايعوه تحت التهديد، حينما أرسل إلى عامله كتاباً يقول فيه بأنهم إن لم يبايعوا سيضعهم تحت قدمية ليطأهم ويفنيهم[٧]؛ كما أنهم اجتمعوا وأجبروا بنى أمية على الجلاء عن مدينتهم[٨]. فقد كانوا يرون فى قتل الحسين إنتهاكاً لحرمة الإسلام[٩]، وكان يوم رجوع أبنائه ونسائه من دمشق، أشبه الأيام بموت النبي[١٠]. كذلك لعلهم ثاروا على الأمويين بناء على تحريض ابن الزبير، الذى كتب إليهم يدعوهم إلى معاضدته، وإخراج عامل الأمويين[١١]. هذا إلى أنهم كانوا يحقدون على الأمويين نقل الخلافة إلى دمشق، بحيث أصبحت مدينتهم لا تتعدى مصراً من الأمصار مثل الكوفة والبصرة؛

---

(١) انظر قبله.
(٢) المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ٤٠٤ س ٥؛ انظر قبله.
(٣) الأزرق، أخبار مكة، تحقيق Wust، ١٨٥٨، ص ١٣٩ س ١ — ٢.
(٤) أنساب، ٥ ص ١٨٨ س ٤.
(٥) نفسه، ٥ ص ١٨٩ س ٢١ — ٢٢.
(٦) اليعقوبى، تاريخ، ٢ ص ٢٩٨.
(٧) صبح الأعشى، ٦ ص ٣٩٠ — ٣٩١.
(٨) ابن سعد، ٥ ص ٣٦ س ٢١ — ٢٣.
(٩) الكامل، ٣ ص ٢٧٧ س ١٧.
(١٠) أبو مخنف، فى مقتل الحسين، ص ٦٧.
(١١) المسعودى، التنبيه والإشراف، ص ٤٠٢ س ٦ — ٧.

وإن بقيت لها قداسة خاصة في نظر المسلمين ، بسبب هجرة النبي إليها وبقائه فيها بعد فتح مكة ، فكانت تعرف هي ومكة : « بالحرمين [١] » .

وعلى الرغم من بيعة معظم أهل الحجاز وتهامة لابن الزبير[٢] ، فقد امتنع عن بيعته بعض كبار القوم من أبناء الصحابة في مكة والمدينة ، مع أنهم كانوا يحقدون على الأمويين ؛ ذلك لأنهم ربما أرادوا وقفها على إجماع الناس ، والتريث في إعطائها ، حتى تنجلي الأمور . والثابت المعروف من سيرهم ، أنهم لم يكونوا راغبين في الانغماس في الفتنة . كما حدث إبان الفتنة الأولى ؛ حينما اعتزلها بعض صحابة النبي[٣] .

فيبدو من سيرة عبد الله بن العباس[٤] ، وهو أكبر ولد العباس عم النبي ويكنى أبا العباس ، أنه اعتزل هذه الفتنة ، على الرغم من أنه في الفتنة الأولى حارب مع عليّ ، وكان أحد أمرائه ؛ لأنه كان يبغي بقاء الخلافة في بني هاشم . ولكن لما تنازل الحسن ، بايع ابن العباس معاوية مع بني هاشم ، واشترك مع ابنه يزيد في الصوائف ، ولعله بايع يزيد بولاية العهد ، حيث لا يذكره معاوية من بين النفر الذين رفضوا مبايعته بها[٥] . ولكن بعد وفاة معاوية ، اعتزل الفتنة

---

(١) معجم البلدان ، ٣ ص ٢٥٤ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art al - Madîna) , t 3, p. 89.

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٢٦٠ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ١٣١ س ٢٠ .

(٤) ولد والنبي في شعب مكة ، ولعله أسلم قبل أبيه العباس ، واشترك في الفتوح الإسلامية في مصر وإفريقية ، وحارب مع علي في موقعتي الجمل وصفين ، واستعمله على البصرة ، وإن فارقها وعاد إلى الحجاز . وقد أراد علي أن يجعله حكماً له في دومة الجندل ، ولكن شيعته حرضته على اختيار أبي موسى . وقد توفي ابن العباس في سنة ٦٨/٦٨٧ — ٦٨٨ أو حتى في ٧٠ / ٦٨٩ أو ٧٣ / ٦٩٢ . انظر عن سيرته : أسد الغابة ، ٣ ص ١٩٢ فما بعدها ؛ المعارف ، ص ٥٩ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art. Abd Allah B. al -' Abbâs) t I, p. 19 — 20 ; 2ed t I, p. 41 — 42.

(٥) الكامل ، ٣ ص ٢١٨ س ٦ ؛ انظر . قبله .

— وهو كان يقيم بمكة — وامتنع عن مبايعة يزيد ، وكتب له أنه بايع أباه على نفسه(١)، ونصح الحسين بالبقاء في الحجاز ، ورفض مبايعة ابن الزبير أيضا (٢). ونلاحظ أن موقفه من هذا الأخير جعل يزيد يكتب إليه ، ويحرضه على العصيان(٣) . ونعتقد أن سبب اعتزال ابن العباس لهذه الفتنة ، مع أنه سيد كبير مركزاً وعلماً ،حتى عُرف بالبحر لعلمه(٤) ، هو أنه وجد ألا فائدة من هذه الفتنة لبنى هاشم ، فلم يبايع هذا ولا ذاك (٥) .

أما محمد بن عليّ ، الذى عرف بابن الحنفية (٦) ؛ لأنه ليس من نسل فاطمة زوجة عليّ ، وإنما من زوجه الحنفية ،التى كانت من سبى اليمامة فى حروب الردة وصارت إلى عليّ ؛ فإنه اعتزل هذه الفتنة (٧) . وقد أعلن البيعة لمعاوية مع بنى هاشم ، وربما أجبر على بيعة يزيد بولاية العهد حينما جاء معاوية إلى المدينة ؛ ولكنه ترك المدينة إلى مكة بعد تولية يزيد الخلافة ؛ وإرساله جيشاً لإخضاع الفتنة بها(٨) . وقد نظر إليه بعض أهل مكة على أنه رجل الساعة ، إذ كان له حزب منهم يظاهره ؛ مما جعل ابن الزبير يخافه(٩) . ولما طلب منه هذا الأخير أن يبايعه رفض ،وقال .

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٦ . يقول ابن الأثير إنه بايعه . الكامل ، ٣ ص ٢٦٥ .

(٢) المرجع الأخير ، ٣ ص ٣١٨ س ٦ .

(٣) نفسه ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

(٤) أسد الغابة ، ٣ ص ١٩٣ س ١ — ٣ .

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٤ — ٢٩٥ .

(٦) ولد سنة ١٦ هـ/٦٣٧ ، وهو الذى كان الرسول قد منحه اسمه محمداً ، وكنيته أبو القاسم ، وقد اشترك مع أبيه فى موقعتى الجمل وصفين ؛ وتوفى فى سنة ٧٢/٦٩١ أو ٨١/٧٠٠ أو ٨٣/٧٠٢ . ابن سعد، ٥ ص ٦٦ — ٨٦ ؛ وفيات، ١ص ٦٤٠ — ٦٤٢؛ المعارف ، ص ١١١ ؛ انظر . Ency. de l'Isl,(art Muhammad B. al-Hanafiya) t 3, p. 716 — 717. ؛ انظر بعده

(٧) ابن سعد ، ٥ ص ٨٢ س ١٢ .

(٨) نفسه ، ٥ ص ٧٣ س ٥٣ .

(٩) نفسه ، ٥ ص ٦٨ ، ٦٩ ؛ ٧٥ ؛ انظر . دونلدسن ، عقيدة الشيعة ، ص ١١٢ .

إذا اتسقت لك الأمور[1] . وأكبر الظن أن اعتزال محمد بن الحنفية ، يرجع إلى ما وقع لأبيه وأخويه ، على يد بني أمية .

أما عبدالله بن عمر[2] ، وهو ابن الخليفة عمر بن الخطاب ، فقد اعتزل هذه الفتنة ، كما اعتزل الفتنة الأولى ، فلم يشهد مع عليّ شيئاً من حروبه[3]. وقد بايع معاوية بعد إجماع الناس عليه ، وبايع يزيد بولاية العهد بعد تردد . وحينما خرج الحسين وابن الزبير إلى مكة ، طلب ابن عمر منهما ألا يفرقا جماعة المسلمين[4]. ولم يكن الأمويون يتخوفونه[5]، فبايع ليزيد بالخلافة[6] ، وقال[7]. « إن كان خيراً رضينا ، وإن كان بلاء صبرنا » . ومن ثمة رفض أن يبايع ابن الزبير ، إذ كان من مبدئه ألا يبايع صاحب فتنة[8] ؛ ولعل ابن الزبير نفسه لم يجبره على بيعته[9]. أضف إلى ذلك أن ابن عمر لم تكن له أطماع فى الخلافة منذ أن رفضها له أبوه[10]، فكان يرفض أن يُسلِم أو يسلَّم عليه بها[11]، مع أنه كان هناك أناس يبايعون له ، ويعتبرونه سيداً للعرب وابن سيدها[12]. ولعله قنع بالتمتع بحياة الحواضر الحجازية كغيره من أبناء الصحابة : فكان يقتنى الغلمان والمماليك ، ويأكل البطيخ فى قيظ الحر ، ولا يشرب إلا فى قدح من عيدان ، ويدّهن فى اليوم

---

(١) ابن سعد ، ٥ ص ٧٣ ؛ أنساب ، ٥ ص ١٨٨ .
(٢) ابن سعد ، ٤/١ ص ١٠٥ — ١٣٨ ؛ انظر . قبله .
(٣) أسد الغابة ، ٣ ص ٢٢٨ .
(٤) الكامل ، ٣ ص ٢٦٥ س ١٨ .
(٥) نفسه ، ٣ ص ٢٦٥ س ١٧ .
(٦) نفسه .
(٧) ابن سعد ، ٤/١ ص ١٣٤ س ١٩ — ٢٠ ؛ انظر . قبله .
(٨) نفسه ، ٤/١ ص ١٢١ س ١ ؛ ١٢٦ .
(٩) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٤ .
(١٠) الكامل ، ٣ ص ٣٤ ؛ انظر . قبله وبعده .
(١١) ابن سعد ، ٤/١ ص ١١٤ .
(١٢) نفسه ، ٤/١ ص ١٢٤ — ١٢٥ .

مرتين ، ويصبغ لحيته بالزعفران والمسك ، ويتوضأ فى إناء مفضض[١] ، مما جعله يختلف فى معيشته كلية عن أبيه ، الذى كان يعيش على العيش الخشن وخبز الشعير ، والثوب الخام المرقوع مع القناعة باليسير[٢] .

أما علىّ بن الحسين[٣] ، فإنه بقى على بيعته ليزيد[٤] ، ولم ينضم إلى ابن الزبير ، وهو الذى أصبح يُعرف بعلى الأصغر[٥] ، ويلقب بزين العابدين[٦] ، تمييزاً له عن أخيه على الأكبر ، الذى قتل فى كربلاء . فلعل علىّ بن الحسين اتخذ جانب الأمويين ، لأنه لم ينس ما أصاب أفراد بيته على يد يزيد ، وكان يشبّه حال أسرته ببنى إسرائيل فى آل فرعون[٧] ، فكان موقفه هذا من الأمويين سبباً فى رضاهم عنه[٨] .

وعلى أية حال فقد وجه يزيد نحو أهل المدينة وابن الزبير جيشاً بقيادة مسلم بن عقبة[٩] ، وهو شيخ كبير كان فيه جفاء البداوة . وقد جاء اختياره بناء على توصية سابقة من معاوية[١٠] ، الذى كان يتوقع فتنة المدينة بعده ، فأعده لقمعها ، حيث كان قد اشترك بجانبه فى صفين ، وتفانى فى الإخلاص له . فسار مسلم

---

(١) نفسه ، ٤/١ ص ١٠٩ فما بعدها .
(٢) الكامل ، ٣ ص ٥٧ ؛ انظر قبله . التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٥٤ .
(٣) ابن سعد ، ٥ ص ١٥٦ — ١٦٤ ؛ المعارف ، ص ١١٠ ؛ انظر قبله .
(٤) الكامل ، ٣ ص ٣١١ .
(٥) ابن سعد ، ٥ ص ٨٦ ؛ ١٥٦ . كان مراهقاً . انظر . الأخبار الطوال ، ص ٢٥٦ . أو أنه لم يتعد الثلاثة والعشرين . ابن سعد ، ٥ ص ١٥٦ .
(٦) قطب الدين ، كتاب الإعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق Wust ، طبعة Leipzig ، ١٨٥٧ ، ص ٢٤ .
(٧) ابن سعد ، ٥ ص ١٦٢ س ١٤ — ١٦ .
(٨) الكامل ، ٣ ص ٣١٤ .
(٩) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٨ . عن سيرته ، انظر . انساب ، ٥ ص ١٢٦ ؛ المعارف ، ص ١٧٨ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣١١ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Muslim B. 'Ukba) t 3, p. 809 — 810 ;
(١٠) الكامل ، ٣ ص ٣١١ .

على رأس جيش سوري عظيم من أهل فلسطين والأردن سنة ٦٣ / ٦٨٣[١] ؛ فودعه يزيد ودعاه إلى محاربة أهل المدينة بشدة [٢] . وفى الطريق تقابل مسلم مع الأمويين المطرودين من المدينة ، فرجع بعضهم معه ، حتى نزل فى موضع بظاهرها ، عبارة عن أرض فيها حجارة سوداء [٣] ، عُرف : بحرّة واقم[٤] ، على اسم أطم من آطام اليهود ؛ وإن سميت الوقعة باسم : « الحرّة » فقط .

فاحتفر أهل المدينة لأنفسهم الخندق[٥] ، الذى كان النبى قد حفره حينما هاجمه كفار مكة وحلفاؤهم من البدو . ولكن الأمويين تمكنوا من دخول المدينة بمساعدة بعض العشائر ، وذلك بعد قتال شديد مع أهلها من الصحابة وأبنائهم ، الذين قتل منهم عدد كبير فى الخندق . وعندئذ لم يحجم مسلم عن إباحة المدينة لجنده ثلاثة أيام [٦] ، وأسرف فى القتل فسمى مسرفاً لقبيح صنيعه [٧] . فقتل جنوده كثيراً من شباب الأنصار ، ونهبوا الأموال ، وسبوا الذرية ، وانتهكوا

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٣١٠ ـ ٣١٤ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٩ ؛ أنظر . بعده .

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٢٦٠ .

(٣) الخشنى ، شرح السيرة النبوية ، ١ ص ٨ .

(٤) ياقوت ، معجم البلدان ، ٣ ص ٢٦٢ . الآطام هى القصور والحصون أو الدور المسطحة السقوف . الأغانى (بولاق) ، ١ ص ١٥ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art al-Madina) t 3, p. 86.

(٥) التنبيه والاشراف ، ص ٣٠٥ س ٣ — ٤ .

(٦) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٨ ؛ المعارف ، ص ١٧٨ .

(٧) الأغانى (دار الكتب) ، ١ ص ٢٦ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ٢٦٢ .

الأعراض. كذلك أجبر مسلم أهل المدينة على البيعة ليزيد على أنهم عبيد له لإذلالهم، ومن تلكأ كان يضرب عنقه. وبذلك نفذ وعده ليزيد بأن يجعل مدينة الرسول أسفلها أعلاها [١]، وأخذ الأمويون بثأرهم من أهلها، الذين حاربوهم وقت النبي، وقتلوا عثمان [٢]. ومن المحقق أن الذى عجل بانكسار أهل المدينة، هو أنه لم يتزعمهم أحد من بنى هاشم، الذين لزموا بيوتهم [٣]، أو أحد من سادة العرب المعروفين: فكان علىّ بن الحسين ينهى عن القتال [٤]، وأرسل إلى يزيد كتاباً يقول له فيه إنه ليس فى هذه الفتنة [٥]، وكان ابن عمر يؤنبهم على فتنتهم ضد يزيد [٦]، وابن الحنفية رحل إلى مكة حينما سمع بقدوم جيش يزيد [٧]، وابن العباس كان يقيم بمكة منذ تولية يزيد.

بعد المدينة انصرف مسلم إلى مكة وهو مريض «مدنف»، فمات بعد أيام ولم يصل إليها، ودفن بِقُدَيد [٨]، وهو وادٍ قريب من مكة يطل عليه جبل المشلَّل. فتولى بعده الحُصين بن نُمير السكونى [٩]، الذى كان صاحب شرطة ابن زياد بالكوفة وقت خروج الحسين [١٠]، فمضى الحصين بالجيش الأموى إلى مكة سنة ٦٨٣/٦٤. وقد أخذ الحصين فى مناوشة ابن الزبير، ورمى الحرم بالمجانيق

---

(١) اليعقوبى، تاريخ، ص ٢٩٨.

(٢) انظر. Arab. p. 160. : Well

(٣) ابن سعد، ٥ ص ١٥٩ س ١٥.

(٤) نفسه، ٥ ص ١٦٠ س ١٤ — ١٥.

(٥) الكامل، ٣ ص ٣١١ س ١٦.

(٦) ابن سعد، ٤/١ ص ١٣٤

(٧) نفسه، ٥ ص ٧٣ س ٢٣.

(٨) اليعقوبى، تاريخ، ٢ ص ٢٩٩؛ المعارف، ص ١٧٨. عن الوادى (انظر معجم البلدان، ٧ ص ٣٨)، أما عن الجبل (فانظر. نفسه، ٨ ص ٦٧). انظر أيضاً Ency. de l'Isl, t 3, p. 1226.

(٩) اليعقوبى، تاريخ، ٢ ص ٢٩٩ — ٣٠٠؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art al-Husaîn B. Numair) t 2, p. 362.

(١٠) الكامل، ٣ ص ٢٧٧ س ٧ — ٨.

والنفط ، فتصدعت حيطان الكعبة [١] ، وتناثرت حجارتها [٢] ، واحترقت كسوتها وخشبها ، وإن قيل إن حرقها كان من نار أوقدها أصحاب ابن الزبير حول الكعبة ، فأقبلت شرارة فتعلقت بأستار الكعبة وخشبها ، فاحترقت جميعها[٣].
وفى أثناء ضرب المجانيق كان أصحاب ابن الزبير قد جعلوا حول البيت بيوتاً خشبية ، وخياماً يحتمون بها من الحجارة [٤] ؛ فكان كلما هُدم جزء من الكعبة أراه ابن الزبير لقريش [٥] ، كما لم يحاول إطفاء حريق الكعبة ، وإنما تركها ليراها الناس محترقة ؛ ليحرضهم على قتال جند الشام [٦] . وفى أثناء الحصار أتى الحصين الخبر بموت يزيد ، فتفاوض مع ابن الزبير على أن يفك الحصار [٧] ، ويذهب به إلى الشام ، حتى يقطع الطريق على الراغبين فى الخلافة من بنى أمية[٨]، على شرط أن يتنازل عن المطالبة بدم قتلى أهل المدينة والحرَّة . ولكن ابن الزبير رفض أن يخرج من الحجاز ، وطلب من الحصين أن يبايع له هناك ، فعاد بدونه إلى الشام ومعه الأمويون .

ولما رفع الحصار عن مكة عمل ابن الزبير على إعادة بناء الكعبة ؛ فهدمها

(١) فتوح البلدان ، ص ٤٦ .

(٢) الأزرق ، أخبار مكة ، ص ١٣٥ — ١٣٦ .

(٣) نفسه ، ص ١٣٩ — ١٤٠ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣١٦ ؛ فتوح البلدان ، ص ٤٦ ؛ انظر . Gaud-Demombynes : La Voile de la Ka'ba. Stvdia, Islamica, 2, p. 10.

(٤) الأزرق ، ص ١٣٧ ؛ ١٣٩ .

(٥) نفسه ، ص ١٥٠ .

(٦) نفسه ، ١٣٦ ؛ ١٣٩ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣١٦ .

(٧) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٩ ؛ ٣٠١ — ٣٠٢ ؛ المعارف ، ص ١٧٨ .

(٨) الكامل ، ٣ ص ٣١٩ س ١٤ — ١٥ .

من أساسها(١) ، على الرغم من معارضة أكثر الناس(٢) ، وتلكؤ العمال(٣) ، حتى أنه خرج معظم أهل مكة خوفاً ؛ فما كان من ابن الزبير إلا أن بدأ هدمها بنفسه . وقد جلب ابن الزبير لبنائها كل ما تحتاج إليه من صنعاء باليمن ؛ فجعل بناءها على قواعدها الأولى التى وصفها الرسول(٤) : فوسع الجوانب وأقام العمد، ورد الركن الأسود فى موضعه بالداخل، وزخرفها بالفسيفساء والرخام ، كما جعل لها بابين ليكون أحدهما للدخول والآخر للخروج . فلما فرغ من بنائها خلّق جدرانها من داخلها وخارجها بالمسك والعنبر ، وكساها بالديباج(٥) . وأثناء الهدم لم يبق ابن الزبير الناس بدون قبلة أو مطاف ، وإنما نصب حول الكعبة الخشب ، وجعل عليها الستور ، أما الحجر الأسود فلفه فى حرير ووضعه فى بيته فى صندوق إلى أن أعاده . فكان هذا الهدم للكعبة هو الثانى منذ عهد النبى على حسب روايات مؤرخى العرب(٦) ؛ إذ أنها كانت قد

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

(٢) الأزرقى ، ص ١٤١ .

(٣) قطب الدين ، ص ٨١ .

(٤) الأزرقى ، ص ١٤٢ — ١٤٣ ؛ ١٤٤ ؛ ١٥٣ ؛ قطب الدين ، ص ٨١ — ٨٢ ؛ المسعودى ، مروج ، ٥ ص ١٩٢ — ١٩٣ ؛ أنظر . Ency. de l'Isl, (art Ka'ba) t 2, p. 624.

الفسيفساء فصوص من الزجاج الملون . انظر بعده.

(٥) يدل هنا الاسم على نوع من القماش اللامع . انظر . Supplément,: Dozy aux Dictionnaires arabes , 2éd I, p. 421 ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٥ وهامش (٥) .

(٦) ابن هشام ، ١ ص ١٢٢ فما بعدها . يبدو من أقوال الروايات العربية ، وهى لاتخلو من الأساطير ، بأنها بنيت عدة مرات قبل الإسلام ، وقد اختلف فى عدد مرات بنائها ، التى قد تبلغ العشر . أنظر . قطب الدين ، ص ٢٣ فما بعدها .

هدمت قبل مبعثه بخمس سنين ، بسبب السيول والحاجة إلى تسقيفها ورفعها ، واشترك النبي بنفسه في رفع الحجر الأسود [١] .

ونخال تمسك ابن الزبير بالبقاء في الحجاز لم يكن من السياسة في شيء ، بحيث قال له الحصين [٢] : « قبح الله من يعدك داهياً » . فمن الثابت أن الحجاز لم يكن يستطيع أن يحكم الامبراطورية العربية ، لخروج أكثر أهله إلى الأمصار في الفتوحات . وثمة أمر آخر ، فإن بقاءه في مكة كان سبباً في إضعاف حركته ، لأنها بلد حرام لا يقاتل فيها ، ولو أنه قاتل فيها فإنه يسيء إلى حرمة الكعبة .

* * *

توفي يزيد بن معاوية في سنة ٦٤/٦٨٣ [٣] ، بعد أن أثبت أنه كأبيه في دهائه وحلمه [٤] ، وقد لجأ إلى المبايعة المبكرة لأكبر أبنائه ، الذي سماه معاوية [٥] ، على اسم أبيه ، فبايعه جميع الناس بالآفاق إلا ابن الزبير وأهل مكة [٦] . وقد كان معاوية بن يزيد صغير السن ، ولم يتجاوز عمره حينما استخلف سبع عشرة سنة [٧] .

وقد خلق موت يزيد مركزاً صعباً للخلافة الأموية ، وزاد من اشتعال الفتنة : فنجد ولايات الامبراطورية تسرع بإخراج عمال بني أمية والمبايعة لابن الزبير [٨] .

---

(١) أسد الغابة ، ٣ ص ١٦٣ س ٩ .

(٢) ابن سعد ، ٥ ص ٧٥ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٣١٦ — ٣١٧ .

(٤) انظر . Lammens : Etudes, p. 163.

(٥) انظر عن سيرته : المعارف ، ص ١٧٨ — ١٧٩ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٢٧ ؛ انظر . Lammens : Etudes, p. 163 — 210.

(٦) ابن سعد ، ٥ ص ٢٧ س ٦ .

(٧) المعارف ، ص ١٧٩ . وقيل إحدى وعشرون سنة أو أكثر . الكامل ، ٣ ص ٣١٩ .

(٨) أنساب ، ص ١٣١ س ١٤ . فمثلا أخرج أهل البصرة زياد ابن أبي سفيان . انظر بعده .

الذى ظفر بمبايعة الحجاز والعراق واليمن ومصر(١)، وولى عليها عمالاً من قبله(٢)، مع أن نفوذه لم يكن يتعدى مكة طول حياة يزيد . لذلك بايع ابن الزبير لنفسه بالخلافة ، ولم يكتف بلقب أمير المؤمنين ، الذى كان قد اتخذه من قبل (٣) .

وزاد من تعقيد الأمور للخلافة الأموية ، أن سورية نفسها أصبحت مضطربة ؛ لوجود عداء بين عنصرى سكانها العرب المعروفين بأهل الشام (٤) ؛ وهما اليمنية والقيسية : فالأولى من سلالة هجرات قديمة وردت الشام قبـــل الإسلام ، واستقرت فيه ، وعرفوا أيضاً بقحطان(٥) ، على اسم قحطان ، أبو اليمن كلها كما يقول ابن هشام(٦)؛ وإن غلب عليهم اسم اليمنية(٧) أو اليمن(٨) أو اليمانية(٩) ، نسبة إلى موطنهـــم الأصلى . وهم قبائل عديدة أشهرها فى العصر الأموى قبيلة كلب(١٠) . الغنية بنوقها (١١) ، وكانت قد ورثت الغساسنة ، وتقيم

---

(١) المعارف ، ص ١١٦ .

(٢) أنساب ، ٥ ص ٢٧٣ فما بعدها .

(٣) المعارف ، ص ١٨١ س ٢ ؛ ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ١٩١ .

(٤) ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، ص ٣١٩ فما بعدها .

(٥) المقريزى ، النزاع والتخاصم ، ٦٥ .

(٦) ابن هشام ، سيرة ، ١ ص ٤ ؛ انظر أيضاً الهمداني ، الإكليل ، تحقيق نبيه فارس ، طبعه Princeton ، ١٩٤٠ ، ٨ ص ١٧٧ . أو أنه اسم عرف عن اسم مملكة قتبان ، التى ظهرت باليمن ، حوالى ما قبل ألف سنة قبل الإسلام . التاريخ السياسى ، ١ ص ٦٦ فما بعدها وهامش . انظر أيضاً Ency. de l'Isl, (art Kahtân) t 2, p. 669 — 67.

(٧) الأغانى ، ١٨ ص ٧٠ .

(٨) نفسه ، ١٨ ص ٦٩ .

(٩) الكامل ، ٣ ص ٢٥٨ س ٨ ؛ الأغانى ، ١٧ ص ١١١ س ١٣ .

(١٠) صبح الأعشى ، ١ ص ٣١٦ ؛ كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، دمشق ١٩٤٩ ، ٣ ص ٩٩٢ ؛ العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٤ ؛ Lammens : Arab, p. 133. : Well : Mo'âler, p. 288 n (7)

(١١) العقد ، ١ ص ١٥١ .

فى المدر والبوادى فى الأراضى الواسعة بين نجد والعراق وسورية[١] . أما الثانية فوردت قبائلهم أثناء الفتح الإسلامى من بدو الحجاز بخاصة ، واتخذوا أسماء متعددة ربما كانت على أسماء أجدادهم الأوائل ، مثل : الإسماعيلية والعدنانية والمضرية والنزارية[٢] ، وإن غلب عليهم اسم القيسية أو قيس[٣] ؛ بحيث أصبح هذا الاسم فى مقابل عرب اليمن قاطبة ، وقد اعتبروا أحدث هجرات العرب إلى الشام[٤].

ونحن لا نعرف سبب ظهور العداء بين اليمانية والقيسية بالشام ، فلعله قديم يرجع إلى عداوة أصيلة بينهما فى الجاهلية ، بسبب أنهما كانا من أصلين مختلفين ، وحدت بينهما طبيعة الجزيرة العربية ، فاعتبروا من سلالة واحدة[٥] ، أو بسبب النزاع على السيطرة ؛ فربما كانت اليمانية فى وقت من الأوقات تملك الجزيرة العربية كلها ، حتى أن عرب الحجاز كانوا لهم رعية[٦] ؛ فمثلاً خزاعة اليمانية كانت تسكن فى مكة قبل قريش ، والأوس والخزرج اليمانيتين بقيتا فى يثرب

---

(١) الأغانى ، ١٩ ص ٤٥ ؛ أنساب ، ٥ ص ٣٠٨ س ١٩ . مع أنها فى الجاهلية لم تكن تتعدى أطراف الشام . صبح الأعشى ، ١ ص ٣١٦ ؛ انظر . Lammens : Mo'âler, p. 288.

(٢) النزاع والتخاصم ، ص ٦٥ ؛ صبح الأعشى ، ١ ص ٣٣٦ فما بعدها .

(٣) ابن سعد ، ٥ ص ٢٩ س ١٤ ؛ انظر . Well : Arab, p. 170 ؛ كحالة ، معجم ، ٣ ص ٩٧٢ . لعله اسم شخص أوله ؛ فيقال عبد القيس . عن عبد القيس ، انظر . الكامل ، ٣ ص ٢٥٨ ؛ Ency. de l'Isl, (al - Kaîs) t 2, p. 691 — 692.

(٤) انظر . Lammens : Etudes, p 165

(٥) انظر . Bertram : Les Arabes, trad. Muret. Paris, 1946, p. 255 ؛ قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٦٦ — ٦٧ . فرق مؤرخو العرب بينهما : قسموا القحطانية العرب العاربة ، والإسماعيلية العرب المستعربة (ابن حزم ، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق وتعليق Lévi - Provençal ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٨٦ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ٣ ص ٢٢٣ — ٢٢٤ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٤٤ — ٤٥ وهامش (٧) ؛ مما يدل على أنه تذكار لتطور خاص بسكان الجزيرة منذ زمن بعيد .

(٦) انظر . على مظهر ، العصبية ، ص ١٣ ؛ Ency. 2, p. 670

إلى عهد النبي. وعلى العكس يرى المستشرق المنغارى جولدتسيهر «Goldziher»[1] ، أن العداوة بينهما حديثة ، ولم تظهر إلا بظهور الإسلام ، فقد بدت بشكل خطير فى حروب الردة ، التى كانت فى واقع الأمر عداء بين عرب الحجاز وقبائل يمانية فى أغلبها .

بيد أنه من الثابت المعروف أن العداء بينهما ازداد اشتعالاً فى الشام بمجىء الأمويين ، ونقلهم الخلافة إلى الشام ؛ مما أعاد ظهور العصبية العربية على الرغم من أن الإسلام حاول أن يقضى عليها بنصه على أن المسلمين أمة تسودها الوحدة الدينية[2] وكلمة عصبية تعنى تجمع القوم للنصرة ظالمين أو مظلومين[3] . فكان الخلفاء الأمويون يعملون على تقريب إحدى الطائفتين على حساب الأخرى ، حتى يتمكنوا من الاحتفاظ بسيادتهم[4] .

وقد بدأ الأمويون فى تقريب يمانية الشام من دون القيسية منذ عهد عثمان ، الذى تزوج نائلة بنت الفرافصة[5] ، وهى من قبيلة كلب اليمانية الكبرى على حدود الشام . ولما ولى معاوية الخلافة ارتبط أيضاً بوشائج القرابة مع هذه القبيلة ، فتزوج ميسون بنت بحدل بن أنيف الكلبية[6] ، وهى أم يزيد ؛ بحيث أن اليمانية أصبحوا أخوال يزيد . وفوق ذلك كان معاوية لا يفرض فى العطاء إلا لليمن[7] .

---

(١) انظر . Goldziher : Muhammedanische Studien 1ed. Halle, 1889 , 1, p. 78 ; n 13 : Weil Arab, p. 180 ;

(٢) القرآن ١٠ : ٤٧ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Umma) 4, p. 1070 ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ١٣٩ .

(٣) على مظهر ، ص ٦ ــ ٧ ؛ لسان ، ٢ ص ٩٦ .

(٤) انظر . بعده

(٥) أنساب ، ٥ ص ١٢ ــ ١٣ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٥٩ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٢٦١ ؛ أنساب ، ٥ ص ٣٠١ س ٢٢ ؛ المعارف ، ص ١٧٨ ؛ Ency. de l'Isl, (art Maïsûn) t 3, p. 104.

(٧) الأغانى ، ١٨ ص ٦٩ (آخر الصفحة) .

حتى كثرت فى عهده[١] ، وأصبحت بيدهم السلطة[٢] ؛ بل لعلهم سعوا أيضاً لديه فى ألا يدع فى الشام أحداً من مضر[٣] . وقبل موته أوصى معاوية يزيد بهم ، وقال له : إنهم منك وأنت منهم[٤] ؛ فكان يزيد يعتمد عليهم كلية فى خلافته ، وكان كل جيشه الذى أرسله إلى الحجاز منهم[٥] .

وقد أدى التعصب الأموى لليمن على حساب قيس ، أن تضعضع نفوذ هؤلاء ، مع أنهم أصحاب الفتح ، وهم الذين كانوا يحاربون فى الثغور ضد البيزنطيين ، واشتهروا بسد الثغور[٦] ؛ مما جعلهم يبغضون بنى أمية . ومع ذلك فلم يصل بُغض القيسية إلى حد الفتنة فى زمن معاوية ؛ لأنه كان جيد السياسة حسن التدبير ، فاستطاع أن يمنع أى إحتكاك بين اليمانية والقيسية ، وحارب بكليهما أهل العراق ، وكانت كل قبيلة فى جيشه فى صفين تكفيه اختها فى جيش علىّ[٧] . وفى عهد يزيد لم تعلن القيسية عصيانها كذلك ؛ ربما بسبب وجود عامله القيسى على دمشق ، الضحّاك بن قيس الفِهرى[٨] ، الذى عرف بولائه لمعاوية ولخلفه ،

---

(١) نفسه ، ١٨ ص ٧٠ س ١ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٢٥٨ .

(٣) الأغانى ، ١٨ ص ٧٠ س ٢ .

(٤) أبو مخنف ، فى مقتل الحسين ، ص ٤ .

(٥) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٩٩ .

(٦) وفيات الأعيان ، ٢ ص ٥٤٠ س ١٦ .

(٧) الكامل ، ٣ ص ١٥١ .

(٨) الأغانى ، ١٧ ص ١١ س ١٢ : ولد قبيل وفاة النبى ، وكان على شرطة معاوية ، وأغار على سواد العراق ، ثم استعمله معاوية على الكوفة بعد موت زياد ، وعزله فى سنة ٥٧/ ٦٧٦ — ٦٧٧ ، وهو الذى عمل على بيعة يزيد بولاية العهد . عن سيرته ، انظر . أسد الغابة ، ٣ ص ٣٧ — ٣٨ ؛ المعارف ، ص ٢١٠ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl. (art al - Dahâk B. Kaïs al - Fibrí) t 1,p. 915.

فهو ولا ريب قد لعب دوراً هاماً فى الاحتفاظ بولاء القيسية ليزيد . وإن كنا نعتقد أن شخصية يزيد القوية كانت أيضاً مانعة لثورة القيسية .

ولكن سنحت الفرصة أمام القيسية لتعلن غضبها بعد موت يزيد ، فالت إلى ابن الزبير عدو بنى أمية ومنافسهم . وليس لدينا معلومات دقيقة عن موقف معاوية ابن يزيد من القيسية ؛ فلعل الضحاك بن قيس احتفظ له أيضاً بولائهم ، وأخر من انفجار غضبهم ؛ إذ كان يسود فى دولته[1] . أضف إلى ذلك أن هذا الخليفة كان صغير السن ، ويحب الانعزال ولا يخرج للناس[2] ، فعرف بأبى ليلى لضعفه[3] ، وأن خلافته لم تدم أكثر من عشرين أو أربعين يوماً أو ثلاثة أشهر[4] . كما أنه فقد الثقة فى أحقية إخوته وأفراد أسرته فى الخلافة[5] ؛ فكان يرى أن جده معاوية نازع الأمر علياً مع أنه لم يكن أولى به منه[6] ؛ وهو لم يعقب[7] ولم يرض أن يستخلف أحداً[8] ؛ ليعمل على تعاقب الأمويين . وقد ضاعت سيرة هذا الخليفة الشبح[9] ، بين أصداء الفتن ، وربما مات مسموماً[10] ، أو مطعوناً[11] .

---

(١) ابن سعد ، ٥ ص ٢٧ س ٨ ؛ انظر . Gesch, der. Chalifen : Weil 1, p. 245; 275; 431 suiv.

(٢) ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ١٩١ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ٢٢٩ .

(٤) صبح الأعشى ، ٣ ص ٢٥٦ .

(٥) ابن قتيبة ، الإمامة ، حققة محمد الرافعي ، مصر ١٣٢٢ هـ ، ٢ ص ١٨ — ١٩ .

(٦) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٣٠٢ — ٣٠٣ ؛ ابن العبرى ، مختصر الدول ، ص ١٩١ .

(٧) المعارف ، ص ١٧٩ .

(٨) ابن سعد ، ٥ ص ٢٧ .

(٩) انظر . Etudes, p, 204 : Lammens
فمثلا لا يذكره بعض المؤرخين مثل « Denys » فى حولياته ، وإنما يذكر مباشرة مروان ابن الحكم ؛ انظر . Chronique, p. 9.

(١٠) الكامل ، ٣ ص ٣١٩ .

(١١) ابن قتيبة ، الإمامة ، ٢ ص ١٨ .

توفى معاوية بن يزيد فى نفس العام الذى توفى فيه أبوه ، فبادرت القيسية وعلى رأسها الضحاك بن قيس إلى مبايعة ابن الزبير (١) ، الذى كتب له عهداً بولاية الشام . وقد دعا الضحاك القيسية وأمراءهم إلى التجمع معه فى دمشق ، فأتوه من جميع أجناد الشام ، مثل(٢): حمص وقنسرين وفلسطين ، ماعدا الأردن . وأرجح الرأى أن قيسية الشام بايعوا ابن الزبير دون غيره ؛ لتبرمهم بسياسة بنى أمية فى تقريبهم اليمانية (٣) ، ولأنهم كانوا يرونه أولى أهل زمانه بالأمر ، لأنه ابن حوارى رسول الله ، ورجل له شجاعة وسن وفضل ، وأنه كان أيضاً من المطالبين بدم الخليفة عثمان(٤)؛ إذ أن القيسية كانوا ضمن أهل الشام الذين أيدوا معاوية ضد علىّ ، وحاربوا معه .

وعلى العكس تزعم جند الأردن — وكان فيه معظم كلب (٨) — الفتنة ضد القيسية ، ورفضوا مبايعة ابن الزبير ؛ حتى لا يمكنوا الحجازيين من الخلافة بعد أن بقيت فى الشام منذ أن نقلها معاوية إليها . وقد سعى إلى ذلك رؤساء(٥)

---

(١) ابن سعد ، ٥ ص ٢٧ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٣٢٦ ؛ العقد ، ٢ ص ٣١٤ — ٣١٥ . كان النعمان ابن بشير الأنصارى على حمص ، وهو الذى كان قد ولى الكوفة ثم حمص ليزيد ، وزفر ابن الحارث على قنسرين ، وناتل بن قيس على فلسطين ، وهذا الأخير أخرج العامل الأموى منها .

٣) انظر . قبله .

(٤) أنساب ، ٥ ص ١٢٨ س ١٠ — ١٣ .

(٨) العقد ، ٢ ص ٣١٤ (انتبه إلى الخطأ المطبعى) .

(٥) نفسه ؛ التنبيه والاشراف ، ص ٣٠٨ س ٤ .

اليمانية فى الشام ، ورجال بنى أمية من عمالها السابقين الذين تجمعوا فى الجابية[١]، مثل : حسان بن مالك بن بحدل الكلبي ، سيد قبيلة كلب وعامل معاوية وابنه يزيد على فلسطين[٢] ، وروح بن زنباع سيد من جذام ونائب مالك على فلسطين[٣]، وعبيد الله بن زياد الذى أخرجه أهل البصرة بعد موت يزيد فذهب إلى الشام[٤] ، وعمرو بن سعيد وهو من البيت الأموى ، وكان كأبيه والياً على الحجاز[٥]، وخرج من مكة بعد فتنة ابن الزبير[٦]، والحصين بن نمير السكونى الأمير الذى كان يتولى جيش يزيد فى الحجاز ، ورفض ابن الزبير أن يصحبه إلى الشام للبيعة له[٧] (Faute de Mieux) ، حتى يقطع به الطريق على الراغبين فى الخلافة من بنى أمية . واختلف الأمويون وأشياعهم طويلاً قبل اختيار خليفة لمعاوية بن يزيد : فمال بعضهم إلى أخيه خالد بن يزيد ، ولكن أغلبيتهم كرهوه لصبوته إذ كان غلاماً ؛ وأخيراً وقع اختيارهم على مروان بن الحكم لسنه وشيخوخته[٨] ؛ فهو يوصف بأنه شيخ قريش وسيد بنى أمية[٩] ؛ فبايعوه بالجابية فى ذى القعدة سنة ٦٤ / يونيو ٦٨٤[١٠] .

---

(١) هى قرية من أعمال دمشق . عنها ، انظر معجم البلدان ، ٣ ص ٣٣ .

(٢) ابن سعد ، ٥ ص ٢٨ ؛ أنساب ، ٥ ص ١٢٨ ؛ العقد ، ٢ ص ٣١٤ ؛ ٣ ص ٣٢٦ س ١٦ .

(٣) العقد ، ٢ ص ٣١٤ س ١٩ (آخر الصفحة) .

(٤) أنساب ، ٥ ص ١٣١ ؛ المعارف ، ص ١٧٧ س ١ — ٣ .

(٥) ابن سعد ، ٥ ص ٢٨ . وليها سنة ٦٠ . الكامل ، ٣ ص ٢٦٥ ؛ انظر بعده .

(٦) انظر عنه قبله ؛ وبعده .

(٧) أنساب ، ٥ ص ١٢٨ ؛ انظر . Well : Arab, p. 166 — 167. ؛ انظر . قبله .

(٨) الفخرى ، ص ١٦٤ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣٢٦ — ٣٢٧ ؛ التنبيه ، ص ٣٠٨ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٢٨ .

(٩) ابن سعد ، ٥ ص ٢٨ س ١ — ٢ . انظر أيضاً . التنبيه ، ص ٣٠٨ .

(١٠) ابن سعد ، ٥ ص ٢٩ س ٣ — ٤ .

ونلاحظ أن الخليفة الأموى الجديد ينتمى إلى فرع آخر من البيت الأموى غير فرع بنى حرب ، هو فرع بنى أبى العاص(١) أو أبى العاصى (٢)، وإن استمر نعت الخلافة بالأموية نسبة إلى جدهم أمية(٣)؛ فهو : مروان بن الحكم بن أبى العاص ابن أميه . ويتبين من سيرته(٤) : أن عمره كان ثمانى سنين حينما توفى النبى ، والأرجح أنه رحل مع أبيه الحكم بن أبى العاص إلى المنفى ، حينما طرده النبى خارج المدينة ، بسبب أنه كان يفشى أسراره ولم يحسن إسلامه ، فكان يعرف : « بطريد النبى(٥) » ؛ فبقى فى منفاه فى حياة النبى وخلافة أبى بكر وعمر ، إلى أن رده أخوه عثمان إلى المدينة . وقد تولى مروان المدينة لعثمان ، واشترك فى حملة ابن أبى سرح على إفريقية ، فكتب له الخليفة بخمس غنائمها ، مما جعل الناس ينكرون على عثمان تبذيره أموال المسلمين على أقربائه(٦). وبعدئذ نجد مروان يقاتل عن عثمان أثناء حصاره يوم الدار ، وكاد يُقتل فى سبيله . وبعد مبايعة علىّ خرج مروان من المدينة مع طلحة والزبير وعائشة مطالباً بدم عثمان ، فقاتل معهم فى موقعة الجمل وجرح أيضا .

ثم أخذ مروان الأمان من علىّ وبايع له ، ورجع إلى المدينة ولم يزل بها حتى

(١) المعارف ، ص ٣٥ ؛ ١٧٩ .

(٢) الأغانى (طبعة بولاق) ، ١ ص ١٠٣ س ٥ . هى خاصة بعبد الله بن عمر بن عمرو ابن عثمان بن عفان بن أبى العاصى بن أمية .

(٣) انظر . Ency. de l'Isl, (art Umaiyades) t 4, p. 1552

(٤) ابن سعد ، ٥ ص ٢٤ — ٣٠ ؛ أنساب ، ٥ ص ١٢٥ فما بعدها ؛ أسد الغابة ، ٤ ص ٣٤٨ — ٣٤٩ ، انظر Ency. de l'Isl, (art Marwân B. al-Hakam). L' Avènement des Marwânides, : Lammens : t 3, p. 354 — 355. et le Califat de Marwân 1er. Beyrouth, 1927, p. 1—147 (extrait de M. F. O. B. XII, fasc. 2).

(٥) انظر عن ذلك : المعارف ، ص ١٧٩ ؛ النقرى ، ص ١٦٤ . مات فى خلافة عثمان .

(٦) أنساب ، ٥ ص ٢٥ . انظر عن اشتراكه فى الحملة ، فتوح البلدان ، ص ٢٢٦ .

حصل معاوية على الخلافة . وقد تولى مروان لمعاوية عمل الحجاز عدة مرات[١]، واتخذ فى المدينة دار العباس ، وجعلها دار إمارته فعرفت لوقت طويل باسمه : « دار مروان[٢]» . ولما خلع أهل المدينة بيعة يزيد ووثبوا ببنى أمية وأجلوهم ، خرج مروان معهم ، وإن عاد إليها عقب موقعة الحرّة مع جيش مسلم بن عقبة . ويظهر أن آل مروان كانوا خير عون لمسلم ، فكتب يزيد إليه يشكره على معاونته لجيشه ، ويدعوه إلى الشام لينتفع بنصحه ؛ فقدم مروان عليه ، ولم يزل بالشام إلى أن ولى الخلافة .

ولا ينبغى أن نغفل ذكر طموح مروان لمنصب الخلافة ، ونصدق ما أورده المؤرخون من أنه لم يفكر فيها إطلاقاً لوجود غيره من بنى أمية[٣] ، حتى أنه همّ بالمسير إلى ابن الزبير ليبايعه ، ويأخذ منه أماناً لبنى أمية[٤] ، أو أنه حض ابن عمر ليبايع لنفسه[٥]. فنحن نرى أن أطماع مروان فى الخلافة ترجع إلى وقت مبكر ، منذ أن خرج مع عائشة وطلحة والزبير لقتال علىّ . وقد كان معاوية ابن أبى سفيان — قريبه — يخافه ، ولكيلا يتيح له تحقيق أطماعه ، كان لا يتركه فى ولاية الحجاز فترة طويلة ، بحيث جعلها بينه وبين سعيد بن العاص ، فكان يوليهما على التوالى[٦]، كما كان يوقع بينهما أحيانا[٧] . ومن ناحية أخرى ؛ كان مروان يحقد على معاوية ، فيحرض عليه عمرو بن عثمان ، ويقول له[٨]: « ما أخذ معاوية

---

(١) لا نعرف عدد مرات تولية مروان الحجاز : فلعله تولاها سنة ٤٢/٦٦٢ ، وسنة ٤٩/٦٦٩ . ابن سعد ، ٥ ص ٢٤ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٢٨ .

(٢) ابن سعد ، ٥ ص ٢٤٥ س ٧ .

(٣) أنساب ، ٥ ص ١٢٨ س ١٧ — ١٨ .

(٤) ابن سعد ، ٥ ص ٢٧ س ٢٢ — ٢٤ .

(٥) أسد الغابة ، ٣ ص ٢٢٩ س ٧ — ٨ .

(٦) انظر ، قبله .

(٧) الكامل ، ٣ ص ٢٤٦ .

(٨) النزاع والتخاصم ، ص ٣٨ س ١٧ — ١٨ .

الخلافة إلا باسم أبيك » ، كما عارض تولية يزيد فى ولاية العهد(١). ويثبت طموح مروان للخلافة أيضا ، أنه طالب معاوية بن يزيد أن يستخلف ، ويجعل الخلافة فى بنى أمية ، على أن تكون عُمرية أى بالشورى(٢) .

ومهما يكن فإنه بعد بيعته فى الجابية ، خرج مروان ومعه قبائل اليمانية من : كلب وغسان والسكاسك والسكُون ، ونزلوا مرج راهط ، وهو سهل شرق دمشق(٣) ؛ وعلى ميمنته عمرو بن سعيد ، وعلى ميسرته ابن زياد . فخرج إليهم الضحاك من دمشق فى جمع كبير من القيسية ، ومعه رؤساء الأجناد فى الشام ، ونزلوا بإزائهم فى مرج راهط . فانتهزت اليمانية بدمشق خروج القيسية منها واستولت عليها ، وبايعت لمروان وأمدته بالأموال والرجال والسلاح ، فكان هذا أول فتح على بنى أمية ، على حد تعبير ابن الأثير(٤). وقد تحارب الفريقان بعنف ، وقتل منهما مقتلة لم يُقتل مثلها فى موطن قط(٥) ؛ ولكن هزمت القيسية حينما قتل زعيمها الضحاك بالخديعة(٦): إذ أنه لما اشتد القتال طالبت اليمانية بالموادعة ، فلما آمن الضحاك شدت فرسانها عليه وقتلته . فعرفت الموقعة التى دارت بينهما بمرج راهط ، أو بالمرج فقط(٧) ؛ وكانت فى المحرم من سنة ٦٥/يوليو ٦٨٤(٨).

---

(١) الأغانى ، ١٨ ص ٧١ س ٢١ .

(٢) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٣٠٣ س ١٠ .

(٣) ابن سعد ، ٥ ص ٢٩ ؛ العقد ، ٢ ص ٣١٥ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣٢٨ ؛ الأغانى ١٧ ص ١١١ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (Mardj Râhit) t. 3. p. 293 — 4 ؛ Arab, p. 181 ; n (1) : Well ؛ L'Avènement, pp. 57—75 : Lammens - انظر . عن مرج راهط . معجم البلدان ، ٤ ص ٢١٧ ؛ ٨ ص ١٦ .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٣٢٨ س ١٣ — ١٦ .

(٥) تحاربا مدة عشرين ليلة .

(٦) العقد ، ٢ ص ٣١٥ .

(٧) الأغانى ، ١٧ ص ١١١ ؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٢١٧ ؛ انظر Ency , t 3, p. 355

(٨) وإن قيل أيضاً إنها كانت فى آخر سنة أربع وستين . الكامل ، ٣ ص ٣٢٨ .

وثمة نتائج ترتبت على هذه الوقعة أهمها : — حسب قول المسعودى[١] — رد ملك بنى أمية ؛ فبعدها قدم مروان دمشق ، وأعلن بيعته من جديد فى رجب ٦٥/٦٨٥[٢] ؛ كما أخرجت اليمانية فى الأجناد عمال القيسية وقتلتهم ، أو أجبرتهم على الهروب[٣] ؛ وبذلك استوثق الشام لمروان ، الذى استعمل عليه عماله[٤] . فلما أرسل ابن الزبير حملته إلى الشام بقيادة أخيه الأصغر مصعب ، جاء وصولها متأخراً فلم تجد عوناً من القيسية ؛ بحيث تمكن جيش مروان بقيادة عمرو بن سعيد من هزيمتها ، قبل أن تدخل الشام[٥] .

وفوق ذلك أثار مروان الاضطرابات ضد ابن الزبير فى أرجاء الامبراطورية العربية ، كما فعل معاوية من قبل بعد فوزه على علىّ فى التحكيم . فذهب مروان بنفسه إلى مصر ، واستولى عليها من واليها القيسى بمساعدة شيعة الأمويين ، وولى عليها ابنه عبد العزيز[٦] . وأرسل نحو الحجاز بعثاً كان فيه يوسف بن الحكم الثقفى وابنه الحجاج بن يوسف المعروف ، فدخل الأمويون المدينة[٧] ، ولكن جيوش ابن الزبير التى أرسلت من البصرة والكوفة تمكنت من هزيمتهم فى الرَّبذة[٨] ،

---

(١) التنبيه ، ص ٣٠٩ س ٥ — ٦ .

(٢) صبح الاعشى ، ٣ ص ٢٥٦ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٣٢٨ — ٣٢٩ .

(٤) نفسه ، ٣ص ٣٢٩ س٢ — ٣ ؛ انظر . L'Avènement, p.109 : Lammens

(٥) الكامل ، ٣ ص ٣٣٠ . عن سيرة مصعب ؛ انظر . بعده .

(٦) الخطط ، ٢ ص ٨٤ ؛ انظر سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص١٣١ فما بعدها . اسم واليها من قبل ابن الزبير هو : عبد الرحمن بن عتبه بن جحدم الفهرى.

(٧) أنساب ، ٥ ص ١٥٠ فما بعدها . يقول ابن عبد ربه إن عبد الملك هو الذى أرسل هذا البعث . انظر . العقد ، ٢ ص ٣١٨ .

(٨) أنساب ، ٥ ص ١٥٣ س ٩ ؛ المعارف ، ص ٢٠١ . لعل أبوه قتل فى هذه الموقعة . العقد ، ٢ ص ٣١٨ . عن الربذة ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٢٢١ — ٢٢٢ . عن سيرة الحجاج ، انظر . بعده .

خارج المدينة ، وهرب الحجاج وأبوه ؛ مما دعا إلى ابتهاج أهل المدينة[١] ، فعين عليها ابن الزبير أخاه مصعباً[٢] . وأرسل مروان بعثاً آخر عليه ابن زياد ضد القيسية فى الجزيرة ، حتى إذا فرغ سار إلى العراق[٣] .

ولكن مروان لم تتح له الفرصة للقضاء على الفتنة ؛ لموته المبكر بعد حكم قصير لم يدم أكثر من عشرة أشهر . وقد اختلف فى سبب موته : فلعله نتيجة لإصابته بالطاعون[٤] ، الذى كان منتشراً فى الشام والعراق ، وتسبب من قبل فى موت معاوية بن يزيد ، أو أنه مات مقتولاً[٥] ؛ بسبب أنه جعل ولاية عهده لابنيه عبد الملك وعبد العزيز[٦] ، وترك ما كان قد أطمع فيه خالد بن يزيد فى الجابية تحت إلحاح ابن اخته حسان بن مالك بن بحدل زعيم كلب[٧] ، مع أن مروان كان قد تزوج بأم خالد بقصد الإبقاء على وحدة بنى أمية[٨] ؛ فلعل أم خالد سمته أو خنقته[٩] ؛ إذ يبدو أنها هى الأخرى لم تتزوجه إلا لتبقى على الخلافة لابنها[١٠] .

---

(١) أنساب ، ٥ ص ١٥٣ س ١٩ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٣٥٦ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٣٥ س ١٣ — ١٤ ؛ ٣٤٧ .

(٤) صبح الأعشى ، ٣ ص ٢٥٦ .

(٥) المعارف ، ص ١٨٠ س ٢ .

(٦) ابن سعد ، ٥ ص ٢٩ س ١٧ ؛ أنساب ، ٥ ص ١٤٥ س ١١ .

(٧) ابن سعد ، ٥ ص ٢٩ س ١٦ .

(٨) نفسه ، ٥ ص ٢٨ س ١٩ .

(٩) نفسه ، ٥ ص ٣٠ ، أنساب ، ٥ ص ١٤٥ ؛ ١٥٩ ؛ انظر . بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ١٥٨ .

(١٠) أنساب ، ٥ ص ١٥٦ س ١٣ .

فإلى مروان يرجع الفضل فى الاحتفاظ للأمويين بالخلافة ، بعد أن كادت تطيح بهم وبها الزعازع . كما أن فى تولية عهده لاثنين دليلاً قوياً على وفور رغبته فى تفادى ماوقع بعد معاوية الثانى ؛ مما جعل جميع خلفاء الأمويين بعده يسيرون على سنته ، بتولية عهودهم لاثنين .

* * *

تولى عبد الملك بن مروان الخلافة بعد وفاة أبيه سنة ٦٥/٦٨٥[١] ؛ كنتيجة من نتائج انتصار مروان فى مرج راهط ، إذ لولاها لمـا بويع له بها . ويروى المؤرخون أن معاوية كان يعجب بعبد الملك ، كما تنبأ له غيره بالملك[٢] ؛ فهو يوصف على أنه شخصية جبارة ، شديد السياسة[٣] .

وقد ولد عبد الملك[٤] فى زمن عثمان سنة ٢٦/٦٤٦ — ٦٤٧ ، وشهد يوم الدار وهو صغير . وبعد أن أخذ أبوه الأمان من علىّ بقى فى المدينة ، فتميزت حياته فيها بحبه للفقهاء والعلماء ، وعرف بحمامة المسجد لمداومته على تلاوة القرآن[٥] . وقد تولى ديوان المدينة لمعاوية ، ولم يزل به حتى كانت الفتنة الثانية[٦] . فلما وثب أبناء المدينة ببنى أمية وأجلوهم ؛ خرج منها ، ولكنه ما لبث أن رجع إليها هو وأبوه

---

(١) صبح الأعشى ، ٣ ص ٢٥٧ ؛ المعارف ، ص ١٨١ .

(٢) مصنف مجهول ، ص ١٦١ .

(٣) الفخرى ، ص ١٦٧ .

(٤) عنه ، انظر بعض المراجع ، مثل : ابن سعد ، ٥ ص ١٦٥ — ١٧٥ ؛ مصنف مجهول ، ص ١٦١ فما بعدها ؛ المعارف ، ص ١٨٠ — ١٨٢ ؛ الفخرى ، ص ١٦٧ فما بعدها ، انظر . Ency.l de l'Isl, (art 'Abd al-Malik B. Marwân) t 1, p. 49 — 51; 2ed t 1, p. 75sqq.

(٥) مصنف مجهول ، ص ١٦٣ ؛ الفخرى ، ص ١٦٧ .

(٦) مصنف مجهول ، ص ٢٦١ س ١١ — ١٣ ؛ المعارف ، ١٨٠ .

مع جيش يزيد ، الذى تمكن من دخولها بفضل المعلومات الدقيقة ، التى قدمها بنفسه للقائد مسلم بن عقبة(١) . وبعد إقامة قصيرة ، ارتحل إلى الشام مع أبيه ؛ بناء على دعوة يزيد ، وبقى فيها إلى أن أدت الحوادث إلى تولية مروان الخلافة ، ومن ثم جعله الخليفة من بعده .

* * *

وقد كان الشام يغلى بالعصبية من جراء موقعة مرج راهط(٢) ، وزادها تأججاً قصائد الشعراء ، فكان اليمانية يفاخرون بانتصارهم فيها(٣) ، والقيسية يبكون على قتلاهم(٤) . ويبدو أن القيسية هى التى بدأت الحرب ، حينما استطاع أمير جند قنسرين زُفر بن الحارث الفرار بعد هزيمة المرج واتخاذ قَرْقيسياء على الفرات لحرب كلب(٥) ، فى المنطقة المعروفة بديار مُضر(٦) . فاجتمعت إليه سائر قيس من كل مكان ، بخاصة من منطقة الثغور الجزرية ، التى كان معاوية أنزلها بعض بنى تميم وأخلاط قيس وأسد وغيرهم(٧) . فكانت القيسية تهاجم كلب البوادى والحضر على السواء(٨) ، مما جعلهما يتحدان ضدها ؛ ويتخذان تَدْمُر(٩) الواقعة

(١) الكامل ، ٣ ص ٣١٢ ؛ الفخرى ، ص ١٧٠ .
(٢) أنساب ، ٥ ص ٣٠٨ س٤ ؛ انظر. Lammens : Avènement, p. 109
(٣) انظر ما ورد فى كتاب التنبيه ، ص ٣٠٩ فما بعدها .
(٤) انظر قول زفر بن الحارث :

أتذهب كلب لم تنلها رماحنا ويترك قتلى راهط هى ما هيا

الأغانى ، ١٧ ص ١١٢ . قيل إنه من كنده وليس من قيس . أنساب ، ٥ ص ٣٠٣ س ١١ .
(٥) الكامل ، ٣ ص ٣٢٦ س ١٥ ؛ ٣٢٩ س ٨ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٢٧ ؛ أنساب ، ٥ ص ٣٠١ . عن قرقيسياء ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٥٩ — ٦٠ .
(٦) المرجع الأخير ، ٤ ص ١١٧ .
(٧) فتوح البلدان ، ص ١٧٨ .
(٨) أنساب ، ٥ ص ٣٠٨ .
(٩) الأغانى ، ١٧ ص ١١٢ . عن تدمر ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٣٦٩ .

قرب حلب مكاناً لتجمعها . ولم تكن الحرب بين اليمانية والقيسية بقصد تولية خليفة كما حدث فى مرج راهط ، وإنما كانت حرب إبادة هدفها الثأر والتشفى لقتلاهما[1] .

ومن ناحية أخرى كانت حرب قيس أشد مع قبيلة يمانية أخرى اسمها تغلب[2]، يسكنون الجزيرة فى المنطقة المعروفة بديار رَبيعة غرب الدجلة[3] ، حيث كان معظمهم من البدو ، وليس بينهم إلا قليل من الحضر[4] ، وأكثرهم نصارى لهم أسقف[5] . فكانت تغلب من القبائل الحربية التى لا يهدأ لها بال إلا بالقتال والغارات والغزوات ؛ حتى أنهم كانوا يقولون إن تَغلِب تَغلِب[6] ، وأن البلاذرى يصفهم بأنهم قوم شديدة نكايتهم[7] : فنجدهم منذ أول الفتح يقاومون المسلمين مع الروم ، ثم انضموا إلى العرب وحاربوا معهم الروم ؛ كما رفضوا الإسلام ، وهموا باللحاق بأرض الروم لما طلب منهم دفع الجزية ، ولكن عمر أعفاهم منها لما فيها من إذلال بحكم أنهم عرب ؛ فكان يأخذ بدلها صدقة ، وإن اشترط عليهم ألا يكرهوا أولادهم على التنصر .

فانضمت هذه القبيلة إلى كلب فى قتال قيس دفاعاً عن بنى أمية[8] ، ولعل

---

(١) الأغانى ، ١٧ ص ١١٢ ؛ انظر أيضاً . Ency, t 3. p. 294

(٢) الأغانى ، ١٧ ص ١١٣ ؛ أنساب ، ٥ ص ٣١٤ . عنها ، انظر . كحالة ، معجم قبائل العرب ، ١ ص ١٢٠ فما بعدها ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ٩٧ . إذ هم من قضاعة .

(٣) الأغانى ، ٢٠ ص ١٢٧ ؛ انظر . Mo'âler, p. 396. : Lammens ؛ انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ١١٧ . ديار ربيعة بلاد واسعة فى الجزيرة .

(٤) الأغانى ، ١١ ص ٦٢ .

(٥) نفسه ، ٧ ص ١٨٣ س ٨ .

(٦) الكامل ، ٤ ص ٦ .

(٧) فتوح البلدان ، ص ١٨١ س ١٦ ؛ ١٨٢ — ١٨٣ ؛ أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٤٣ — ١٤٥ ؛ Ency. de l'Isl, (art Djizîya) t I, q. 1082

(٨) الأغانى ، ١٧ ص ١١٢ ؛ ١١٤ ؛ الكامل ، ٤ ص ٣ فما بعدها .

ذلك يرجع إلى أنها كانت حليفة لهذا البيت منذ معاوية ، الذى أحسن معاملة النصارى ؛ لحاربوا معه فى موقعه صفين(١) ؛ أو للرغبة فى مساندة كلب لأنها يمانية مثلها إذ هم من قضاعة ، أو لأنه كان هناك عداء قديم مع مضر المجاورين لهم(٢) . وقد بدأت الغارات بين قيس وتغلب بعد مرج راهط(٣) ، وأجج الشعراء السياسيون اشتعال العصبية بينهما ، وبخاصة الشاعر جرير الذى كان يسب ربيعة(٤) ، والشاعر الأخطل الذى كان يعرف بابن النصرانية(٥) ، ويسب مضر ويصول عليهم بشعره(٦) ؛ مما أعاد ذكرى الجاهلية(٧) . وقد وقعت بين الفريقين عدة وقائع وأيام(٨) ، وأغلبها كانت فى بلاد بالجزيرة ، مثل : يوم الثَّرثار(٩) ويوم الكُحَيْل(١٠) ؛ حيث حارب كماة فرسان تغلب بسائر بطونهم(١١) .

---

(١) الطبرى (Annales) ، ١ : ١٩٢٠ ؛ انظر . Mo'âler, : Lammens P. 400.

(٢) معجم البلدان ، ٤ ص ٢١٧ س ٥ — ٦ .

(٣) الأغانى ، ١١ ص ٦١ (آخر الصفحة) .

(٤) نفسه ، ٧ ص ١٧٣ س ٢٠ . وهو جرير بن عطية بن كليب من تميم ، توفى سنة ١١٠ / ٧٢٩ . عنه انظر . نفسه ، ٧ ص ٣٨ فما بعدها ؛ Ency. de l'Isl. (art Djarîr) t 1, p. 1054.

(٥) الأغانى ، ٧ ص ١٨١ س ٧ . الأخطل لقب غلب عليه ؛ حيث اسمه غياث ابن الصلت بن الطارقة . عنه ، انظر . ديوان الأخطل ، حققه وعلق حواشيه صالحانى ، بيروت ١٨٩١ ؛ الأغانى ، ٧ ص ١٦٩ فما بعدها ؛ Lammens : Etudes, p. 211sqq ؛ Ency. de l'Isl, (art al-Akhtal) t I, p. 238 — 239.

(٦) الأغانى ، ٧ ص ١٧٣ س ٢٠ .

(٧) نفسه ، ٧ ص ٣٨ .

(٨) أنساب ، ٥ ص ٣١٦ فما بعدها ؛ الكامل ، ٤ ص ٣ فما بعدها . كانت القيسية يبقرون بطون النساء . المرجع الأخير ، ٤ س ٤ .

(٩) واد عظيم بالجزيرة . معجم البلدان ، ٣ ص ١٠ .

(١٠) موضع بالجزيرة . نفسه ، ٧ ص ٢٢٠ .

(١١) الأغانى ، ١١ ص ٦٢ س ٢٧ .

والثابت أن عبد الملك لم يتبع سياسة سلفه بالتعصب لكلب، وإنما جعل نفسه فوق الأحزاب، وعمد إلى التخفيف من حدة العصبية بين اليمانية وقيس، ذلك لأنه كان من فرع أموى آخر، وأنه كان يتمتع بصفات ذوى الحنكة السياسية فى عصره كالمروءة والحلم[١]، وحب المشاورة[٢]، والقدرة على الأخذ بقلوب الرجال[٣]: فكان يلتمس منع اشتباكهما[٤]، ودفع الدية عن قتلاهما[٥]، ويجمع زعماءهم على الطعام[٦]، وكذلك شعراءهم[٧]. وإذا كان عبد الملك فى أول خلافته قد حارب القيسية بكلب، ورمى قرقيسياء — مركز تجمعهم — بالمجانيق[٨]، فإن ذلك لم يكن بقصد التعصب لكلب، وإنما لأن كلباً كانت وقتئذ مروانية، وقيساً زبيرية[٩]. ولكنه بعد أن صالح زُفر بن الحارث — زعيم القيسية — قربه هو وأبناءه؛ مما جعل الشاعر الأخطل ينقد تصرف الخليفة[١٠]. كذلك أصبحت القيسية قسماً فى جيشه[١١]، وبذل لهم العطاء الذى حرموا منه أثناء النزاع مع اليمنية، كما أنه بعد أن كان لايسمع من شعراء مضر، ولا يأذن لهم، لأنهم كانوا زبيرية، أذن لهم[١٢]، فمدحه جرير والفرزدق[١٣]، وعبيدالله ابن قيس الرقيات[١٤]، مثلما كان يمدحه الأخطل شاعر اليمانية.

---

(١) مصنف مجهول، ص ١٦١؛ ١٦٨.

(٢) فمن قوله: «اعلم أن لك نصف الرأى ولأخيك نصفه، ولن يهلك أمرؤ عن مشورة». نفسه، ص ١٧٥.

(٣) نفسه، ص ١٦٢.

(٤) أنساب، ٥ ص ٣١١ س ٢.

(٥) نفسه، ٥ ص ٣١١ س ٥؛ الأغانى، ١٧ ص ١١٥؛ ١١٦ س ٨.

(٦) الأغانى، ١٧ ص ١١٤.

(٧) نفسه، ٧ ص ٦٩.

(٨) أنساب، ٥ ص ٣٠١؛ ٣٠٣؛ ٣٠٨.

(٩) نفسه، ٥ ص ٣٠٨ س ٦.

(١٠) نفسه، ٥ ص ٣٠٦ س ٥ فما بعدها.

(١١) نفسه، ٥ ص ٣١٤؛ انظر. على مظهر، العصبية، ص ٥٩.

(١٢) الأغانى، ٧ ص ٦٦ س ١٢ فما بعدها.

(١٣) نفسه، ٧ ص ١٧٢ — ١٧٣.

(١٤) هو القائل: ماتقموا من بنى أمية إلا م أنهم يحلمون إن غضبوا
وأنهم معدن الملوك فلا تصلح إلا عليهم العرب
(انظر ابن قتيبة، الشعر، ص ٣٤٤)

وكذلك تهدد عبد الملك خطر آخر داهم ، حينما اشرأب أحد أفراد أهل بيته للحصول على منصب الخلافة . ولم يكن المنافس خالد بن يزيد ، الذى كان مروان قد رجع عما أطمعه فيه من ولاية العهد بتولية عبد الملك(١) ؛ لأن خالداً كان قد انشغل بعد تولية عبد الملك بحرب قيس مع أخواله من قبيلة كلب(٢) ، ولأنه عرف بزهده فى الخلافة ، وإقباله على العلم وبخاصة الكيمياء والطب ، حتى قيل أنه كان من أعلم قريش بفنون العلوم(٣) .

ولكن منافس عبد الملك كان ابن خالته : « عمرو بن سعيد(٤) » المعروف بالأشدق أو الشداق ، وهو وصف بأنه رجل عظيم الكبر(٥) . وقد تولى عمرو عمل الحجاز ليزيد(٦) مثل أبيه سعيد بن العاص ، الذى تولاه من قبل معاوية بعد كل مرة كان يعزل فيها مروان بن الحكم . ويبدو أن عمراً كان كأبيه يكره يزيد(٧) ؛ فلما خرج الحسين وابن الزبير من المدينة ، لم يرسل عمرو وراءهما جيشاً قوياً أو قائداً أموياً ، وإنما أرسل جيشاً ضعيفاً عليه عمرو بن الزبير ، أخو عبد الله(٨) . كذلك لما طلب يزيد منه أن يبعث بابن الزبير مقيداً فى سلسلة ، بعث إلى ابن الزبير بسلسلة فضية ليقيد نفسه فيها(٩) ، مما جعل يزيد يعزله عن عمله

(١) انظر . قبله .

(٢) أنساب ، ٥ ص ٣٠١ — ٣٠٢ .

(٣) توفى خالد سنة ٨٥/٧٠٤ . عنه ، انظر . وفيات ، ١ ص ٢٣٧ — ٢٣٨ ؛ المعارف ، ص ١٧٩ .

(٤) عنه . ابن سعد ، ٥ ص ١٧٦ — ١٧٧ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (Amr B. Sa'îd al-Ashdak) t I, p., 340-341
2ed. 1 I,p. 453-4.

(٥) المسعودى ، مروج (Prairies) ٥ ، ص ٢٥ .

(٦) العقد ، ٢ ص ٣٠٦ .

(٧) الأغانى ، ١٨ ص ٧١ . امتنع عن بيعته بولاية العهد .

(٨) انظر . قبله .

(٩) انظر . الكامل ، ٣ ص ٣٠٥ ؛ انظر . قبله .

ويحبس أولاده(١) ، كما أن عمراً رفض الاشتراك فى موقعة الحرّة(٢) .

وعلى العكس شارك عمرو فى حصول مروان على الخلافة ، فقد كان من المحرضين له على أن يبايع لنفسه(٣) ، وقاتل على ميمنته فى موقعة مرج راهط(٤)، وهزم جيش مصعب حينما توجه إلى فلسطين(٥) ؛ حتى أن مروان بعد إعلان خلافته فى دمشق اعترف لعمرو بما قام به ، وولاه أمرتها(٦) .

ويجوز أن مروان كان قد أطمعه مع خالد فى ولاية العهد(٧) ، أو أنه لم يطمعه فيها ، وإنما هو الذى رجا تعيينه(٨) . لذلك امتنع عمرو عن البيعة له لما تولى عبد الملك الخلافة(٩) ، وصار أهل الشام فرقتين ؛ فرقة مع عبد الملك ، وفرقة مع عمرو ؛ إذ كان له أتباع كثيرون يفضلونه للخلافة(١٠) . ولكن بنى أمية دخلوا بينهما بالصلح ، حتى لا تضيع دولتهم ، فاصطلحا على أن يكونا مشتركين فى الملك بأن يكون لكل منهما عمال من قبله ، على أن يكون اسم الخلافة لعبد الملك ، فان مات فالخليفة من بعده عمرو بن سعيد (١١) .

هذا ويبدو أن الحال بينهما استمر على ذلك حوالى خمس سنوات ، ولكن

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٢٠٦ .

(٢) الفخرى ، ص ١٦١ .

(٣) ابن سعد ، ٥ ص ٢٨ س ٢٨ س ١ فما بعدها .

(٤) نفسه ، ٥ ص ٢٩ ؛ أنظر . قبله .

(٥) الكامل ، ٣ ص ٣٣٠ ؛ أنظر . قبله .

(٦) ابن سعد ، ٥ ص ٢٩ .

(٧) نفسه ؛ أنظر . قبله .

(٨) نفسه ، ٥ ص ٢٨ س ٤ .

(٩) الأخبار الطوال ، ص ٢٨٠ س ٥ .

(١٠) ابن سعد ، ٥ ص ٢٩ .

(١١) الأخبار الطوال ، ص ٢٨٠ .

عمراً أحس بسوء نية عبد الملك وتغيّره عليه(١) ، فانتهز خروجه من دمشق للسير على زُفَر بن الحارث ، فى سنة ٧٠/٦٨٩ — ٦٩٠(٢) ، فأسرع عمرو بالرجوع إليها وأغلق أبوابها(٣) ، ودعا الناس إلى بيعته(٤) ، فكرّ عبد الملك راجعاً إلى دمشق ، واستدرجه حتى فتح له أبوابها ، بحجة أنه لا يجب أن يفسد أمر أهل بيته وابن الزبير موجود ، وأكد له ولاية الخلافة من بعده(٥). ولكن عبد الملك غدر به وقتله بنفسه(٦) ، مع أن عمراً ناشده الرحم ، فأمر به فأضجع وذبح ذبحاً فى بساط ، وألقى برأسه مع صرر المال ؛ كما قطعت رءوس أصحابه(٧). وبذلك جعل عبد الملك قتل عمرو تهديداً لكل من يجرؤ على الخروج عليه من أهل بيته(٨) ، وحقق ما قاله فى أول خطبة له بعد توليته الخلافة(٩) : «ما أنا بالخليفة المصانع ، ولا الخليفة المستضعف» : بمعنى أنه لا يصانع أقاربه كمعاوية ، أو يضعف لهم كعثمان .

*

وكان قد بايع عبد الملك بالخلافة الشام ومصر لكونهما فى يد أبيه ، ولم

---

(١) نفسه .

(٢) المسعودى ، مروج ، (Prairies) ، ٥ ص ٢٣٣ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ١٦٠ .

(٤) المسعودى ، مروج ، ٥ ص ٢٣٤ .

(٥) مصنف مجهول ، ص ١٦٨ .

(٦) المسعودى ، مروج (Prairies) ، ٥ ص ٢٣٥ .

(٧) الأخبار الطوال ، ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

(٨) مصنف مجهول ، ص ١٨٠ س ٦ .

(٩) نفسه ، ص ١٦٨ .

يبايعه العراق والحجاز لكونهما كانا فى يد ابن الزبير(١) . ولكن ما أن سوى عبد الملك فتنة عمرو بن سعيد الأشدق ، وحصل على ولاء القيسية ، حتى أزمع السير إلى العراق ، مثلما فعل جده معاوية من قبل ؛ خصوصاً وأن العراق أصبح كالثمرة الدانية القطاف ، لكثرة اختلاف أهله (٢).

فقد كان أهل العراق غاضبين على بنى أمية لقتلهم الحسين ؛ ولأن أغلبيتهم كانوا معادين للأمويين ؛ لأنهم من المضرية الذين هاجروا إلى العراق من الحجاز، وكان أنصار الأمويين من اليمنية فى العراق قليلين(٣) . فبعد موت يزيد أخرج أهل البصرة ابن زياد ، واضطروه إلى الرحيل إلى الشام على الرغم من تمسكه بالحكم فيها(٤) ، كما حصب أهل الكوفة أنصار الأمويين ، حتى أن ابن الزبير انتهز الفرصة وعين عمالا من قبله فى الكوفة والبصرة ، وفى كل مكان فى العراق(٥).

ولكن الفتنة بالعراق بلغت أشدها فى أيام مروان بمجىء شخص إلى الكوفة يعتبر من أكبر أنصار بنى هاشم ، كان يدعو إلى ابن الحنفية — أخى الحسن والحسين — وينادى بثأر آل البيت ، اسمه المختار بن أبى عبيد الثقفى(٦) ؛ فكان على عكس بقية الثقفيين الذين كانوا من أنصار بنى أمية ، بسبب صلة هؤلاء بثقيف فى الجاهلية(٧) . ويتبين من سيرة المختار أنه ولد فى نفس العام الذى ولد فيه ابن الزبير من أسرة معروفة ، فهو ابن أبى عبيد بن مسعود ، الذى قتل عند

---

(١) ابن سعد ، ٥ ص ٣٠ .

(٢) أنساب ، ٥ ص ٣٠٨ ؛ انظر . Arab, p. 184 : Well

(٣) مصنف مجهول ، ص ٣٠ .

(٤) الكامل ، ٣ ص ٣٢٠ فما بعدها ؛ أنظر . قبله .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٣٢٥ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٧٢ .

(٦) عنه ، انظر . أنساب ، ٥ ص ٢١٤ فما بعدها ؛ الكامل ، ٣ ص ٣٢٧ فما بعدها ؛ انظر . Mohtar de Valsche Praefect. Leiden, 1888, : Van Gelder ؛ Ency. de l'Isl, (art al-Mukhtâr B. Abî 'Ubaïd al-Thakafi) t 3, p. 765 sqq.

(٧) انظر . Arab. p, 114 : Well

الهجوم على فارس فى موقعة الجسر سنة ١٣ / ٦٣٤[١] ؛ فتولى رعايته عمه سعد عامل علىّ والحسن على المدائن[٢] ، مما يدل على أن المختار نشأ على حب آل طالب ؛ وكان يوصف بأنه غلام شاب [٣] . فلذلك كان المختار دائماً ضمن الخارجين على عمال الأمويين بالعراق ، فحبسه زياد بن أبيه وابنه عبيد الله لتشيعه[٤] ، وبخاصة لأنه عاون مسلم بن عقيل وأنزله داره [٥] ؛ حينما أرسله الحسين إلى الكوفة ؛ ليجمع له الشيعة ، وشترت عينه وقتئذ[٦] . ولكن أطلق سراحه بعد قتل الحسين . وكان ذلك بناء على شفاعة ابن عمر ، وهو زوج أخت المختار ، فكتب إلى يزيد فى ذلك . وترك المختار العراق وعاد إلى بلده بالطائف ، وما لبث أن انضم إلى ابن الزبير وبايعه ، واعتبره رجل اليوم[٧] ،وحينما كان ابن الزبير يقاتل الحصين بن نمير . قاتل المختار معه أشد قتال ، وكان أشد الناس على أهل الشام . ومن الجائز أن حبل الوفاق لم يستمر ممدوداً بينهما ، فرجع المختار إلى الكوفة بعد أن بذل لابن الزبير الوعد بالدعوة له[٨] ، وجمع الجند لقتال أهل الشام[٩] ، حتى يتخلص منه

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ١١٢ — ١١٣ ؛ انظر قبله . التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٠٠ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٢٠٣ س ١٢ . المدائن هى طيشفون القديمة . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ١٣٤ ؛ ٧ ص ١٢ ؛ فما بعدها ؛ انظر قبله .

(٣) الطبرى (Annales) ، ٢ : ٤٠٠ .

(٤) نفسه ، ٢ : ١٣٤ ؛ انظر . Ency, t 3, p. 765

(٥) الكامل ، ٣ ص ٢٧٥ س ٥ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٢٦٧ ؛ ٣٣٧ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٣٣٨ . ١٩ .

(٨) ابن سعد ؛ ٥ ص ٦٩ ؛ ٧٢ ؛ المعارف ، ص ١٨١ .

(٩) الكامل ، ٣ ص ٣٣٩ (آخر الصفحة) .

ويعود إلى العراق . فكان المختار بعد رجوعه إلى الكوفة ، يمر بنفسه على القبائل ، ويبشرها بقرب أخذ ثأر الحسين .

وقد سعى المختار فى أن يضم صفوف شيعة الكوفة لزعامته ؛ لأنه كان يعرف أنها لم تكن مجمعة على رأى أو زعيم(١) ؛ حتى قال المسعودى إن هدف المختار من الرجوع إلى الكوفة أن يضم الشيعة (٢) . وقد أطاعته طائفة منهم (٣) ؛ إلا أن غالبيتهم وعظماءهم ظلوا مع شيخهم سليمان بن صرد (٤) ، الذى كان أحد أصحاب النبى ، ومن أوائل من نزلوا الكوفة من المسلمين ، وشهد مع على معظم معاركه . وكان سليمان قد كتب إلى الحسين بن على بعد موت معاوية يسأله القدوم إلى الكوفة، فلما قتل الحسين استشعر سليمان الندم، فأخذ مدعوسراً بين عرب العراق للانتقام له (٥)،فعرف أنصاره بسبب ذلك باسم : « التوابين» ، أى الذين ندموا لترك نصرة الحسين ، ورأوا أن يغسلوا عار خذلانهم لابن بنت النبى بأن يقتلوا أو يقتلوا من قتله ، واتخذ سليمان لنفسه لقب : « أمير التوابين(٦) » . وكان المختار ، يريد أن يتزعم شيعة الكوفة ، فأخذ يثبط(٧) هممهم وينفرهم

---

(١) نفسه ، ٣ ص ٣٣٨ س ٢٢ ــ ٢٣ .

(٢) مروج ، ٥ ص ١٧٠ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٣٣٥ س ٥ .

(٤) نفسه، ٣ ص ٣٣٣ س ٦ ؛ ٣٣٩ س ١٢ . عنه ، أنظر . أسد الغابة ، ٢ ص ٣٥١ ؛ ابن سعد ، ٦ ص ١٥ ــ ١٦ ؛ أنظر . Ency. de l'Isl. (art Sulaimân. B. Surad) t 4 , p. 559 — 560.

(٥) الكامل ، ٣ ص ٣٣٤

(٦) نفسه ، ٣ ص ٣٣٢ س ١٨ . هذا الاسم مأخوذ من اسم قوم بنى اسرائيل ، الذين عبدوا العجل ، فتابوا بعد أعمالهم ، ذلك لأنه لاينجيهم من عظيم الذنب إلا الصبر على القتل ؛ وقد ورد ذلك فى القرآن (٢ : ٥٤) . عن ذلك ، أنظر . ماورد فى نفس المرجع ، ٣ ص ٣٣٣ .

(٧) مروج ، ٥ ص ٢١٤ .

من زعامة سليمان ، واصفاً له أنه غير بصير بأمور الحرب ، وأنه إنما يريد أن يقضى عليهم ، ويقتل نفسه(١) .

ولكن غالبية الشيعة صمموا على الخروج ، وقاموا وراء سليمان فى سنة ٦٨٤/٦٥(٢) ، وشجعهم على ذلك أنصار ابن الزبير بالعراق ، حتى يتخلصوا منهم . وقبل أن يرحلوا ازدحموا على قبر الحسين ، وبكوا عنده بشدة ، وأعلنوا توبتهم من خذلانه(٣) . وكان مروان بعد مرج راهط قد أرسل ابن زياد عاملاً له فى الجزيرة ، على أن يسير بعدها إلى العراق(٤) . فالتقى التوابون بجيش الأمويين فى عين الوَرْدَة من أرض الجزيرة(٥) ، حيث استبسلوا فى القتال ، وكان شعارهم : « الجنة الجنة » ، فقتل منهم عدد كبير ، بما فيهم سليمان(٦) . وقد سر عبد الملك الذى تولى الخلافة فى الشام بعد مروان بهذا النصر(٧) ، فأبقى ابن زياد فى منصبه ، وولاه الكوفة على أمل أن يفتح له العراق(٨) .

ومن ناحية أخرى تنبه عامل ابن الزبير بالكوفة إلى خطر دعوة المختار فحبسه(٩) ، إلا أنه ما لبث أن أطلق سراحه بشفاعة(١٠) أصحاب سليمان بعد

(١) الكامل ، ٣ ص ٣٣٩ س ٩ — ١٠ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٢١٤ ؛ ٣٤٠ . يقول المسعودى سنة ٦٨٥/٦٦ ؛ انظر . مروج ، ٥ ص ٢٢١ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٣٤١ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٣٣٥ س ١٣ — ١٤ .

(٥) أسد الغابة ، ٢ ص ٣٥١ ؛ مروج ، ٥ ص ٣١٦ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٢٥٨ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٣٤٣ .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٣٤٥ .

(٨) العقد ، ٢ ص ٣١٩ .

(٩) الكامل ، ٣ ص ٣٤٢ ، ٣٣٩ س ١٦ .

(١٠) نفسه ، ٣ ص ٣٥٦ . يروى ابن الأثير أن ابن عمر شفع له فى هذه المرة أيضا ، انظر . نفسه .

قدومهم من الجزيرة . ومع أن المختار أصبح زعيم الشيعة بموت سليمان ، فإنه وجد مقاومة شديدة ، من جانب أشراف أهل الكوفة ، وأغلبهم من زعماء قبائلها وأوائل مسلميها[١] ؛ الذين كانوا يطالبونه بإظهار عهد ابن الحنفية ، بل أرسلوا إلى ابن الحنفية ليتأكدوا من صحة دعوته .[٢] وقد كان الشيعة بالكوفة يكرهون هؤلاء الأشراف ؛ لأنهم كانوا يرون أن قتلة الحسين فى واقع الأمر هم أشراف الكوفة[٣]، وأنهم أداة طيعة فى أيدى العمال . ولكن قوى أمر المختار بانضمام إبراهيم ابن الأشتر إليه[٤]، وهو ابن زعيم سابق كان قد حارب مع علىّ ، وقتله معاوية بالسم[٥] ، وله عشيرة ذات عز وعدة . عندئذ وثب المختار على عامل ابن الزبير بالكوفة وطرده منها فى سنة ٦٦/٦٨٥[٦] ، كما هرب بعض أشرافها إلى البصرة[٧]، أما من بقى منهم فإنهم بايعوه[٨] ، واستجاب له بشر كثير من سكان المصر[٩]؛ وصارت الشيعة تدعو لابن الحنفية[١٠]. واستفحلت قوة المختار باستجابة عناصر فارسية كثيرة من أبناء العجم له[١١]، كانت قد أسلمت وأصبحت تعرف بالموالى[١٢].

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٣٥٦ فما بعدها .

(٢) ابن سعد ، ٥ ص ٧٢ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٣٣٤ س ١١ .

(٤) الأخبار الطوال ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣ .

(٥) الكامل ، ٣ ص ١٧٨ ؛ انظر قبله . التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٧٠ وهامش .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٣٥٦ .

(٧) الأخبار الطوال ، ص ٢٩٢ .

(٨) الكامل ، ٣ ص ٣٦٣ س ١٣ — ١٤ .

(٩) الأخبار الطوال ، ص ٢٨٢ .

(١٠) الكامل ، ٣ ص ٣٧٤ س ١٦ — ١٧ .

(١١) الأخبار الطوال ، ص ٢٨٢ .

(١٢) أنساب ، ٥ ص ٢٤٦ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣٦٥ (آخر الصفحة) .

أو بنى الأحمر(١) — وهو اسم أطلقه العرب على الفرس عامة — حيث كان أغلبهم من ألوف الأسرى(٢) ، الذين استقروا فى الكوفة والبصرة ، وكانت الدولة العربية تعاملهم معاملة سيئة ، حيث نسمع أن أول عصابة من الموالى خرجت على الدولة فى عهد معاوية أيام المغيرة(٣) . كذلك انضمت إليه عناصر مسيحية من سكان العراق ، الذين عرفوا بالعباد (٤) .

وقد أورد المؤرخون روايات متباينة ترسم للمختار صورة الزعيم الديماجوجى المتطفل ، الذى يزعم أنه يوالى بنى هاشم ، مع أنه يعمل لحسابه الخاص(٥) ، فذكروا أنه فى شبابه حرض عمه عامل المدائن على خداع الحسن وتسليمه إلى معاوية(٦) . وبعد موت يزيد كتب إلى علىّ بن الحسين ليبايع له ، فأبى ابن الحسين وتبرأ منه فى مسجد المدينة(٧) ، فدعا المختار إلى محمد بن علىّ المشهور بابن الحنفية فتنكر له أيضاً(٨) ، وأنه — أى المختار — كان كذاباً يزعم بأن جبريل يأتيه من عند الله(٩) ، ونعت بأنه دجال وسحار(١٠) .

ولكنّا إذا ألقينا نظرة فاحصة على ما ورد فى سيرته ، وجدناه على العكس مفرطاً فى إخلاصه لبنى هاشم ، مع أنه كانت لديه الفرصة للتقرب من الأمويين ، الذين كانوا يبحثون عن أنصار لهم من بين شيعة علىّ : فقد رفض أن يشهد(١١)

(١) الأخبار الطوال ، ص ٢٨٦ .

(٢) نفسه ، ص ٢٨٨ ؛ انظر . Well : Arab, p. 71 — 72 ; 278

(٣) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٦٢ .

(٤) الطبرى (طبعة مصر) ، ٤ ص ٥١٨ . عنهم ، انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٩١ ؛ ص ١٦٨ .

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٢٩٢ ؛ انظر . . Ency. de l'Isl, t 3, p. 766

(٦) أنساب ، ٥ ص ٢١٤ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٠٣ س ١٢ — ١٤ .

(٧) أنساب ، ٥ ص ٢٧٢ س ١٠ — ١١ ؛ انظر . دونلدسن ، عقيدة الشيعة ، ترجمة ، ص ١١٧ .

(٨) أنساب ، ٥ ص ٢١٨ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٧٨ س ٣ .

(٩) نفسه ، ٥ ص ٢٦٥ — ٢٦٦ ؛ نفسه ، ٥ ص ١٥٨ س ٩ ؛ المعارف ، ص ٢٠٤ .

(١٠) الطبرى ، ٢ ص ٦٨٦ س ٧ ؛ ٧٣٠ س ١٣ .

(١١) نفسه (Annales) ، ٢ ص ١٣٤ ؛ انظر . Ency, t 3, p. 769

ضد حجر بن عدى ، الذى قتله زياد عامل معاوية بسبب دعوته لآل أبى طالب ، كما سجن المختار عدة مرات للتشيعه[1]. فما أن قتل الحسين حتى وضع المختار نصب عينيه الثأر له ممن سفكوا دمه ؛ فكان شعار دعوته : « يالثأرات الحسين »[2] . وقد بقى المختار حريصاً على تحقيق هذا الثأر ؛ بحيث خصص أبو مخنف لذلك كتاباً سماه : « رسالة أخذ الثأر وانتصار المختار على الطغاة الفجار »[3] . ومن المرجح أن ابن الحنفية بعد هزيمة التوابين اصطنعه لنفسه ، ليأخذ له بثأر أخيه ، لما عرف من حماسه فى ذلك : فأمره بالطلب بدم الحسين وثأره ، وقتل قاتليه وطلبهم حيث كانوا ، وسماه كيسان لكياسته وإخلاصه لمذهبه[4] ؛ كما أنه أمر شيعة الكوفة بنصرته[5] . وقد كان المختار يحس بثقل عبء المهمة ؛ فيقول : « أنا ملاح السفينة[6] » . يضاف إلى ذلك أنه كان يصل آل البيت بالمال[7] ، وأن أغلبهم كانوا يثنون عليه[8] .

وتؤيد روايات شيعية كثيرة أن المختار كان من فريق الشيعة ، الذين يقولون بأحقية ابن الحنفية بالامامة دون غيره من آل البيت . فبعد مقتل الحسين

---

(١) انظر قبله.

(٢) أنساب ، ٥ ص ٢٥٥ س ١٦ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣٧٤ (آخر الصفحة) .

(٣) تحقيق الشيرازى ، بومباى ١٣٦١ هـ ، انظر .

(٤) النوبختى ، ص ٢٧ . قيل فى تسميته بكيسان عدة أقوال منها : إن المختار كان له صاحب شرطة يكنى بأبى عمرة واسمه كيسان ، فتلقب المختار به (المرجع السابق ، ص ٢٣) ، أو أنه كان معه مولى لعلى اسمه كيسان ، الذى حمله على الطلب بدم الحسين ، ودله على قتلته (نفسه ، ص ٢٣ ــ ٢٤ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٧٢ س ٢٦) . ولكننا نفضل ما أورده النوبختى فى (ص ٢٧) ؛ خاصاً بهذا التلقيب . انظر أيضاً . وفيات ، ١ ص ٦٤٢ س ٥ .

(٥) الكامل ، ٣ ص ٢٥٨ س ٨ .

(٦) ابن سعد ، ٥ ص ٧١ س ٢٧ .

(٧) أنساب ، ٥ ص ٢٧٢ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ١٥٨ .

(٨) ابن سعد ، ٥ ص ٧٥ .

انقسم الشيعة على أنفسهم : فبعضهم أراد مبايعة عليّ بن الحسين ، بحكم أنه وريث أبيه ، وبعضهم — ومنهم المختار — أراد مبايعة ابن الحنفية ، لأنه على حد قولهم لم يبق غيره أقرب إلى عليّ بعد الحسن والحسين ، ولأنه أولى الناس بالإمامة كما كان الحسين أولى بها بعد الحسن من ولد الحسن[1] . وقد يكون هذا الانقسام فى صفوف الشيعة قد حدث أيضا قبل ذلك ، حينما سلم الحسن بن عليّ الأمر إلى معاوية ، وترك مجاهدته مع أنه كان معه العدد الكثير ؛ فقامت الشيعة فى ستر وكتمان للدعوة إلى ابن الحنفية ، وبايعته على طلب الخلافة ، وولوا على شيعة كل بلد رجلاً منهم للدعوة له ، وجمعوا الزكاة ليوم الوثوب[2] ويلوح لنا أن المختار بعد مقتل الحسين غدا من كبار أنصار الدعوة لابن الحنفية ؛ حتى أن هؤلاء تسموا باسمه : « المختارية » ، كما نُسبوا إليه فعرفوا : « بالكيسانية[3] » ؛ إذ كان يُعتبر عندهم ثقة[4] . هذا ويبدو أنه نابذ سليمان بن صرد لتشيعه لعليّ ابن الحسين دون ابن الحنفية[5] ؛ ولكن شيعة الكوفة بعد قتل سليمان وهزيمة التوابين دعوا لابن الحنفية وحده[6] ، وسموه : « بالمهدى[7] » للدلالة على إمامته واهتدائه من قبل الله ؛ وهو الاسم الذى أطلقوه من قبل على عليّ والحسين .

---

(١) النوبختى ، ص ٢٦ .

(٢) نفسه ؛ ابن قتيبة ، الإمامة ، ٢ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٣) النوبختى ، ٢٧ .

(٤) الأخبار الطوال ، ص ٢٨٤ س ١ .

(٥) أنظر . دونلدسن ، عقيدة الشيعة ، ترجمة ، ص ١١٧ . يعتمد على مصادر شيعية .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٢٧٤ س ١٦ — ١٧ ؛ انظر . قبله .

(٧) نفسه ، ٣ ص ٣٤١ س ١٧ — ١٨ ؛ وفيات ، ١ ص ٦٤٢ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٦٨ — ٦٩ . أطلق لقب المهدى أيضا على الخلفاء أبى بكر وعمر وعثمان وعلى ، لأن الله هداهم الى الحق ، وعلى كل من سار سيرتهم . انظر . لسان ، ٢٠ ص ٢٢٩ (آخر الصفحة) . ولعل الشيعة أطلقتها على ابن الحنفية بعد موته ، نقلا عن تسمية على له ، ولأنه فى رأى بعضهم لا يموت ويجيء آخر الزمان ، ويملك الأرض . (النوبختى ، ص ٢٧) .
انظر . Lammens : Ency. de l'Isl, (art al-Mahdí) t3, p. 116 sqq :
L'Islam. Byrouth, 1941, p. 196-8.

بل كان المختار يرى أن ابن الزبير هو الآخر ، يجب أن يطلب الأمر لمحمد بن على لا لنفسه(١) .

وعلى ذلك نميل إلى الرواية القائلة بأن أمر المختار كان عن رأى ابن الحنفية(٢) وأنه كان رسوله إلى أهل الكوفة(٣) ؛ لاسيما وأن ابن الحنفية من قبل كان، قد نصح الحسين بألا يذهب بنفسه ويبعث برسله(٤) ؛ فقد كان بنو على لا يستطيعون الذهاب إلى العراق خوف القتل(٥) ؛ فمأساة الحسين لم تكن بعيدة . وتتأكد رغبة ابن الحنفية فى أن تكون الدعوة الشيعية له دون غيره ، فى أنه امتنع عن مبايعة خلفاء الأمويين بعد معاوية أو ابن الزبير(٦) ، وأنه كان عالى الهمة له لواء مثل بنى أمية وابن الزبير وبعض الخوارج ؛ يحج فى ظله أنصاره(٧). فكان بذلك على نقيض على بن الحسين ، الذى لم يقم منذ مقتل أبيه مع الشيعة ، وبايع ليزيد قاتل أبيه خوفاً منه ؛ بحيث أرسل إلى يزيد كتابا يذكر فيه أنه لم يشترك فى فتنة أهل المدينة ضده . وربما أنكر ابن الحنفية صلته بالمختار ، لأنه كان هو وبنو هاشم تحت رحمة ابن الزبير بالحجاز ، الذى حبسهم وهددهم بالحرق بالنار ، فاضطروا إلى أن يعيشوا فى شعاب الجبال(٨) . وقد هم ابن الحنيفة بالرحيل إلى المختار ؛ وكتب له يعلمه حاله ، فأرسل المختار إلى مكة بعثاً من جنده أخاف ابن الزبير ، وخفف من اضطهاده لآل البيت .

---

(١) ابن سعد ، ٥ ص ٧٢ .
(٢) أنساب ، ٥ ص ٢١٨س٨ .
(٣) النوبختى ، ص ٢٣ س ١٢ .
(٤) الكامل ، ٣ ص ٢٦٥ س ٤ .
(٥) ابن سعد ، ٥ ص ١٦٢ ـ ١٦٣ .
(٦) انظر . قبله رفض مبايعة يزيد وعبد الملك وابن الزبير .
(٧) ابن سعد ، ٥ ص ٧٥ س ١٨ فما بعدها.
(٨) نفسه ، ٥ ص ٧٤ ـ ٧٥.

وقد نظم المختار أتباعه ، وعقد الرايات لقواده(١) ، فأرسل جيشاً مع إبراهيم ابن الأشتر لقتال ابن زياد بالجزيرة(٢) ، الذى كان يستعد للزحف على العراق بعد هزيمة التوابين(٣) ، لولا انشغاله فيها بفتنة القيسية(٤) . فتقابل جيش إبراهيم مع جيش ابن زياد عند نهر خازر(٥) ، بقرب الموصل سنة ٦٨٦/٦٧(٦) ، ودارت بينهما معركة عنيفة تقاتلوا فيها بالسيوف والعمد ، ودارت الدائرة هذه المرة على جيش الأمويين ، لما انضمت القيسية فى جيش ابن زياد إلى إبراهيم(٧) ؛ إذ كانوا لا يزالون يحقدون على الأمويين بسبب قتلاهم بالمرج . وقد تتبع إبراهيم أعداءه ، فغرق منهم أكثر ممن قتل(٨) ، وتمكن من قتل ابن زياد بنفسه ، فضربه ضربة قدته نصفين(٩) ؛ كما أسر الحصين بن نمير ، فقتله المختار بعد أن قرضه بالمقاريض(١٠) . وحينما أرسل إبراهيم ببشارة النصر ، ولاه المختار على الجزيرة ، فأقام بها ووجه عماله على مدنها(١١) .

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٣٦٤ .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٣٦٥ س ٢١ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٣٣٥ ؛ ٣٤٧ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٣٦٤ .

(٥) نفسه ، ٣ ص ٣٧٩ . عن هذا النهر ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٣٨٨ . أما الخازر الذى يذكره ابن عبد ربه (العقد ، ٢ ص ٣١٩) أو المسعودى (مروج ، ٥ ص ٢٢٢) ؛ فهي قرية فى الجزيرة قرب المدائن. عنه ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٣٦ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٣٨١ . يقول المسعودى سنة ٦٨٥/٦٦ . مروج ، ٥ ص ٢٢١ ـ ٢٢٢ . انظر أيضاً . معجم البلدان ، ٣ ص ٣٨٨ .

(٧) الكامل ، ٤ ص ٣ .

(٨) نفسه ، ٣ ص ٣٨١ .

(٩) نفسه ، ٣ ص ٣٨٠ (آخر الصفحة) ؛ الأخبار الطوال ، ص ٢٨٦ فما بعدها .

(١٠) أبو مخنف ، كتاب أخذ الثأر ، ص ١٠٠ .

(١١) الأخبار الطوال ، ص ٢٨٩ .

إبان ذلك أخذ المختار يتعقب بلا هوادة من خرج إلى قتال الحسين وشرك في دمه واحداً واحداً[١] ، فكان يحرقهم ويقطع أيديهم وأرجلهم ويطعنهم بالرماح[٢] ، ويتبعه الفعلة بالمعاول لهدم دورهم[٣] ، حتى بلغ من عذب منهم عشرون ألفاً[٤] . وفوق ذلك تمكن من الإيقاع بالشخصين اللذين يعتبران مسئولين عن قتل الحسين وهما : شمر بن ذي الجوشن ، الذي ركب صدره الشريف وذبحه ، وكان هرب من الكوفة بعد وثوب المختار بها ، فأرسل إليه من قتله[٥] ؛ وعمر بن سعد ، الذي كان قاد الجيش الأموي إلى كربلاء ، واختفى بالكوفة ، فظفر به وأحضره بين يديه فقتله صبراً : بأن أمر به فجرده من أطماره ، ولوى شفتيه وأذنيه كما يلوى في البهيمة ، وشد لحيته ، وقلع أضراسه ، وسبل عقد أصابعه ، وقرض لحمه ، وقطع لسانه ، وغور عينيه فلتت[٦] ، وأخذ رأسه وبعث بها إلى بني هاشم بالحجاز[٧] . كذلك تمكن المختار من إخماد ثورة عرب الكوفة من غير الشيعة وعلى رأسهم أشرافهم من رؤساء القبائل ، بحجة أنه باعد العرب وقرب الأعاجم[٨] ، بحيث هرب معظم الأشراف إلى البصرة . وبذلك استحق المختار إعجاب بني هاشم وثناءهم ، حتى قال ابن العباس عنه : « إنه أصاب بثأرنا »[٩] .

*

(١) الكامل ، ٣ ص ٣٦٤ فما بعدها .
(٢) أنساب ، ٥ ص ٢٣٦ فما بعدها .
(٣) الأخبار الطوال ، ص ٢٨٦ س ٢ — ٣ .
(٤) أبو مخنف ، كتاب أخذ الثأر ، ص ٩٣ .
(٥) الأخبار الطوال ، ص ٢٩٦ .
(٦) أبو مخنف ، كتاب أخذ الثأر ، ص ١٠٠ — ١٠١ .
(٧) ابن سعد ، ٥ ص ٧٣ . يقول الدينوري إنه أرسل الرأس إلى المدينة إلى ابن الحنفية . (الأخبار الطوال ، ص ٢٩٣) . ولكن ابن الحنفية كان قد رحل إلى مكة منذ أن سمع بدنو جيش يزيد (ابن سعد ، ٥ ص ٧٣ س ٢٢ — ٢٣) . ومع ذلك أجمعت أغلب النصوص على إرسالها إلى ابن الحنفية . الأخبار الطوال ، ص ٢٩٣ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣٧٠ (آخر الصفحة) ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٧٣ .
(٨) الأخبار الطوال ، ص ٢٩١ فما بعدها .
(٩) ابن سعد ، ٥ ص ٧٣ س ١١ — ١٢ ؛ أنساب ، ٥ ص ٢٧٢ س ١٥ .

ولكن هذا الانتصار على أعداء بني هاشم سرعان ما تهاوى حينما هاجمه أهل البصرة : فهذا المصر الذى تنازعته قبائله بعد إخراج ابن زياد(١) ، خضع لمصعب أخي ابن الزبير، لكره أهله للشيعة(٢)؛ إذ كان قبلئذ مركز مقاومة عليّ على يد عائشة والزبير وطلحة(٣) . وقد كان المختار منذ وثوبه بالكوفة يوجس خيفة من أن يهاجمه أهل البصرة والشام فى وقت واحد ، فتظاهر بموادعة ابن الزبير(٤) . ومن ناحية أخرى لم يبادره ابن الزبير بالعداء ، لأنه كان يسره أن يحارب ضد أهل الشام ، ولأن معظم فرسان أهل البصرة كانت تقاتل فى حرب ضد الخوارج الثائرين(٥) ؛ مع قائد معروف اسمه المهلب بن أبى صفرة(٦) .

ولكن لما استمكن المختار من البلاد بخضوع سائر مدن الجزيرة على يد إبراهيم، وإخماد فتنة أشراف الكوفة ، قرر مصعب أن يهاجمه قبل استفحال أمره . فاستدعى المهلب من حرب الخوارج ، ووجهه فى جيش كبير إلى الكوفة(٧) ؛ كما اصطنع إليه إبراهيم بالجزيرة ، الذى انضوى تحت إمرته(٨) . فلما وصل جيش مصعب إلى الكوفة كان المختار فى قلة من أتباعه : ولكنه قاتل بهم قتال الأبطال مدة أربعة أشهر(٩) ؛

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ٢٨١ .
(٢) الذهبى ، أخبار الدول ، ص ٣٤ .
(٣) أنساب ، ٥ ص ٢٤٦ س ٧ .
(٤) الكامل ، ٣ ص ٣٧٢ فما بعدها .
(٥) الأخبار الطوال ، ص ٢٩٥ .
(٦) يبدو من سيرته أنه كان غلاماً حينما أسر فى حروب الردة على يد عكرمة ، فأعتقه أبو بكر ، فنزل أبوه البصرة ؛ كما أنه اشتهر فى حرب الثغور فى أطراف الهند وسجستان وخراسان ، وتوفى عام ٨٢/٧٠١ عنه ، انظر . وفيات ، ٢ ص ٢١٤ فما بعدها ؛ انظر . بعده .
(٧) الأخبار الطوال ، ص ٢٩٦ .
(٨) نفسه ، ص ٢٩٩ — ٣٠٠ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣٨٦ ؛ الطبرى (طبعة مصر) ٤ س ٥٧٤ .
(٩) أنساب ، ٥ ص ٢٦٠ فما بعدها .

إلى أن قتل بقصر الإمارة فى سنة ٦٨/٦٨٧[١]. فأخذ مصعب رأسه ورءوس وجوه أصحابه وأرسلهم إلى أخيه بمكة[٢]، وقام باضطهاد أهل الكوفة، وسمى نفسه الجزار، وفعل بهم ما كان يفعله عمال بنى أمية[٣]: فقتل منهم ستة آلاف[٤]؛ وأجبر حريم المختار على التبرؤ منه، فقبلن إلا واحدة قتلها هى عمرة بنت النعمان بن بشير، قالت: «إنه كان عبداً من عباد الله الصالحين[٥]».

وبذلك عاد العراق إلى سلطان ابن الزبير، وأخمدت أكبر الحركات الثورية، التى رمت إلى نصرة عصبة بنى هاشم. فبعد مقتل المختار أصبح هؤلاء لا حول لهم ولا طول إزاء ابن الزبير؛ فتحول ابن العباس وابن الحنفية من مكة إلى الطائف هرباً منه[٦]، حيث توفى بها ابن العباس فى نفس العام[٧]. أما ابن الحنفية فبقى بها إلى أن قتل ابن الزبير فعاد إلى مكة[٨]، وتوفى بالمدينة عام ٨١/٧٠٠[٩]. كذلك علىّ بن الحسين أقام بالمدينة طيلة مدة الفتنة[١٠]، ويبدو أن ابن الزبير كان يعتقد أنه لا علاقة له بأعمال المختار فلم يتعرض له؛ وهو توفى فى خلافة الوليد[١١]، حوالى عام ٩٤/٧١٢ — ٧١٣.

* * *

(١) ابن سعد، ٥ ص ٧٧ س ٢٤. لدينا تاريخ آخر فى ٦٧/٦٨٦. انظر. أنساب، ٥ ص ٢٦٤ س ١٤.

(٢) ابن سعد، ٥ ص ٧٧، ١٣٦؛ أنساب، ٥ ص ٢٦٤ س ١٤.

(٣) الطبرى (طبعة مصر) ٤ ص ٥٥٨.

(٤) الكامل، ٣ ص ٣٨٨ س١. يقول المسعودى سبعة آلاف. مروج، ٥ ص٢٧٧.

(٥) المرجع الأخير، ٥ ص ٢٢٩؛ الطبرى ٢: ٧٤٤ س ١. تناول عمر بن أبى ربيعة ذلك فى شعره، فقال:

إن من أعظم الكبائر عندى ... قتل غادة حسناء عطبول

قتلت باطلا على غير ذنب ... إن لله درهـا من قتيـل

كتب القتـل والقتـال علينا ... وعلى المحصنـات جر الذيول

انظر ديوان، تحقيق Schwarz b طبعة Leipzig، ص ٤١٢؛ جبرائيل جبور، عمر بن أبى ربيعة، ١ ص ١٢.

(٦) ابن سعد، ٥ ص ٧٥ س ١١ — ١٢.

(٧) نفسه، ٥ ص ٨١؛ أسد الغابة، ٣ ص ١٩٤.

(٨) انظر. بعده.

(٩) ابن سعد، ٥ ص ٨٥ — ٨٦؛ المعارف، ص ١١١.

(١٠) انظر. دونلدسن، عقيدة الشيعة، ص ١١٧.

(١١) ابن سعد، ٥ ص ١٦٤. قيل ومات فى سنة ٩٢/٨١٠ — ٧١١.

هذا الانتصار على الشيعة تهاوى بدوره ؛ فقد قرر عبد الملك غزو العراق .. وربما لم يحاول غزوه من قبل ، بسبب أنه كان مشغولاً بفتنة ابن الأشدق ؛ فلما صفا له الشام ، أجمع الرأى على السير إلى العراق (١) . وقد يكون قرار الخروج أيضاً راجعاً لحاجته إلى المال (٢) ؛ لاسيما وأن إقليم العراق كان يخضع له المشرق كله .. كذلك قد يكون راجعاً إلى خوفه من أن يبادره مصعب بالهجوم ، إذ يبدو أنه كان تهيأ له (٣) ؛ حيث ولى مصعب على الجزيرة إبراهيم (٤) ، الذى كان قد انتصر على الأمويين ، وقتل ابن زياد .

مهما يكن فقد سار عبد الملك على رأس جيش كثيف (٥) ، جعل على مقدمته أخاه محمد بن مروان ، الذى كان يعتبر من أشد ولد مروان وأشجعهم (٦) . وكان لكثرة عدد الجيش تتخلف العسكر فى السير ، إذ كانت فرقه تغيب الواحدة عن نظر الأخرى : فدعا ذلك عبد الملك إلى البحث عن رجل صارم ليسوقهم (٧) ؛ فوقع اختياره على شخص اسمه الحجاج بن يوسف الثقفى (٨) ، الذى

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١٠ .

(٢) نفسه ، ؛ أبو عبد الله الكاتب الدمشقى ، الموفقيات ، تحقيق Wust (Die Fsmilie el Zubeir) ، طبعة Gottingen ، ١٨٧٨ ، ص ٧٤ .

(٣) ابن سعد ، ٥ ص ١٦٨ س ٢ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ١٠ ؛ انظر قبلة .

(٥) المسعودى ، مروج ، ٥ ص ٢٤٢ .

(٦) أنساب ، ٥ ص ١٨٥ فما بعدها .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١١ .

(٨) ولد الحجاج فى خلافة معاوية سنة ٤٢/٦٦٢ ، فى قبيلة ثقيف من قوم نجوا من ثمود (الأغانى ، ٤ ص ٧٤) ؛ فأبوه هو يوسف بن أبى عقيل ، وأمه مطلقة المغيرة بن شعبة (العقد ، ٣ ص ٦ ــ ٧) ؛ فكان الحجاج يسمى عبد ثقيف (الأغانى ، ٧ ص ١٧١ س ٢٤) . وقد كان منذ صغره يحب العراك ، ولذا عرف بكليب ، وكان هو وأبوه يعلمان الأطفال بالطائف (العقد ، ٣ ص ٦ ــ ٧ ؛ المعارف ، ص ٢٧١) . ولكنهما تركا الكلام لأخذا السيف ؛ فاشتركا =

كان يتميز من بين رجال شرطة روح بن زنباع بالجفاء ، وأنه لا يقدر أحد على أن يخالفه (١) . وقد نجح الحجاج فى تسيير مؤخرة العسكر ؛ فجلد الكسالى منهم بالسياط ، واستخدم اللهب فى حرق فساطيطهم ، بما فيها فساطيط روح ابن زنباع — رئيس الشرطة — نفسه (٢) ؛ واشتهر الحجاج بكلمته التى قالها لعبد الملك : « يدى يدك وسوطى سوطك » (٣).

وقد كان عبد الملك يعلم أن أهل العراق يحقدون على مصعب لأنه نكل بهم بعد قتل المختار ، فأخذ يكاتب قواد مصعب ويمنيهم بالمال والأمان وتولية الأعمال (٤)، حتى أنه كاتب إبراهيم أيضا ، الذى كان مصعب قد أحضره من الجزيرة وجعله على مقدمة جيشه (٥) . وقد أراد إبراهيم ضرب أعناق من استلموا كتب عبد الملك أو إرسالهم فى الحديد إلى المدائن ؛ إذ أوجس خيفة من خيانتهم ، وشبههم بالمومس التى تريد كل يوم خليلا ، وهم يريدون كل يوم أميراً (٦) .

= فى موقعة الحرة (الأغانى ، ١٦ ص ٢٤ س ٩) ، وفى موقعة الربذة . وقد عرض عبد الملك على الحجاج ولاية تبالة ، الواقعة فى أرض تهامة فى طريق اليمن ، ولكن لما رآها لم يرضها ؛ وقيل فى المثل : أهون من تبالة على الحجاج (المعارف ، ص ٢٠٢) . فلحق الحجاج بروح بن زنباع ، فكان فى شرطته . عن سيرته ، انظر . المسعودى ، مروج ، ٥ ص ٢٨٨ فما بعدها ؛ وفيات ، ١ ص ١٧٣ — ١٧٧ ؛ المعارف ؛ ص ٢٠١ - ٢٠٢ ، العقد ، ٣ ص ٦ فما بعدها ؛ الكامل ، ٤ ص ١٣٢ — ١٣٣ ؛ انظر . La Vie : Périer
Ency. de l'Isl, : d'al - Hadjdjâdj ibn Yousof. Paris, 1904.
t , p. 215 .

(١) العقد ، ٣ ص ٧ .

(٢) نفسه ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢١٢ ؛ ٢١٥ ؛ مروج ، ٥ ص ٢٤٢ .

(٣) العقد ، ٣ ص ٧ س ١٥

(٤) الأخبار الطوال ، ص ٣٠٢ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ١٠ س ١٧ — ١٨ .

(٦) الموفقيات ، ص ٧٤ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٠ — ١١ .

كذلك عرض عبد الملك الأمان على مصعب ، ولكن مصعباً كان قد قرر أن يكون السيف وحده بينهما[1] .

وزحف عبد الملك على الجزيرة وهاجم قيسية الجزيرة التي كانت بزعامة زفر بن الحارث، لحاصره بقر قيسياء. وهزمه وصالحه كما ذكرنا[2]، وبذلك ضمن ألا يحدث له ما حدث لابن زياد، حينما غدرت به القيسية. بعد ذلك زحف عبد الملك على العراق، ونزل بمكان الأخنونية[3]، قرب معسكر مصعب بجوار أوانا[4]. فلما تدانى العسكران بمسكن بينهما[5]، غدر أهل العراق بمصعب فساروا ولحقوا بعبد الملك[6]، وقتل إبراهيم ، وبقى مصعب فى نفر لا يتعدى سبعة من أنصاره . وقد رفض مصعب الفرار إلى أخيه بالحجاز[7] ، واستمات فى القتال هو وأبناؤه[8] ، إلى أن قتل فى سنة ٧٢ / ٦٩١[9] ؛ وهو ابن ست وثلاثين سنة[10] ؛ فاحتزت رأسه ، وطوف بها بالكوفة ومصر ودمشق[11] .

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١١ س ٩ .

(٢) انظر . نفسه ، ٤ ص ١٠ ؛ انظر قبله .

(٣) الوفيات ، ص ٧٤ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ١٥٤ .

(٤) نفسه . عنها ؛ انظر . نفسه ، ١ ص ٣٦٦ .

(٥) ابن سعد ، ٥ ص ١٦٩ س ٩ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ٥٤ ــ ٥٦ . ى على نهر دجيل .

(٦) الأخبار الطوال ، ص ٣٠٣ ؛ الكامل ٤ ص ١١ .

(٧) مروج ، ٥ ص ٢٤٧ ــ ٢٤٨ ؛ أنساب ، ٥ ص ٣٣٤ .

(٨) ابن سعد ، ٥ ص ١٦٩ س ١٢ .

(٩) مصنف مجهول ، ص ٨ ؛ أنساب ، ٥ ص ٢٨٦ س ٢٠ ؛ المعارف ، ص ١٨٠ . لدينا تاريخ آخر فى سنة ٧١/٦٩٠ . انظر . الكامل ، ٤ ص ٩ . عن الاختلاف فى هذا التاريخ . انظر . Périer : al-Hadj, p. 34; n (1)

(١٠) مصنف مجهول ، ص ١٧ .

(١١) نفسه ، ص ٢٥ ــ ٢٦ .

بعد هذا الانتصار الباهر على مصعب عسكر عبد الملك بجيشه فى النخيلة قرب الكوفة(١) ، ودعا إلى بيعته، فجاءته قبائل عديدة ، منها القبائل اليمنية القليلة بالعراق ، مثل قضاعة ومذحج وهمدان(٢) . ولما دخل الكوفة خطب الناس فى الجامع ، فعظم عليهم حق السلطان ، وقال لهم إنه — أى الخليفة — ظل الله فى الأرض(٣). وقبل أن ينصرف إلى الشام أعطى أشراف الكوفة ما كان قد وعدهم به فى مكاتبته سراً ؛ وترك أخاه بشر بن مروان عاملا له على العراق(٤). ولما سمع أهل البصرة، الذين كانوا يقاتلون الخوارج دفعاً عن مصرهم ؛ بقتل مصعب بايعوا عبد الملكُ ، وبايع قائدهم المهلب بن أبى صفرة(٥) ، لاسيما وأنه كان أزدياً من اليمن ؛ واليمنية كانت مع عبد الملك .

* * *

وقد كان سحق مصعب حافزاً لعبد الملك على أن يوجه جهوده الأخيرة للقضاء على فتنة ابن الزبير فى الحجاز؛ بعد أن كانت الخلافة الأموية منذ موت يزيد لاتستطيع أن تفعل ضده شيئاً(٦). ويلوح أن ابن الزبير حتى وقت تولية عبد الملك،

---

(١) نفسه ، ص ١٨ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٣ ، عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ٢٧٦ .

(٢) مصنف مجهول ، ص ٣٠ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٣ — ١٤ .

(٣) مصنف مجهول ، ص ٣٣ س ٣ .

(٤) الكامل ٤ ص ١٤ ؛ مروج ، ٥ ص ٢٥٣ . وهو ابن مروان ، كان مع عبد العزيز ، فتركه وذهب إلى عبد الملك . ابن سعد ، ص ٢٤ ؛ انظر :

Ency. de l'Isl, (art Bishr B. Marwân) t I, p. 749-750.

(٥) الكامل ، ٤ ص ١٠ ؛ ١٥ ؛ ١٦ . الأزد من اليمن انظر : نفسه ، ، ٣ ص ٣٣١ س ٣ — ٤ .

(٦) انظر .

Mekka Haag 2, ed., 1888-1889, I, p. 28 : Snouck-Hurgronje : Al - Hadj, p.21; n. (2) : Périer.

كانت له السيطرة فى كل الحجاز ، حتى أنه لما أرسل مروان حملته على المدينة سنة ٦٨٤/٦٥ (١) ، تمكن جنود ابن الزبير من هزيمتها فى موقعة الربذة (٢) ؛ بحيث هرب جند الأمويين بما فيهم الحجاج ، الذين ربما يكون يوسف أبوه قد قتل فيها (٣) . ولكن منذ أن تولى عبد الملك ، وهو يرسل نحو الحجاز سراياه ، التى استولت على الأجزاء الشمالية منه ، وتغلبت على عمال ابن الزبير ، وقاتلت بجوار المدينة ؛ بحيث لم يبق ابن الزبير إلا فى المدينة ومكة (٤) .

لهذا أنفذ عبد الملك إلى ابن الزبير حملة من الكوفة بقيادة الحجاج بن يوسف (٥) ، الذى ظهرت مهارته فى قيادة مؤخرة جيش العراق . ويبدو أن الحجاج كان متلهفاً على قتال ابن الزبير ، حتى أنه أقسم ألا يقرب النساء ولا الطيب ؛ إلا إذا قتل ابن الزبير (٦) . فسار الحجاج إلى الحجاز ، ولم يعرض للمدينة ، وعرج على الربذة حتى أتى بلدته الطائف (٧) ؛ وهى التى عرفت مع مكة بالقريتين (٨) . فكان الحجاج يرسل من الطائف بعوثه إلى عرفة بجوار مكة ولا يقاتل فى الكعبة ؛ إذ منعه عبد الملك من انتهاك حرمتها ، وأمره أن لا ينفر أطيارها ،

---

(١) انظر . قبله .

(٢) الكامل ٣ ص ٣٤٧ ؛ انظر . قبله .

(٣) عن قتله . انظر . العقد ، ٢ ص ٣١٨ ؛ انظر قبله والهامش . فى رواية أخرى قيل إن أبا يوسف توفى والحجاج على المدينة سنة ٦٩٣/٧٤ . المعارف ، ص ٢٠١ .

(٤) مصنف مجهول ، ص ٣٤ — ٣٧ ؛ الكامل ، ٤ ص ٢٢ .

(٥) نفسه ، ص ٣٨ ؛ نفسه ، ٤ ص ٢٢ س ٢٢ .

(٦) ابن سعد ، ٥ ص ١٦٩ س ٢٥ — ٢٦ ؛ الفاكهى ، كتاب المنتقى أخبار أم القرى ، تحقيق Wust ، Leipzig ، ١٨٥٩ ، (الكتاب الثانى فى السلسلة) ، ص ٢٥ .

(٧) مصنف مجهول ، ص ٣٨ ؛ أنساب ، ٥ ص ٣٥٧ ؛ الفاكهى ، ص ٢٤ .

(٨) القرآن ٤٣ : ٣١ ؛ فتوح البلدان ، ص ٣٧ س ١٥ ؛ معجم البلدان ، ٧ ص ٢٠ .

ولا يهتك أستارها ، ولا يرمى أحجارها ، وأن يأخذ على ابن الزبير بشعابها وفجاجها ، حتى يموت جوعاً أو يخرج عنها [١] .

ولكن الحجاج أراد أن يعاجل ابن الزبير ، فلا يمهله حتى يجمع أشتاته [٢] ، فاستأذن عبد الملك فى قتاله بمكة ؛ فأذن له وأرسل مدداً استولى على المدينة [٣] ؛ لحفظ له مؤخرته . كذلك وجه عبدالعزيز - أخو الخليفة وعامل الأمويين على مصر منذ مروان - حملة بحرية من قبله على ساحل الحجاز [٤] . فسار الحجاج من الطائف ودخل مكة فى ذى القعدة سنه ٦٩٢/٧٢ [٥] ، ونصب المنجنيق على جبل أبى قبيس [٦] ، وأخذ فى رميها ، فلما كسرت صاعقة المنجنيق عاد الحجاج بمنجنيق آخر . وكان هذا هو الحصار الثانى لمكة منذ تولية الأمويين ، وأحدث رنة فرح كبرى عند الخليفة وأهل دمشق ، حتى أن الخليفة كبر ، وكبر الناس فى الدور والأسواق والجوامع . فسمى الحجاج بالمحل [٧] ، أو حتى بالحجاج [٨] نفسها ؛ بسبب إحلاله ضرب الكعبة قبلة الحجاج .

---

(١) مصنف مجهول ، ص ٣٨ ؛ الفاكهى ، ٢/ ص ٢٤ ؛ انظر
al-Hadj, p. 37. : Périer

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٣٠٤ .

(٣) الكامل ، ٤ ص ٢٢ ؛ مصنف مجهول ، ص ٤٢ .

(٤) الخطط ، ٢ ص ٨٥ ؛ انظر . سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص ١٣٤ .

(٥) ابن سعد ، ٥ ص ١٦٩ س ٢٧ ؛ مصنف مجهول ، ص ٤٢ .

(٦) مصنف مجهول ، ص ٣٩ ؛ ٤٧ — ٤٨ . انظر عن هذا الجبل : معجم البلدان ، ص ٩٤ — ٩٥ .

(٧) مروج ، ٥ ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

(٨) الأغانى ، ٦ ص ٣١ . (كان أهل الشام يسمون ابن الزبير بالمحل أيضاً) .
انظر أيضاً . al-Hadj, p.42; n (5). :Périer.

ومن ناحيته طلب ابن الزبير من أصحابه الاستيلاء على هذا الجبل ، ولكن فى كل مرة كانوا يهجمون عليه ، يرميهم أصحاب الحجاج فى الأبطح قبل أن يصلوا[١] . وفى أيام الموسم توقف الحجاج عن رمى الكعبة ، ليقضى الناس مناسك الحج ، فما أن انصرفوا حتى عاد إلى مقاتلة ابن الزبير[٢] . ولما اشتد بأصحاب ابن الزبير الجوع ، باستمرار الحصار أكثر من ستة أشهر[٣] ، أخذوا يهجرونه ويرتحلون إلى الحجاج ، الذى بسط لهم الأمان[٤] ، حتى بلغ عدد تاركى ابن الزبير عشرة آلاف ، منهم بعض أبنائه[٥] . فبينما كانت العير تحمل الكعك والدقيق إلى أهل الشام ، كان أهل مكة لا يجدون شيئاً[٦] . لذلك تمكن جند الحجاج من غشيان مسجد الكعبة من كل مكان ؛ فكان ابن الزبير يقاتلهم بنفسه فيه ؛ إذ كان شديد القوى ، مع أنه كهل بلغ ثلاثاً وسبعين سنة[٧] .

عندئذ أدرك ابن الزبير أنه مقتول على كل حال ؛ إلا أنه رفض أن يطلب الأمان من الحجاج[٨] ؛ ودخل على أمه أسماء بنت أبى بكر يودعها ، وكانت عجوزاً عمياء بلغت من السن مائة عام[٩] ؛ فقال لها[١٠] : « يا أمه إنى أخاف

---

(١) الفاكهى ، ص ٢٢ .
(٢) مصنف مجهول ، ص ٤٣ — ٤٤ .
(٣) ابن سعد ، ٥ س ١٦٩ س ٢٧ .
(٤) أنساب ، ٥ ص ٣٦٤ س ١٥ .
(٥) الكامل ، ٤ ص ٢٣ .
(٦) مصنف مجهول ، ص ٤٣ .
(٧) وفيات ، ١ ص ٦٤١ س ٤ .
(٨) مصنف مجهول ، ص ٥٣ .
(٩) أسد الغابة ، ٥ ص ٢٩٣ . وهى أخت عائشة لأبيها ، عرفت بذات النطاقين ، لأنها شدت أكل النبى بنصف نطاقها « حزامها » ، فسماها النبى بذلك ؛ وهى لم تلبث أن ماتت بعد مقتل ابن الزبير بحوالى عشرة أيام أو أكثر . عنها ، انظر . نفسه ، ٥ ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .
(١٠) مصنف مجهول ، ص ٥٠ — ٥٣ ؛ أنساب ، ٥ ص ٣٦٤ ؛ الكامل ، ٤ ص ٢٣ — ٢٤ . ؛ العقد ، ٢ ص ١٨٢ .

إن قتلني أهل الشام أن يمثلوا بي ويصلبوني » ، فقالت : « يا بني إن الشاة إذا ذبحت لم تألم بالسلخ » ، فقال « هذا رأيي » ؛ وقبل يديها ؛ وتطيب بالمسك ، ورفع درعه حتى لا يثقله ، وخرج لأعدائه وكأنه أسد هائج[١] . فكان ابن الزبير يهاجم ويرجع للصلاة في الكعبة ؛ وقاتل حتى قتل بالمسجد الحرام في جمادى الآخرة سنة ٧٣/[٢] أكتوبر ٦٩٢ ؛ كما قتل من معه ممن تعلق بأستار الكعبة . وبقتل ابن الزبير انتهت الفتنة الثانية ، وعاد المسلمون جماعة واحدة تحكمهم الخلافة الأموية ؛ بحيث سمي عام قتل ابن الزبير بعام الجماعة[٣] — وهو الثاني — لأن عبد الملك نال بيعة جميع الأمصار .

فلما دخل الحجاج مكة طاف بالبيت وذبح عنده[٤] ، وطلب جثة ابن الزبير وصلبها ، وبعث برأسه إلى عبد الملك[٥] ، ومعه السيف الذي غنمه منه[٦] . ولم يحجم الحجاج حينئذ عن التنكيل ببني هاشم ، لولا أن عبد الملك كتب إليه يأمره بأن لا يبالغ في سفك دمائهم ، التي ليس فيها شفاء[٧] : فتوعد ابن الحنفية الذي كان قد رفض مبايعة ابن الزبير أو يزيد ، ونزح عن مكة إلى الطائف ، فأجبره الحجاج على دخول مكة معه والمبايعة[٨] . كذلك هدد الحجاج بضرب عنق ابن عمر[٩] ، الذي

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٢٤ .

(٢) وفيات ، ١ ص ٦٤١ ، ابن سعد ، ٥ ص ١٦٩ ؛ الفاكهي ، ص ٢٣ .

(٣) العقد ، ٣ ص ١٦ ؛ انظر .

Ency. t2, p. 215.

(٤) ابن سعد ، ٥ ص ١٦٩ س ٢٦ .

(٥) مصنف مجهول ، ص ٥٨ ؛ أنساب ، ٥ ص ٣٦٨ فما بعدها . قيل إنه صلبه منكساً ، وعلق معه كلبا ميتا ، وأن عبد الملك لامه على صلبه . مصنف مجهول ، ٢ ص ٥٩ .

(٦) ابن هذيل ، حلية الفرسان وشعار الشجعان ، ص ١٩٠ .

(٧) العقد ، ٢ ص ٣١٧ (آخر الصفحة) .

(٨) ابن سعد ، ٥ ص ٨١ س ٢٠ — ٢١ ، ص ٨٢ — ٨٣ .

(٩) نفسه ، ١/٤ ص ١٣٥ . توفي بمكة عام ٧٣ أو ٧٤ . انظر . نفسه ، ١/٤ ص ١٣٧ .

كان قد اعتزل الفتنة ولم يبايع أحداً بعد يزيد ، فأقر ابن عمر لعبد الملك بالسمع والطاعة ، وكتب بنفسه إليه يخبره أن بنيه أقروا بالطاعة أيضا . وبعد مكة جاء الحجاج المدينة ، وأساء إلى أهلها أيضا واستخف بهم ؛ إذ كان يرى أن قتلة عثمان لم يعاقبوا كما يجب ، فكان يختم على أيديهم بالرصاص[1]. ولم يتردد الحجاج فى التعرض حتى لأنس ابن مالك خادم رسول الله والمحدث المشهور ، ووضع على رقبته علامة من الرصاص[2] ؛ فكتب إليه عبد الملك يلومه على فعل ذلك[3] . وحينما وفد الحجاج إلى الشام أخذ معه أبناء أهل الشورى والصحابة ؛ ليقدموا ولاءهم لعبد الملك بأنفسهم[4].

وقد أراد الحجاج إعادة بناء الكعبة على ما كانت عليه ، قبل أن يعيد ابن الزبير بناءها ، بعد ضرب الحصين لها[5]. فكتب الحجاج إلى عبد الملك يخبره أن ابن الزبير زاد فى الكعبة ما ليس منها ، فأمره عبد الملك بتعديلها[6] ، فنقض الحجاج بناءها ، وأعادها إلى قواعدها الأولى ، وسد الباب الذى أحدثه ابن الزبير[7] ، وجعل الحجر الأسود من الخارج ، بعد أن كان من الداخل[8]. فكان بناء الحجاج للكعبة هو الثانى منذ الإسلام ، وهو البناء القائم ليومنا[9] . فلما

(١) مصنف مجهول ، ص ٦٧ .

(٢) أسد الغابة ، ١ ص ١٢٨ . كان أنس صغيراً لما قدم النبى المدينة ، وتوفى وعمره أكثر من مائة عام فى سنة ٩٠/٧٠٨ . عنه ، أنظر . نفسه ، ١ ص ١٢٧ — ١٢٩ .

(٣) صبح الأعشى ، ٦ ص ٣٨٩ — ٣٩٠ .

(٤) مصنف مجهول ، ص ١٦٦ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٧٩ .

(٦) قطب الدين ، ص ٨٣ ؛ الأزرق ، ص ١٤٥ — ١٤٦ .

(٧) الأزرق ، ص ١٤٥ — ١٤٦ ؛ المقدمة ، ص ٢٧٩ .

(٨) مروج ، ٥ ص ١٩٣ .

(٩) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٧٩ .

فرغ منها ، أرسل إليه عبد الملك كسوتها من الحرير (الديباج[1]) ، ثم وفد للحج [2] .

وبعد ، فإن ابن الزبير أثبت مقدرة هائلة ، فقد نافس خلافة الأمويين تسع سنين[3] ، حتى وصفه أحد قواد الحجاج ، بقوله : توفى رجل شجاع ، حارب سبعة أشهر ، وليس حوله خندق أو قلعة[4] . وقد ولى عبد الملك الحجاج قائده المظفر ، عاملاً له على الحجاز وما يتبعها ؛ ليمنع حدوث أى فتنة أخرى فيه .

* * *

ولكن الفتنة ما لبثت أن عادت إلى العراق ، ولم تأت هذه المرة من جانب الشيعة ، فهؤلاء كانوا قد ضعفوا ، وإنما أتت من قبل جماعة أخرى كانت مع علىّ فى صفين ، وأنكرت عليه جعل حقه المقدس فى الخلافة موضع التحكيم بين الناس ، وقالت : «لا حكم إلا لله[5]» ؛ أى أنها كانت ترغب فى استمرار المعركة ؛

---

(١) صبح الأعشى ، ٤ ص ٢٧٩ ؛ انظر .
La Voile de la ka'ba. Stvdia : Gaudefroy — Demombynes Islamica 2, p. 10 - 11.
هذه الكسوة كانت فى الجاهلية من الجلد ، ومنذ عهد عثمان أصبحت من القماش (فتوح البلدان ، ص ٤٧) ، ولكن عبد الملك أول من كسا الكعبة بالديباج . صبح الأعشى ، ٤ ص ٢٧٩ .

(٢) ابن سعد ، ٥ ص ١٧٠ فما بعدها ؛ قطب الدين ، ٢ ص ٨٤ . حج فى سنة ٧٥ هـ . انظر أيضا المقريزى ، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، نشر الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ ، ص ٢٨ .

(٣) الكامل ، ٤ ص ٢٧ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ١٧٥ .

(٤) الطبرى ٢ : ٨٥١ .

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٢٠٥ .

لتكون وحدها الفيصل فى نزاعه مع معاوية ، وأنه لا يجوز العدول عن حكم الله إلى حكم الرجال ، وعرفوا بسبب قولهم هذا : « بالمحكمة »[١] ؛ فلما انحازوا إلى قرية حروراء — مكان قريب من الكوفة — عرفوا أيضاً : « بالحرورية »[٢] .

وقد بدأت تختمر بين هذه الجماعة المنفصلة ، التى كان أغلبها من بدو تميم باليمامة ، فكرة الخروج على نظام الخلافة القائم ؛ فجعلوها جائزة فى غير قريش ، وأنها يجب أن تعود إلى أفضل الناس مهما يكن أصله أو جنسه ، ما دام عارفاً بالكتاب والسنة[٣] . فكانت هذه الدعوة إلى نظام خلافة جديد ، تعبر عن رغبة العرب من غير أهل الحجاز فى عدم التقيد بالخضوع لقريش[٤] . ولما أخذت هذه الجماعة تتجمع بعيداً عن البصرة والكوفة فى أرض جوخى والنهروان عند وسط الدجلة[٥] ، اختاروا لهم أميراً أو إماماً

---

(١) البغدادى ، الفرق بين الفرق ، ضبطه وعلق عليه محمد بدر ، القاهرة ١٣٢٨هـ/١٩١٠ ص ٥٦ ؛ ٦١ .

(٢) نفسه ، ص٥٧ س٢ . يقول النوبختى إنها وقعة (ص ٦ س ٥) . عن حروراء، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٢٥٦ .

(٣) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، مصر ١٣٢٠ هـ ، الطبعة الأولى ، ٢ ص ١١٣ ؛ النوبختى ، ص ١٠ .

(٤) انظر . Lewis :

Some observations on the Significance of Heresy in the History of Islam. Stvdia Islamica. Paris, 1953, I, p. 47.

كان أغلب المنفصلين من قبيله تميم (البدوية) . الكامل ، ٣ ص ٣٣٦ .

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٢٠٨ . لعلها جوخا ؛ فهكذا يكتبها يا قوت. معجم ، ٣ص١٦١ . أما عن النهروان ، انظر . نفس المعجم ، ٨ ص ٣٤٧ .

اسمه عبد الله بن وهب الراسبي الأزدي(١) . وبسبب هذا الخروج عرفوا أيضاً : « بالخوارج »(٢) ، وهو الاسم الذي غلب عليهم .

وما لبثوا أن أصبحوا عقلية متعصبة ، ذات آراء دينية متطرفة ، تناولت إيمان الناس وأعمالهم : فكفروا علياً ومعاوية وعثمان وأصحاب الجمل ؛ وكل من رضي بتحكيم الحكمين(٣) . كذلك كفروا مرتكبي الذنوب حتى الصغيرة منها ؛ أي أخرجوهم من الإسلام ؛ ممتلين بقول القرآن ﴿ ومَن لم يحكُم بما أنزَل اللهُ فأولئك هُمُ الفاسقون » : ٤٧ ﴾ . فكانوا على نقيض المرجئة(٤) — وهي فرقة ظهرت في وقتهم — قالت بإرجاء الاختلاف في تكفير الناس في إيمانهم وأعمالهم إلى الله . وقد جرهم تكفير المسلمين في إيمانهم وأعمالهم إلى اعتراضهم المخالفين وقتلهم غيلة ؛ بحيث كانوا لا يبالون بمن قتلوه أو من أي وجه ، فعرفوا بسبب ذلك : « بالمستعرضة » ، أي من يدينون بالاستعراض(٥) . ويبدو تعصبهم الشديد من تسميتهم أنفسهم : « شراة »(٦) ، مفردها « شاري » ، أي الذين اشتروا الجنة ، وطلبوا الشهادة .

ومع أن علياً بذل جهده لاستمالتهم(٧) — وقد عاد بعد التحكيم إلى القتال —

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ٢٠٤

(٢) البغدادي، الفرق بين الفرق ، ص ٦١ ؛ انظر .
Ency. de l' Isl, (art Khàridjites) t 2, p. 958 sqq.
أصبح للخروج معاني أخرى فيما بعد .

(٣) الفرق بين الفرق ، ص ٥٥ ، النوبختي ؛ ص ١٥ — ١٦ .

(٤) الفرق بين الفرق ، ١٩ .

(٥) الكامل ، ٣ ص ٢٥٥ س ١٦ ؛ لسان ، ٩ ص ٣٩ ؛ انظر .
Ency. t2, p. 960.

(٦) الفرق بين الفرق ، ص ٥٦ .

(٧) الأخبار الطوال ، ص ٢١٠ فما بعدها .

فأرسل إليهم ابن العباس ليقنعهم(١) ؛ إلا أنهم رفضوا الانضمام إليه ، فحاربهم عند جسر النهروان ، وكان يقول كلمته المشهورة : « الله أكبر كلمة حق أريد بها باطل(٢) » ؛ فأنزل بهم هزيمة منكرة ، وقتل زعيمهم عبد الله بن وهب الراسبي ، وذلك فى أواخر سنة ٦٥٨/٣٧ . ولكن الخوارج انتقمت منه بأن دبرت قتله على يد أحدهم ، وهو عبد الرحمن بن ملجم ، الذى كان قد تزوج امرأة قتل أبوها وأخوها يوم النهروان على يد علىّ(٣) .

فمن غير قصد ، ساعد الخوارج معاوية فى تولى الخلافة ؛ مع أنهم كانوا دبروا قتله أيضاً ، ولكنه نجا(٤) . كذلك عادوا الحسن بن علىّ وكفروه(٥) ، كما فعلوا مع أبيه ، حتى أن الحسن كان يحرض شيعته عليهم ، ويقول : « لا يتأثم من قتل الحرورى المستعرض »(٦) . وبينما كان الحسن يستعد لقتال معاوية ، الذى زحف على العراق ، هاجمه الخوارج وجرحوه وكادوا يقتلونه أيضاً(٧) ، مما كان سبباً فى تنازله عن الخلافة لمعاوية .

ومع ذلك كان موقف الخوارج من الأمويين موقف الأعداء الألداء ؛ فحينما همّ معاوية بدخول الكوفة ؛ لينال بيعتها هاجموه ، لولا أنه أرسل نحوهم خيلاً ، وحاربهم بأهل الكوفة(٨) . كذلك كانوا يهاجمون عماله فى الكوفة والبصرة

(١) المبرد ، الكامل فى اللغة والأدب ، مصر ١٣٦٥ هـ ، ٢ ص ١٠٦ .
(٢) الكامل ، ٣ ص ١٦٩ س ١٢ — ١٣ .
(٣) نفسه ، ٣ ص ١٩٥ .
(٤) نفسه ، ٣ ص ١٩٧ — ١٩٨ .
(٥) الأخبار الطوال ، ص ٢١٩ س ٤ فما بعدها .
(٦) لسان ، ٩ ص ٣٩ .
(٧) الأخبار الطوال ، ص ٢١٩ .
(٨) الفرق بين الفرق ، ص ٦٢ .

باستمرار ، واعتبروا من أسرع الفرق فيهما إلى الفتنة(١) . فنجد المغيرة وزياد ابن أبيه ومن بعده ابنه عبيد الله قد شغلوا بالخوارج وألحوا فى طلبهم ، وبخاصة هذا الأخير الذى ملأ بهم السجون ، وقتل جماعة كثيرة منهم رجالاً ونساءً ، وكان همه ألا يدع أحداً منهم فى البصرة(٢) ، أما الكوفة فقد كان خوارجها قليلين ، لأنها شيعية .

عند ذلك هرب الخوارج إلى بلاد الأهواز الواسعة(٣) ، وهى البلاد التى تقع بين البصرة وفارس ، وكانت عبارة عن أرض بها مناقع مياه وصخور وجبال . وقد كثر عددهم فيها بمن جاءهم من أهل البصرة ممن استهوتهم آراؤهم فى الإمامة(٤) ؛ فكانوا يشنون منها بلا ملل أو كلال حرب عصابات حامية على البصرة ؛ مما أكسبهم عناداً فى القتال . كذلك استطاع رئيسهم أبو بلال بن أدّية(٥) — الذى عرف بأنه رأس كل حرورى — أن يتغلب على كل الجيوش الجرارة التى وجهها إليه ابن زياد ؛ مع قلة عدده . ولم يتمكن ابن زياد من هزيمتهم إلا بالخديعة ، حينما شدت عليهم جنده بتوّج فى فارس(٦) ، وهم بين قائم وراكع وساجد ، فلم يتخلص منهم أحد ، فقتلوهم عن آخرهم .

---

(١) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٦٠ .

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٢٦٥ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٥٥ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٢٥٦ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٣٨٠ فما بعدها .

(٤) الأخبار الطوال ، ص ٢٦٥ .

(٥) الكامل ، ٣ ص ٢٥٦ ؛ ٣٠٣ — ٣٠٤ ؛ المعارف ، ص ٢٠٩ . هو نسبة إلى أمه أدية من قبيلة تميم .

(٦) المعارف ، ص ٢٠٩ . فتحت هذه البلدة فى أيام عمر بن الخطاب سنة ١٨ أو ١٩ . معجم البلدان ، ٢ ص ٤٢٦ — ٤٢٧ .

ولكن الخوارج التفت من جديد حول رئيس آخر اسمه : نافع بن الأزرق وهو غير ابن الأزرق ، الذي كان حداداً من رقيق الروم ؛ واعتقه النبي عند غزو الطائف فى سنة ٨/٦٢٩ ، ولكنه ابن الأزرق ، الذى كان يقيم مع قبيلة بنى حنيفة باليمامة(١). ونحن لا نعرف عن حياة نافع الأولى شيئاً يذكر، إلا أنه كان يكنى بأبى راشد(٢) ، وأنه كان فى حبس الخوارج فى عهد زياد(٣) ، الذى حبسه لأنه كان يأخذ الناس بالظنة ، ثم أنه أقام مع الخوارج بالأهواز(٤) ، وأصبح بعد أبى بلال رئيسهم(٥) .

وكان من الممكن أن تكون فتنة الخوارج فى أيام نافع أشـــد خطورة على الأمويين ، لأنه سار على رأسهم لمساعدة ابن الزبير ، لما قام الحصين بن نمير بحصار مكة ، وقاتلوا معه(٦) . كذلك فى الولايات الأخرى مثل مصر ، مهد الخوارج لابن الزبير وكثروا بها ؛ مما جعل جندها يعلنون البيعة لابن الزبير(٧). ولكن بعد انسحاب أهل الشام من الحجاز بعد موت يزيد ، تبين للخوارج أن ابن الزبير يعمل لحسابه ، ولذلك تركوه وعادوا إلى العراق(٨) . فكان من نتائج ذلك عدم تأكد سلطان ابن الزبير لا فى الجزيرة العربية ولا فى العراق ، وأنهم شاركوه فى ملكه طول مدة الفتنة(٩) .

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٥٥ — ٥٦ ؛ مصنف مجهول ، ص ٧٨ فما بعدها ؛ انظر . Périer:
Ency. de l'Isl, (art Nafi' B. al-Azrak) t3, : al-Hadj, p. 24. p. 882.

(٢) الفرق بين الفرق ، ص ٦٢ .

(٣) مصنف مجهول ، ص ٧٨ — ٧٩ .

(٤) نفسه ، ص ٨٣ .

(٥) معجم البلدان ، ٤ ص ١٠٤ .

(٦) الكامل ، ٣ ص ٣٣٦ .

(٧) الخطط ، ٤ ص ١٥١ ؛ سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، ص ١٣٢ .

(٨) الكامل ، ٣ ص ٣٣٦ .

(٩) انظر Ency. t2, p. 958.

إبان ذلك كان أهل البصرة قد وثبوا بابن زياد ، وأخذت قبائلهم من الأزد وربيعة وتميم تتنافس على السيطرة فيها[١]. وقد أتاح هذا الانقسام للخوارج إعادة تنظيم صفوفهم بعد عودتهم إلى العراق ، حتى أن المسجونين منهم فى حبوس البصرة تمكنوا من الإفلات ؛ فسيطروا على أرباض البصرة ، ونشروا الرعب فيها[٢] . إزاء تلك الحالة الخطرة ، خاف أهل البصرة على مصرهم ؛ فاختاروا جماعة منهم ووجهوهم لقتال الخوارج ؛ مما جعل هؤلاء يرحلون من جديد إلى الأهواز ، وذلك فى أواخر سنة ٦٤ /٦٨٤ .

على أن رحيل الخوارج إلى الأهواز كان أيضاً بسبب انشقاقهم على أنفسهم ؛ فقد أنكرت جماعة منهم على نافع إحداث أمور فى مبدأ الخوارج لم يكن عليها السلف من أهل النهروان ؛ وهو الانشقاق الذى عرف عندهم : « بالمحنة[٣] » . فكان من نتائجه ظهور فرق متعددة للخوارج ، نسبت أغلبها إلى أسماء المنشقين على نافع . وبعد أن كان الخوارج فى مكان واحد ، أصبحوا بعد المحنة فى كل مكان فى : آذربيجان وأرمينية وسجستان وخراسان ومكران وكرمان وفارس[٤] ؛ بحيث بلغ عدد فرقهم العشرين[٥] . وثمة أمر آخر فقد انتقلت

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٣٣٦ .

(٢) مصنف مجهول ، ص ٩٣ .

(٣) نفسه ، ص ٧٨ .

(٤) المسعودى ، مروج ، ٥ ص ٢٣١ ؛ انظر . Ency. t2. p 958.

(٥) الفرق بين الفرق ، ص ٥٤ .

فرق الخوارج أيضاً إلى غرب بلاد المسلمين بالمغرب[١] ، فى أواخر حكم الدولة العربية ؛ بعد أن كانت فى المشرق وحده .

ومن البديهى أن أهم فرق الخوارج هى التى بقيت مع نافع ، ونسبت إلى أبيه الأزرق ، فعرفت : « بالأزارقة »[٢]. فهؤلاء غلوا فى مبادىء الخوارج الأولى ، إذا كان نافع نفسه من الفقهاء[٣] . فبالغوا فى « الاستعراض »[٤] ، بقتل النساء والأطفال وأخذ المال ، واستحلال « السباء »[٥] . كذلك تشددوا فى تكفير المسلمين ، وطلبوا النقاء فى « الإيمان »[٦] ؛ واعتبروا المؤمن بقلبه ولسانه فى النار : فكأنهم أقاموا المسلمين من غير الخوارج مع المشركين سواء بسواء[٧] ؛ مع أن المحكّمة الأولى يقولون إنهم كفرة لا مشركون[٨] . وفوق ذلك كانوا يرون « البراء »[٩] ، من مخالفيهم فى مذهبهم ، وسموهم « بالقعدة » ، أى الذين لم

---

(١) انظر Brunnow :
Die Charidschiten unter den ersten al - Hadj, p. 16 ; n (1) : Périer ; Omayyaden. Leyde, 1884 , p. 325

(٢) فتوح البلدان ، ص ٥٦ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ٦٢ فما بعدها ؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art Azrakites) t I , p. 552 - 3.

(٣) المبرد ، الكامل ، ٢ ص ١١٩ .

(٤) العقد ، ١ ص ٨٣ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣٣٧ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ٦٣ . اعتلوا بهذه الآية : (إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ، ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً ٧١ : ٢٧) .

(٥) مصنف مجهول ، ص ٨٣ .

(٦) ابن حزم ، الفصل فى الملل والنحل ، ٢ ص ١١٣ . حتى انهم أرادوا حذف سورة يوسف ، لما ورد فيها من فتنة وإغراء . Ency, t2. p. 960

(٧) الكامل ، ٣ ص ٣٣٧ ؛ العقد ، ١ ص ٨٣ .

(٨) الفرق بين الفرق ، ص ٦٢ — ٦٣ .

(٩) نفسه ، ص ٦٣ ؛ انظر .
Op. cit, p. 275 : Brünnow

يخرجوا للقتال معهم ؛ فلا يحل مناكحتهم ، ولا أكل ذبائحهم ، ولا قبول شهادتهم ، ولا ميراثهم . كذلك كان لهم رأى فى الحدود ، فانكروا الرجم ، وقطعوا يد السارق[١] . وقد كانوا يحلقون الرءوس اقتداء بأهل النهروان[٢] .

أما فرق الخوارج الأخرى وهى التى نسبت أغلبها إلى أسماء آباء المخالفين لنافع من أصحابه فعرفوا : « بأهل الوقوف[٣] » ، لوقوفهم عند الشبهة . فقد كانوا أكثر مسالمة وأقل تعصباً ؛ حتى أنهم يرون التقية ، ويجوزون التستر فى بعض الأحيان ، وعدم خوض القتال باستمرار ضد الجماعة . ولكن حين ينشب القتال ويشتركون فيه ، كانوا يظهرون من الجرأة وعدم الاحتياط ما لا يقل عما كانت تفعله الأزارقة[٤] . ومع ذلك فإنه من العسير أن نميز بعضهم عن بعض ، لتشابه آرائهم . فالنجدية أو النجدات[٥] ، أصحاب نجدة بن عامر الحنفى — وكان رأساً ذا مقالة منفردة من مقالات الخوارج[٦] — أخذوا على ابن الأزرق البراء من مخالفيه ؛ كما أنهم كانوا يرون من دون فرق الخوارج الأخرى ، أن الأمة غير محتاجة إلى إمام وإنما على الناس أن تقيم كتاب الله فيما بينها[٧] . والبيهسية أصحاب بيهس[٨] ، فإنهم رأوا أن الأزارقة غلوا فى دينهم ، وإن أباحوا الاستعراض ، وقالوا إذا أصيب الأطفال عفواً ، فلا حرج على من أصابهم[٩] . والأباضية[١٠]

(١) الفرق بين الفرق ، س ٦٤ .

(٢) هذا كان عند أزارقة الأندلس أيضاً ، انظر . أخبار مجموعة ، تحقيق وترجمة La fuentey alcantara ، طبعة Madrid ١٨٦٧ ، ص ٣٢ س ٤ .

(٣) مصنف مجهول ، ص ٧٨ .

(٤) نفسه ، ص ١٤٢ س ٤ ؛ انظر . فلهوزن ، الخوارج ، ترجمة بدوى ، ص ٧٤ — ٧٥ .

(٥) الفرق بين الفرق ، ص ٦٦ — ٦٧ ؛ المبرد ، الكامل ، ٢ ص ١١٨ .

(٦) المبرد ، الكامل ، ٢ ص ١١٨ .

(٧) النوبختى ، ص ١٠ .

(٨) لعله حنظلة بن بيهس ، صاحب نافع . الكامل ، ٣ ص ٣٣٦ س ٢٢ ؛ الأخبار الطوال س ٢٦٥ . أو بيهس هيصم بن جابر الضبعي . مصنف مجهول ، ص ٨٢ .

(٩) انظر هنا المرجع الأخير السابق .

(١٠) ابن حزم ، الفصل ، ٢ ص ١١٢ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ٨٢ — ٨٣ ؛ العقد ، ١ ص ٨٣ ؛ مصنف مجهول ، ص ٨٣ ؛ انظر .
Ency de l'Isl, (art Abâdites) t I p. 3 sqq ;
(art 'Abd. Allâh B. Ibâd) t I, p. 25.
أو هو عبد الله بن أباض . الكامل ، ٣ ص ٣٣٦ — ٣٣٧ .

أصحاب عبد الله بن يزيد الأباضي الفزاري الكوفي، كانوا يرون أيضاً أن نافعاً غلا ، وأن المسلمين براء من الشرك طالما تمسكوا بالدعوة الإسلامية، وإنما هم كفار للنعم ، وتستحل مناكحتهم والإقامة معهم ؛ فكانوا بذلك أقرب فرق الخوارج إلى السنة . والصُّفرية أصحاب عبد الله بن صفار التميمي[١] ، فإنهم كانوا من رأى الأباضية . وقالوا لا يحل قتل الأطفال ، ولا الاستعراض ، ورأوا القعود وعدم القتال ، وربما كانت تسميتهم صفرية بسبب قعودهم واصفرار وجوههم .[٢] هذه الفرق الأربعة تعتبر أهم فرق الخوارج ، التي انشقت على نافع بن الأزرق ، أما غيرها فإنها فرق منها .

ولكن لم تكن للخوارج قط فرقة أكثر عدداً ولا أشد شوكة من فرقة الأزارقة بالأهواز[٣] ، بعد أن انضم إليهم خوارج كثيرون من عمان واليمامة؛ بحيث أنهم مدوا سيطرتهم إلى أرض فارس وكرمان[٤]، التي بقيت قاعدة لهم زمناً طويلا . وبعد المحنة كان الأزارقة قد بايعوا رئيسهم نافعاً وسموه : « أمير المؤمنين » ، إذ كانوا لا يعترفون إلا بخلافة الشيخين الأولين أبو بكر وعمر؛ فأخذ نافع في جباية خراج أملاكه الواسعة .

قلنا إن أهل البصرة كانوا قد أرسلوا إلى حرب الخوارج بعض أبطالهم ومعهم القراء من المحافظين برئاسة أمير منهم[٥] ؛ ولكن الأزارقة تمكنوا من

---

(١) مصنف مجهول ، ص ٨٢ ـ ٨٣ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣٣٦ ـ ٣٣٧ . أو لعلهم أتباع زياد بن الأصفر . الفرق بين الفرق ، ص ٧٠ .

(٢) انظر المرجع الأخير .

(٣) نفسه ، ص ٦٢ .

(٤) نفسه ، ص ٦٤ . تقع ولاية كرمان بين فارس ومكران وسجستان . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٤١ فما بعدها ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ٣٣٤ .

(٥) مصنف مجهول ، ص ٩٣ .

هزيمتهم بدولاب قرب الأهواز(١) ، وقتل أميرهم . فولى أهل البصرة أميراً آخر عليهم ، فاستدرجه الأزارقة إلى أرض فارس وقتلوه أيضا(٢) ؛ وبعدها أقبلوا بجموع كثيرة على البصرة الخالية من المقاتلة(٣) ، حتى فزع أهلها وجلا أغلبهم عنها(٤) .

وعندئذ كاتب أهل البصرة ابن الزبير وسألوه المبايعة ، وإرسال قائد من قبله لحرب الخوارج(٥) . فاختار لهم عاملاً من قبيلة مخزوم ، وكتب إلى عامله على خراسان المهلب بن أبي صفرة بالتوجه إلى حرب الخوارج(٦) . ويبدو أن ابن الزبير اختار المهلب بالذات ، لما عرف من شجاعته في حرب الثغور ، حتى أنه كان أصيب في عينه أيام معاوية(٧) ، ولأنه من البصرة نفسها ، وبها قبيلته الأزد . فلما جاء المهلب البصرة أتى بديوان الجند ، واختار معظم عسكره من الأزد ، وقليلاً من سائر العرب ، وسار بهم إلى الخوارج(٨) .

ولقد أبدى المهلب معرفة هائلة بشئون الحرب ، فكان يكذب ويؤيد أن الحرب

---

(١) لا يذكر البغدادي (ص ٦٤ ــ ٦٥) أو الدينوري (ص ٢٦٥) قتل نافع بهذه الوقعة ، على عكس ابن الأثير الذي يذكر قتله فيها ، وقتل أمير البصرة ابن عبيس (الكامل ، ٣ ص ٣٤٩) ؛ وحتى المستشرق صاحب ترجمة نافع في دائرة المعارف الاسلامية يؤيد ذلك ، انظر .

Ency. de l'Isl, (art Nafi') t3, p. 882 .

عن دولاب ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ١٠٣ ــ ١٠٤ .

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٢٦٦ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٣٤٩ س ١٦ :

(٤) المعارف ، ص ٢٠٣ ؛ المبرد ، الكامل ، ٢ ص ١١٩ .

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٢٦٦ .

(٦) نفسه ، ص ٢٦٦ ــ ٢٦٧ ، البغدادي ، الفرق ، ص ٦٥ . وتذكر رواية أخرى أن في عهده قدم من عند ابن الزبير وقد ولاه خراسان ، ولكن أشراف البصرة استبقوه واقتطعوا كتاباً عن ابن الزبير بولاية البصرة . الكامل ، ٣ ص ٣٤٩ ؛ مصنف مجهول ، ص ١٠٢ .

(٧) قاتل في بلاد ماوراء النهر . انظر . وفيات ، ٢ ص ٢١٥ ؛ انظر بعده .

(٨) الأخبار الطوال ، ص ٢٦٧ .

خدعة[١] ، حتى أنه ربما صنع الحديث النبوى ليشد به أمر المقاتلين ، ويضعف من أمر الخوارج؛ أو أنه يأمر بضرب خيل العدو بالحجارة حتى يجعلها تضطرب[٢]. ونجده يخترع أشياء للحرب؛ فجعل ركاب الخيل من الحديد وليس من الخشب.[٣] وبفضل قيادته الماهرة تمكن أهل البصرة من دفع الخوارج إلى الأهواز بعد أن كادالخورج يهزموهم،وقتلوا رئيسهم نافعاً عندجبل سِلِّى[٤]. فلما سمع ابن الزبير بنصر المهلب ، أرسل أخاه مصعباً عاملاً له على البصرة بدلاً من عاملها المخزومى ، وأصبحت البصرة تسمى بصرة المهلب[٥] ؛ اعترافاً بجميله عليها ؛ لأنه حماها من الشراة .

بعد هزيمة الخوارج أقام المهلب فى الأهــــواز[٦] ، واستطاع أن يجبي خراج الفرات وغيره[٧] ، ثم سار إلى الخوارج فى فارس ، وأجبرهم على الهروب إلى صحارى كرمان[٨] . وقد تصدى لزعمائهم بعد نافع ، وأغلبهم من أسرة

---

(١) وفيات ، ٢ ص ٢١٥ . أصبحت سيرته أشبه بملحمة ذكرت فى سيرة السيد القنبطور، انظر Cronica Generale : Alfonso el Sabio . . .

(٢) مصنف مجهول ، ص ١٠٩

(٣) وفيات ، ٢ ص ٢١٥ .

(٤) الأخبار الطوال ،ص ٢٦٨ــ ٢٧٠ ؛ الفرق بين الفرق، ص٦٥. هذه رواية الدينورى، ويرى البغدادى أن قتل نافع كان على يد المهلب ، وليس على يد غيره . أما عن اسم الموقعة فيقول ياقوت اسمها سلى وسلبرى معاً (انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ١٠٠ — ١٠١) ؛ وإن الذى قتله المهلب فى هذه الموقعة هو عبيد الله بن الماحوز ؛ ولكننا نفضل رواية الدينورى والبغدادى.

(٥) المعارف ، ص ٢٠٣ ؛ وفيات ، ٢ ص ٢١٥

(٦) المبرد ، الكامل ، ٢ ص ١١٩ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣٥٢ .

(٧) مصنف مجهول ، ص ١٠٤ .

(٨) الأخبار الطوال ، ص ٢٧٠ .

بنى الماحوز من تميم ، فهزمهم جميعاً فى أماكن متفرقة(١) . ولكن الخوارج بعد بنى الماحوز ولوا عليهم زعيماً لا يقل فى جرأته وعناده عن نافع، اسمه قطرىّ ابن الفجَاءَة (٢) ، يعتبر بحق آخر رؤسائهم الأقوياء ، وهو من تميم أيضاً . ومن الطريف أن نذكر أن قطريّاً والمهلب كانا معاً ، فى خدمة عامل معاوية على بلاد سجستان(٣) . وقد كان قطرىّ خطيباً وفارساً(٤)، يتمتع بصفات السيد ، ويسلم عليه الخوارج بالخلافة ، ولقبوه بأمير المؤمنين(٥) ؛ كما كان يتكنى مثل رؤساء الخوارج ؛ فعرف بأبى نعامة (٦). وقد نظم قطرىّ صفوف الخوارج بعد هزائمهم المتتالية، وجعل سابور(٧) من أرض فارس دار هجرة لهم؛ حتى كثر أتباعه فيها.

---

(١) هم : عبد الله ، وعبيد الله ، والزبير (الكامل ، ٣ ص ٢٣٦ س ٢٢) . وقد اختلف المؤرخون فى كتابة أسمائهم — ولعله خطأ مطبعي — مثل : الماخور (معجم البلدان ، ٤ ص ١٠٤) ، أو حتى للماحون (مصنف مجهول ، ص ٨٠) . كذلك اختلفوا فى ترتيب زعامتهم وتواريخ قتلهم ، وعلى يد من ؟ فيجعل ياقوت عبد الله ومن بعده عثمان يقتلان قبل المهلب (معجم البلدان ، ٤ ص ١٠٤) ، وعبيد الله على يد المهلب (نفسه ، ٥ ص ١٠١) ؛ كما أن البغدادى لا يذكر عبد الله ،وإنما عبيدالله بن مأمون ، وعثمان بن مأمون ، ويقتلهما المهلب (الفرق بين الفرق، ص٦٥) . ويذكر ابن الأثير فى مكان آخر أن عبدالله جاء بعده الزبير ، وقتلهما المهلب (الكامل ، ٣ ص ٣٥١)، أو أن والى أصبهان هو الذى قتل الزبير (مصنف مجهول ، ص ١٢٠ — ١٢١) ؛ كما أن الدينورى يذكر بعد نافع عبد الله ، وقبل قطرى ، عبيد الله أيضاً . الأخبار الطوال ، ص ٢٧٠ . ولكنا نميل إلى الترتيب الذى أوردناه .

(٢) المعارف ، ص ٢١٠ ؛ مصنف مجهول ، ص ١١٢ — ١٢٥ ؛ انظر ؛
Ency. de l'Isl, (art Katari B. al - Fudjâ' a) t 2, p. 866 - 867 ;
Brünnow : Op. cit. p. 44-6.
هو ينسب إلى أمه . مروج ، ٥ ص ٣١٤ .

(٣) كان يعمل مع عبد الرحمن بن سمرة . فتوح البلدان ، ص ٣٩٦ .

(٤) الجاحظ ، البيان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣١٣ هـ ، ١ ص ١٩٦ ؛ ١٩٧ ؛ ٣ ص ١٢٦

(٥) الفرق بين الفرق ، ص٦٥ .

(٦) كان يتكنى بأبى محمد وقت الحرب ، وأبى نعامة وقت السلم . الجاحظ ، البيان ، ١ ص١٣١

(٧) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٤ — ٥ .

إبان ذلك اشتد ساعد المختار فى الكوفة بعد هزيمة الأمويين فى الجزيرة ؛ ولانشغال أهل البصرة بحرب الخوارج ؛ فكتبْ مصعب إلى المهلب أن يأتيه بجنده . فكتب المهلب إلى قطرىّ يطلب المهادنة ، فقبل قطرىّ ، وكتب بينهما كتاباً على أن تكون بينهما هدنة مدتها ثمانية عشر شهراً [١] . فتمكن مصعب بجند البصرة من هزيمة المختار وقتله ، ثم رُد المهلب بعد ذلك إلى قتال الخوارج[٢] ؛ لاسيما وأنهم انتهزوا فتنة المختار ، وتفرقوا فى أماكن كثيرة من بلاد الدجلة ، حتى وصلوا قرب الكوفة [٣] . فحاربهم المهلب مع إبراهيم بن الأشتر ودفعهم إلى الجزيرة ؛ واستمر يطلبهم من بلد إلى بلد ؛ إلى الوقت الذى هاجم فيه عبد الملك العراق [٤] .

وما أن سمع المهلب ومن معه من جند البصرة — وكانوا يقاتلون الخوارج — بقتل مصعب ، حتى بايعوا لعبد الملك إذ كان أغلبهم يمنية [٥] ، وقبل أن يغادر عبد الملك العراق ترك أخاه بشر بن مروان عاملاً له فيه[٦] سنة ٧٢/٦٩١ ؛ ولكن بشراً كان يكره المهلب ، بحيث استخدم معــــه قائداً آخر ، استبد بالأمر دونه وعرقل نشاطه ، مع أن المفروض أن يكون نجدة له كما طلب عبد الملك ؛ فلم يفعل المهلب شيئاً[٧] . وزاد الطين بلة أن جند المهلب أقبلت على البصرة تختفى فيها

(١) الأخبار الطوال ، ص ٢٩٥—٢٥٦ ؛
(٢) نفسه ، ص ٣٠١ .
(٣) الطبرى (طبعة مصر) ، ٤ ص ٥٧٩ .
(٤) نفسه ، ٥ ص ٥٨٦ .
(٥) انظر. قبله .
(٦) أنساب ، ٥ ص ١٦٦ فما بعدها . تولى البصرة أيضاً فى سنة ٧٣/٦٩٢ . الكامل ، ٤ ص ٢٨ .
(٨) ابن كثير ، البداية والنهاية ، ٩ ص ٣ ؛ الكامل ، ٤ ص ٢٩ — ٣٠ . اسم القائد الآخر هو عبد الرحمن بن مخنف .

مع أهلها وعائلاتها ؛ ولا تريد القتال [1] . وقد أصبح العراق فى محنة عسراء ، حتى أن أهل الكوفة أصبحوا فى الفتنة هم أيضاً [2] . فكان من نتائج هذا الاضطراب أن وصل الخوارج إلى الدجلة وركبوه[3] ، وسك قطرى العملة باسمه فى سنة ٧٥/٦٩٤[4]؛ إذ كان الخوارج الأزارقة يعتبرون عبد الملك أمير المشركين وليس أمير المؤمنين[5] . فأرسل المهلب إلى الخليفة كتاباً يقول له فيه : « إنى ليس عندى رجال أقاتل بهم ، فإما بعثت إلىّ بالرجال ، وإما خليت بينهم وبين البصرة » [6] .

لذلك لما توفى بشر فى سنة ٧٤/٦٩٣[7] ، وجه عبد الملك إلى العراق قائده الحجاج ، الذى كان قد ولى له مكة والمدينة واليمامة ثلاث سنين [8] ، فضبطها له تماماً، فضلاً عما اشتهر عنه من شدته وقسوته وشهامته. فولاه عبد الملك [9]

---

(١) مروج ، ٥ ص ٢٩٢ .

(٢) ابن كثير ، البداية ، ٩ ص ٩ — ١٠ .

(٣) مروج ، ٥ ص ٢٩١ .

(٤) انظر . Ency. de l'Isl, t2, p. 867.

(٥) العقد ، ٣ ص ١٤٣ س ٦ .

(٦) مروج ، ٥ ص ٢٩١ .

(٧) انظر . الطبرى (Annales) ٢ : ٨٥٧

(٨) ابن كثير ، البداية ، ٩ ص ٣ ؛ المعارف ، ص ٢٠٢ ؛

انظر . Périer : . al-Hadj, p. 65; n (2).

إذ أن المشرق كله كان يخضع للعراق . معجم البلدان ، ٦ ص ١٣٥ . ومع ذلك فلم يتول عمل خراسان وسجستان فى أول الأمر . مصنف مجهول ، ص ٢٦٦ ؛ الكامل ، ٤ ص ٣٣ .

البصرة والكوفة ، وما يتبع ذلك من الأقاليم الكبار ، وأمره أن يحشر الناس إلى المهلب فى حرب الخوارج[١] . فشخص الحجاج إلى العراق من الشام[٢] ، فوصل إلى الكوفة بغتة ، وصعد المنبر متلثماً بعمامة حمراء ، متنكباً قوسه ، فجلس واضعاً إبهامه على فيه ، ولما طال سكوته ظنه الحاضرون ضعيفاً مثل عاملهم السابق بشر ، وأخذ أحدهم حصاة ليحصبه بها[٣] ؛ فقام الحجاج وكشف عن وجهه ، وقال خطبته المخيفة التى مطلعها[٤] :

أنا ابن جلا وطلاع الثنايا   متى أضع العمامة تعرفونى

فكانت هذه الخطبة بمثابة برنامج له يتلخص فى أنه لن يضرب أو يحبس من لا يخرج لقتال الخوارج ، ولكنه يقطع رقبته بالسيف ؛ حيث كان يرى فى هذا المصر رءوساً أينعت وحان قطافها ، ودماء تجرى بين العمائم واللحى . وبعد ذلك قرأ عليهم كتاباً بنفس المعنى من الخليفة عبد الملك ، يحضهم فيه على قتال الخوارج[٥] . ولكى يحرضهم على ذلك ؛ كان يسبهم أيضاً ويصفهم بأنهم أهل شقاق ونفاق[٦] .

---

(١) العقد ، ٣ ص ٨ س ١١ — ١٢ .

(٢) مصنف مجهول ، ص ٦٩ .

(٣) العقد ، ٣ ص ٨ ؛ الكامل ٤ ص ٣٣ ؛ أنظر .
al-Hadj, p. 70 : Périer.

(٤) مصنف مجهول ، ص ٢٦٧ فما بعدها ؛ مروج ، ٥ ص ٢٩٤ فما بعدها ؛ المبرد ، ٢ ص ٢٢٤ فما بعدها ؛ الكامل ، ٤ ص ٣٣ فما بعدها .

(٥) مروج ، ٥ ص ٢٩٧ فما بعدها .

(٦) العقد ، ٢ ص ١٨٥ .

وفعلاً جند الحجاج أهل العراق عن طريق عرفاء المصر وجرائد الديوان،(١) وأجبرهم على السير إلى المهلب، إذ اعتبر حرب الخوارج كحرب الثغور والمغازي.(٢) وقد أصدر الحجاج أمره إلى رئيس شرطته، بضرب عنق من يبطىء في الخروج سواء أكان من الشبان أم من الشيوخ، وأعطاهم مهلة ثلاثة أيام(٣). فتدفق القوم نحو المهلب يعبرون الجسر حتى سقط بهم، فأقام الحجاج جسرين.(٤) وقد قسا الحجاج على أهل المصرين، حتى بلغ به الأمر أن أنقص العطاء، فانتهز بعض اليمنية في البصرة، وعلى رأسهم عبد الله بن الجارود(٥) — وهو من أشرافهم — فرصة خروج أغلب الجند مع المهلب، وثاروا عليه، وزاد موقفه حرجاً باستيلائهم على خزائن السلاح، وإن لم يتمكنوا من الاستيلاء على بيت المال. فلم يتردد الحجاج في محاربتهم بشرطته، وبعدد قليل جداً من القيسية جاءوا لنصرته، وتغلب عليهم بقتل عبد الله بن الجارود، وأرسل برءوس القتلى إلى عسكر المهلب. كذلك هاجم الحجاج الزنج العبيد، الذين جاءوا من الصومال، وكثروا بالعراق منذ أيام مصعب وأقلقوا مضاجع سكانه، فقاتلهم وهزمهم(٦). وقد وصف المهلب الحجاج — وهو الوالي الجديد — بالوالي الذكر(٧).

---

(١) مصنف مجهول، ص ٢٧١.

(٢) نفسه، ص ٢٧٤ س ١١ — ١٢.

(٣) نفسه، ٢ س ٢٧٤ — ٢٧٥.

(٤) مروج، ٥ ص ٣٠٠.

(٥) مصنف مجهول، ص ٢٨٠ فما بعدها؛ الكامل، ٤ ص ٣٦ فما بعدها؛ أنظر: Périer : al-Hadj, p. 81 sqq.

(٦) الكامل، ٤ ص ٤٠؛ مصنف مجهول، ص ٣٠٣ فما بعدها؛ : Périer : al-Hadj, p. 86 sqq :Périer

(٧) مصنف مجهول، ص ٢٧٧؛ أنظر. al-Hadj, .p 79.

وبفضل من جاءه من الجند ، تمكن المهلب من حرب الأزارقة كراً وفراً فيما بين فارس والأهواز [(١)]، إلى أن وقع بينهم الخلاف، فتركهم يقتتلون . ويبدو أن الأزارقة كانوا قد أخذوا على قطرى بعض أمور منها هربه الكثير أمام المهلب [(٢)]، مما جعله يفارقهم إلى فارس ؛ وإن بقيت أغلبيتهم مع زعيم آخر غامض اسمه عبد ربه الكبير. وعلى الرغم من أن الحجاج أمر المهلب بقتالهم وهم مختلفون [(٣)]، فإن المهلب تركهم يقتتلون دون أن يستعجل مهاجمتهم؛ ليستفيد من هذا الموقف بإضعافهم. ولكن المهلب بعد ذلك نشط فى طلبهم ، فحاصرهم بوادى جيرفت بأرض كرمان [(٤)]، وقتل زعيمهم عبد ربه الكبير . كذلك بعث الحجاج من جانبه جيشاً كثيفاً إلى قطرى ، الذى التجأ إلى طبرستان ، وتمكن من قتله أيضاً [(٥)]. وبذلك تم على يد الحجاج بمهارة قائده المهلب إخماد فتنة قطرى أكبر زعماء الخوارج ، الذى استمر يقاتل عشرين سنة ، ويسلم عليه بالخلافة ، ويقول البغدادى عن هزيمتهم : « طهرت الأرض من الأزارقة ، والحمد لله [(٦)] » .

إزاء هذا النصر العظيم ، أضاف عبد الملك إلى عمل الحجاج بالعراق خراسان وسجستان فى ٦٩٧/٧٨ [(٧)] ، فكان هذا أقصى ما وصل إليه الحجاج من سلطان . ومن ناحية أخرى نجد الحجاج من جانبه يستدعى قائده المهلب ؛ ليكافئه على نجاحه

---

(١) الفرق بين الفرق ، ص ٦٥ — ٦٦ . كان هناك عبد ربه الصغير ، الذى فارقه أيضاً .

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٢٧٢ ؛ انظر .
Ency., t2, p. 867.

(٣) الكامل ، ٤ ص ٦٤ .

(٤) الأخبار الطوال ، ص ٢٧٣ . عن هذه البلدة ، انظر . معجم البلدان ٣، ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٢٧٤ .

(٦) الفرق بين الفرق ، ص ٦٦ .

(٧) الكامل ، ٤ ص ٧١ ؛ مصنف مجهول ، ص ٣١٠ — ٣١١ .

فى حرب الخوارج ، فيكرمه حين قدومه عليه[١]،ويوليه على خراسان نيابة عنه؛ وهى البلاد، التى كان وليها من قبل ابن الزبير أيضاً؛ حيث بقى المهلب فيها إلى وقت وفاته فى سنة ٨٣/٧٠٢ [٢] .

ومع أن الخوارج أبعدوا عن العراق ، فإن خطرهم عاد من جديد هذه المرة فى الجزيرة ، وبخاصة حينما تزعمهم شبيب بن يزيد الخارجى ، الذى يُكنى بأبى الصحارى ، وزوجته غزالة فى سنة ٧٦/٦٩٩ [٣] . ولا يعرف لهؤلاء الخوارج فرقة معينة ، فهم صفرية فى الأصل ، مع أن شبيباً نفسه يبدو أزرقياً [٤] ؛ وإن كان أغلبهم من قبيلة ربيعة الساكنة فى نواحى الموصل . وفى كل مرة كان يهزم شبيب جيوش الحجاج مع قلة عدده ، حتى بلغ عدد من قتلهم خمسة قواد .

وقد ظهر شبيب فى العراق فجأة ، وكان دخوله فيه وقت خروج الحجاج من البصرة يريد الكوفة ؛ واستفحل أمره وجبى خراج العراق . وإزاء هذا الخطر الداهم اضطر الحجاج إلى طلب المدد من السوريين ، إذ أن العراقيين كانوا غير راغبين فى القتال مع الأمويين . فلما جاء الحجاج المدد حارب به الخوارج فردهم إلى الأهواز،ولم ينقذه من عودتهم إلا غرق شبيب فى نهر دُجَيل فىسنة٧٧/٦٩٧؛ وهروب أتباعه إلى كرمان .

وهناك مكان آخر لنشاط الخوارج هو بلاد الجزيرة العربية وذلك منذ سنة ٦٥/ ٦٨٤ــ ٥ ، حينما فارق نجدة بن عامر نافع بن الأزرق [٥]،لإحداثه أموراً فى مذهب

(١) الأخبار الطوال ، ص ٢٧٤ ؛ مصنف مجهول ، ص ٣١٠ .
(٢) المعارف ، ص ٢٠٤ .
(٣) نفسه ، ص ٢٠٩ ؛ مروج ، ٥ ص ٣٢٠ ــ ٣٢٢ ؛ الكامل ، ٤ ص ٤٢ فما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Shabîb) t4. p. 253.
(٤) الكامل ، ٤ ص ٤١ فما بعدها ؛ مروج ، ٥ ص ٣٢١ ؛ ابن كثير ، البداية ، ٩ ص ١٤ ؛ المعارف ، ص ٢٠٩ .
(٥) المعارف ، ص ٢٠٩ ؛ مروج ، ٥ ص ٣٢١ ــ ٣٢٢ . عن دجيل ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٤٢ .

الخوارج لم يوافق عليها(١) . فذهب نجدة إلى اليمامة بجوار العراق و بايعته بنو حنيفة بدل شيخها — ولكنه لم يتخذ لقب أمير المؤمنين — وكان نجدة يومئذ ابن ثلاثين سنة ، وإن اشترط على من بايعوه أنهم إذا وجدوا لهم خيراً منه فليبايعوه ويبايع معهم(٢) ؛ فعرف أتباعه بالنجدات أو النجدية. ثم سار نجدة إلى البحرين وعُمان واستولى عليهما ، ومد سيطرته إلى صنعاء باليمن ، وإلى حضرموت ؛ فملك بذلك نصف الجزيرة العربية . وكان يأخذ صدقة أهل البوادى ، ويعين عماله على النواحى ، حتى التى حول مكة ؛ وكان له أسطول فى الخليج الفارسى (٣) .

وقد كان نجدة أكثر مسالمة من نافع لابن الزبير ، فقد قاتل معه الحصين غضباً لانتهاك حرمة الكعبة ، ولما فارق نافعاً صالح ابن الزبير وصلى وراءه(٤) ، وكان له لواء للحج(٥) ، وظن الناس أنه سيبايعه ، ولكنه لم يبايعه(٦) . ومع أن نجدة شارك ابن الزبير ملكه فى الجزيرة العربية . فقد كان كل هم ابن الزبير ألا يهاجم نجدة الحجاز ، أو يتحالف مع الأزارقة ، الذين كان يحاربهم أخوه مصعب دفاعاً عن العراق(٧) ؛ وإن سمعنا أن مصعباً عند توليته البصرة أرسل إلى نجدة جيشاً هزمه فى سنة ٦٨٨/٦٩ .

ولما هاجم الحجاج الحجاز تحالف نجدة هذه المرة مع الأمويين فقطع الميرة عن مكة(٨) ، مما كان سبباً فى مجاعتها . لذلك دعاه (٩) عبد الملك إلى طاعته على أن

---

(١) انظر. الكامل ، ٣ص ٣٥٢ فما بعدها .
(٢) مصنف مجهول ، ص ١٢٦ — ١٢٧ .
(٣) نفسه ، ص١٤٢ .
(٤) الكامل ٣ ص ٣١٦ ، ٣٦٣ ؛مصنف مجهول ، ص ١٣٧ .
(٥) الكامل ، ٣ ص ٣٠٦ .
(٦) نفسه ، ٣ ص ٣٠٧ (آخر الصفحة) .
(٧) نفسه ، ٣ ص ٣٥٢ ؛ مصنف مجهول ، ص ١٣٣ — ١٣٤ .
(٨) مصنف مجهول ، ص ١٣٩ — ١٤٠ .
(٩) نفسه ، ص ١٤٣ .

يوليه اليمامة وما حولها ، وأن يهدر له ما أصاب من أموال ودماء. ومن الجائز أن يكون نجدة قد وافق على ذلك ، إذ أخذ عليه بعض أتباعه قبول مداهنة عبد الملك وفارقوه برئاسة أحدهم واسمه عطية إلى عُمان، ومنها إلى كرمان، فعرفوا بالعَطَوِيّة، وقد حاربهم المهلب (١). وكذلك ما لبث أن نقم على نجدة بقية أنصاره لخروجه على مبادئهم ، وتفرقته فى العطاء بينهم ؛ وانحازوا إلى زعيم غيره اسمه أبو فديك عبد الله ، وتربصوا لنجدة وهو يهم بالمسير إلى عبد الملك، وقتلوه فى سنة ٦٩١/٧٢ . وقد كان قتل نجدة سبباً فى تفرق الخوارج النجدية ، وبعث عبد الملك جنداً من أهل الكوفة قتلوا أبا فديك فى سنة ٧٣ / ٦٩٢ ، وأرسلو برأسه إلى عبد الملك .

والنتيجة أن عبد الملك أخمد أخطر فتن الخوارج بالمشرق ، مما مهد لخلافته ومن جاء من الخلفاء بعده الاستقرار . ومن المحقق أن سبب نجاحه عليهم ، يرجع إلى تفرقهم ، وكره الناس لهم لما صاحب حركتهم من تعصب وتخريب ودمار (٢).

•

ولكن الحجاج لم يكد يفيق من خطر الخوارج حتى دهمته فتنة عبد الرحمن ابن محمد بن الأشعث بن قيس الكندى فى سنة ٨١ / ٧٠٠ (٣) ، عامله على إقليم

---

(١) نفسه ، ص ١٣٥ ؛ ١٤٣ — ١٤٥ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ٦٧ — ٦٩ ؛ الكامل ، ٣ ص ٣٥٤ ؛ ٤ ص ٢٨ .

(٢) انظر . Ency. t2, p. 959.

(٣) مصنف مجهول ، ص ٣٠٨ فما بعدها ، الأخبار الطوال ، ص ٣٠٦ فما بعدها ؛ انظر . Ency de l'Isl, (art'Abd al- Rahmân B.Muhammed B. al-Ash'ath) t I, p. 57 - 58.

يقول ابن قتيبة إن فتنته بدأت فى سنة ٧٠١/٨٢ . انظر . المعارف ، ص ١٨١ .

سجستان المجاور لثغر السند[١]. فقد كان هذا الإقليم من قبل وكراً دائماً للخوارج[٢]، ولم يلعن فيه علىّ بن أبى طالب، مع أنه لعن على منابر جميع أعمال خلافة الأمويين، حتى على منابر الحرمين : مكة والمدينة[٣] .

وليس أعسر من معرفة سيرة هذا العامل الثائر ، فليس لدينا عنه غير نزر يسير من المعلومات ؛ فهو من سلالة ملوك كندة بحضرموت ؛ حيث نال أفرادها قبل الإسلام وبعده الشرف الرفيع ، وتميزوا بالاعتداد بشخصياتهم . فكان جده الأشعث بن قيس[٤] (م ٤٠/٦٦٠) ممن وفدوا على النبي مع وفد كندة من حضرموت ، ثم ارتد بعد النبي وأسر وبُعث به إلى أبى بكر الذى قبل توبته وزوجه أخته أم فروة ، جدة عبد الرحمن. وقد شهد الأشعث معارك المسلمين الأولى، وفقئت عينه فى إحداها باليرموك، وأصبح زعيم كندة بالكوفة ، وشهد صفين مع علىّ ، وكان ممن ألزمه بالتحكيم ، ثم سكن الكوفة . كذلك تزوج الحسن بن علىّ ابنة الأشعث، وقيل إنها هى التى سقته السم فمات منه . أما أبوه محمد بن الأشعث[٥] ، فقد ولد على عهد رسول الله ، واستعمله ابن الزبير على الموصل ، وكان ضمن أشراف الكوفة ، الذين ثاروا على المختار لتقريبه الأعاجم ، فوفد على مصعب يحثه على المسير ضد المختار ؛ فأدناه مصعب و أكرمه لشرفه ، وأرسله إلى المهلب ليأتيه بنفسه بعسكره ؛ فسار محمد بن الأشعث على خيل مصعب ، فقتل فى المعركة .

أما عبد الرحمن نفسه ، فنلمس اعتـــداده بنفسه ، لما عارض مصعباً وهدد

---

(١) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧ فابعدها ؛ أبو الفدا ، ص ٣٤٠ . عاصمتها زرنج . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٣٨٥ . وهى فتحت فى عهد عمر بن الخطاب .

(٢) مصنف مجهول ، ص ٣٢٢ .

(٣) معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧ .

(٤) المعارف ، ص ١٦٩ — ١٧٠ ؛ أسد الغابة ، ١ ص ٩٧ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٠٤ ؛ انظر التاريخ السياسى ، ١ ص ١٥٥ ؛

Ency. de l'Isl, (art al - Ash'ath B. Kaïs) , t I p, 488-9 .

(٥) الكامل ، ٣ ص ٣٨٢ فما بعدها ؛ أسد الغابة ، ٤ ص ٣١١ — ٣١٢ .

بالانفصال عنه(١) ، حينما أراد أن يعفو عن الأسرى ، الذين كانوا مع المختار ومنهم قتلة أبيه . ثم فى زمن الحجاج يحارب الخوارج بكرمان(٢) ، وشبيباً بالعراق فى سنة ٧٦ / ٦٩٥ — ٦٩٦(٣) . وبعد إخماد فتنة الخوارج ولاه الحجاج سجستان(٤) ، وكلفه بمحاربة رُتبيل أحد ملوك الترك على بلاد زابل الواسعة(٥) — زَابُلستان(٦) أيضا — التى تقع فى طرف خراسان عند السند ، لأن هذا الملك كان يرفض دفع الأتاوة ، ويقاتل عمال العرب ويهزمهم : ففى سنة ٧٤/٦٩٣ ، ملك السبل على الأمير عبدالله بن أمية عامل سجستان وكاد يفتك به ، وأخلى سبيله على شريطة أن يمتنع عن مقاتلته ولا يغزوه ما كان أميراً(٧) ، مما جعل عبدالملك يعزل عبدالله . كذلك غدر رتبيل بابن أبى بكرة الذى أرسله الحجاج على سجستان قبل عبد الرحمن ، وجعل رتبيل يتوغل فى بلاد سجستان الواسعة ، وأخذ على بن أبى بكرة الشعاب ، ثم حاربه وهزمه ودس السم فى مياه الآبار ، حتى لم ينج أحد ممن كان معه . وغمّ الحجاج غماً شديداً(٨) . ولذلك اختار الحجاج عبد الرحمن لمحاربة هذا الملك وهو يبغض عبد الرحمن لزهوه(٩) ، حتى أنه سمى الجيش الذى أرسله معه جيش

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٣٨٥ .

(٢) مصنف مجهول ، ص ٣١٨ .

(٣) الكامل ، ٤ ص ٥١ — ٥٢ .

(٤) مصنف مجهول ، ص ٣١٨ ؛ ٣٢٠ ؛ انظر . Ency, I, p. 57 .

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٣٠٩ . يسميهم المسعودى الفوز . مروج ، ٥ ص ٣٠٢ .

(٦) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٣٦٥ ؛ التنبيه ، ص ٣١٤ س ١١ . ويقول المسعودى إنهم من الترك .

(٧) الكامل ، ٤ ص ٣١ .

(٨) نفسه ، ٤ ص ٧٢ . كان يقول ما رأيته قط إلا أردت قتله . نفسه ، ٤ ص ٧٤ .

(٩) مصنف مجهول ، ص ٣١٨ .

الطواويس (١) ؛ ولعله اختاره لأن عبد الرحمن نفسه كان زوج أخته (٢) ؛ أو لشجاعته ونخوته .

ونحن لا نعرف سبباً لفتنة ابن الأشعث سوى الحقد على الحجاج لظلمه أهل العراق — بنى جلدته — وإهانتهم . وينقل المؤرخون مايؤيد ذلك ، من أنه لما توغل ابن الأشعث فى بلاد رتبيل ، وأخذ الحصون والغنائم ، أظهر مكراً ، مع أن رتبيل كان قصده الإيقاع به كما أوقع بسلفه ، فأرسل للحجاج يخبره بذلك ، وأبدى رأيه فى ترك التوغل فى بلاده أكثر مما توغل ، خوفاً من أن يهلك المسلمون ، ولكن الحجاج أرسل إليه يتهدده ويتهمه بالجبن ، وإلا فليترك الإمارة إلى أخيه ليحاربه (٣) . فأغضب ذلك ابن الأشعث ، ومن معه من جند الكوفة والبصرة ، الذين فاض بغضهم للحجاج لقسوته وسوء معاملته وسموه فرعون (٤) ؛ حتى أن عاملاً آخر للحجاج على المدائن اسمه مطرف بن المغيرة بن شعبة فكر أيضا فى خلعه لقسوته (٥) . وتحت تحريض الجند خلع ابن الأشعث الحجاج ، وبايعه الجند على كتاب الله والسير إلى العراق لخلع أئمة الضلال ، ولكنه لم يخلع عبد الملك (٦) . كذلك حاول ابن الأشعث أن يستميل المهلب عامل الحجاج على خراسان ، وسأله الخلع معه ، فقال المهلب : ما كنت لأغدر ، ولم يجبه عن كتابه ، وبعث إلى الحجاج يحذره من شر هذه الفتنة (٧) ، التى ولاريب يتعطش لها أهل العراق .

وقبل أن يسـير ابن الأشعث إلى العراق وادع رتبيل وكتب بينه

(١) نفسه ، ص ٣٢٠ .

(٢) نفسه ، ص ٣٥٨ .

(٣) نفسه ، ص ٣٢٣ — ٣٢٤ ؛ الكامل ، ٤ ص ٧٧ — ٧٨ .

(٤) مصنف مجهول ، ص ٣٢٦ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ٦٢ — ٦٣ .

(٦) مصنف مجهول ، ص ٣٢٦ .

(٧) نفسه ، ص ٣٢٩ ، ٣٢٦ ؛ الكامل ، ٤ ص ٧٩ .

وبينه كتاباً، وعاهده ألا يسأله خراجاً أبداً، وإن قوى عليه الحجاج لجأ ومن معه إليه(١). ثم انتقل ابن الأشعث إلى كرمان، وطرد عامل الحجاج عليها(٢)، وسار إلى فارس وخلع فيها عبد الملك أيضا، وسمى نفسه ناصر المؤمنين، ودخل الأهواز(٣).

فخرج الحجاج من البصرة لمقابلته، ولكن مقدمته انهزمت عند نهر دجيل، فرجع الحجاج إلى البصرة، وتحصن بمكان قريب منها اسمه الزاوية(٤). فدخل ابن الأشعث البصرة، وانضم إليه معظم أهلها وقراؤها وكهولها، ولاسيما مواليها لقتال أهل الشام، وذلك لثقل وطأة الحجاج عليهم(٥). فوقع فى الزاوية التحام شديد، تم فيه النصر لابن الأشعث، على الرغم من أن الحجاج قطع الجسور والقناطر، وقتل من الطرفين خلق كثير(٦). وبقى الحجاج محاصراً فى أحد أرباض البصرة إلى أن جاءه مدد من أهل الشام أنقذه(٧). كذلك وثب أهل الكوفة بعامل الحجاج(٨)، مما ترتب على ذلك حرق الناس للديوان فى سنة ٨٢/٧٠١(٩)، فدخل ابن الأشعث الكوفة، وحشد أهلها معه؛ بحيث لم يبق من وجوههم وقرائهم أحد له نباهة إلا خرج معه(١٠).

---

(١) مصنف مجهول، ص ٣٢٧.

(٢) نفسه، ص ٣٣٣.

(٣) التنبيه والإشراف، ص ٣١٤. يقول المسعودى إن خلعه كان بإصطخر.

(٤) مصنف مجهول، ص ٣٣٩—٣٤٠؛ الكامل، ٤ ص ٧٩؛ مروج، ٥ ص ٣٠٦. عن هذا المكان، انظر. معجم البلدان، ٤ ص ٣٧١.

(٥) الكامل، ٤ ص ٧٩؛ العقد، ص ٩٢؛ انظر Von Kremer: Kulturges—chichte des Orients (1875) I, p. 172. Weil: Arab, p. 243—4.

(٦) مصنف مجهول، ص ٣٤٠ فما بعدها؛ مروج، ٥ ص ٣٠٦. اختلف فى تاريخ هذه الموقعة، فقيل سنة ٨١/٧٠٠. مصنف مجهول، ص ٣٤٢، وقيل ٨٢/٧٠١. انظر الكامل، ٤ ص ٨٠، وقيل ٨٣/٧٠٢ (انظر. المعارف، ص ١٨١)

(٧) مصنف مجهول، ص ٣٣٧؛ ٣٣٨؛ ٣٣٩.

(٨) نفسه، ص ٣٥٥ فما بعدها؛ الكامل، ٤ ص ٨٠؛ مروج، ٥ ص ٣٠٤.

(٩) أبو يوسف، الخراج، القاهرة ١٣٤٦ هـ، ص ٦٨؛ فتوح البلدان، ص ٢٧٣.

(١٠) الأغانى، ٥ ص ١٥٣ س ٣؛ مصنف مجهول، ص ٣٣٦—٣٣٧؛ ٣٥٧.

وعلى الرغم من ذلك لم يهرب الحجاج أو يسلم ، مع أن الخليفة أرسل أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله ليعرضا على أهل العراق عزل الحجاج ، على أن يتولاها مكانه محمد بن مروان ، وأن ينزل ابن الأشعث والياً على أى بلد شاء(١) . ولكن أهل العراق كانوا قد صمموا على خلع عبد الملك ؛ كما أن الحجاج بين لخليفته أن قصد أهل العراق من فتنتهم خلع الخلافة الأموية . لذلك أبقى عبد الملك الحجاج عاملاً له فى العراق يطاولهم ؛ فبنى الحجاج فى كرش من الأرض بين البصرة والكوفة معسكراً ثابتاً لجنده السوريين ، أحاطه بالخنادق والأسوار ، وبنى فيه المسجد وقصر الامارة ، وسماه واسطاً ؛ وذلك حوالى سنة ٧٠٢/٨٣(٢) ؛ ليقف أمام المصرين العراقيين الثائرين . فوقعت بينه وبين ابن الأشعث عدة وقائع بلغت نحواً من ثمانين وقعة(٣) ، وضعت بعد وقائع صفين ، أهمها على الإطلاق وقعة دير الجماجم بظاهر الكوفة(٤) ، التى انكسر فيها ابن الأشعث ، وقُتل عدد كبير من القراء . وبعدها هرب ابن الأشعث إلى رتبيل الذى أحسن وفادته فى أول الأمر ، وكان ابن الأشعث ينوى أن يدخل خراسان ، ولكن يزيد بن المهلب — الذى تولى بعد أبيه — رفض دخوله(٥) .

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٤ ٨١ — ٨٢ .

(٢) اختلف فى تاريخ إنشائها ، ويبدو أن هذا الاختلاف بسبب أن بناءها استمر عده سنوات : فلعله بناها فى سنة ٦٩٤/٧٥ ؛ وإن كنا نستبعد هذا التاريخ (وفيات ، ١ ص ١٧٥) ، ولكننا نرجح بناءها من سنة ٧٠٢/٨٣ إلى ٧٠٥/٨٦ . انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ٣٧٨ — ٣٧٨ ؛ مع فتوح البلدان ، ص ٢٩٠ ؛ انظر .

Die alte, : Streck ! Ency. de l'Isl, (art Wâsit) t4, p. 1188 sqq
Landschaft Babylonien nach den arabishen Geographen. Leide.
al-Hadj, p. 2055 qq : Péirer ! 1900, p. 318—19.

(٣) التنبيه ، ص ٣١٥ س ٩ — ١٠ . يقول ابن قتيبة إن عدد الوقائع أربعة : وقعة الأهواز ، والزاوية ، ودير الجماجم ، ووقعة دجيل . المعارف ، ص ١٨٢ .

(٤) اختلف فى تاريخها ؛ وإن أجمعت المراجع على أنها بعد الزاوية . مصنف مجهول ، ص ٣٥٧ ؛ انظر . المعارف ص ١٨١ . اختلف أيضاً فى تسميتها هكذا : لعله لأنه كان يعمل فيها أقداح من الخشب ؛ كما أن الجمجمة تعنى البئر أيضاً ، أو بسبب مواقع قديمة كثر فيها القتلى ، وبنى بجماجمهم بناء أوغير ذلك . انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ١٣١ — ١٣٢ ؛ المعارف ، ص ١٨٢ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ١٨٨ .

ولم يزل الحجاج يحتال على قتل ابن الأشعث ، فعرض على أتباع ابن الأشعث الأمان[١]، ولعل ابن الأشعث مات بالسل[٢] ، أو أن رتبيل غدر به وسلمه فانتحر[٣] ؛ وذلك حوالى سنة ٨٤ — ٧٠٣/٨٥ — ٧٠٤[٤] .

فكانت هذه هى آخر الحركات الخطيرة، التى هددت ملك عبد الملك فى العراق . وبعدها أخذ الحجاج فى ترويض أهله على الطاعة ، فأسرف فى قتلهم ، وكان يخبر عن نفسه أن أكبر لذاته سفك الدماء[٥] ، وأُحصى من قتله منهم فبلغوا مائة وعشرين ألفاً[٦] ، حتى أن عبد الملك كان يدعوه أن يكف عن الإسراف فى القتل[٧]. وأشهر من قتله الحجاج أيوب بن القرية صاحب الأمثال المسجوعة، التى منها : لكل جواد كبوة ، ولكل حليم هفوة ، ولكل شجاع نبوة ، فقتله بنفسه بحربة أدخلها فى حلقه ، بعد أن أمسك به أربعة رجال[٨]. كذلك كان يقتل كل من اشتبه فى أنه خارجى ، ويقطع أيديهم وأرجلهم ويصلبهم[٩] ؛ مما جعلهم يهربون من الشرق إلى أطراف الدولة . وتبدو قسوة الحجاج أيضاً ، مما يذكره المؤرخون بأنه توفى فى محابسه خمسون ألف رجل ، وعشرون ألف امرأة[١٠]، غير الذين قتلهم

---

(١) نفسه ، ٤ ص ٩٢ .

(٢) نفسه ، ٤ ص ٩٥ .

(٣) مروج ، ٥ ص ٣٠٤ — ٣٠٥ ؛ التنبيه ، ٣١٦ .

(٤) نفسه ، ٥ ص ٣٠٨ ؛ نفسه .

(٥) وفيات ، ١ ص ١٧٣ س ٢٨

(٦) معجم البلدان ، ٨ ص ٣٨١ .

(٧) مروج ، ٥ ص ٣٠٨ .

(٨) الأخبار الطوال ، ص ٣٠٧ — ٣١١ .

(٩) مصنف مجهول ، ص ٩٢ .

(١٠) العيون والحدائق فى أخبار الحقائق ، تحقيق de Geoje ، طبعة Ludg-Bat ، ١٨٧١ ، ص ١٠ ؛ التنبيه ، ص ٣١٨ .

ولا حرج فإن شخصية الحجاج قد أثبتت أنها خشنة الملمس ، صعبة الشكيمة ؛ بحيث أن أهل العراق كانوا يشمتون فيه إذا مرض ، ويطلبون موته(١) . ولقد قورن الحجاج بزياد بن أبيه ، وإن كان زياد يفضله — على حسب قول مؤرخي العصر — لأنه ضبط العراق بأهل العراق ، أما الحجاج فضبطه بأهل الشام (٢).

ولكن عمل الحجاج فى العـــراق لم يقف عند حفظه من الفتن ، بل عمل على إصلاحه مما أصابه بسببها . فهذه البلاد الواسعة التى كان العرب يسمونها أيضاً بالسواد لكثرة زروعها (٣) ، قد آل معظمها للعرب بعد فرار ملاكها أو قتلهم ، أو أنها كانت من أرض كسرى(٤) ، أو بحكم أنها فتحت عنوة كان المفروض أنها لا تقسم ؛ لتكون فيئاً للسلمين عامة(٥) . ولكن عمر أقطع بعضها من قبله (٦) ، كما قسمها عثمان إلى قطائع (٧) ؛ بحيث أصبح للسواد ملاك كثيرون من العرب . وكانت هذه المنطقة قد أهملت منذ آخر عهد عثمان بسبب الفتنة الأولى ، وأصلحها زياد فى عهد معاوية وحفر بها الأنهار (٨) . كذلك قام الحجاج بإصلاحها ، بسبب ما أصابها من قسوة فتن الخوارج وغيرها ؛ فكان يستخدم العلوج وهم الفلاحون غير العرب فى إصلاحها (٩) ؛ كما كان يستذل الموالى بأن

---

(١) العقد ، ٣ ص ٢١ فما بعدها .

(٢) نفسه ، ٣ ص ٤ س ٢٣ فما بعدها .

(٣) معجم البلدان ، ٥ ص ١٥٩ .

(٤) فتوح البلدان ، ص ٢٧٣ س ٣ — ٤ ؛ أبو يوسف ، ص ٦٨ .

(٥) معجم البلدان ، ٥ ص ١٦٣ .

(٦) أبو يوسف ، ص ٦٩ . الفيء هو مال المسلمين عامة ، انظر . قبله .

(٧) فتوح البلدان ، ص٢٧٣ (آخر الصفحة) ؛ Lammens : Etudes, p. 89

(٨) فتوح البلدان ، ص ٣٥٨ .

(٩) أبو يوسف ، ص ٢٩ — ٣٠

ينقش على يد كل مولى اسم بلده[١] ، كما غرس فى أهالى السواد الحقد الأبدى ضد الأمويين . ولعل الحجاج أعاد توزيع أغلب أراضى السواد ، بسبب حرق الناس الديوان بالكوفة[٢] .

وبذلك برزت شخصية الحجاج القوية فى تاريخ دولة بنى أمية ، فهو — على حسب قول الخليفة عبد الملك[٣] — بفضله وطأ لهم المنابر ، ودوخ البلاد ، وأذل الأعداء . ولما تولى الوليد بعد عبد الملك ، أقره على ماولاه أبوه من قبل ، واستمر عامله على المشرق كله ، حتى وفاته فى سنة ٩٥/٧١٤[٤] . وبعد موته ولى الوليد يزيد ابن أبى مسلم كاتب الحجاج[٥] ؛ لتبقى سياسة الحجاج فى العراق من غير تغيير .

*

فى الوقت نفسه كان الخليفة عبد الملك يعمل على تقوية الحكم العربى بعد أن فسد كل شىء بسبب الفتن : فعمل على تحويل كل شىء فى جهاز الدولة إلى العربية ؛ وهو ما عرف : « بالتعريب[٦] » . وقد كانت خطوة عبدالملك فى هذا الصدد هامة ؛ إذ أن أجزاء كثيرة من الأمبراطورية العربية لازالت إلى وقتنا الحاضر عربية ثمرة لجهوده .

فنحن نعرف أن عمر بن الخطاب ترك إدارة البلاد المفتوحة أجنبية كما هى ، مع تعديل بسيط ؛ وذلك لأن العرب لم تكن لديهم مؤهلات حضارية : فأبقى

---

(١) العقد ، ٢ ص ٩٢ .
(٢) فتوح البلدان ، ص ٢٧٣ .
(٣) مصنف مجهول ، ص ٢٦٢ .
(٤) وفيات ، ١ ص ١٧٥ .
(٥) العقد ، ٣ ص ٢٥ . عنه ، انظر . وفيات ، ٢ ص ٤١٠ — ٤١٢ .
(٦) عن معنى هذه الكلمة ، انظر . لسان العرب ، ٢ ص ٧٧ فما بعدها .

على الدواوين (جمع ديوان) ، وهى كلمة تبدو فارسية يقصد بها الكتاب أو أماكن عملهم أو السجلات لإحصاء الأموال وضبط العطاء والحقوق[1] . فكانت هذه الدواوين تحرر بلغة أهلها : فديوان الشام بالرومية (باليونانية) ، وديوان العراق وفارس بالفارسية ، وديوان مصر بالقبطية[2] . ولا يعنى هذا أن الدواوين لم تكتب إطلاقاً بالعربية ؛ فقد كان ديوان العساكر الإسلامية بالمدينة يحرر بالعربية منذ عمر[3] ؛ وإنما كان ديوان المال والجباية هما اللذان يكتبان بلغة أهل البلاد المفتوحة .

ولكن عبد الملك بعد أن استتب له الأمر أمر أن تكون اللغة العربية وحدها هى لغة الدواوين جميعها[4] ، بقصد إيجاد الانسجام فى إدارة الامبراطورية الإسلامية : ففى عهده نُقل ديوان الشام من اليونانية للعربية[5] ؛ كما أن الحجاج نقل الديوان بالعراق من الفارسية للعربيه ؛ أما ديوان مصر فتأخر نقله إلى أوائل عهد الوليد[6] . ومن الجائز أن يكون سبب سرعة نقل ديوانى الشام والعراق

---

(١) عن معنى الدواوين ، انظر . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٢ ؛ انظر .

Ency. de l'Isl, (art Diwân) t I, p. 1006 .

؛ انظر . العبادى ، صور من التاريخ الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٣ (عصر الدولة العباسية) ص ١٢٣ .

(٢) الخطط ، ١ ص ١٥٨ س ١٠ — ١١ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٢ (آخر الصفحة) .

(٤) نفسه ، ص ١٩٣ .

(٥) لدينا نص آخر يقول إنه نقل إما فى عهد الملك أو هشام بن عبد الملك (الخطط ، ١ ص ١٣٩ س ٢ — ٣) أو فى سنة ٨١/٧٠٠ (فتوح البلدان ، ص ١٩٣) أو حتى فى عهد الوليد (أغابيوس ٨/٣ (القسم الثانى) ص ٤٩٨[٢٣٨]) ؛ كما قد يكون نقل الدواوين تم فى الكوفة أولا . انظر . البلاذرى ، فتوح ، ص ٣٠٠ ؛ انظر .

Das Arabische Reich und sein, : Weil .
Essays indian and, : Khuda Bukhsh ; Struz, pp. 135 - 137
Islamic. London, 1912, p. 69 .

(٦) الخطط ، ١ ص ١٥٨ س ١٢ .

دون ديوان مصر ، هو أن البلدين الأولين كانا عربيين منذ القدم .

ويرى ابن خلدون أن سبب تعريب عبد الملك للدواوين هو أن العرب في زمنه كانوا قد انطلقوا من طور البداوة، وأقبلوا على تعلم القراءة والكتابة[1] . ويرى أيضاً أن الذي ساعد على اتخاذ خطوة التعريب، هو أن اللغة العربية أصبحت في متناول كثير من الكتاب في البلاد المفتوحة — وهم الذين كانوا يملأون الدواوين — وبخاصة الموالي الذين أسلموا ؛ فمنذ عهد علىّ ظهر بعض الموالي المهرة الذين كانوا يبحثون في قواعد اللغة العربية وتبسيطها ، مثل أبي الأسود الدؤلي (م ٦٧ / ٦٨٦) ، الذي عاش إلى زمن الأمويين[2] . كذلك سعى الحجاج عامل العراق لعبد الملك في إيجاد ضوابط للغة العربية باستخدام التنقيط ، فقد فزع من تغيير الموالي للفظ القرآن لتشابه الحروف ، مما ترتب عليه تغيير في معانيه وهو ما عرف « بالتصحيف » ، فسأل كتابه من العجم أن يضعوا للحروف علامات ، تميز بعضها من بعض ، فوضعوا له النقط ، ولذلك سميت في أول الأمر « بالنقط الأعاجم »[3] .

وقد كان من نتائج تعريب الإدارة في الإمبراطورية الإسلامية أن أقبل كتابها من غير العرب على تعلم العربية ؛ لكي يستمروا في عملهم بالدواوين . ولكن الخليفة حينما نقل ديوان الشام إلى العربية ، اضطر إلى عزل كتابه من الروم ؛ ويبدو أنه فعل ذلك لوفرة وجود كتاب من أهل الذمة[4] يعرفون

---

(١) المقدمة ، ص ١٩٣ س ٥ — ٦ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٢٠٠ .

(٣) وفيات ، ١ ص ١٧٤ — ١٧٥ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٩٣ س ٨ . فقد كان من أشهر كتاب عبد الملك سرجون بن منصور الرومي . العقد ، ٢ ص ٣١٧ .

اللغة العربية . أما في العراق فقد أرغم الحجاج كتاب دواوينه على الكتابة بالعربية دون الفارسية (١) ، وعلى العكس تأخر نقل ديوان مصر ، فلدينا مجموعات بردية تبيّن أنه كان يكتب بالقبطية أو باليونانية أو بالعربية(٢) ، وإن كان الوليد قد منع نهائيا التحرير باليونانية ، وجعل العربية اللغة الوحيدة فى الإدارة (٣) . ويبدو أيضاً أن تحويل ديوان مصر من دون الدواوين الأخرى قد لقى معارضة من قبل المصريين ، حتى أنه استعين بشخص من الشام(٤) .

وعلى ذلك أصبحت اللغة العربية لغة رسمية فى جميع أجزاء الإمبراطورية الإسلامية ، مما مهد لتعريب ألسنة شعوبها ، بحيث غلب الخط العربى على خطوطها ؛ كما انعدمت أمامه بعضها ، مثل : الآرامية والسريانية والقبطية (٥) . كذلك أصبحت اللغة العربية لغة الدين فى منطقة واسعة من البحر الأبيض ؛ ولم يقتصر الأمر على من تحول إلى الإسلام ، بل تعداهم إلى غيرهم من سكانها من المسيحيين .

وقد تبع خطوة تعريب الدواوين خطوة أخرى هامة ترمى إلى تقوية الحكم العربى ، بضبط ميزانيته واقتصادياته . فحتى ذلك الوقت كانت العملة المتداولة فى أجزاء الدولة الإسلامية هى العملة البيزنطية أو الفارسية ، أو ماعرف بالرومية والكسروية (٦) ، ذلك لأن العرب ـ كما بيَّنا ـ فى أول عهدهم لم يكونوا

(١) ابن خلدون المقدمة ، ص ١٩٣ س ١٢ ؛ فتوح البلدان ، ص ٣٠٠ ـ ٣٠١ .

(٢) انظر. La Documentation Papyrologique de l' Epoque:Cheira. Arabe. 1948 cf.

(٣) أغابيوس، ٣/٨ (القسم الثانى) ص ٤٠٨[٢٣٨]. هكذا يذكر بالنسبة لدواوين الشام.

(٤) الخطط ، ١ ص ١٥٨ س ١٣ ـ ١٤ .

(٥) حاجى خليفة ، كشف الظنون عن أسامى الكتب والفنون ، الطبعة الأولى ، استانبول ١٣١١ هـ ، ١ ص ٤٦٤ ؛ انظر . ماجد ، مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى ، ص ٢٤ .

(٦) ابن كثير ، البداية ، ٩ ص ١٥ ؛ النزاع والتخاصم ، ص ٩ ؛ المقريزى ، النقود الإسلامية ، طبعة قسطنطينية ، ١٢٩٨ ، ص ٥ .

يعرفون النقود إلا فى يد تجار قريش (١) ؛ الذين كانوا يحملونها إلى مكة من بلاد الروم والفرس . فكانت هذه العملة تحمل نقوشاً فيها تماثيل (أى صور) مثل تمثال الملك أو أحد أبنائه أو حصن أو حيوان (٢)، أو بيت النار (٣) أو الصليب (٤)؛ كما أن بعضها كان يحمل تواريخ قديمة ؛ قد ترجع إلى ما قبل الإسلام بأربعمائة سنة (٥) .

ولكى يجعل الخليفة عمر لهذه العملة الأجنبية صبغة شرعية ، قرر أن تُضاف بالعربية فى نقوشها عقيدة الإسلام (٦) ، وكلمة (جائز (٧)) للدلالة على أنها عملة جيدة حسب المعيار الذى أقره النبي وأبو بكر من قبل (٨) . وبعد عمر ظهرت عدة محاولات لسك عملة إسلامية صرفة ؛ إلا أنها كانت محاولات غير مثمرة ، إذ اعتبرت رديئة لاتنافس عملة الروم أو العجم ؛ فمثلاً سك معاوية درهماً باسمه (٩). كذلك ضرب مصعب بن الزبير فى العراق الدنانير والدراهم فى سنة ٧٠/٦٨٩، بأمر

---

(١) النزاع والتخاصم ، ص ٢٩ ؛ أنظر . Lavoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes, : Khalifes Orientaux t1. Préface, p. 1.

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٦ س ١٩ — ٢٠ .

(٣) النقود الإسلامية ، ص ٩ ؛ أنظر . Lavoix : Op. cit, p. VIII

(٤) أنظر . Lavoix : Op. cit, p. VIII—X;XII—XIV; p. 15 (51) ; 17 (57) .

(٥) السيوطى ، حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٧١ س ٧ .

(٦) أنظر . Lavoix : Op. cit, p. 1; 15 (50) ; 17 (57).

(٧) أنظر . Ibid, p. 3—4 ; 9 ; 10 ; 13 ؛ النقود الإسلامية ، ص ٩ ؛ أنظر قبله . التاريخ الإسلامى ، ١ ص ٢٣٧ . أنظر مثلا العملة فى سنة ١٧/٦٣٨ .

(٨) المقريزى ، النقود الإسلامية ، ص ٤ .

(٩) أنظر . المقريزى ، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، الطبعة الثانية ، تحقيق زيادة والشيال ، ص ٥٢ ؛ Lavoix : Op. cit. Préf XXXII; p. 58

أخيه عبد الله (١) . وسك بعض الخوارج فى العراق العملة باسمهم أيضاً(٢) .

ولكن عبد الملك — على ما يظهر — هو أول من جعل الدولة العربية تشرف بنفسها على ضرب العملة ونقشها(٣) ، ونهى عن أن يضربها غيرهم(٤) ؛ وذلك منذ سنة ٧٥/٦٩٤(٥). ثم ضربها الحجاج بالعراق فى سنة ٧٦/٦٩٥(٦) ؛ وقام بعد ذلك كل أمير فى جميع النواحى بسكها فى عمله ؛ على أساس تفويض من الخليفة (٧) . ويذكر بعض المؤرخين أن سبب اتخاذ عبد الملك هذه الخطوة يرجع إلى تهديد قيصر الروم له، بأن ينقش على الدنانير التى يتداولها أهالى دار الإسلام مايكره عن النبي (٨) . ولكننا نعتقد أن ضرب عبد الملك للعملة يرجع إلى أسباب ومصالح اقتصادية وسياسية عايا ؛ إذ أصبحت من لوازم السيادة

---

(١) إغاثة الأمة ، ص ٥٣ ؛ فتوح البلدان ، ص ٤٦٦ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٦ — ٢٠٧ . وهو نقش عليها فى أحد الوجهين بركة الله ، وفى الآخر اسم الله .

(٢) انظر . قبله . ضربت الدراهم النجدية فى كرمان وكان يقال لها العطوية نسبة لزعيمها . مصنف مجهول ، ص ١٣٥ .

(٣) ابن سعد ، ٥ ص ١٧٠ س ٥ — ٧ ؛ المقدمة ، ص ٢٠٦ ؛ انظر . Sauvaire : Matériaux pour servir à l'Histoire de la Numismatique et de la Métrologie musulmanes. Paris, 1882 p. 20 .

(٤) الكامل ، ٤ ص ٥٣ .

(٥) لدينا تواريخ متعددة منها ٧٤ أو ٧٥ . انظر ضمن مراجع أخرى : ابن كثير ، البداية ، ٩ ص ١٥ ؛ فتوح البلدان ، ص ٤٦٨ . ويقول الدينورى سنة ٧٦ . الأخبار الطوال ، ص ٣٠٦ .

(٦) فتوح البلدان ، ص ٤٦٨ ؛ المعارف ص ١٨١ ؛ انظر . Lavoix : Op. cit., p. 28 (91 ; 92) p. 53 (145 ; 146 ; 147 ; 148).

(٧) انظر . فتوح البلدان ، ص ٤٦٨ ؛ Lavoix : Op. cit., p Préf XVII.

(٨) الكامل ، ٤ ص ٥٣ ؛ إغاثة الأمة ، ص ٥٣ — ٥٤ .

الإسلاميه[١] ؛ كما انتفع الناس بإشراف الدولة عليها ، فتميز المغشوش من العملة الخالصة[٢] .

وقد عرفت هذه العملة الرسمية باسم : « السكة الإسلامية[٣] » ؛ وكلمة السكة تعني خاتم الحديد الذي تطبع عليه العملة أو تضرب عليه بالمطرقة[٤] ، وأصبح يطلق عليها وعلى الدار التي تصنع فيها، اسم : «دار السكة» أو « بيت الضرب[٥] ». فكان يشرف عليها موظف خاص اسمه : « صاحب بيت الضرب » ، يكون تحت يدة الصناعون والطباعون[٦] ؛ الذين كان بعضهم من أهل الذمة[٧] ، لخبرتهم في شئون المال . وكان الخليفة بنفسه هو الذي يحدد لها « المقدار[٨] » ، أي الوزن كما فعل عمر من قبل ؛ لتكون العملة في التداول على أساس العيار الشرعي ؛ إذ أن العملة وقتئذ كانت توزن ولا تعد .

ولم تتغير وحدة العملة بتعريبها : فبقي الدينار الذهبي ، والدرهم الفضي[٩] ،

---

(١) النقود الإسلامية ، ص ٩ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٦ . فقد وجد في عهد مروان من كان يقطع الدراهم ، ويزيف في أوزانها . فتوح البلدان ، ص ٤٠٧ .

(٣) إغاثة الأمة ، ص ٥٥ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٦ ؛ الماوردي ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٣٢٨هـ، ص ١٤٠ .

(٥) ابن سعد ، ٥ ص ٢٧٦ س ٢٦ . التسمية في عهد عمر بن عبد العزيز .

(٦) فتوح البلدان ، ص ٤٦٨ — ٤٦٩ .

(٧) النقود الإسلامية ، ص ٦ .

(٨) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٧ س ١١ ؛ ص ٢٠٨ س ٨ ؛ ١٢ .

(٩) نفسه ، ص ٢٠٧ ، س ١٠ ؛ فتوح البلدان ، ص ٤٦٧ . الدينار أصله لاتيني "Denarius" استخدم في عملة روما ، فنقل إلى العرب بتحريف خفيف : «دينار» . وعلى العكس فان درهم لفظة فارسية معربة . انظر عن ذلك : انستاس ماري الكرملي، النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩ ، ص ٢٣ — ٢٥ والملاحظات ؛ انظر قبله التاريخ السياسي ، ١ ص ٢٣٧ .

والقطع من الدرهم مثل الدانق والمثقال (١) . ولكن تغير نقش العملة وأصبح كلمات من غير صور ؛ لأن الشرع الإسلامى نهى عن الصور . فكانت الدنانير والدراهم على شكلين مدورين ، والكتابة عليهما فى دوائر متوازية ؛ فيكتب على أحد الوجهين أسماء الله وصلاة على النبي ، وفى الوجه الآخر التاريخ واسم الخليفة (٢) . كذلك نقش الحجاج بالعراق اسمه على الدراهم ، فعرفت بالعملة الحجاجية(٣) ؛ وسميت مكروهة ، لكره أهل العراق لها . وقد ظهرت فى أول الأمر معارضة من قبل الفقهاء (٤) ؛ لأن تنقش عقيدة الإسلام على العملة، خوفاً من أن يمسها غير المطهرين .

ونعرف بعض أسماء من عملة العصر الأموى ، مثل الدنانير الدمشقية التى سكها عبد الملك (٥) ، والدينار الأبيض أى النقى الذى سكه الحجاج ، وقد بقى فى مصر حتى مجىء الفاطميين إليها (٦) . وكانت أجود عملة لبنى أمية ماسكه عمالهم بالعراق ؛ حتى عرفت بأسمائهم، مثل : الهبيرية والخالدية واليوسفية(٧). كذلك

---

(١) الكامل ، ٤ س ٥٤ ؛ فتوح البلدان ، ص ٤٦٥ ؛ ابن خلدون المقدمة ، ص ٢٠٧ س ٣ . الدانق لفظ أعجمي استعمله العرب فى الجاهلية للدلالة على وزن أو نقد . انظر . عنه إغاثة ، ص ١٠ وهامش (١) ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Dânik) t I, p. 936
أما المثقال فهو نقد للدلالة على درهم أو دينار أو وزن . إغاثة ، ص ٤٧ — ٤٩ ؛ وهامش (٥) ؛ انظر ، Ency. de l'Isl, (art Mithkâl). t3, p. 599,

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٧ س ١٢ — ١٥ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ٤٦٨ ؛ العقد ، ٣ ص ٢٢ ؛ انظر .Lavoix : Op. cit, I. p. 69-70.
لعلها الدنانير البيض . انظر . بعده .

(٤) الكامل ، ٤ ص ٥٣ . أو لعله لنقص وزنها .

(٥) فتوح البلدان ، ص ٤٦٦ ؛ انظر . العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، ص ١٧٨ .

(٦) الخطط ، ٣ ص ٨ ؛ إغاثة ، ص ٥٧ وهامش (٢) [يقول إنها دراهم] ؛ انظر . Op. cit, II, pp. 121, 156: 227-229. : Sauvaire

(٧) الكامل ، ٤ ص ٥٤ س ٣ . هى نسبة إلى عمر بن هبيرة أيام يزيد بن عبد الملك ، وخالد بن عبد الله القسرى ، ويوسف بن عمر أيام هشام بن عبد الملك .

استمرت فى التداول بعض العملات القديمة الأعجمية ، مثل البغلية والطبرية [١] .

ويضاف إلى قيام عبد الملك بخطوة التعريب ؛ إعادته تنظيم الإدارة التى أفسدتها الفتن . فقد أتم عمل معاوية فى تنظيم البريد ؛ بحيث يذكر المؤرخون أنه أحكمه [٢] ؛ كما نلمس انتظام عمل الدواوين بفروعها المختلفة ، مثل : ديوان الرسائل والخراج والخاتم [٣] . كذلك عمل على حصر أهل الذمة بالشام ؛ تمهيداً لتنظيم فرض ضريبة الجزية ؛ ولعله اضطر إلى ذلك بسبب فوضى الفتن السابقة ؛ فأمر « بالتعديل » أى بأن يكتب كل شخص اسمه واسم أبيه وأولاده وممتلكاته فى مكان ولادته [٤] .

*

وبعد أن تغلب على أعدائه ، وقضى على الفتنة عاد إلى حركة الفتوح ، التى استمرت بعده وامتدت امتداداً هائلاً لم يكن يفكر فيه الخلفاء الأوائل ، ولم تستطع الدولة العباسية التى جاءت بعد الأمويين أن تحتفظ بكل مافتح فى عهدهم ؛ فضلاً عن أنها لم تزد عليها شيئاً .

فنجد عبد الملك يتجه إلى حرب الروم ، الذين كانوا قد حاولوا الاستفادة من وقوع الفتنة الثانية ، كما فعلوا فى الفتنة الأولى . ففى غضونها هاجموا حصون

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٧ س ٨ ؛ ٢٠٨ س ٦ . يبدو أن البغلية دراهم أعجمية عرفت من العصر الجاهلى (فتوح البلدان ، ص ٤٦٦) ؛ أما الطبرية فلعلها عملة رومية من مدينة طبرية بالشام ، انظر ، إغاثة وهامش (٢) ص ٤٨ . يعتمد المحققان على ما أورده De Sacy فى هامش كتابه عن النقود .

(٢) صبح الأعشى ، ١٤ ص ٣٦٨ ؛ انظر . قبله .

(٣) العقد ، ٢ ص ٣١٧ .

(٤) انظر . Denys : Op cit, p. 10 .

الثغور ، وبخاصة ملطية التي كان معاوية استولى عليها ، وجعلها طريق الصوائف العربية فهدموها ، وأنزلوا بها عساكرهم(١) . كما أنهم قاموا ببعض الهجمات على مدن ساحل الشام بقصد تخريبها، مثل: عَسقلانَ وقيسَاريّة وصُور وعكّة(٢). ولعلهم كانوا ينوون الهجوم على الشام(٣)، لولا أنهم شغلوا بمجيء البُلغار وهم الصقالبة(٤)، الذين بدأوا يوطدون أقدامهم حول الدانوب منذ سنة ٦٠/ ٦٧٩ ، ويشاركون الروم في منطقة البلقان وكانوا كفاراً ،وأسلم بعضهم .

كذلك كان الروم يثيرون ضد العرب عناصر الجراجمة الجبلية الساكنة على حدود سورية كما فعلوا في الفتنة الأولى ؛ مع أن معاوية كان قد صالحهم(٥) ؛ ولكن بتشجيع الروم انتشروا إلى جبال لبنان في أواخر عهده (٦). فكانوا دائمي الفتنة بتحريض الروم ؛ بحيث يقول البلاذرى عنهم إنهم كانوا يستقيمون للولاة مرة ويعوجون أخرى(٧) . ولما حدثت فتنة عمرو بن سعيد الأشدق ثاروا على

---

(١) فتوح البلدان ، ص١٨٥ ؛ انظر . قبله .

(٢) نفسه ، ٣ : ١٠ . عسقلان مدينة بالشام من أعمال فلسطين على ساحل البحر (معجم البلدان، ٦ ص ١٧٤) ، وقيسارية بلد على ساحل بحر الشام تعد في أعمال فلسطين (نفسه ، ٧ ص ١٩٥)، وصور داخلة في البحر على ساحل الشام (نفسه ، ٥ ص ٣٩٧) ، وعكة اسم بلد على ساحل بحر الشام من عمل الأردن (نفسه ، ٦ ص ٢٠٥) .

(٣) مروج الذهب ، ٥ ص ٢٢٤ ؛ انظر بعده .

(٤) عنهم ،انظر.الكامل ، ٨ ص ٣٢ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٢٧٢ فما بعدها ؛ D'hsson: Op. cit, p. 213; n (28) ؛ انظر أيضاً Gaud-Plat : Op. cit. p. 454. يبدو أنهم كانوا يسكنون جنوب روسيا ، ونواحي الدانوب .

(٥) فتوح البلدان ، ص ١٦٠ ؛ انظر . قبله .

(٦) نفسه ، ١٦١ ؛ Michel le Syrien t2, fasc 3, p. 469 ؛ أغابيوس ، ٨/٣ ص٤٩٢ ــ ٤٩٣[٢٣٢ ــ ٢٣٣]، انظر . Thoumin : Hist, de Syrie, p. 173. لعلهم المارونية حالياً . انظر . Salibi : The Maronites of Lebanon under Frankish and Mamluk Rule. Arabica t18 Sep. 1957. fasc 3,p. 288.

(٧) فتوح البلدان،ص١٥٩ ؛ انظر . Ency. de Isl.(art Mardaites) t3, p. 238

عبد الملك فى سنة ٧٠ / ٦٨٩ ، لولا أن عبد الملك استمالهم ليأمن جانبهم(١) .

وثمة أمر آخر هو أن الروم انتهزوا هذه الفتنة وعملوا على ضم أرمينية إليهم؛ وهى التى كان العرب قد استرجعوها بعد الفتنة الأولى بمساعدة عناصر موالية لهم فيها(٢) . ويقول البلاذرى إن أجزاء من أرمينية التى كانت تخضع للعرب قد استقلت نتيجة للفتنة أيام ابن الزبير(٣) ، وقد أرسل الروم إليها جيشاً ودخلها ؛ ويبدو أنها خضعت لليونان كما يقول الأسقف الأرمنى سيبيوس «Sébéos»(٤) فلم نعد نسمع عن ولاة عليها من قبل العرب منذ معاوية(٥) . كذلك كانت عناصر الأكراد الرعوية ، بجوار الجزيرة قد اشتد أمرها بالفتنة(٦) ، مما جعل الموقف يتحرج بالنسبة للعرب .

وقد كان الخلفاء الأمويون يحسون بنوايا الروم وتهديدهم ؛ إلا أنهم فى أثناء الفتنة لم يكن يستطيعون شيئاً . فنجد معاوية فى أواخر خلافته وقد شعر بما سيكون عليه موقف المسلمين من تعيينه ليزيد ، يشترى السلام من أمبراطور الروم قنسطنطين الرابع (٦٦٨ - ٦٨٥م) فى سنة ٦٠/٦٨٠(٧) ؛ حتى يهيء لابنه الفرصة ولكن المؤرخين المسيحيين يذكرون أن سبب عقد معاوية الصلح هو سوء

---

(١) فتوح البلدان ، ص ١٦٠ .

(٢) انظر . قبله .

(٣) فتوح البلدان، ص ٢٠٥ س ١٤ .

(٤) انظر . Histoire d'Héraclius, p. 148 ؛ انظر أيضاً : Michel le Syrien t2, fasc 3, p. 469 .

(٥) انظر . Op cit., p. XXXVII : Denys

(٦) انظر . أخبار مجموعة ، ص ٢ .

(٧) انظر. Theophanis, p .354 . عن هذا التاريخ، انظر . La lutte, : Cheira ؛ p. 145-6 ؛ انظر ؛ قبله .

حالة العرب وقتذاك ، الذين اضطروا إلى رفع حصارهم البحرى عن القسطنطينية ، والانسحاب من جزائر البحر الأبيض . ولا نملك معلومات عن موقف يزيد ، ولكن يبدو أنه كان يخاف الروم وهو يحارب فى فتنة الحجاز ، فعمل على تنظيم الدفاع عن ثغور الشام الشمالية ؛ وجعل لها جنداً مستقلاً عن بقية أجناد سورية، عرف بجند قِنّسْرِين (١) .

كذلك بعث عبد الملك فى أول خلافته بالأموال والهدايا إلى ملك الروم جستنيان الثانى (٦٨٥ - ٦٩٥ م) ، الذى نزل المصيصة فى سنة ٦٦/٦٨٥ (٢) - وهى ثغر بين بلاد الروم والشام - بقصد دخول الشام ؛ فشغله وهادنه وبعث إليه بالأموال ، بحيث امتنع عن غزو الشام ، وصالح الجراجمة ودفع لهم أتاوة أسبوعية (٣) ، ورد إليهم أسراهم (٤) ؛ كما فعل معاوية من قبل . وفى سنة ٧٠/٦٨٩ (٥) ، جدد عبد الملك الهدنة مع الأمبراطور جستنيان الثانى ؛ إذ أنه كان قد شُغل بفتنه عمرو بن سعيد وقيسية الجزيرة ؛ كما استمال الجراجمة .

---

(١) معجم البلدان ، ١ ص ١٢٥ ؛ ٦ ص ٢٣٧ ؛ ٧ ص ١٦٨ ؛ أنظر .
Lammens : Etudes, p. 17. ؛
Ency. de l'Isl, (art Kinnasrîn) t2 , p. 1081.
فصلت وغيرها من المدن المحيطة بها عن حمص ومدنها ، التى كانت تشرف على ثغور الشام ؛.
وقنسرين مدينة على نهر قويق فتحت على يد أبى عبيدة بن الجراح فى سنة ١٧ هـ .

(٢) مروج ، ٥ ص ٢٢٤ — ٢٢٥ . لدينا تاريخ آخر للصلح يؤكده أغابيوس فى سنة ٦٥/٦٨٥ . أنظر . العنوان ، ٣/٨ ص ٤٩٧ [٢٣٧] ؛ أيضاً Cheira :
La lutte , p. 147;n (1) . عن المصيصة ؛ أنظر . بعده .

(٣) فتوح البلدان ، ص ١٦٠ س ٦ .

(٤) أنساب ، ٥ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ٢ ؛ العبر ، ٣ ص ٧٠ ، أنظر . Well : Die Kampfe.
p. 428 . أورد أستاذنا شعيرة تاريخاً آخر لهذه الهدنة فى سنة ٦٩/٦٨٩ ؛ معتمداً على نص البلاذرى ؛ ونحن نستبعد هذا التاريخ ، لأن جنود عبدالملك بقيادة زهير بن قيس، كانت تحارب البربر والروم فى هذا العام. أنظر. Cheira : La lutte, p. 147, n (4). ؛ أنظر. بعده .

ولكن عبد الملك ما أن انتهى من هزيمة مصعب ، حتى نقض الهدنة وعاد إلى حرب الروم . فقد استأذنه أخوه محمد بن مروان ، قائد حملته على العراق في غزو الروم ؛ فأذن له وولاه على الجزيرة وأرمينية [1] ؛ وبذلك جعل عبد الملك للجزيرة قيادة مستقلة ، مع أنها كانت حتى أيام المروانيين جنداً واحداً مع قنسرين [2]. فأثخن محمد بن مروان من ناحية أرمينية سنة ٧٣/٦٩٢ [3] ، ودخلها بمساعدة عناصر فيها موالية للعرب ؛ فقدم زعماء الأرمن خضوعهم [4] ؛ ومنذئذ سمعنا عن سلسلة من الحكام الخاضعين للعرب . كذلك تمكن العرب بقيادة عثمان بن الوليد من هزيمة جيش كبير للروم عدده ستون ألفاً [5] ؛ بحيث يقول المؤرخ اليوناني «Theophanis» [6] ، إن هذا الجيش أصيب بهزيمة منكرة . ومع ذلك بقيت بعض أرمينية خاضعة للروم طوال حكم عبد الملك ، خصوصاً وأن العرب كانوا قد شغلوا بحرب الخوارج ؛ بحيث أن الامبراطور ليون «Leontios» (٦٨٥ - ٦٩٨) تمكن من استمالة سمباد «Sempad» [7] ، أحد زعماء الأرمن . ومن ناحية أخرى كان لاضطراب أمور الروم بتنازعهم على العرش [8] ؛ أثره في تمكن العرب من بسط حمايتهم على أرمينية .

في نفس الوقت عادت حملات الشواتي والصوائف السنوية من ثغر الشام ،

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٢٨ ؛ أنساب ، ٥ ص ١٨٦ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٣٢ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ١٢٥ ؛ انظر . Cheira : La lutte, p. 156.

(٣) الكامل ، ٤ ص ٢٨

(٤) انظر . Theophanis, p. 367 ؛ انظر . Denys : Op. cit., p. 244. : Diehl et Marçais : Op. cit. . p. XXXVII

(٥) العبر ، ٣ ص ٧٠ .

(٦) انظر . Chronog. p. 365 ؛ انظر . Diehl et Marçais : Op. cit. p. 244.

(٧) Denys : Op. cit. , p. XXXVII : Cheira : La lutte, p. 164.

(٨) انظر . Cheira : La lutte , p. 163.

بعد أن كانت قد توقفت منذ وفاة معاوية واشتداد الفتن(١) ؛ بحيث أن الشاعر الأخطل مدح عبد الملك لكثرة غزواته فى بلادالروم(٢).وكان عبدالملك يرسل مع هذه الحملات أبناءه وأفراد أسرته(٣) ، كما كان يفعل معاوية من قبل . وقد كان هدف هذه الحملات الاستيلاء على حصون جديدة.ولعل أهم ما استولى عليه العرب فى عهد عبد الملك هو حصن المصّيصة بقيادة ابنه عبدالله؛وهو حصن على شاطىء نهر جيحان ، بين أنطاكية وبلاد الروم ، ولم يكن المسلمون قد سكنوه من قبل ؛ فأنزل فيه عساكره وجعله منطقة الحدود بدل أنطاكية(٤) . وكان عبد الملك ينفق مبالغ طائلة على صيانة حصون الثغور ، فبنى مثلاً حول المصّيصة الحوائط الضخمة والأسوار المزدوجة والخنادق والجامع(٥) . كذلك أوجد عبد الملك المسالح ، وهى مواضع المراقبة ، لحفظ أعقاب الصوائف خوفاً من الجراجمة ، فسمّى من بقى فيها من العساكر : « بالروادف »(٦) .

هذا النشاط الحربى الإسلامى لم يكن هدفه — كما يبدو — التمهيد لفتح القسطنطينية،كما حدث فى زمن معاوية؛وإنما كان لإضعاف الروم وتخفيف قبضتهم

---

(١) العبر ، ٣ ص ٧٠ . يحدد ابن خلدون أول صائفة فى سنة ٧١/٦٥٩ .

(٢) يقول الأخطل :

وفى كل عام منك للروم غزوة بعيدة آثار السنابك والسرب

انظر ديوان ، تحقيق صالحانى ، ص ٢٠ .

(٣) مثل ابنيه . فالوليد غزا الصائفة فى سنة ٧٧/٦٩٦ (الكامل ، ٤ ص ٧١) ، وعبيد الله فتح قاليقلا بارمينية فى سنة ٨٠/٦٩٩ . نفسه ، ٤ ص ٧٥ .

(٤) فتوح البلدان ، ص ١٦٥ ؛ انظر . La lutte, p. 169 : Cheïra . يقول Michel " إن مسلمة هوالذى استولى على المصيصة . انظر. Chronique t2, fasc. 3, p. 477 . عن المصيصة ، انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ٨٠ — ٨١ .

(٥) انظر . Michel le Syrien, t2. fasc. 3, p. 478

(٦) فتوح البلدان ، ص ١٦٢ . عن كلمة مسالح ، انظر . قبله .

فى أرمينية ؛ خصوصاً وأن الدولة العربية لم تكن تستطيع فى عهد عبد الملك أن تفعل أكثر من ذلك ، وقد عانت كثيراً من جراء الفتنة ؛ وإن كان خلفاؤه من بعده سيقومون بنشاط أكبر ضد الروم ، ويعودون إلى حصار القسطنطينية .

*

وعلى خلاف ذلك نجد العرب فى عهد عبد الملك عملوا على طرد الروم نهائياً من إفريقية ، وفتحوا المغرب ونقصد به التسمية العامة التى أطلقوها على البلاد الواسعة الممتدة من آخر حدود إفريقية حتى المحيط[١] . ويبدو أن الحوادث هى التى جر بعضها بعضاً ؛ كما حدث فى معظم غزوات العرب السابقة : فنحن نعرف أنهم فى عهد معاوية كانوا قد أنشأوا قاعدة القيروان فى إفريقية على يد عقبة بن نافع سنة ٥٠/٦٧٩[٢] ؛ ولكن هذا الفاتح الجسور عزل وولى مكانه أبو المهاجر ، الذى استمر مجاهداً حوالى تسع سنوات من ٥١/٦٧١ إلى ٨٠/٦٨٠[٣] ، أى إلى وفاة معاوية .

وفى أول عهد يزيد أعيد عقبة إلى قيادة جيش إفريقية ، وإن كنّا لا نعرف سبباً واضحاً لعودته ؛ كما لم نعرف سبباً لعزله من قبل : فقد ترجع عودته إلى تغيير فى سياسة الخلافة فى هذه البلاد ، إذ كان أبو المهاجر يستعمل سياسة اللين على

---

(١) معجم البلدان ، ٨ ص ١٠٣ ؛ ابن أبى غالب (م ٧٦٧) ، نص أندلسى جديد قطعة من كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، تحقيق لطفى عبد البديع ، القاهرة ١٩٥٦ ص ٣٨ ؛ أنظر قبله . هو قطعة من القطع الثلاث فى حدود الغرب عند أهل الشرق ، وهى إفريقية ، والمغرب ، وجزيرة الأندلس .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٢٢٧ ؛ انظر . قبله .

(٣) نفسه ، ص ٢٢٨ — ٢٢٩ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٩٧ — ١٩٨ ؛ عبيد الله (نص جديد) ، ص ٢١٨ ، ترجمة لقال Lévi - Provençal ص ٢٠٦ . لدينا تواريخ أخرى منها سنة ٦٢ (الكامل ، ٣ ص ٣٠٨ ؛ العبر ٤ ص ١٨٦) أو سنة ٦٣ (وابن عذارى ، ١ ص ٢٣) أو حتى ٦١ أو ٦٣ . نفس المرجع الأخير ، ص ٢٩ .

عكس عقبة الذى كان يعرف بشدته(١) . وقد يكون أيضاً الحماس اله وفىدوالذى دفع عقبة إلى التماس الجهاد ، حتى أن يزيد قال له :«ارجع إلى ذلك»(٢)، ب لاسيما وأن معاوية ، كان قد وعد بإعادته إلى إفريقية(٣) ؛ فكانت هذه ولايته الثانية فيها .

فأسرع عقبة إلى القيروان ، وودع أولاده وأوصاهم ، وقال لهم : « إنى بعت نفسى من الله تعالى(٤) » ؛ ورحل فى عسكر كبير . ولم يخيب أبو المهاجر أمل المسلمين فيه ، أو يعمل على انقسامهم ، وفعل مثل خالد بن الوليد مع عبيدالله بن الجراح ، فخرج مع عقبة للجهاد(٥) ، وأثخن المسلمون فى بلاد البربر البعيدة ، حتى وصلوا إلى أقصى وادى السُّوس على البحر المحيط ، حيث تسكنه قبائل بترية متوحشة(٦) .

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٢٣٠ ؛ انظر . قبله .
(٢) عبيد الله (نص جديد) ص ٢١٩ س ١ .
(٣) الكامل ، ٣ ص ٣٠٨ .
(٤) عبيد الله (نص جديد) ص ٢١٩ س٣ ؛ الكامل ٣ ، ص ٣٠٨ س ٥ . العبارة فى المرجع الأخير مختلفة بعض الشىء .
(٥) ينقل بعض المؤرخين أن عقبة لما وصل إلى القيروان قبض على أبى المهاجر ، وأوثقه فى الحديد ، وأخذه معه أثناء حروبه مع البربر(الكامل ، ٣ ص ٣٠٨س ٤ ؛ ابن عبدالحكم ، ص ١٩٨ س ٨ — ٩ ؛ ابن عذارى ، ١ ص ٢٣ س ١٦) . وعلى النقيض لايذكر عبيد الله إطلاقاً أنه أهانه (نص جديد ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ ؛ وترجمة ، ص ٢٠٦) .
(٦) هو جزء من بلاد المغرب . انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ١٠٣ ؛ انظر قبله . انظر . تعليق Julien عن وصول عقبة إلى بلاد السوس : Op. cit. p. 17. ؛
و Gibbon : Op. cit, 5, p. 357
أورد بعض المؤرخين عبارات قالها عقبة عندما وصل إلى المحيط ، منها :
« يارب لولا هذا البحر لمضيت فى البلاد مجاهداً فى سبيلك » . الكامل ، ٣ ص ٣٠٨ ؛ المالكى ، ١ ص ٢٥ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٩٩ . وعلى العكس لا يذكر عبيد الله هذه العبارات . ويقول Lévi - Provençal ، إنها من الخيال الشعبى ، وأن مثل هذه الرواية تكررت مرة أخرى فى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، منسوبة إلى الفونسو السادس ملك قشتالة .
انظر . عبيد الله (نص جديد) ، ص ٢١٩ — ٢٢٠ ، والمقالة مترجمة ، ص ٢٠٨ وهامش (٢) .

ويبدو أن عقبة لم يكن يسعى إلى الاستيلاء على المدن أو المراكز الحصينة ، وإنما كان همه القتال والجهاد ؛ وإن قال ياقوت إنه فتح جميع بلاد المغرب[١]. ولكن كسيلة بن لمزم المعروف أيضاً بابن الكاهنه ، وهو زعيم القبائل البرنسية ، وكان قد خرج على عقبة في ولايته الأولى ؛ ثم استماله أبو المهاجر وحسن إسلامه ، لم يعجبه عودة عقبة إلى ولاية إفريقية . ويقول ابن الأثير إن سبب غضب كسيلة على عقبة ، هو أن عقبة استخف به على الرغم من أن أبا المهاجر عرّفه محله في البربر ؛ مما جعله يضمر الغدر[٢] . فانتظره كسيلة بجيش كبير من البربر عند عودته من غزوته الواسعة ، ولقيه في تهُوذة ؛ وهي أرض على حافة الصحراء غير بعيدة من جبال أوراس ، لقبيلة عرفت بهذا الاسم ؛ فقاتله عقبة ومعه أبو المهاجر حتى قتلا وسيفاهما بأيديهما ، وقتل جميع من معهما من المسلمين عن آخرهم ، وذلك حوالى سنة ٦٣/٦٨٢[٣] . وربما يكون عدد القتلى من المسلمين كبيراً ، لأن الأرامل كثروا في مصر وكانوا يلعنون عقبة[٤] ؛ على الرغم من أن بعض المؤرخين ذكروا أن عقبة حينما هاجمه كسيلة كان في قلة من الجند ، لأنه كان قد سرح العساكر إلى القيروان لما قرب من إفريقية[٥]. وبعد هذا الانتصار زحف كسيلة إلى القيروان بجموع أهـــل المغرب ، فأخلاها العرب إلا من تخلف فأعطاه الأمان[٦] .

---

(١) معجم البلدان ، ٧ ص ١٩٤ . مع أن أملاك الروم والقوط لم تفتح .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٣٠٨ — ٣٠٩ ؛ انظر. أيضاً قبله .

(٣) نفسه ، ٣، ص ٣٠٩ ؛ عبيد الله (نص جديد) ص ٢٢٠ ترجمة المقال ، ص ٢١٠ ؛ ابن عذارى ، ١ ص ٢٩ ؛ المالكى ، ١ ص ٢٥ — ٢٦ ؛ العبر ، ٤ ص ١٨٦ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٤٣٨ . يعرف موضع تهوذة اليوم بسيدى عقبة .
Le tombeau de Sidi 'Oqba (Annales de l'Inst, : G. Marçais : Lévi-Provençal : Op. cit., p. 18. : Julien: d'Et. Or) t v, p. 1—15.
Arabica Occidentalia t I, Janvier 1954, p. 31.

(٤) انظر هـذه الرواية في : ابن عبد الحكم ، ص ١٩٩ ؛ انظر . Cheïra : La lutte, p. 131 .

(٥) الكامل ، ٣ ص ٣٠٩ . يقول عبيد الله : إن عقبة كان قد فقد جلة كثيرة من أصحابه في معركة أخرى ، عرف مكانها بموضع الشهداء انظر . نص جديد ، ص ٢٢٠ .

(٦) نفس المرجع الأخير ص ٢٢١ ؛ العبر ، ٦ ص ١٠٩ ؛ المالكى ، ١ ص ٢٨ .

وبذلك عاد العرب إلى قواعدهم فى برقة ، وفقدوا إفريقية التى تعبوا فى فتحها منذ عهد عثمان .

ولكن ما أن استرد مروان بن الحكم مصر ، وتولى إمارتها عبد العزيز ابن مروان ، وبويع لعبد الملك ، حتى أرسل هذا الأخير إلى إفريقية زُهَير ابن قيس البَلوَى ، القائد الذى كان عقبة قد تركه على القيروان قبل رحيله ، فلما انتصر كسيلة انسحب إلى برقة ؛ ولعله بقى فيها إلى وقت أن أمره عبد الملك بالخروج (١) . فسار زهير إلى القيروان ولم يدخلها ، وتقابل مع كسيلة فى مدينة بنواحيها اسمها ممیس (٢) (أو مَمْس) ، فى معركة حاسمة قتل فيها كسيلة . ثم رجع زهير إلى المشرق ، إذ أنه قد قدم للجهاد (٣) ، واستطلاع الأحوال وليس للفتح (٤) ؛ لا سيما وأن الخلافة فى أول عهد عبد الملك كانت لا تزال تعانى وطأة فتنة ابن الزبير .

إبان تلك الحقبة كان الروم فى إفريقية يتشبثون بسيطرتهم على الساحل الإفريقى ، ولم يشتركوا فى مقاومة النشاط العربى إلا بمجهود محدود ؛ ذلك لأنهم كانوا قد تلقوا لطمات قوية فى عهد عثمان ، ومن بعده معاوية ، ولأن معظم هجوم

---

(١) لدينا تواريخ مختلفة ؛ مثل : سنة ٦٥ عبيد الله (نص جديد) ص ٢٢١ ، أو سنة ٦٧ (الكامل ، ٤ ص ٣٣ س ٣ ؛ العبر ، ٤ ص ١٨٧ ؛ ٦ ص ١٠٩) . وفى موضع آخر يقول ابن الأثير سنة ٦٩ ، حيث يحدد ولاية زهير من ٦٢ إلى ٦٩ (الكامل ، ٤ ، ص ٣١) . ونحن نؤيد هذا التاريخ الأخير ؛ لأن مؤرخين آخرين قد ذكروه مثل ابن عذارى . انظر : البيان ، ١ ص ٣١ — ٣٢ .

(٢) عبيد الله (نص جديد) ص ٢٢١ ، وترجمة ، ص ٢١١ وهامش (١) . يكتبها ابن خلدون : ميس (العبر ، ٤ ص ١٨٧) وابن الأثير ممش (الكامل ، ٣ ص ٣٠٩ ؛ دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، المطبعة الحسينية ، ١ ص ١٣٥) . أما ممس فوردت فى المالكى (رياض ، ١ ص ٢٨) وابن عذارى (البيان ، ١ ص ٣٢) . يقول ياقوت إن ممس قرية بالمغرب . معجم البلدان ، ٨ ص ١٥٨ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٣٠٩ ؛ العبر ، ٤ ص ١٨٧ .

(٤) عبيد الله (نص جديد) ص ٢٢٠ .

العرب كان موجهاً لقتال البربر ، وليس للاستيلاء على حصونهم أو مدنهم . ولكن الروم استغلوا الظروف ؛ فحرضوا كسيلة على عقبة ؛ مما أدى إلى قتله ؛ كما يقول ابن الأثير (١) . ومن المؤكد أنهم فرحوا بطرد كسيلة للعرب من القيروان ؛ ولكن لما عاد زهير وقتل كسيلة ، تدخلوا فى المعركة تدخلاً مباشراً : فأرسلوا مراكبهم من صقلية إلى برقة لمهاجمة زهير وهو فى طريق عودته إلى المشرق ، واستطاعوا قتله وعدداً كبيراً من عسكره ، وسبوا كثيراً من المسلمين (٢) .

ومع سوء أحوال الخلافة الأموية الداخلية ، أرسل عبد الملك قائداً آخر كفؤاً اسمه حسان بن النعمان الغسانى فى جيش عدده أربعون ألفاً ، لم يرسل البتة مثله فى إفريقية فى سنة ٦٩ (٣) /٦٨٩ ؛ للانتقام من الروم . فسار هذا الجيش العرمرم إلى قرطاجنة ، التى كانت أهم معاقل الروم على البحر الأبيض ، وعلى حد قول ابن الأثير لم يكن المسلمون قد حاربوها (٤) ؛ وإن ذكر الذهبى أن أبا المهاجر كان قد هاجمها على غير جدوى (٥) . فقاتل حسان أهلها من الروم والبربر قتالاً شديداً ، حتى طلبوا الأمان فأعطاهم إياه ، ثم غدروا فرجع إليهم وقاتلهم حتى ملكها وهدمها ، فهرب الروم منهم إلى صقلية والأندلس (٦) . كذلك سار حسان على بقية الروم

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٣٠٩ س ٤ — ٥ ؛ انظر . دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، ١ ص ٢٣٥ .

(٢) الكامل ، ٣ ص ٣١٠ ؛ عبيد الله (نص جديد) ص ٢٢١ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٢٩ ؛ العبر ، ٤ ص ١٨٧ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٣ ؛ ابن عذارى ، ١ ص ٣٣ ؛ انظر . مؤنس ، فتح ، ص ٢٤٦ .

(٣) عبيد الله (نص جديد) ص٢٢١ ؛ انظر .
; La lutte, p. 203 : Cheira ; Afr. Byz, p. 582 : Diehl
Ency. de l'Isl, (art Hassàn B. al-No' màn) t2, p. 305-6.

(٤) الكامل ، ٤ ص ٣١ (آخر الصفحة) .

(٥) دول الإسلام ، ١ ص ٢٢ ؛ انظر . قبله .

(٦) يقول ياقوت إنه هدمها فى سنة ٧٠ ؛ انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٥٢ .

وهزمهم فى معاقلهم المتفرقة على الساحل ؛ حتى طردهم من كل إفريقية (١). وعاد بعد ذلك إلى القيروان ، لأن الجراح كانت قد كثرت فى أصحابه .

وكان هذا مشجعاً لحسان على أن يعود إلى حرب بربر جبل أوراس الأشداء ، وكان على رأسهم بعد كسيلة امرأة قوية من قبيلة جراوة البترية(٢)، عرفت بالكاهنة لأنها كانت تخبرهم بأشياء من الغيب . ويبدو أن لا علاقة لهذه المرأة بما يزعمه بعض المؤرخين من أنها كانت يهودية (٣)، إذ اعتبرت من صميم البربر ؛ فكانت تلقب : « بملكة البربر » (٤) . وعلى العكس يذكر ابن الأثير : أن الكاهنة هى التى خرجت لقتال حسان غضباً لقتل كسيلة (٥) ، فلعل كسيلة كان ابنها ، لأنه كان يعرف بابن الكاهنة (٦) . فلما زحف حسان إليها غررت به ، واستطاعت أن تهزمه هزيمة منكرة فى وادى نيني بأقصى إفريقية(٧)، وأن تقتل عدداً كبيراً من جنده ، وتتبعت فلوله حتى دخل إلى برقة. وبقيت الكاهنة تحكم المغرب كله بما فيه

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٣٢ . مثلا هزمهم فى بنزرت ، مدينة بافريقية على الساحل . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٢٩٢–٢٩٣ .

(٢) الكاهنة لقبها ، وإنما هي تسمي دهيا بنت ماتية . عنها بالتفصيل ، انظر . العبر ، ٦ ص ١٠٩ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art al-Kâhina) t 2, p. 667.
لايذكر عبد الله اسم هذه القبيلة (نص جديد) ص ٢٢٢ ؛ انظر عنها أيضاً : ابن عذارى ، ١ ص ٣٥ ؛ الكامل ، ٤ ص ٣٢ ، وغير ذلك .

(٣) انظر ما أورده "Lévi-Provençal" فى مقالة المترجم عن عبيد الله ، ص٢١١ ؛ وفى Arabica Occidentalis t I, p. 32.

(٤) فتوح البلدان ، ص ٢٢٩ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ٣٣ س ١ .

(٦) انظر . قبله .

(٧) الكامل ، ٤ ص ٣٢ . عنه ، انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ٣٦٩ . يقول عبيد الله وادى ترضى (نص جديد ، ص ٢٢٢) .

إفريقية ، وذلك بمساعدة أولادها ، ورجل عربي غامض اسمه خالد ، من أصحاب حسان كان قد وقع أسيراً فى يدها (١) .

وقد ظل حسان فى برقة ؛ إلى أن انتهت فتنة ابن الزبير ، وأرسل الخليفة إليه المادة والقوة ؛ ليرحل لمحاربة الروم والبربر . وفى تلك الأثناء كان الروم الذين طردوا من حصن قرطاجنة فى سنة ٦٩/٦٨٩ ، قد عادوا إليها ؛ لأن سقوطها أحدث أثراً هائلاً فى بلاد الروم والعالم المسيحى الغربى ؛ فما وافى عهد الامبراطور ليون «Leontios» (٦٩٥ — ٦٩٨) — الذى كان يحارب المسلمين فى أرمينية — حتى أرسل إليها أسطولاً استولى عليها فى سنة ٧٨/٦٩٧(٢) ؛ واشترك فى هذه الحملة الفرنجة من القوط ؛ خوفاً على الدين المسيحى . ويبدو أن حساناً حاصرها هذه المرة من البر والبحر ؛ إذ أن عبد الملك أوعز إليه باتخاذ دار صناعة لإنشاء الآلات البحرية (٣) ؛ فتمكن حسان من الاستيلاء عليها ، وكان هذا نهاية الاحتلال البيزنطى فى إفريقية .

ولكن مقاومة البربر استمرت بزعامة الكاهنة ، التى أحست بخطورة حسان هذه المرة : فكانت تحرق وتدمر القلاع لتعوق تقدمه ، وتقطع أشجار الزيتون مصدر ثروة البلاد ؛ فكان هذا هو الخراب الأول لإفريقية ، على حد قول ابن الأثير (٤) . فصمم حسان على قطع دابر مقاومتها ؛ خصوصاً وقد

---

(١) نفس المرجع الأخير ؛ وغيره .

(٢) انظر . La lutte, p. 204 : Cheïra : Theophanis, p. 309 ؛
Op. cit., 5, p. 360. : Gibbon
كذلك يذكر ابن عذارى أن حساناً دخل إفريقية هذا العام ، واستولى على قرطاجنة . البيان ١ ص ٣٤ .

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٠ س ١٣ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ٣٢ س ٢٠ — ٢١ . وعلى العكس يقول «Lévi - provençal» إن العرب هم المسئولون عما أصاب إفريقية ؛ وأنهم نسبوا ذلك إلى بطلة الأوراس . انظر ترجمة مقال (نص جديد) ، ص ٢١٢ — ٢١٣ . كذلك يقول ابن خلدون إن المسلمين كانوا يخربون المدن لأول الفتح . العبر ، ٦ ص ١٠٧ س ٣ — ٤ .

انضم إليه البربر المسلمون والنصارى الذين سئموا سياسة الكاهنة المدمرة[١] . ويبدو أن حساناً لم يتمكن من قتلها إلا فى حوالى سنة ٨٣[٢]/٧٠٢ ؛ إذ يقول ابن عذارى إن إفريقية استقامت له حوالى هذه السنة . ولقد تكهنت الكاهنة بموتها وبالقضاء على مقاومة البربر وخضوعهم للعرب[٣] .

وبهذا الفتح العظيم اتسعت الامبراطورية العربية اتساعاً هائلاً ؛ فلامست المحيط الأطلسى . ولم يكن حسان قائداً ماهراً ؛ خلد اسمه كفاتح لهذا الأقليم مثل بلزاريوس وغيره فحسب ؛ وإنما أخذ على عاتقه تنظيم شئونه بعد هذه الحروب المتوالية : فدوّن الدواوين ، وكتب الخراج على من أقام من البربر وغيرهم على دينهم[٤] . كذلك أبقى على العملة المتداولة ، مع أنها كانت تكتب باللاتينية ، وعليها رسوم الأباطرة ، وزاد أن وضع عليها نقوشاً دينية إسلامية ؛ وإن عربته بعد ذلك ، وسكت فى القيروان وغيرها[٥] .

* * *

---

(١) نفس المرجع الأخير ، ٦ ص ١٠٩ ؛ البيان ، ١ ص ٣٧ — ٣٨ ؛ انظر .
Op cit, 5, p. 362. : Gibbon.

(٢) البيان ، ١ ص ٣٨ س ١٧ — ١٨ .

(٣) الكامل ، ٤ ص ٣٢ .

(٤) العبر ، ٦ ص ١١٠ .

(٥) انظر : Les Monnayages Latino - Arabes., p. 58 sqq. : Guillou
مجلة المعهد المصرى فى مدريد ، العدد الثالث ١٩٥٥ .

توفى عبد الملك فى شوال ٨٦/أكتوبر ٧٠٥[١] ، بعد خلافة حافلة بالأحداث مدة ٢١ عاماً[٢] ؛ فقضى على الفتن العديدة بشدة شكيمتة وشخصيتة الجبارة[٣] . وقد عرف بأنه : « أبو الملوك[٤] أو الأملاك[٥] » ؛ وذلك لأنه ولى الخلافة بعده أربعة من ولده أولهم الوليد ؛ فكان يكنى بأبى الوليد[٦] .

ولم يكن للوليد حق سابق فى الخلافة ؛ فإن مروان كان قد بايع لعبد الملك ولعبد العزيز من بعده ؛ فولى عبد العزيز عمل مصر فى حياة أبيه ، وبقى فيه فى خلافة عبد الملك . ولكن عبد الملك أراد أن ينحى عبد العزيز عن ولاية عهده ، إذ لم يكن أخاه من أمه[٧] ؛ والمبايعة لابنه الوليد ؛ وبذلك يكون قد فعل ما فعله مروان من قبل مع خالد بن يزيد . ويروى المؤرخون أن الحجاج هو الذى زين لعبد الملك بيعة الوليد ، وأرسل له وفداً[٨] . ولكن عبد العزيز قاوم ، ورفض أن يجعل الوليد ، حتى فى ولاية عهده من بعده[٩] . وقد هم[١٠] عبد الملك بخلعه لولا أنه تريث إلى أن توفى فى حياته سنة ٨٥/٧٠٤[١١] ؛ فبايع

(١) ابن سعد ، ٥ ص ١٧٥ س ١ .
(٢) الأخبار الطوال ، ص ٣١٣ .
(٣) هذا وصف الخليفة المنصور العباسى له . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ١٦٣ س ١٩ ؛ الفخرى ، ص ١٦٧ .
(٤) مصنف مجهول ، ص ١٦١ .
(٥) العقد ، ٢ ص ٣١٦ . هم الوليد وسليمان ويزيد وهشام . . عنهم ، أنظر . بعده .
(٦) نفسه ؛ مصنف مجهول ، ص ١٦٥ . عن سيرة الوليد : العيون والحدائق ، تحقيق De Goeje ، طبعه Lug- Bat ، ١٨٧١ ؛ ص ١ فما بعدها ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art al - Walîd - B. 'Abd al - Malik) t 4, p. 1170 — 1171 .
(٧) أم عبد الملك اسمها عائشة بنت معاوية ، وأم عبد العزيز اسمها ليلى بنت زبان ابن سعد ، ٥ ص ٢٤ .
(٨) مصنف مجهول ، ص ٢٤١ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٠١ .
(٩) مصنف مجهول ، ص ٢٣٩ .
(١٠) ابن سعد ، ٥ ص ١٧٣ .
(١١) الكامل ، ٤ص١٠٢ . عنه ، أنساب ، ٥ص١٨٣—١٨٥ ؛ ابن سعد ، ٥ص١٧٥ ؛ Ency. de l,Isl, (art' Abd al - Azîz B. Marwân) 2ed'tl, p. 60. انظر .

لا بنيه الوليد وسليمان بعده ، وكتب لهما فى البلدان ، وهدد خالداً وعبد الله ابنى يزيد بالقتل ، إذا لم يبايعا لابنيه[1] ؛ فضمن بذلك ولاية الوليد للخلافة .

٥

ولقد استلم الوليد من أبيه ملكاً موطد الدعائم ؛ مما جعل عصره يتميز بالاستقرار ، وبوجود نهضة معمارية لم تحدث من قبل منذ ظهور الإسلام ؛ شملت جميع أجزاء الإمبراطورية[2] : فقد كان ذا همة فى عمارة المساجد[3] ؛ كما كثرت الأبنية فى البلاد ؛ حتى أن الناس كانوا يلتقون فى زمانه فيسأل بعضهم بعضاً عن البناء[4] .

ولا يجب أن نقبل الفكرة الأسطورية التى تتردد فى كثير من المراجع العربية : من أن الوليد استعان ببنائين من اليونان (الروم) ، استقدمهم من القسطنطينية[5] ، لتشييد مساجده فى الشام والحجاز . فنحن نعرف أن الروم كانوا فى عداء مع العرب ؛ كما أن بعض المؤرخين القدماء مثل البلاذرى[6] والدينورى[7] لا يذكران استقدام الروم من القسطنطينية . وعلى النقيض نرى أن الذين قاموا

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ٣١٢ .

(٢) العيون والحدائق ، ص ١١ .

(٣) معجم البلدان ، ٤ ص ٧٥ س ١٦ — ١٧ .

(٤) العيون والحدائق ، ص ١١ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٣٧ .

(٥) انظر . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٢ س ١٦ . (ويقول ألزم الوليد ملك الروم أن يبعث الفعلة والمال لبناء مسجد دمشق) انظر . أيضا ، معجم البلدان ، ٧ ص ٤٣١ س ١١ . (يتكلم عن رجال من الروم لبناء مسجد النبى) .

(٦) فتوح البلدان ، ص ٦ — ٧ ؛ انظر . Sauvaget :
La Mosquée omeyyade de Médine. Paris, 1947, p. 111 — 112; 156.
يقول البلاذرى الروم والقبط من أهل الشام ومصر .

(٧) الأخبار الطوال ، ص ٣١٣ .

بتشييد عمائر الوليد معظمهم من صناع البلاد التى فتحها العرب : كالقبط[١] وصناع الشام[٢] ، أو من عناصر أخرى من الفرس والهند والمغرب[٣]، أو من الروم الساكنين بالشام[٤] ؛ وذلك لأن العرب أنفسهم لم تكن لديهم مؤهلات فى فن المعمار . وليس معنى هذا عدم تأثر العمائر فى عهده بالطابع البيزنطى[٥] ؛ الذى كان سائداً فى سورية قبل الإسلام ، أو بغيره من الفنون الأخرى ، وبخاصة الفن القبطى الذى ازدهر هو الآخـــر قبل الإسلام ؛ حتى أنه كان قد استعين من قبل بالقبط فى بناء الكعبة[٦] .

فقد أراد الوليد أن يجذب أنظار المسلمين إلى سورية، وأن يجعل دمشق العاصمة تليق بمجد الإمبراطورية العربية . وكان إنشاء مسجد فيها ضرورياً لإقامة بيعة الخلفاء الأمويين ؛ فحتى وقته كان المسلمون يقيمون شعائرهم الدينية فى مسجد صغير بجانب إحدى كنائس دمشق الهائلة المسماة كنيسة يوحنا[٧] (مارحنا) ، التى كانت فى الأصل مركزاً لعبادة الإله جوبتر فى عهد تراجان الرومانى « Trajanus » ، ثم تحولت إلى كنيسة للمسيحيين[٨]. ولكن الوليد حول هذه الكاتدرائية إلى مسجد ، على الرغم من رفض النصارى قبول بيعها للمسلمين ؛

---

(١) معجم البلدان ، ٧ ص ٤٣١ س ١٢ (خاصاً بمسجد النبى مثلا) .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٠٩ س ١٠ ؛ المقدسى ، أحسن التقاسيم ، ص ٧٣ س ٤ ؛ انظر.
Etudes, p. 349. : Lammens.

(٣) انظر عن ذلك . Sauvaget : La Mosq. p. 158 - 9 (يعتمد على المقدسى) .

(٤) فتوح البلدان ، ص ٧ س ١ — ٢ .

(٥) انظر . zauvaget : L' Architecture Musulmane en Syrie.
L'Art, p.20. : Marçais: Extrait des Arts Asiatiques. Paris, 1934, p.26.

(٦) الأزرق ، ص ١٠٤ — ١١٣ .

(٧) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٤٢ س ١٠ ؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٧٥ س ١٨ .

(٨) انظر . Sauvaget : Les Monuments Historiques de,
L'Art,p. 24 : Marçais : Damas, p. 33.

اعتماداً على كتاب بينهم وبين خالد بن الوليد عند فتح الشام[١] . ونحن نشك في هذه الرواية ؛ فقد كان للنصارى كنائس متعددة بالغوطة[٢] ؛ ونستطيع أن نستنتج منها رغبة الوليد في مشاورة النصارى واستئذانهم .

وقد كانت المساجد حتى ذلك الوقت تبنى على نسق مسجد النبي البسيط ؛ ولكن الوليد جعل من مسجـــده في دمشق مرحلة في تطور بنائها[٣] ؛ بحيث اعتبر أعظم أثر أموى في سورية . وقد جمع لبنائه صناعاً مهرة من الشام ومصر[٤] ، بلغ عددهم أكثر من عشرة آلاف ، استمروا يعملون فيه تسع سنوات[٥] ، ابتداءاً من سنة ٧٠٦/٨٧ [٦] : فبنى في حجم كبير يشمل أروقة طويلة ، وقباباً ومآذن وأبواباً ؛ ولتزويقه استخدم له أنواع الأصبغة وفصوص الفسيفساء الملونة من صفراء وخضراء وذهبية[٧] ، وهي الأكثر ؛ فكان المسجد بسببها يكاد يقطر ذهباً ويشتعل لهباً[٨] . ولم تدخله إطلاقا صورة الحيوان أو الإنسان ، وإنما صنوف الأشجار والثمار والأغصان والكتابة . كذلك ركب على حوائطه وأرضيته الرخام الملون في أحسن

(١) معجم البلدان ٤ ص ٧٥ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٢٥ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٢٥ (آخر الصفحة) ؛ انظر أيضاً . Lammens : Etudes. pp. 269—302.

(٣) انظر . عنه ، معجم البلدان ، ٤ ص ٧٥ فما بعدها ؛ Marçais : L'Art, Ency. des l'Isl, (art Damas) t I, p. 929 ; p. 24—25.

(٤) المقدسي ، أحسن التقاسيم (B.G.A.) ، ص ٧٣ ؛ انظر . Lammens : Etudes, p. 349.

(٥) معجم البلدان ، ٤ ص ٧٦ س ٢٠ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ٧٥ س ١٧ ؛ انظر أيضاً . Wiet, Sauvaget, Combe : Répertoire d'Eprigraphie Arabe , I, p. 16—17.

(٧) معجم البلدان ، ٤ ص ٧٧ س ١١ .

(٨) نفسه ، ٤ ص ٧٥ س ١١ .

نظام وتأليف ، بما حمله العرب أثناء غزواتهم فى أرض الروم(١) ؛ وجعل سقفه من الرصاص ، ورصعه بالجواهر ، وتتدلى منه سلاسل وقناديل . فكان على حد قول ياقوت ، إحدى العجائب(٢) .

وقد عرف هذا المسجد بالمسجد الجامع(٣) ، وإن غلب عليه اسم جامع دمشق(٤) ، أو الأموى نسبة إلى هذه الدولة . ويروى أن الوليد لما انتهى من بنائه ، قال لأهل دمشق : « يا أهل دمشق إنكم تفخرون بأربع ؟ بهوائكم ومائكم وفاكهتكم وحماماتكم ، فأحببت أن يكون مسجدكم الخامس »(٥) . كذلك يروى أن الوليد لما قام ببنائه تغامز أهل دمشق وقالوا : أنفق خراج المملكة سبع سنين ؛ إلا أنه طمأنهم بأن فى بيت المال عطاء ثمانى عشرة سنة ؛ فسكت الناس(٦) .

واهتم الوليد أيضا بالعمارة الدينية فى بيت المقدس ، تلك البقعة التى ذكرها النبى فى أحاديثه مؤكداً قداستها ، وأنها تالية لمكة(٧) . ولقد رأينا أن النبى جعلها أول قبلة للمسلمين قبل أن تحول القبلة إلى الكعبة(٨) ؛ وزاد من قداستها ما تواتر عن إسرائه إليها(٩) . واختلفت الروايات فى نسبة تشييد عمائرها إلى

(١) العيون والحدائق ، ص ٦ س ١ .

(٢) معجم البلدان ، ٤ ص ٧٥ س ١٠ .

(٣) صبح الأعشى ، ٤ ص ٣٦٨ .

(٤) معجم البلدان ، ٤ ص ٧٧ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٣٧ ؛ انظر . بروكلمان تاريخ الشعوب الإسلامية ، ترجمة عربية ، ١ ص ١٦٨ فما بعدها .

(٥) انظر . العيون والحدائق ، تحقيق Juynboll و Anspach ، ص ٤ — ٥ وملاحظة ٩ .

(٦) معجم البلدان ، ٤ ص ٧٦ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٢ (آخر الصفحة) ؛ معجم البلدان ، ٨ ص ١١٠ فما بعدها ؛ انظر أيضاً .

Ency. de l'Isl, (art al-Kuds) t2, p. 1158 sqq.

(٨) المعارف ، ص ٧٥ س ١٥ — ١٦ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ، ص ١١٠ .

(٩) القرآن ١٧ : ١ .

عبد الملك أو إلى الوليد ، كما خلطت بين مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى المتجاورين (١) . ولكن النقوش وأوراق البردى يؤيدهما أقوال بعض المؤرخين ؛ ترجع بناء قبة الصخرة إلى عبد الملك (٢) ، والمسجد الأقصى إلى الوليد(٣). ولعل سبب الاضطراب راجع إلى أنه لما جاء المأمون بيت المقدس ؛ عمل على إزالة اسم عبد الملك من النقوش الكوفية فى مسجد قبة الصخرة ، ولكنه نسى أن يزيل التاريخ ، وهو عام ٧٢/٦٩١(٤) .

فقد بنى عبد الملك مسجده على الصخرة المقدسة التى مستها أقدام النبى ليلة الإسراء ؛ وإن قالت الروايات : إن بناءه كان على أساس المسجد الذى بناه عمر ابن الخطاب عليها على طريقة البداوة عند مجيئه بيت المقدس ؛ ولذلك عرف خطأ باسم مسجد عمر (٥) . ونحن لا نستطيع أن نقبل الرواية القائلة : إن عبد الملك قصد من بناء مسجد قبة الصخرة ؛ جعل الناس تحج إليه ، وأنه منعهم من الحج إلى مكة من أجل ابن الزبير (٦) . فليس لدينا أى إشارة عن ذلك فى سيرة عبد الملك ،

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٢ — ٢٨٣ ؛ سعيد بن بطريق ، ٣ ص ٤٢ س ٢ — ٣ .

(٢) Van Berchem : Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum (Inst. F. d'Arch. Or) Le Caire , 1927, t 44 2ème partie, p. 224 sqq.

(٣) انظر . Bell : Der Islam. tII, 1911 no 1366, 1403, ; 1433; 1435; 1441 Sauvagét, : La Mosquée, p. 100; 106; 116 ; الكامل ، ٤ ص ١٢٧ .

(٤) انظر . Van Berchem : Corpus t 44, 2ème, p. 230 sqq.

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٢ ؛ انظر . Marçais : L'Art, p. 22. ; Ency. de l'Isl, (art Kubbat al - Sakhra) t 2, p. 1125 sqq.

(٦) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٣٩ س ١٧ — ١٩ .

لا سيما وأنه كان لبنى أمية أيام ابن الزبير لواء يحجون فى ظله(١) . وعلى النقيض يذكر المقدسى أن سبب بناء عبد الملك لمسجده ، هو ألا يترك المسلمين يبهرون ببناء كنيسة القيامة (٢) . ولقد كان مسجد قبة الصخرة فريداً فى بنائه لم يقلده المسلمون فى مساجدهم (٣) ؛ فهو أشبه ببناء مثمن الأضلاع فوقه قبة عالية مزخرفة بالفسيفساء بدقة متناهية (٤) . ولعل هذا النمط من البناء له أصل فيما نقل من أن اليهود كان لهم من قبل قبة على الصخرة خربها الرومان(٥) .

أما المسجد الأقصى ، الذى أخذ اسمه من آية القرآن الخاصة بالإسراء(٦) ، فينسب بناؤه إلى الوليد فى ساحة مسجد قبة الصخرة ، وهو عبارة عن بناء ضخم مشتمل على أروقة ومزوق بالفسيفساء ؛ ولفخامته صار يعرف ببلاط الوليد(٧) . وقد غير الصليبيون كثيراً فى بنائه حينما احتلوا بيت المقدس ؛ بحيث لم يعد يعرف أصله .

وكذلك اهتم الخليفة الوليد بإعادة بناء مسجد النبى بالمدينة . فنحن نعرف أن بناءه فى عهد النبى كان بسيطاً (٨) ؛ فلم يكن غير فناء ضيق يحيط

---

(١) ابن سعد ، ٥ ص ٧٥ س ١٦ — ٣ .

(٢) انظر . المقدسى ، أحسن التقاسيم (B G.A.) ، ص ١٥٩ . انظر .
Ency, t2, p. 1152 .

(٣) تراث الإسلام ، ترجمة زكى حسن ، ص ١٢٢ وملاحظات .

(٤) انظر . Marguerite Van Berchem : The Mosaics of the Dome, of the Rock at Jerusalem and of the Great Mosque at Damascus. translated by Creswell. Reprinted from Early Muslim Architecture

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٢ س ١ — ٣ .

(٦) عن تسميته بالأقصى فى القرآن (١٧ : ١) ، انظر .
Ency. de l'Isl, (art al - Masdjid al - Aksa) t3, p. 442.

(٧) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٢ س ١٥ . لانعرف إن كانت أيضا تسمية لمسجد قبة الصخرة ! ! ؛ انظر عن هذا المسجد أيضاً Marçais : L' Art, p. 22.

(٨) معجم البلدان ، ٧ ص ٤٢٠ ؛ فتوح البلدان ، ص ٦ ؛ انظر قبله . التاريخ السياسى ، ١ ص ١٠٩ .

به جدار من اللبن ، وليس فيه إلا مكان واحد مسقوف ، ويغطيه الجريد المثبت على جذوع النخيل ، أما بقية أجزائه فكانت مكشوفة . وقد بقى هذا المسجد خالياً من كل مظاهر الترف ، إلا من حجرات أو بيوت بناها النبي حوله . فلما جاء أبو بكر لم يزد فيه ، أما عمر فقد وسع فى المسجد بأن أطال جداره وأدخل فيه بعض الدور ، ولم يستطع أن يضم حجرات أمهات المسلمين(١) ؛ حتى ضاق المسجد بالمصلين . ولما جاء عثمان هدم المسجد وبناه ،وجعل عمده حجارة وسقفه بالساج(٢)، وكان أول من اتخذ فيه المقصورة(٣) ، واستمر العمل فيه زهاء عام .

فلما ولى الوليد الخلافة ، كلف عامله عمر بن عبد العزيز بهدم مسجد المدينة وبنائه من جديد ، وذلك فى نفس العام الذى بدأ فيه بناء مسجد دمشق فىسنة ٧٠٦/٨٧(٤). فهدم عمر بن عبدالعزيز المسجد من أوله إلى آخره ، وأعاد بناءه بعد أن زاد فيه حجر أزواج النبي التى اشتراها من ورثتهن(٥) ، وجعله يحيط بقبر النبي أو ماعرف بالروضة ، وإن احتفظ للمسجد بطابعه الأصلى(٦) : فبنى أساسه من الحجارة ، وجعل عمده حجارة حشوها الحديد والرصاص بدل جذوع النخيل ، وشق فيه الأروقة والمحراب ، وبنيت المقصورة ، وفتح فيه الأبواب ، مثل باب جبريل والنساء والسلام ، وأقيمت عليه المآذن . ولتزويقه حمل إلية الرخام وفصوص الفسيفساء على البريد(٧) ، حتى صفحت منه حيطانه

(١) ابن سعد ، ٤ / ١ ص ١٣ — ١٤ .

(٢) معجم البلدان ، ٧ ص ٤٣١ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ٦ .

(٤) معجم البلدان ، ٧ ص ٤٣١ . لدينا تاريخ آخر هو سنة ٨٨ . انظر : أيضا المرجع الأخير ، ص ٧ ؛ العيون والحدائق ، ص ٤ ؛ المقريزى ، التبر المسبوك ، ص ٢٩ .

(٥) انظر من بين المراجع أيضاً : الأخبار الطوال ، ص ٣١٣ . .

(٦) انظر . Sauvaget: La Mosquée, p. 120

(٧) صبح الأعشى ، ١٤ ص٣٦٨ ؛ انظر . Creswell: Early Muslim, Architecture I. Umayyads. Oxford, 1932, p. 97 — 98 ; ابن النجار ، أخبار مدينة الرسول ، نشره صالح محمد جمال ، مكة ١٣٦٦ ، ص ٨١ — ٨٤ .

واستمر العمل فية ثلاث سنوات . وقد أصبح هذا المسجد فى مكانته يلى المسجد الحرام فى مكة[١] ؛ وعرف بالحرم المدنى[٢] أو المدينة المنورة ،لوجود قبر الرسول بها . وقد زار الوليد المدينة سنة ٧١٠/٩١ ، فلما دخلها ذهب إلى المسجد ينظر إلى بنائه ، وأخرج الناس منه ، وصلى فيه الجمعة وخطب فى الناس من على منبر النبى[٣] .

واهتم الوليد بمسجد الكعبة الذى يطوف فيه المصلون[٤] ، فلم يكن لساحة الكعبة جدار على أيام النبى وأبى بكر ، فلما كثر الحجاج اشترى عمر دوراً وهدمها وزادها فى المسجد ، وأدار عليها جداراً ؛ وفعل ذلك عثمان واتخذ له الأروقة ، وكذلك فعل ابن الزبير . فلما جاء الوليد لم يكتف بتوسيع المسجد مثل سابقيه ، وإنما بنى السور بعمد الحجارة والرخام والفسيفساء ، كما أنه أرسل إلى عامله على مكة صفائح الذهب ؛ فوضعها على بابى الكعبة وميزابها وفى داخلها وخارجها ؛ فكان أول من ذهب البيت فى الإسلام[٥] .

ويبدو أن الوليد كان ذا إحساس مرهف نادر للجمال ؛ فهو لم يكتف بتجميل مدن المسلمين ، وتشييد أفخم مساجدها فحسب ؛ ولكنه كان لايطيق رؤية المجذومين والعميان والمقعدين يجولون بعاهاتهم فى الطرقات ، ودفعه فعله الإنسانى الكبير إلى بناء البيمارستانات وهى المستشفيات للمجذومين ليعالجوا فيها ، وأعطى لكل ضرير قائداً ، ولكل مقعد خادما ، وأجرى عليهم الأرزاق ؛ فكان أول من

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٣ س ١٧ .

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٣١٣ .

(٣) العيون والحدائق ، ص ٦ ؛ المقريزى ، الذهب المسبوك ، ص ٣٠ — ٣٢ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٠ س ٨ — ١١ ؛ فتوح البلدان ، ص ٤٦ — ٤٧ ؛ انظر .

; Ency. de l'Isl, (art al - Masdjid al - Harâm) t3, p. 442 - 3.

قطب الدين ، ص ٧٤ فما بعدها .

(٥) الأزرقى ، ص ١٤٦ . ورواية أخرى مؤداها أن ابن الزبير هو الذى جعل على بابها صفائح الذهب ، ومفاتيحها أيضاً من ذهب . فتوح البلدان ، ص ٤٧ .

فعل ذلك[1] . كذلك عمل على إنارة الطرقات فى المدن ليلاً ، فكشف ظلمتها الدامسة[2] . وأراد أن تشمل همته كل ركن فى امبراطوريته ؛ فكتب إلى عماله بالبلدان بإعادة بناء مساجدها وتجميلها وإصلاح طرقها ؛ وعمل الآبار[3] .

*

وفى عهد الوليد وصلت الامبراطورية العربية إلى أقصى اتساعها ؛ فقد نبغ من الجنس العربى قواد أكفاء عملوا على مد رقعة الإسلام شرقاً وغرباً . وقد عدت الفتوحات فى عهده من الفتوحات العظيمة ، مثل تلك التى كانت فى أيام عمر ابن الخطاب[4] .

ومنذ استقرت سيطرة العرب فى أرمينية ، عادت حملات الشواتى والصوائف ؛ بنفس القوة التى كانت فى عهد معاوية . وقد كفل الوليد حروب الروم إلى أخيه الأمير مسلمة بن عبد الملك[5] ، وابنه العباس بن الوليد[6] ، فاظهر كلاهما قدرة حربية فائقة فى قيادة الحملات ؛ وبخاصة مسلمة الذى كان أبوه يسميه ناب بنى أمية[7] . ولم

(١) العيون والحدائق ، ص ٤ ؛ ١٢ .

(٢) نفسه ، ص ١١ .

(٣) نفسه ، ص ٤ . مثل جامع الطائف الذى أعيد بناؤه . أما عن اعادة بناء جامع مصر فكان فى سنة ٩٠/٧٠٩ (انظر . ابن عبد الحكم ، ص ١٣١) ؛ أو قبل ذلك فى أيام عبد الملك . سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٤٠ س ١٧ .

(٤) قطب الدين ، ص ٧٥ — ٧٦ .

(٥) ولد عام أخرج ابن الزبير بنى أمية من الحجاز ؛ وتوفى بالجزيرة فى سنة ١٢١/٧٣٩ . عنه ، انظر . مراجع الهوامش ؛

و Ency. de L'Isl, (art Maslma B. 'Abdalmalik) t3, p. 447-8.

(٦) أم العباس كانت من الروم ؛ وهو توفى زمن آخر خلفاء الأمويين فى سنة ١٣٢/٧٥٠ انظر مراجع أخرى بالهامش ؛ والأغانى ، ٦ ص ١٠٣ ؛

Ency. de l'Isl, (art al-'Abbâs B. al-Walîd) t1, p. 12—13.

(٧) مصنف مجهول ، ص ٢٦٢ .

تمكن الحملات للتخويف ، ولكن هدفها كما كان فى عهد عبد الملك دك حصون العدو ومدنه المسلحة ، وإنشاء حصون جديدة ؛ مما أدى إلى امتداد النفوذ العربى فى آسيا الصغرى . وقد كان العرب يحملون معهم نساءهم فى غزواتهم ؛ إرادة الجد فى القتال [١] .

ولعل أهم الحصون التى استولى عليها العرب فى عهد الوليد حصن طُوَانة (Tyâna) فى سنة ٨٨[٢] / ٧٠٧ ، الواقعة قرب المصيصة — ثغر المسلمين القوى — فبعد حصارها مدة تسعة أشهر بالمنجنيقات وقعت فى أيديهم ؛ بحيث بلغت خسائر الروم فيها حوالى خمسين ألفا ، ما عدا الأسرى والغنائم الماثلة . وقد توغل المسلمون فى بلاد آسيا الصغرى ، واستولوا على عدد كبير من الحصون[٣] ، أقاموا فيها الحاميات ، مثل : سُلوقية عند الساحل[٤] ، ومَرْعَش وعمّورية[٦] ، بين الشام وبلاد الروم[٥] ، حيث زودوها بالأسوار والجوامع ، وحملوا إليها كل ما تحتاج إليه حتى الجواميس[٧] ؛ فكان العرب يخرجون منها لمهاجمة

(١) فتوح البلدان ، ص ١٦٧ س ١٣ .

(٢) العيون والحدائق ، ص ٣ . يقول أغابيوس طوانية . انظر . العنوان ، ٨/٣ ص ٤٩٨ — ٤٩٩ [٢٣٨ — ٢٣٩] . ويذكر أنه بعد الاستيلاء عليها أحرق أهلها بالنار . أما « Michel le Syrien » فيقول إن عدد الأسرى حوالى أربعين ألفاً (انظر . Chronique, t2. Fasc.3,p.478) ، وإن الوليد ذبح الأسرى فى الكنائس (انظر . Ibid, p. 479) . كذلك النصوص لم توضح قيادة الحملة ، فلعلها لمسلمة والعباس معاً . انظر أيضاً : الكامل ، ٤ ص ١٠٨ — ١٠٩ ؛ La Lutte, p. 172—173 : Cheira . عن طوانة ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٦٥ — ٦٧ .

(٣) أغابيوس ، ٨/٣ (القسم الثانى) ص ٤٩٩ [٢٣٩] ؛ Michel, t2.f3, p.479 ، ٣ ص ٧١ .

(٤) فتوح البلدان ، ص ١٤٨ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٣٥٧ ؛ ٥ ص ١١٥ .

(٥) نفسه ، ص ١٨٩ . عنها ، انظر . نفسه ، ٨ ص ٢٥ — ٢٦ .

(٦) نفسه ، ص ١٦٧ ؛ الكامل ، ٤ ص ١١٠ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٢٢٧ .

(٧) فتوح البلدان ، ص ١٦٧ .

حصون الروم البعيدة . ولكي يأمنوا شر الجراجمة ، الذين زاد خطرهم حتى بلغ مداه في عهد عبد الملك، هاجموا الجرجومة نفسها — أم مدنهم في جبل اللكام بالثغر الشامي — في سنة ٨٩/٧٠٨(١) ، وهزموهم على الرغم من تجمعهم للدفاع عنها من كل مكان ؛ ونقلوا بعضهم إلى الشام وأدخلوهم في فرق المسلمين ، دون أن يكرهوهم على ترك النصرانية . كذلك نقلوا إلى الثغور عناصر من الزط الهندية(٢) ، التي جاءت من بلادها إلى بلاد المسلمين ؛ كما فعل معاوية من قبل . ولعل الوليد أراد غزو القسطنطينية ؛ إلا أن هذا لم يخرج إلى حيز التنفيذ بسبب أن جند المسلمين كانوا قد انساحوا في أطراف الدولة الأخرى انسياحاً كبيراً(٣) .

•

ومن ناحية أخرى استمرت الفتوح في بلاد المغرب : إذ كانت بعض أقسامه قد بقيت تحت سيطرة قبائل البربر أو قوط الأندلس . ولقد قام بها في عهد الوليد موسى بن نصير ، الذي جاء بعد حسان في عمل المغرب(٤) ؛ وإن أصبح في عمله يتبع الخلافة مباشرة(٥) ؛

---

(١) نفسه ، ص ١٦١ ؛ انظر . La lutte, p. 173—4. : Cheira

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٦٢ ؛ انظر . De Goeje :
Mém. Sur. les Migr. des Tsig. p. 21—22.

(٣) انظر . بروكلمان ، تاريخ الشعوب ، ١ ص ١٦٤ .

(٤) اختلف في تاريخ توليته ، فقيل في سنة ٧٨ أو ٧٩ (ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٣ ، أخبار مجموعة في فتح الأندلس لمؤلف مجهول ، تحقيق La fuente y alcantara ، طبعة Madrid ، ١٨٦٧ ، ص ٣) أو في سنة ٨٦ (المقرى ، نفح الطيب ، تحقيق أحمد رفاعي ، القاهرة ١٩٣٦ ، ٢ ص ١٣٢) ، أو في سنة ٨٩ (عبيد الله (نص جديد) ص ٢٢٣ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٣٠ ؛ الكامل ، ٤ ص ٣٢ — ٣٣ ؛ ١١٢) . انظر عن هذا الاختلاف : عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، الطبعة الأولى ١٩٤٣ ، ص ٢١ . ولد موسى في سنة ١٩/٦٤٠ في خلافة عمر ، وهو من التابعين (البيان ، ٢ ص ٢٣) ، وكان أبوه على حرس معاوية ، ولم يرض أن يشترك معه في حرب صفين (الكامل ، ٤ ص ١١٢) ؛ ثم إن موسى كان وصيفاً لعبد العزيز ابن مروان (أخبار مجموعة ، ص ٣) ؛ وقد تولى المغرب بعد عزل حسان ، الذي لم يلبث أن توفى . ابن عبد الحكم ، ص ٢٠٣ ؛ انظر عنه : العبادي ، صور وبحوث في التاريخ الإسلامي (عصر الدولة العباسية والمغرب والأندلس) ، ص ١٤٣ — ١٤٧ ؛
Ency. de l'Isl, (art Mûsa B. Nusair) t 3, p. 790

(٥) المقرى ، نفح الطيب ، ٢ ص ١٣٢ .

بعد أن كان ضمن عمل مصر منذ معاوية[١] ؛ فكان موسى يلقب : « بأمير القيروان[٢] » . فذهب بنفسه ومعه أولاد عقبة فغزا قبائل المغرب الأقصى الساكنة فى مناطق الجبال التى تشرف على المحيط ، مثل كتامة وصنهاجة وقتل ملوكهم[٣] ؛ وأرسل ابنه لإخضاع قبائل السوس الأقصى ؛ التى كانت تقيم فى مناطق جبلية هائلة تمتد حتى المحيط ، ومفاوز الصحراء الواسعة[٤] ؛ كما فتح مولاه طارق بن زياد طنجة « Tingis » ، الواقعة على المضيق الذى يفصل بين ساحلى المغرب والأندلس[٥] ، حيث اعتبرت قصبة بلاد البربر وأم قرام[٦] ، وكان أغلب أهلها نصارى[٧] ، ولم تكن قد غزيت من قبل[٨] . ولكى يقضى موسى على شوكة البربر ؛ كان ينقل قبائلهم من أقصى البلاد إلى أدناها[٩] ؛

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٢٣٠ س ٩ ؛ انظر . قبله .

(٢) عبد الواحد المراكشى ، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، حققه سعيد العريان والعربى ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٩ .

(٣) عبيد الله (نص جديد) ص ٢٢٤ . عن تحديد المغرب ، انظر . ابن غالب البلنسى ، ص ٣٨ .

(٤) عبيد الله ، ص ٢٢٤ ؛ أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ص ١٣١ .
Ency. de l'Isl, (art al-Sûs al-Aksa) t4, p. 596—297 ؛
انظر قبله .

(٥) فتوح البلدان، ص ٢٣٠ . عنها ، انظر . معجم البلدان، ٦ ص ٦١ — ٦٢ ؛ أبو الفدا، تقويم ، ص ١٣٣ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Tanger) t4, p. 683 . اختلف فى أصل طارق ، فهو فارسى أو بربرى (ابن عبد المنعم الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، تصحيح وتعليق Lévi-Provençal ، القاهرة ١٩٣٧ ، ص ٩) ، أو مولى من همدان . أخبار مجموعة ، ص ٦ ؛ البيان ، ٢ ص ٥ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Târik B. Ziyâd) t4, p. 699—700

(٦) أخبار مجموعة ، ص ٤ .

(٧) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة Madrid ، تحقيق Ribera ١٩٢٦ ، ص ٨ .

(٨) فتوح البلدان ، ص ٢٣٠ .

(٩) العبر ، ٦ ص ١١٠ س ٥ .

ويأخذ رهائنهم[١] ؛ مما دوخ المغرب ، وأدى بالبربر إلى الطاعة . كذلك أظهر حماسه نحو إعلاء شأن الإسلام بينهم ، فكان يترك منهم من يعلمهم القرآن ويشرح لهم شرائع الإسلام ؛ مما جعل الإسلام ينتشر بين البربر ، وأقبلوا على الجهاد مع المسلمين[٢] .

وبعد أن روض موسى البربر على الطاعة وجه همه إلى غزو بلاد القوط نفسها ، الذين كانوا يشاركون العرب فى احتلال المغرب ، وكان لهم عمال عديدون فى مدائن على ساحله ، على رأسها البلدة الداخلة فى البحر كالكف ، المعروفة للعرب باسم سبتة « Septa »[٣] (Ceuta) ؛ وهى التى صالحت عقبة من قبل[٤] . فنزام العرب فى عقر بلادهم التى عرفت قديماً باسم : إبارية[٥] «Iberia» أو « Iberus » ، وللنصارى باسم : أشبانية[٦] « Hispania » أو «Spānia» — أسبانيا — وإن عرفت للعرب بالاسم الأعجمى: الأندلس[٧] «Vandalucia» ، نسبة إلى قبائل الأندلش « Vandalos » — وهم الوندال — الذين غزوها فى أوائل القرن الخامس الميلادى ، وأيضا جزيرة الأندلس ، لإحاطة البحر بها من

---

(١) عبيد الله (نص جديد) ص ٢٢٤ .

(٢) نفسه ؛ أخبار مجموعة ، ص ٤ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٤ . عن سبتة ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٢٦ — ٢٧ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Ceuta) tI, p. 857 sqq. ؛ انظر . قبله .

(٤) عبيد الله (نص جديد) ، ص ٢١٩ .

(٥) صفة جزيرة الأندلس، ص ٢ . لعلها على اسم شعب قوقازى . انظر. Brémond : Op. cit., p. 222.

(٦) صفة جزيرة الأندلس ، ص ١ . يقول ابن الأثير إنه اسم أحد ملوكها . انظر . الكامل ، ٤ ص ١١٩ .

(٧) معجم البلدان ، ١ ص ٣٤٧ ؛ الكامل ، ٤ ص ١١٩ ، انظر .
Ency. de l'Isl, (art al-Andalus) tI, p. 354 sqq 2ed tI p. 486 sqq
يسمى «Procopius» هذه القبائل «Bandoloi» ، انظر:
Hist. of the Wars 2 :2 ; 8—9 (p. 266—267
;L'Espagne musul au Xe siècles, pp. 18-39 : Lévi - Prov .
حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤ .

ثلاث جهات كجزيرة العرب[١] : وهي بلاد واسعة على صورة[٢] مثلث تقع في جنوب غربي أوروبا مقابل ساحل بلاد المغرب ، وتنفصل عنها بمضيق : « خليج » عرف قديماً باسم : «Calpe» ، والعرب : « ببحر الزُّقاق » أو « مجاز الأندلس »[٣] » ؛ وتمتد شمالاً إلى جبال البرنيوه[٤] « Pyrenaei » ، التي تفصلها عن بلاد الفرنجة العظمى[٥] أو بلاد أفرانسه من الأرض الكبيرة الممتدة إلى رومية[٦] . ولقرب الأندلس من بلاد المغرب اعتبرها بعض الجغرافيين قسماً منها[٧] .

ويبدو أن أصول سكان شبه جزيرة الأندلس الأولى قريبة من أصول سكان الرومان (الرمانيين) ، الذين استولوا عليها في سنة ١٣٣ م ؛ ومنذ ذلك الوقت بدأ صبغ هذه البلاد بالصبغة الرومانية[٨] . وفي ظل الحكم الروماني جاءت الأندلس أعداد كبيرة من اليهود ، كونت قسماً مهماً من سكانها ؛ وبخاصة في المدن[٩] . ولكن وصلتها هجرات جرمانية آرية من البرابرة ، تحت ضغط قبائل الهون[١٠] التي

---

(١) معجم البلدان ، ١ ص ٣٥٠ .

(٢) نفسه ، ١ ص ٣٤٧ — ٣٥٠ ؛ تقويم البلدان ، ١٦٥ فما بعدها .

(٣) المراجع السابقة ، ومعجم البلدان ، ٤ ص ٣٩٥ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٣٠ ؛ صفة ، ص ٧ و ٨٣ ؛ انظر أيضاً Ency. de l'Isl, (art Gibraltar); t2 p.180 (art Bahr al - Maghrib) tI, p. 595.

يقول ابن خلدون إن الأندلس كانت متصلة بالمغرب إلى أن ركبها البحر . العبر ، ٦ ص ٩٨ .

(٤) ابن غالب البلنسي ، ص ٣٨ . وهو يسمى أيضاً جبل الحاجز أو الفاصل . انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٣٥٠ ؛ Ency. tI, p. 354

(٥) معجم البلدان ، ١ ص ٣٥٠ س ٥ .

(٦) تقويم البلدان ، ص ١٦٦ ؛ ١٦٩ . قاعدتها رومية ، انظر . ابن صاعد ، ص ٦٤ .

(٧) معجم البلدان ، ٨ ص ١٠٣ ؛ انظر . قبله .

(٨) أخبار مجموعة ، ص ١٦ س ٩ ؛ انظر . بنيامين فارنجتون ، مدنية الإغريق والرومان ، ترجمة أمين تكلا ، القاهرة ١٩٤٨ ، ص ٩٣ .

(٩) انظر بعده .

(١٠) انظر . بعده .

انتقلت بدورها من آسيا إلى أوربا تحت ضغط الترك ، الذين ظهرت قوتهم فجأة فى وسط آسيا فى القرن الخامس الميلادى . فمن هذه الهجرات الجرمانية قبائل الأندلش[١] أو الوندال ؛ ثم القوط[٢] « Gothoi » أو عجم الأندلس[٣] ، أو حتى الفرنجة[٤] ؛ فاستولوا عليها من الرومان[٥] ؛ ولعلهم هم الذين أخلوها من الوندال ، الذين انتقلوا إلى شمال إفريقية . وقد تمكن القوط من توطيد أقدامهم فى الأندلس واعتبرت مملكتهم فيها من الممالك الكبرى مثل قسطنطينية (الروم) ورومية (بابوية روما[٦]) .

ولكن هذه المملكة استمرت تعانى اضطرابات داخلية ، بسبب أن عناصر سكانها لم تكن قد امتزجت بعضها مع بعض ، فالعداوة بين القوط وبين اللاتين (الرومان) لم تهدأ . ومن ناحية أخرى كان تحول القوط إلى دين النصارى[٧] ، سبباً فى ظهور عداء صليبى ضد اليهود من سكانها ؛ فكانوا يجبرونهم على التنصر[٨] ،

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١١٩ ؛ انظر . قبله .

(٢) العبر ، ٦ ص ١٠٧ س ١٠ ؛ انظر . قبله . ينقسم القوط قسمين « Ostrogoths » ، وهى كلمة جرمانية من « Austra » أى لامع ، و « Wisgoths » من « Wisi » أو « Weise » أى عاقل . انظر . Brémond : (3) ; Op. cit, p. 223 ؛ انظر أيضاً . أومان ، الأمبراطورية البيزنطية ، ص ٢٦ــ ٢٨ .

(٣) الكامل ٤ ص ١١٩ س ١٩ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ١٢٠ س ١٨ — ١٩ ؛ انظر . قبله .

(٥) الكامل ، ٤ ص ١٢٠ ؛ انظر . Brémond : Op. cit, p .223.

(٦) يقول قسطنطينة ورومية. تقويم البلدان ، ص ١٦٥ . رومية هى مركز رئاسة البلاد التى شمالى وغربى القسطنطينية .عنها ، انظر . معجم البلدان ، ص ٣٣١ ــ ٣٣٦ .

(٧) الكامل ، ٤ ص ١٢٠ .

(٨) انظر . Ziegler : Church and State in Wisigothic Spain., Washington 1930, p. 121 ; 165-196.

وكل ملك من القوط يتخـــذ تعذيب اليهود أساساً لسياسته[1] . فنحن لا نندهش إذا وجدنا اليهود فى الأندلس يئنون تحت ضغط حكم القوط ، ويقبلون على المكايدة .

كذلك كانت مملكة القوط تعانى الاضطرابات من وجود النزاع على مبدأ الحكم : فقد كان نظام الحكم التقليدى هو النظام الملكى الانتخابى ، من طريق مجلس نبلاء القوط وأشرافهم « Seniores و Majores »[2] . وقد كان إذا تولى الملك ، فإن الأشراف تبعث بأولادها الذكور والإناث إلى بلاط ملكهم ، دلالة على الولاء[3] . وقد كان ملوك القوط ينزرون الكنيسة لكى تساعدهم على إقامة دولة وراثية ، ولكن النبلاء والأشراف كانوا يريدون الإبقاء على مبدأ الانتخاب . وقبل غزو العرب ؛ حدث نزاع على العرش : فيبدو أن الملك « Witiza » ، الذى يسميه العرب « غيطشة » ، أراد أن يورث أولاده العرش ؛ فأغضب ذلك النبلاء وعلى رأسهم « Rodrigo » ، الذى يسميه العرب «روذريق» فتراضوا به ملكاً بعد موت غيطشة فى ٧١٠ م[4] ؛ مما جعل أولاد غيطشة يهربون إلى إفريقية[5] .

ومع ذلك لم تبين النصوص أسباب غزو العرب للأندلس ؛ بل تقدم

---

(١) انظر . Pierre André : L'Islam et les Races. Paris, 1922, t2, p. 117.

(٢) انظر . Brémond : Legendre : Op. cit., p. 223, Nouvelle Histoire d'Espagne. Paris, 1928, p. 69.

(٣) الكامل ، ٤ ص ١٢١ .

(٤) نفسه ؛ أخبار مجموعة ، ص ٥ . لدينا أسماء مختلفة ، منها : الأذريق (العيون والحدائق ، ص ٣) ، وهو يقول إنه لقب ملوك الأندلس ، كما هو لقب الأكاسرة ، أو لذريق (عبد الله (نص جديد) ص ٢٢٤)، أو أذرينوق . الكامل ، ٤ ص ١١٩ .

(٥) صفة ، ص ١٠؛ انظر . Lévi-Provençal : L'Espagne Musul, p. 7 ؛ حسين مؤنس، فجر، ص ١٢ — ١٣ .

أسطورة شاعرية وتجعلها السبب المباشر له(١). فالكونت «Julianus» ويسميه العرب «يليان» ، الذى كان يحكم سبتة وقتئذ ، كان يريد أن يثأر لشرف ابنته فلورندا «Florinda» — وهى التى اشتهرت فى الحكايات الشعبية الأندلسية باسم «Cava»(٢) (لعلها القحبة) — وقد كانت تعمل كوصيفة فى بلاط الملك ، الذى لمها وهى تستحم «Banios de la Cäva» ؛ فاعتدى على عفافها ؛ فلذلك سلم يليان سبتة إلى موسى ، وحرضه على غزو الأندلس .

ولكن لا يمكن أن نعد هذا سبباً مباشراً للغزو ؛ لتناقض نصوص هذه الأسطورة ، فمثلاً ابن القوطية يروى أن يليان تاجر من الروم كان يدخل قصر الملك ليتاجر(٣) . بل إن المفكر فولتير «Voltaire» يشك فى أن الملك انتهك عرضها(٤) . ونرى أن غزو هذه البلاد قد يرجع إلى أن العرب المتوثبين للجهاد شعروا بضعفها ؛ لاضطراب أحوالها الداخلية ، ولأنها كانت قد انتابتها المجاعات والطواعين عدة سنوات منذ سنة ٦٩٧/٧٨ ؛ مما أفقدها أكثر من نصف سكانها(٥) . ولقد كان اتساع الفتح العربى الطبيعى لابد أن يتجه إلى الشمال ، إذ أن المحيط يمنع من انسياحهم فى الغرب ، وصحراء نيسر تمنعهم فى الجنوب ، ولعل العرب أيضاً أرادوا أن يشغلوا البربر عن حربهم بتوجيههم نحو الفتوح ؛ بعد أن أسلموا وحسن إسلامهم .

أضف إلى ذلك أن علاقة العرب بالقوط لم تكن حسنة ؛ منذ أن توسع العرب

---

(١) انظر من مراجع عديدة Cronica General : Alfonso el Sabio (Neuve Biblioteca de Autores Espanolés). Madrid, 1906.

انظر . الكامل ، ٤ ص ١٢١ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٥ — ٦ ؛ وغير ذلك .

(٢) انظر Romancero trad.en fran. Par M. Pomés. Paris, 1947. p. 30-31.

(٣) ابن القوطية ، ص ٧ — ٨ .

(٤) انظر التعليق فى Gibbon : Decline, 5, p. 364; n(1) .

(٥) أخبار مجموعة ، ص ٨ س ٨ — ٩ .

فى المغرب . فقد اشترك القوط فى الحملة التى أرسلها الروم لاسترداد قرطاجنة ؛ بحيث عُد اشتراكهم فيها أشبه بحرب صليبية عند المسلمين ؛ حيث جاءوها ومعهم علامة الصليب[١] . ويذكر صاحب أخبار مجموعة : أن طارقاً لما حاول الاستيلاء على سبتة التى كان يحكمها القوط فى ساحل المغرب ، قاومته حتى اضطر إلى الرجوع عنها إلى طنجة ؛ وكانت المراكب تأتيها بالأمداد من الأندلس[٢] . ويكفى أن يكون الدين سبباً للعداء بين العرب والقوط ، كما كان هناك عداء بين العرب والروم سواء فى إفريقية أو فى آسيا الصغرى[٣] .

وقد عمل موسى على اختبار الأندلس بالسرايا بتوجيه من الخليفة الوليد[٤] ؛ خصوصاً وأن العرب كانت قد عظمت صولتهم فى غرب البحر الأبيض ؛ باحتلال شواطىء المغرب الطويلة المقابلة للأندلس ، وبإنشاء دار صناعة للسفن فى تونس[٥] ؛ ولأن دولة القوط نفسها لم تكن دولة بحرية فى قوة دولة الروم[٦] . فهاجم العرب فى البحر جزيرتى: منورقة « Palma minorica »وميورقة « Palma miorica » قبالة ساحل الأندلس الشرقى ، أو ما عرف بالجزر البحرية « جزائر البليار » (Baliares)[٧] ، وغنموا من ميورقة ما لا يحصى[٨] ، ويبدو أنهما لم يكونا ضمن أملاك القوط . وفى سنة ٩١ / ٧١٠ ، غزا طريف بن مالك ، وهو مولى

---

(١) انظر . Gibbon : Decline, 5, p. 363 . يعتمد على كتاب ليون الإفريقى .
(٢) أخبار مجموعة ، ص ٤ (أسفل الصفحة) .
(٣) انظر . Gibbon : Deline, 5, p. 363.
(٤) الكامل ، ٤ ص ١٢٢ س ١ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٥ — ٦ .
(٥) انظر . قبله .
(٦) الكامل ، ٤ ص ١٢٠ — ١٢١ ؛ انظر . G. Marçais : La Berbérie, et l'Orient du Moyen Age. Paris, p. 171—173.
(٧) الذهبى ، دول الإسلام ، ١ ص ٤٢ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٤ ؛ انظر . Ency. d l'Isl, (art Baléares) tl, p. 630—631.
(٨) الكامل ، ٤ ص ١١٢ .

لموسى ، مدينة فى جنوب الأندلس نفسها ، عرفت باسمه : « جزيرة طريف[١] » (Tarifa) . وفى سنة ٩٢/٧١٠ — ٧١١ ، ملك موسى جزيرة سَرْدَانية فى بحر المغرب ، التى تعتبر من أكبر الجزائر بعد الأندلس وصقلية وكريت (إقريطش[٢]) .

بعد ذلك أرسل موسى فى رجب سنة ٩٢[٣]/٧١١ ؛ جيشاً عدده حوالى سبعة آلاف كلهم من البربر الموالى ؛ الذين سماهم الأوربيون بالمور « Moros[4] » (Moriscos) ؛ بقيادة طارق بن زياد . وقد أعد لهم موسى سفناً لتنقلهم ومعهم خيلهم[٥] ؛ ويبدو أنه لم يكن معهم فى هذه المرة نساؤهم على عادة العرب فى الفتوح . فاستولى طارق على جبل منيف فى جزيرة ببحر الزقاق ، ذات موقع استراتيجى يعتبر مفتاح البحر الأبيض ؛ فسمى هذا الجبل : جبل طارق إلى اليوم[٦] (Gibraltar) ، أو باسم : جبل الفتح[٧] . وبعد ذلك نزل فى مرسى جيد قبالة سبتة ، واقع على نهر بَرْباط فى أرض الأندلس نفسها ؛ سماه العرب بالجزيرة الخضراء[٨] (Algesiras) . وتقول الرواية إن طارقاً أحرق سفنه ؛ لكى يعلى همم المقاتلة ، وقال كلمته المشهورة : « البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم[٩] » . ولكننا

---

(١) انظر نفسه ، ٤ ص ١٢٢ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Tarif); (art Tarifa) t 4. p. 699

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٢٢ ؛ معجم البلدان ، ٥ ص ٦٦ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ١١٩ ؛ البيان ، ٢ ص ٦ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٦ . وغير ذلك من المراجع .

(٤) Ency. de l'Isl, (art Maures) t3,p.470. ؛ انظر . قبله .

(٥) أخبار مجموعة ، ص ٧ .

(٦) نفح ، ٢ ص ١٢٨ . وهى قديماً : « Calpe » : انظر .
Ency. de l'Isl, (art Gibraltar) t2, p. 179—180.

(٧) يقول ابن الأثير إن تسمية جبل الفتح ظهرت فى عهد دولة الموحدين . الكامل ، ٤ ص ١٢٢ .

(٨) صفة ، ص ٨ ؛ انظر . Lévi-Provençal : Hist. de l'Esp, p. 20 عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٩٩ . وعن برباط . المرجع الأخير ، ٢ ص ١٠٣ .

(٩) نفح الطيب ، ٢ ص ١٥٠ .

تشك فى رواية حرق السفن لأن موسى لم يلبث أن أرسل إليه مدداً من سفن كثيرة ، قبل الاشتباك فى المعركة الحاسمة مع القوط؛ بحيث أصبح عدد من وصله اثنا عشر ألفاً(١) .

فلما سمع القوط بغزو العرب لبلادهم أسرع رودريق على رأس جيش كبير عدده نحو مائة ألف(٢) ، وعليه تاجه وجميع حليه(٣) ، للقضاء على جيش العرب ؛ الصاعد من الجزيرة الخضراء . فتقابل الجيشان فى معركة حاسمة بالقرب من نهر برباط فى وادى بكة(٤) أو لكة(٥) المحيط بالبحيرة المعروفة بهذا الاسم : « بحيرة لاخاندا » (Lago de Janda) ؛ ولذلك عرفت الوقعة بالبحيرة . فانهزم رودريق أمام تصميم العرب وشجاعتهم ، ولخروج أولاد الملك السابق وغيره من أبناء الملوك من المعركة ؛ مما كان سبباً لتعجيل الفتح(٦) . ولعل سبب خيانتهم على حد قول ابن الأثير ، بغضهم لرودريق ؛ وظنهم أن العرب إذا امتلأت أيديهم بالمال عادوا إلى بلادهم ، وبقى الملك لهم(٧) ؛ فضلاً عما أشاعه العرب عن أنفسهم من قسوة لإخافة عدوهم ؛ حتى قيل إنهم طبخوا أول من قتلوه فى القدور(٨) . ولم تعرف نهاية رودريق(٩) ؛ فلعله غرق فى النهر(١٠) ؛ وإن كانت هزيمته فى ٢٨ رمضان سنة(١١) ٩٢/١٩ يوليو ٧١١ .

---

(١) مجموعة ، ص ٧ س ١٠ .

(٢) نفسه ، ص ٨ .

(٣) الكامل ، ٤ ص ١١٩ .

(٤) ابن القوطية ، ص ٧ .

(٥) ابن عذارى ، ٢ ص ٨؛ الكامل ، ٤ ص ١٢٢ ؛ انظر . Lévi-Provençal : Hist. de l'Esp, p. 12 et n (1) .

(٦) أخبار مجموعة ، ص ٧ — ٨ ؛ ابن القوطية ، ص ٣ .

(٧) الكامل ، ٤ص ١٢٢ .

(٨) ابن القوطية ، ص ٩ .

(٩) أخبار مجموعة ، ص ٩ .

(١٠) الكامل ، ٤ ص ١٢٢ . لم يعثر له إلا على خف مفضض . انظر . البيان ، بيروت ، ٢ ص ١٢ ؛ حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٧٤ .

(١١) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص ٩ .

بعد هذه الموقعة الحاسمة قوبل طارق بمقاومة أخرى جدية من القوط أثناء تعقبه فلولهم فى إستجة "Astigi" (Ecija)، وهى بلاد ذات جبال شاهقة ومعاقل؛ ولم يلق بعدها حرباً مثلها [١] ؛ فلما تغلب عليهم فرق جيوشه إلى عدة بلاد فتحت ماقصدت إليه [٢] : مثل: قرطبة [٣] "Cordûba" (Cordoba)، المدينة القديمة التى تقع فى وسط البلاد، فاستولى المسلمون عليها فى يوم باردمطير، وجعلوها مركزاً ثابتاً لهم ؛ وغرناطة [٤] "Granata" (Grenada)، الواقعة على نهر سنجل [٥] "Singlis" (Jenil)، وقد استولوا عليها بمساعدة اليهود ؛ ثم تقدم هو نحو طليطلة [٦] "Toletum" (Toledo)، العاصمة السياسية المتلئة بالمبانى والآثار، والواقعة على شاطىء نهر تاجه "Tagus" (Tago) ؛ فهرب منها معظم سكانها ما عدا اليهود، واستشهد فيها بعض المسلمين .

وكان طارق قد ابتعد عن قواعده مما هدد المسلمين بكارثة ؛ لأنه ترك فى مؤخرته بلاداً كثيرة لم يتم فتحها ، فأسرع موسى إلى إنجاده فى سنة ٩٣/ ٧١١ [٧] — ٧١٢ .

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١٢٢ س ٢٦—٢٧ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٩—١٠ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٢٢٤ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٢٢ (آخر الصفحة) ؛ ١٢٣ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ١٠ — ١٢ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٥٣— ٥٥ ؛ ابن غالب البلنسى ، ، ص ٣٩ ؛ انظر :
Ency. de l'Isl, (art Cordoba) t 1, p. 899—900.;

(٤) أخبار مجموعة ، ص ١٢ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٢٧٩ — ٢٨٠ ؛
Ency. de l'Isl, (art Grenade) t2, p. 186—187.

(٥) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ١٤٨ ؛ انظر المراجع السابقة .

(٦) الكامل ، ٤ ص ١٢٢ (آخر سطر) و ١٢٣ ؛ ابن عذارى ، ٢ ص ١٢ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٥٦ — ٥٧ ؛
Ency. de l'Isl, (art Tolède) t4, p. 852 sqq.; (art Tago) t4, p. 637.

(٧) أخبار مجموعة ، ص ١٥ .

بأن سار على رأس حملة جديدة عددها حوالى ثمانية آلاف معظمها من قبائل عرب الحجاز واليمنيين ، وترك طريق طارق ، وسار فى طريق مخالف[1] ؛ وبذلك احتل موسى البلاد الكثيرة التى تركها طارق وراءه ، منها : إشبيلية[2] "Hispalis" (Sevilla) ، المدينة العظيمة القديمة ، التى تقع على نهر — مثل دجلة والنيل — لا يخاض ، هو وادى الكبير (Guadalquivir) ؛ حيث استعان على فتحها باليهود أيضاً ، والتقى بطارق فى طليطلة . وتذكر الرواية العربية قصة لا تكاد تقف على قدميها ؛ هى أن موسى فعل ذلك حسداً لطارق على نجاحه ، ولم يتخذ طريقه إياه ؛ ولما خرج لاستقباله ضربه بالسوط على رأسه ووبخه ؛ إذ كان أصدر الأمر إليه بألا يغرر بالمسلمين ، أو يجاوز قرطبة[3] . ولكننا نرى أن مجىء موسى كان لحفظ أعقابه ؛ خصوصاً وأن طارقاً كان قد استنجد به من قبل ، وأرسل إليه بالمدد[4] ؛ كما أنهما يسيران الفتح معاً .

ترك القائدان طليطلة إلى الشمال[5] ، وفتحا مدناً كثيرة ، وبخاصة المدينة الكبيرة سَرَقُسْطة[6] " Caesarea Augusta " (Zaragoza) — على اسم الامبراطور الرومانى أغسطس « Augustus » — حتى وصلا إلى أطراف بلاد الأندلس الشمالية ؛ فقد كان القضاء على دولة القوط فى الجنوب ، أثره فى جعل مدن الشمال

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١٢٣ س ١٣ .

(٢) نفسه ؛ أخبار مجموعة ، ص ١٦ فما بعدها ؛ ابن عذارى ، ٢ ص ١٤ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٢٥٤ ؛
Ency. de l'Isl, (art Séville), t4, p. 243 sqq ;
(art Guadalquivir) t2, p. 188–189.

(٣) الكامل ، ٤ ص ١٢٣ .

(٤) أخبار مجموعة ، ص ٧ ؛ انظر . قبله .

(٥) نفسه ، ص ١٩ ؛ ابن القوطية ، ص ٩ .

(٦) نفح ، ٢ ص ١٥٦ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٧١ — ٧٣ ؛
Ency. de l'Isl, (art Saragosse) t4, p 161 sqq.

تسقط واحدة بعد أخرى . ولكن المسلمين أهملوا فتح ناحية جِلّيقيّة الجبلية الصخرية ، التي تقع قرب ساحل البحر المحيط في أقصى شمال الأندلس من جهة الغرب ؛ فبقيت بأيدي الأعداء[1]. والواقع أن هذه الناحية التي لم تفتح بقيت مدخراً للقومية الأسبانية ، فخرجت منها فيما بعد الحركة المعروفة بالانتقام من المسلمين « Reconquista » ؛ لتطرد المسلمين من الأندلس، بعد بقائهم فيها حوالى ثمانية قرون.

ويبدو أنه كان في نية موسى أن يربط بين العرب في الأندلس والعرب المحاربين في آسيا الصغرى بفتح بلاد رُومِيّة الواقعة شمالى وغربى القسطنطينية[2] ، التي كانت بيد الإفرنج ، وبها مقام البابا ، والوصول إلى القسطنطينية عن هذا الطريق[3] ولكن الوليد أرسل إلى موسى رسولاً في سنة ٩٥/٧١٣ ، يدعوه إلى ترك ذلك[4] ؛ إذ كان ينتظر وصوله بفروغ صبر بعد أن تحقق على يديه هذا الفتح العظيم . فعاد موسى وطارق ، ومعهما من طرائف الفخار والجوهر والأمتعة ما لا يحصى ، والأسرى الكثيرين ؛ منهم ثلاثون ألف بكر من بنات ملوك القوط وأعيانهم . كذلك كان قد ورد على الوليد أبناء ملك القوط السابق ، الذين خرجوا على روذريق ، فأعطاهم الخليفة ما وعدهم به طارق[5] .

وبهذا الفتح العظيم ، الذي لم يستمر أكثر من ثلاث سنوات ؛ امتدت رقعة أرض الإسلام إلى قارة أوربا ؛ باقتطاع شبه جزيرة الأندلس ؛ التي أصبحت مثل : الكم من ثوب الإسلام[6] .

---

(١) ابن عذارى ، ٢ ص ٦٣ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ١٣١ .

(٢) الذهبي ، دول الإسلام ، ١ ص ٤٦ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٣٣١ فابعدها ؛ انظر أيضا Gibbon : Op. cit. 5, p. 373.

(٣) نفح ، ٢ ص ١٣٥ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ١٢٤ ؛ أخبار مجموعة ، ص ١٩ .

(٥) ابن القوطية ، ص ٤ .

(٦) الأصطخرى ، مسالك ، ص ١٢ .

فى نفس الوقت كان الحجاج أمير العراق والشرق كله[١] ، قد وضع خطة الفتوح فى الشرق وقام على تنفيذها ؛ مما ترتب عليه ضم أملاك جديدة فى آسية إلى فتوحات المسلمين .

فقد مد العرب فتوحاتهم إلى ما وراء النهر الواقع شمال حدود خراسان المعروف : بجيحون[٢] ، وباليونان « Oxus » ، وقديماً آموداريا[٣] ؛ أى إلى البلاد التى سموها : ماوراء النهر ، وباليونان "Transoxiana" .[٤] ولكنها وإن كان النهر يقع إلى جنوبها ، وبلاد خوارزم إلى غربها[٥] ؛ إلا أن حدودها فى الشرق والشمال لم تكن واضحة[٦] ؛ ففى الشرق قد تدخل فيها بعض بلاد الصين ، وفى الشمال كانت تمتد إلى النهر المشهور فى حدود بلاد الترك باسم : سيحون[٧] ، وباليونان "Yaxartes" ، وقديماً سير داريا[٨] .

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١٠٦ س ٧ — ٨ .

(٢) عنه ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ١٨٧ — ١٨٨ . لعله اسم غير عربى ، نسبة إلى مدينة يقال لها جيهان ، فنسبه الناس إليها . كذلك يسمى نهر بلخ أو كالف مجازاً لأنه يمر بهما . نفسه ، ٣ ص ١٨٨ ؛ التنبيه ، ص ٦٤ .

(٣) عن هذه التسميات ، انظر .

Ency. de l'Isl, (art Amû-Daryâ) tI, p.344 sqq; 2ed, p. 454-5.
TheLands of the Eastern Califate.Cambridge,1905,p.433:LeStrange
433—459 ؛ رشيد الدين ، تاريخ المغول ، تحقيق Quat ، ص ١٤٠ وهامش .

(٢) لعل تسمية آموداريا نسبة إلى مدينة آموية . عن هذه المدينة، انظر . معجم البلدان، ١ ص ٣٣٨ ؛ Persian Dictionary "Oxus":Steingass

(٤) عنها . انظر ، معجم البلدان ، ٧ ص ٣٧٠ ؛ صبح الأعشى ، ٤ ص ٤٣١ ؛ انظر . Ency de l'Isl, (art Mà wara' al-Nahr) t3, p. 477.
بدر الدين الصينى ، العلاقات بين العرب والصين ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٠ . وهو يعتمد على كتاب بونغ جيان أى تاريخ الصين العام .

(٥) عنها ؛ انظر . بعده .

(٦) صبح الأعشى ، ٤ ص ٤٣١ .

(٧) عنه ، انظر ، معجم البلدان ، ٥ ص ١٩٢ .

(٨) عن هذه التسميات ، انظر .

: Le Strange, : Ency. (art Sir Daryâ) t4, p. 4 68
The Lands, p. 119.

وقد كان يسكن هذه البلاد خليط من الشعوب الأسيوية أغلبهم من الفرس ، الذين انتشروا في جميع أجزائها[1] ، وكانوا يحكمونها عن طريق المرازبة ، وواحدها مرزبان أى صاحب الثغر وهو المرز ، إذ كانت للفرس منطقة ثغور ؛ وقد كان نظامهم ألا يعد بعضهم بعضاً أثناء الحرب إلا بإذن من الملك[2] . ولكونها بلاد صلة لوقوعها في وسط آسيا؛ فإنها كانت معبراً للشعوب الأسيوية منذ قديم الزمان مثل : الشعب المغولى الذى عُرف للعرب بالهياطلة[3] ، وللأوربيين بالهون البيض « Hunni » ، والصينيين بالهيونغ — نو . فهؤلاء خالطوا أهل بلاد ماوراء النهر وحكوهم أثناء تحركاتهم من الشرق إلى الغرب حوالى القرن الخامس الميلادى ؛ بحيث أن هَيْطَل أصبح أيضاً اسماً لبلاد ماوراء النهر[4] . كذلك الترك وهم عنصر مغولى آخر، كانوا يحيطون ببلاد ما وراء النهر من الشمال على الخصوص ، وتمكنوا من حكم بعض أجزائها قبل الغزو العربى ، وإخضاع دهاقينها ، الذين هم ملاك أرضها[5] ؛ كما طمع الصينيون فيها وسعوا إلى السيطرة عليها .

وكانت قد تكونت في بلاد ما وراء النهر ممالك مستقلة غير واضحة التاريخ أو الحدود ، بعضها يشمل أقاليم واسعة ، أو مدناً مفردة ، أهمها في أعلى النهر :

(١) ابن صاعد ، طبقات الأمم ، نشره وذيله شيخو ، بيروت ١٩١٢ ، ص ٥ — ٦ ؛
؛ The Arab Conquest in Asia. London, 1923, p. I : Gibb
Arabia and the far east. Cairo, 1942, p. 258 : Huzayyin

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٢٦ س ٢٠ . عن هذه الكلمة ، انظر . التاريخ السياسى ، ١ ص ١٩٢ وهامش (٨) .

(٣) انظر مثلاً فتوح البلدان ، ص ٤٠٣ عن بقية التسميات ، انظر .
Histoire des Turcs, : Barthold ! Op. cit, p. I. : Gaud - Plat d'Asie centrale Adap. franc. Par Mme Donskis. Paris, 1945, p. I8 ؛ شعيرة، الممالك الحليفة أو ممالك ما وراء النهر ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب جامعة فاروق ، المجلد الرابع ١٩٤٨ ، ص ٤ ؛ التاريخ السياسى ، ١ ص ١٩١ وهامش (٨) .

(٤) عن هذا الاسم ، انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ٤٨٨ .

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٣١٤ — ٣١٥ ؛ وبعده . عن هذه الكلمة ، انظر . التاريخ السياسى ، ١ ص ١٦٨ وهامش (١١) .

مملكة طخارستان(1)، وهي بلاد واسعة تقع على ضفتي نهر جيحون ، تنقسم إلى: طخارستان العليا والسفلى ، وتشتمل على قاعدتها بَلْخ (بالفارسية بَاختر) ، حيث يسمى جيحون بها ، فيعرف أيضاً بنهر بلخ(2) ، وعلى طالقان كبرمدنها(3) . وقد كان يسكنها شعب عُرف لدى العرب بالطخارية والصينيين بيوتشي ؛ كما أنه غزاهم أيام الفرس الهياطلة(4) ؛ وإن لم يقضوا على مقوماتهم ، بدليل بقاء اسم طخارستان ، حتى وقت الفتح العربي . كذلك كانت هذه البلاد شديدة الصلة باليونان ، فعرفت لهم باسم : «Baktria» ، وبلخ نفسها باسم : «Baktra» .(5) وهذه البلاد حكمتها أسرة قبل الإسلام ، لعلها من أصل تركي ، عُرف ملوكها بلقب : جبغوية(6) ؛ وإن كان يبدو أن سيطرتها على بلخ وطالقان كانت اسمية ؛ وأنها انكمشت في جزء صغير منها . ومملكة الخُتّل أو ختلان(7) ، وهي أول بلاد ماوراء النهر خلف جيحون على تخوم السند ، يقال لقصبتها هُلْبُك ، التي تقع على

---

(١) معجم البلدان ، ج٦ ص ٣١ . ويقال طخارستان بالفتح أو طخيرستان . كذلك يقول الدينوري تخارستان . انظر . الأخبار الطوال ، ص٣١٥ . عنها ، انظر . LeStrange: Ency. de l'Isl,(art Takhâristan)t4, p 849 - 850.;Lands, p.426. suiv ؛ شيرة ، ممالك ما وراء النهر ، ص ٥ ـ ٧ ؛ بارتولد ، جغرافياى ، تاريخى إيران ، ترجمة سردادور ، طهران ١٣٠٨ ص ٤٩ ؛ التنبيه ، ص ٦٤ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٤٠٨ . عنه، انظر . معجم البلدان ، ٢ص٢٦٣؛ LeStrange : Ency. de l'Isl, (art Balkh) tI, p. 635 - 637. ;Lands, p.420 - 432.

(٣) عنها انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٧ .

(٤) الطبرى (Annales) ١ : ٨٧٣ ؛ انظر . Nöldeke : Geschichte der Perser und Araber, p. 119. التاريخ السياسي ، ١ ص ١٩١ وهامش (٨) .

(٥) انظر . Ency. tI, p. 635 ; Well : Arab, p. 430 .

(٦) الكامل ، ٤ ص ١٠١٤ ص ١٧ .

(٧) معجم البلدان ، ٣ ص ٤٠٠ــ٤٠١ ؛ ٨ ص ٤٠٤ ؛ انظر . Le Strange : Lands, p. 438 suiv.

نهر أخش أحد أفرع جيحون ؛ لعلها كانت تابعة للصين[١] . ومملكة صغانيان[٢] : إقليم عظيم من ماوراء النهر تجرى إليه عدة أفرع من جيحون ، وأهم مدنها شومان ، التى قد تكون مستقلة عنها[٣] ؛ كما وجدت مدينة أخرى بجوارها من الشرق اسمها أخرون أو أجرون لايذكرها الجغرافيون[٤] ؛ وقد كان لقب ملك صغانيان هو : صغان خذاه[٥] .

ممالك فى وسط ماوراء النهر ، بخاصة مملكة الصغد ويقال السغد ، وهى بلاد عريضة تمتد من جيحون إلى سيحون تحيط بنهر الصغد المسمى أيضاً زرفشان داخل بلاد ما وراء النهر ، عمارة من قرى ومدن متصلة ؛ بحيث اعتبرها العرب من جنان الأرض وأكثرها عمارة ، وفضلت على غوطة دمشق[٦] . ويبدو أن هذه المملكة اختصت بشخصية معينة منذ القدم ؛ فقد كانت لها حضارة متميزة يانعة ، استمرت عدة قرون فى وسط آسيا ، وهى عرفت لليونان باسم : « Sogdiana » ؛ كما أن البيرونى يذكر أن أهلها مجوس لهم شهور وتقويم مثل الذى عرف عند الفرس[٧] . وقد كانت

---

(١) انظر : Chavannes ؛ Documents sur les Turcs occidentaux; St-Pétersbourg, 1903, p. 168 ; 21 ؛ Ency. de l'Isl, (art Khuttal) t 2, p. 1041.

؛ شعيرة ، ممالك ما وراء النهر ، ص ٧ — ٨ .

(٢) معجم البلدان ، ٥ ص ٣٦١ — ٣٦٢ ؛ صبح ، ٤ ص ٤٣٨ — ٩ ؛ شعيرة ، ممالك ، ص ٨ — ٩ . وتسمى أيضاً جغانيان . عنها ، انظر . معجم ، ٣ ص ١١٢ . انظر : Le Strange: Lands, p. 440 ؛ Ency. de l'Isl, (art Caghâniyân) t1, p. 831.

(٣) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٣١٠ . يقول ابن الأثير إنها من طخارستان . الكامل ، ٤ ص ١٠٥ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ١٠٥ ؛ ١٨٦ وهامش . لم يذكرها الجغرافيون ؛ وهى تذكر دائماً مع شومان .

(٥) نفسه ، ٤ ص ٢٢٦ س ٢٥ .

(٦) معجم البلدان ، ٤ ص ٧٤ ؛ ٥ ص ٣٦٢ — ٣٦٤ ؛ صبح ، ٤ ص ٤٣٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Soghd) t4, p. 493—4.

(٧) البيرونى ، الآثار الباقية عن القرون الخالية ، تحقيق Sachau ، طبعة Leipzig ، ١٨٧٨ ، ص ٤٥ — ٤٧ ؛ ٢٣٣ فما بعدها . يقول Kratchkovsky ان العرب هم الذين قضوا على حضارتها ؛ ولدينا عدة مخطوطات منها . انظر Avec Les Manusc, trad,Canard, p. 173—4.

الصغد تتكون من وحدات سياسية مستقلة قبل الإسلام ، أهمها : سَمَرْقَنْد وهى قصبة الصغد، حيث يروى المؤرخون أنه قد يكون بناها الإسكندر الأكبر ، فهى : « Marakanda » القديمة ، أو أن ملك اليمن غزاها(١) ، وإن سيطر عليها قبل الغزو العربى طرخون ، التى ربما يكون من الترك(٢) . وبخارى مدينة قديمة أيضاً(٣) ، من أشهر مدن الصغد؛ بحيث قيل الصغد صغدان، صغد سمرقند وصغد بخارى(٤) (بخارا)؛ وكان ملكها قبل الغزو يتلقب : خذاه أو بخارا خذاه ، ويسك العملة(٥) . ومدن أخرى أصغر ، مثل : كَشّ(٦) ، وكانت تتبع ملك سمرقنـد(٧) ، ونَسَف أو نَخْشَب وهى مدينة كبرى بين بخارى وسمرقند ، وبها حصن عتيق : «قُهَنْدز» أو «قُنْدُز(٨)» ، مما يدل على استقلالها ، وبيكَنْد وهى من مدن بخارى(٩) ، ومملكة فى أعلى النهر أو دلتاه ، تُعْرف باسم : خوارزم(١٠) ، وهى ناحية عامرة

---

(١) عنها، انظر . صبح ، ٤ ص ٤٣٥ فما بعدها ؛ معجم البلدان ، ٥ ص١٢١ فما بعدها ؛ انظر
Ency. de l'Isl, (art Samar- ;Lands, p.460;463.suiv: Le Strange-kand) t4, p. 134 sqq.

(٢) الكامل ، ٤ ص ٩٨ س ٢ ؛ البيرونى ، الآثار ، ص ١٠١ .

(٣) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٨١ فما بعدها ؛ Le Strange :
Ency. de l'Isl, (art Bukhara) tl, p. 795 sqq; Lands, p. 460-461

(٤) الكامل ، ٥ ص ٣٦٢ .

(٥) نفسه ، ٤ ص ١١٠ ؛ البيرونى، آثار، ص٢٠١، ص١٥ ؛ انظر. شعيرة، ممالك، ص١٠ .

(٦) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٥٤ ؛ انظر Le Strange. :
Ency. de l'Isl, (art Kash) t2, p. 833-4. : Lands, p. 469. sqq .

(٧) الكامل ٤ ص ٩٨ س ٧ ؛ انظر . شعيرة ، ممالك ، ص ١٩ .

(٨) صبح، ٤ ص ٤٣٥ ؛ معجم البلدان ، ٨ ص٢٨٦ — ٢٨٧ . عن كلمة قهندز ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ١٩١ — ١٩٢ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Nakhshab) t3, p. 898.

(٩) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٣٣٩ ـ ٣٤٠ .

(١٠) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٤٧٤ فما بعدها ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Khwârizm) t2, p. 961 sqq..

استقلت منذ أن غزاها الإسكندر، عاصمتها القديمة فيل أوفير، ثم نقلت إلى كُرْكانج، التي عرفت للعرب بالجُرْجانية[١] : وهي بلاد أغلب سكانها من الفرس المجوس وبعض النصارى[٢]، ولهم خط متميز يعرف بالخط الخوارزمي[٣] ؛ وفي بعض أطرافها يسكنها قوم من الترك[٤] . وقد حكمتها أسرة قديمة من نسل الأكاسرة الفرس، استمرت وقتاً طويلاً إلى زمن الغزو العربي[٥] ، وكان ملوكها يتلقبون :بالشاه[٦]. ويبدو أن هذه المملكة كانت في حرب مستمرة مع الترك المجاورين لهم[٧] ؛ كما أنها كانت قد خضعت قديماً إما للفرس أو الصغد[٨] .

ممالك أخرى سيحونية على ضفاف نهر سيحون، منها: مملكة فَرْغانة[٩]، وهي إقليم جبلي واسع، تقع في أعالي سيحون وعلى ضفتيه ؛ وأهم مدنها : أُخْسِيكَث عاصمتها القديمة[١٠]، ثم كاشان التي كان يقيم بها ملوكها[١١] ؛ كما أن خُجَنْدَة اعتبرت

---

(١) عن هذه البلاد ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٤١٤ ؛ ٧ ص ٢٣٩ ؛ ٣ ص ٤٧٦ ؛ ١٨٧ ؛ ٤٧٧ .

(٢) البيروني ، الآثار الباقية ، ص ٢٨٨ .

(٣) نفسه ، ص ٣٦ .

(٤) معجم البلدان ، ٣ ص ٤٧٧ س ٢ — ٣ .

(٥) البيروني ، الآثار الباقية ، ص ٣٥ .

(٦) نفسه ، ص ٣٦ ؛ ١٠٢ .

(٧) معجم البلدان ، ٣ ص ٤٧٦ .

(٨) انظر - Ency, t2, p. 961

(٩) معجم البلدان ، ٦ ص ٣٦٤ ؛ صبح ، ٤ ص ٤٣٣ — ٤٣٤ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Farghâna) t2,p. 66 sqq

(١٠) معجم البلدان ، ١ ص ١٥٠

(١١) الكامل ، ٤ ص ١٣١ س ٤ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٠٧ لا يذكر ياقوت إنها العاصمة ؛ كما أن ابن الأثير يقول إنها مدينة فرغانة .

من جلتها ومتاخمة لها (١) ، وكان الفرس يسيطرون عليها ، فينسب إلى الملك أنو شروان بناء أخسيكث ، ولكن الترك الخرلخية سيطروا على دهاقينها ، وكان ملوكها منهم يلقبون : بالإخشيد (٢) . ولعل فرغانة قبل الغزو العربى أصبحت من امبراطورية دولة الصين ؛ وإن بقى الترك يحكمون فى كاشان . ومملكة أشروسنة تقع شرق فرغانة (٣) ، ولا نعرف عن تاريخها شيئاً إلا أنها فى طريق فرغانة ؛ وأن الهياطلة غزتها ، وملوكها يلقبون : بأفشين (٤) . وأخيراً مملكة الشاش التى تقع وراء سيحون شمالى أشروسنة ، يخترقها نهر عرف باسمها (٥) ؛ وهى إقليم سهلى متاخم لبلاد الترك ، قصبتها بنسكث (٦) . وعلى العكس يقول البلاذرى إن قاعدتها الطاربند (٧) ، التى لا نجد لها ذكراً فى الكتب الجغرافية ؛ وكان يحكم الشاش الترك أو الصينيون قبل الفتح العربى (٨) ؛ وملكها لقبه : « تدن » ، الذى ذكره البيرونى (٩) .

وقد كان على العرب إذا أرادوا أن يتوسعوا فى هذه البلاد أن يعملوا ألف حساب لجيرانها الأقوياء ، الذين كانوا يتنافسون فى السيطرة عليها ، فمن وراء هذه

---

(١) عنها انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٤٠٢ — ٤٣٠ ؛ صبح ، ٤ ص ٤٣٧ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٣١ ؛ البيرونى ، الآثار ، ص ١٠٢ . عن الخرلخية ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٣٧٢ .

(٣) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٢٥٦ — ٢٥٧ ؛ صبح ، ٤ ص ٤٣٣ ؛

(٤) البيرونى ، آثار ، ص ١٠١ ؛ انظر .

Ency. de l'Isl, (art Afshîn) tI, p. 181—182.

(٥) نفسه ، ٥ ص ٢١٢ فما بعدها .

(٦) عنها ، انظر . نفسه ، ٢ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٧) فتوح البلدان ، ص ٤٢١ . يقول ياقوت الطرار بند . معجم ، ٣ ص ٤٠٨ .

(٨) انظر Chavannes : Documents, p. 297 ؛ انظر .

Ency. de l'Isl, (art Tashkent) t4, p. 722 sqq

(٩) الآثار ، ص ١٠١ .

البلاد وحوالها من مشارق خراسان من مملكة الإسلام إلى غرب الصين وشمال الهند ، كان يوجد الترك أو الأتراك[(١)] ؛ وهى كلمة تعنى الأقوياء ، أو كما وردت فى كتابات أورخون القديمة قد تعنى شعباً[(٢)] . ويبدو أن الترك من أصل مغولى أومن الهياطلة على الخصوص[(٣)] ، ظهروا فجأة حوالى القرن السادس الميلادى ، وكونوا امبراطورية بدوية واسعة ؛ بسبب ضعف العناصر المسيطرة عليهم من الشعوب المغولية الأخرى ، أو الصينيين . وقد امتدت امبراطوريتهم من حدود الصين إلى البحر الأسود ، وعرفت بالتُرْكستان ، أى ناحية بلاد الترك[(٤)] ؛ ولعلها أنشئت حوالى ٥٧٦م ، على يد شخص يسميه العرب سنجابو خاقان[(٥)] . بل بعض العلماء الذين يعتمدون على دراسة اللغات المقارنة يرجعون أصل بعض الهجرات فى الشرق قبل الميلاد ، مثل : السوميريين والحيثيين إلى أصل تركى ؛ وإن كان يجب أخذ هذا الرأى بحذر شديد[(٦)] . ولما أصبح الترك سادة كانوا يهاجمون شمال الصين ؛ كما كان يفعل غيرهم من القبائل المغولية[(٧)] .

ولكن هــــذه الامبراطورية سرعان ما انقسمت إلى قسمين حوالى عام ٥٨١ م ، أحدهما غربى فى وسط آسيا ، والآخر شرقى بجوار الصين

---

(١) ابن ساعد ، ص ٨ ؛ صبح الأعشى ، ٤ ص ٤٣٩ ؛ انظر .
Ency. de l' Isl, (art Turks) t4,p. 947 sqq·

(٢) انظر . Barthold : Op. cit, p.25
كتابات أورخون — على اسم نهر — عثر عليها فى عام ١٨٨٩ ، تحمل كتابة تركية قديمة منذ سنة ٧٣١ و ٨٣٥ م ، وهى أقدم وثائق اللغة التركية . انظر .
حسين مجيب المصرى ، تاريخ الأدب التركى ، القاهرة ١٩٥١ ص ٢٣ ، انظر .Barthold:
Op. cit, p. 6-7·

(٣) حسين مجيب المصرى ، ص ١٩ ؛ انظر .
Op. cit, p.18. : Barthold.

(٤) صبح الأعشى ، ٤ ص ٤٣٩ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧٨ فما بعدها ؛ انظر
Ency t 1, p.805. : Docu,p.233-334 : Chavannes

(٥) الطبرى (Annales) ١ : ٨٩٥ — ٨٩٦ ؛ أنظر . Ency. t4, p.947

(٦) حسين مجيب المصرى ، ص ٢٠ — ٢١ .

(٧) انظر. René Grousset : Histoire de la Chine. Paris, 1947,150.

فى منغولية(١) ، وكان الصينيون يعملون على تقوية العداء بينهما ؛ للاحتفاظ بنفوذهم والحد من خطرهم . بل يبدو أنهم أخضعوا قسماً كبيراً منهم بخاصة الترك الشرقيين ، كما تذكر كتابات أورخون ؛ بحيث وصل نفوذهم عند الفتح العربى إلى وسط آسيا(٢) . ولكن الترك الغربيين بقوا متمتعين بسيادتهم بعيداً عن نفوذ الصينيين ؛ كما أنهم على يد ملك يسميه العرب توج كانوا يحاربون الإيرانيين فى بلاد ما وراء النهر ؛ بحيث يقول ياقوت : إن بلاد الترك سميت باسمه : « تُورَان »(٣) . ولقد أصبح النزاع بين الفرس والترك فى هذه البلاد تقليدياً ؛ فورد ذكر كثير منه فى شهنامة الفردوسى(٤) . ولكن انشغال الفرس بحروبهم مع البيزنطيين ؛ منعهم من الالتفات إلى تُرك بلاد ما وراء النهر ؛ مما سهل إقامتهم .

وقد كان الترك يعيشون فى قبائل عديدة أورد مؤرخو العرب أسماءها الكثيرة ، مثل : التغُزغز والخزلج والكيماك والغزّ وخرخيز والطخطاخ والبجناك(٥) . ولكننا لا نعرف كثيراً منها ؛ إلا أن لغتها ترجع إلى أصل واحد(٦) ، وأن بعضهم كان يعيش فى الشرق قرب سور الصين ، والبعض فى الغرب فى وسط آسيا . وبسبب طبيعة بلاد الترك الصحراوية الجبلية ، كان أغلبهم من الرعاة الذين يتبعون الكلأ ، وينزلون الخيام(٧) ؛ كما أن منهم من كان يضطر إلى بيع ذكور أولاده وإناثه

---

(١) انظر . Ency. t4, p.947. ;Ibid, p.143

(٢) الكامل ، ٤ س ١٣٥ ؛ معجم البلدان ، ٥ ص ٤١٤ س ٥ ؛ انظر . ; Barthold, p.7. ; Op.cit, p.156. : René Grousset
حسين مجيب المصرى ، ص ٢١ — ٢٤ .

(٣) معجم البلدان ، ٢ ص ٤٢٨ . اختلف فى أصل هذه التسمية ، وحدود هذه البلاد. انظر . Ency. de l'Isl, (art Tûrân) t4, p. 924 sqq. يقول القلقشندى إنها مملكة الترك القديمة . صبح ، ٤ ص ٤٤٥ .

(٤) حسين مجيب المصرى ، ص ٢٣ .

(٥) معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧٨ س ١٧ — ١٨ ؛ ٥ ص ٤٠٩ فما بعدها . انظر . سعد زغلول ، الترك والمجتمعات التركية ، مجلة كلية الآداب بالاسكندرية ، ١٩٥٦ ص ٥٩ فما بعدها .

(٦) الاصطخرى ، مسالك ، ص ٩ .

(٧) معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧٩ س ٩ .

ليميش[١] . وقد كان يسيطر على جميع الترك بما فيهم ترك ما وراء النهر ، ملك يسمى : الخاقان ، أى ملك الترك[٢] . ونحن لا نعرف أين توجد مملكته وحدودها ؛ خصوصاً وأن الصينيين كما ذكرنا كانوا يسيطرون فى بلاد ما وراء النهر . وتذكر كتابات أورخون القديمة أن خاقان لقب خاص بالترك المجاورين للصينيين[٣] ؛ ويقول ياقوت إن بلاد خاقان هى بلاد التغزغز[٤] ، التى حدها الصين . وعلى كل حال فإن خاقان كان يعيش فى قصر عظيم فى مدينة حصينة ، حولها قرى وأقسام إدارية « رساتيق » ، وقد كان له شعار عبارة عن علم تزينه تسع خصلات من شعر ذنب الخيل[٥] ؛ كذلك كان لمملكته قانون ينظمها يعرف باسم : « ياسة »[٦] ، وله البريد[٧] .

أما ديانة الترك وهى المعروفة بالسمنية ، فقد كانت ساذجة ؛ هى عبادة إله السماء الذى أطلقوا عليه : « تنكرى » ، وكان للأرض والماء عندهم آلهة أيضاً[٨] ؛ كما كانوا يعبدون بعض الكواكب كزحل والزهرة . وقد كانت لهم بيوت عبادة ، ويتوجهون فى صلاتهم إلى مغرب الشمس[٩] . ويبدو أنه بعد امتداد الترك فى وسط آسيا ، انتشرت بينهم عدة ديانات مجاورة ، مثل : المجوسية والمانية ؛ فقد وجد عندهم عبدة

---

(١) نفسه ، ٢ ص ٣٧٩ س ١٢ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٢٦ س ١٧ . يقال أيضا القاآن أو القاغان . انظر . حسين مجيب المصرى ، ص ٢٨ وهامش (٣) . أو حتى ملك الترك . معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧٨ س ٢٠ — ٢١ .

(٣) حسين مجيب المصرى ، ص ٢٣ — ٢٤ ؛ انظر . Barthold, p. 7

(٤) معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧٩ — ٣٨٠ .

(٥) حسين مجيب المصرى ، ص ٢٨—٢٩ ،

(٦) الخطط ، ٣ ص ٣٥٧ .

(٧) معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧٩ س ١٥ .

(٨) انظر . مروج ، ١ ص ٨٢ ؛ Barthold, p. 12 sqq. ؛ حسين مجيب المصرى ، ص ٣١ .

(٩) معجم البلدان ، ٥ ص ٤١١ س ٧ .

النار(١) ، والبوذية التي كانت انتشرت في الهند(٢) ؛ وكانت غايتها الاندماج في الإله . كذلك وجدت بعض قبائل تركية تعظم الخيل ؛ كما كانت لبعض قبائلهم تقاليد ، منها عبادة من تجاوز ثمانين عاماً ، على ألا يكون به عاهة أو عيب ظاهر(٣). وكانوا يطلقون على الجهات الأصلية أسماء الألوان : فالشمال أسود والجنوب أحمر والشرق أزرق والغرب أبيض ، وهي التي بقيت إلى يومنا لتمييز البحار(٤) .

كذلك كانت الصين أو الصين الأقصى(٥) دولة كبرى في آسيا ؛ عبارة عن بلاد شاسعة ظهرت فيها منذ قديم الزمان حضارة متميزة ؛ بسبب خصب تربتها ؛ فكما أن مصر هبة النيل فإن الصين هبة النهر الأصفر(٦) . ومن الجائز أنها سكنت بأهلها في الوقت نفسه الذي سكنت فيه أمريكا عناصر الهنود الحمر . وقد عرفت الصين أسراً متعددة كانت تحكمها منذ القدم : مثل شانغ حوالى القرن الخامس عشر قبل الميلاد ، وإينغ في القرن الحادي عشر ق . م(٧) . ولكن في القرن السابع قبل الميلاد انقسمت الصين إلى قطائع نتيجة لضعف السلطة المركزية ، ولوجود قبائل الهون المغولية (الهياطلة)(٨) ، التي يسميها الصينيون الهيونغ — نو ، وكانت تحوم حولها . وقد عادت وحدة الصين على يد ملك اسمه تسن — شي — وانق في ٢٢١ ق . م ، الذي اتخذ لقب هوانغ — تي ،

(١) نفسه ، ٢ ص ٣٧٩ س ١٩ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٢٧ س ١٤ .
(٢) انظر . Barthold, p. 34 ؛ انظر . بعده .
(٣) معجم البلدان ، ٥ ص ٤١١
(٤) حسن نجيب المصري ، ص ٣٠ وهامش(٣).
(٥) معجم البلدان ، ٥ ص ٤٠٨ س ١٦ ؛ عنها ، انظر .
Ency. de l'Isl, (art Chine) tI, p. 860 sqq.
(٦) انظر . René Grausset. : Op. cit., p. 7.
(٧) انظر . Ibid, p. 16 ; 17 ؛ بدر الدين الصيني ، ص ٣ .
(٨) انظر . René Grousset : Op cit, p. 28

أى امبراطور ؛ ويرجع إليه الفضل فى القضاء على خطر الهون بتشييد سور الصين العظيم ، وإجبارهم على الرحيل ناحية الغرب[1] . وبعده تسلمت الحكم أسرة الهان ، التى استمرت من ٢٠٢ ق . م إلى ٢٢٠ ب . م ؛ فهذه الأسرة قامت بحركة توسع عظيمة امتدت من منشورية ومنغولية إلى وسط آسيا[2] ؛ ووصلت إلى ما وراء النهر المتاخم للفرس[3] .

ويبدو أن هذا التوسع كان على الرغم من تحريم دين الأجداد الذى نادى به كونفوشيوس حكيم الصين الأكبر (٥٥١ — ٤٧٩ق.م) فى كتابه: لى كنغ[4] ؛ ذلك لأن هذا الدين كان لا يؤمن إلا بالقيم الإنسانية والأخلاقية ، التى تتمثل فى الاعتقاد بقوى الطبيعة : « الين واليانغ » ، وهما علآن كل شىء فى الوجود ورباطهما يتمثل فى القوة المسماة : « تاو » ؛ فهو فى جملته دين يشبه دين سقراط يدعو إلى احترام النفس ، ولا يستجيز الاضطهاد[5] . ولكن من ناحية أخرى تسبب هذا التوسع فى إدخال الديانة البوذية الهندية فى الصين فى القرن الأول الميلادى ، التى أسسها فى الهند ساكيمونى (٥٦٣ — ٤٨٣ ق . م) . وهذه الديانة شجعها ملوك أسرة الهان الذين كانوا يريدون التوسع[6] .

وقد كان فساد هذه الأسرة والتطاحن بسبب هذا الدين الأجنبى ، مما أعاد قبائل الهون المغولية إلى الهجوم فى شمال الصين ، بحيث تمكنت فى سنة ٣٨٦ م من تكوين

---

(١) انظر . Ibid, p. 52-55 ؛ بدر الدين ، ص ٥ .

(٢) انظر . Ibid, p.62 sqq ؛ بدر الدين ص ٥ — ٦ .

(٣) انظر . René Grousset : Op. cit, p. 91.

(٤) انظر . Saurat : Hist. des Rel, p. 362, sqq.

(٥) انظر . René Grousset : Op. cit, p.34-36

(٦) بدر الدين الصينى ، ص ٦ — ٧ .

دولة(١) ؛ بينما انتقلت الأسرة الوطنية إلى الجنوب . ولكن ظهور الخطر التركى فجأة حول حدود الصين ، كان سبباً فى عودة الصين إلى وحدتها على يد أسرة تانغ فى سنة ٦١٨ م (٦١٨ — ٩٠٧ م)(٢) . والواقع أن أسرة تانغ قامت بالتوسع كما فعلت أسرة الهان ، فهاجمت الترك وتغلبت عليهم ، وجعلت سائر بلادهم تخضع لهم ، كما سيطرت على بلاد التُبَّت وهى مملكة بين الترك والصين يذكر العرب أن الحيريين كانوا قد غزوها(٣) ؛ ووصل فتح تانغ إلى منطقة ما وراء النهر التى عدت من مملكة الصين(٤) . ولكن قبل الإسلام انفصل التبت وخرج معظم ترك وسط آسيا عن سيطرة الصين(٥) ، وإن بقيت بعض قبائل الترك الشرقيين حتى منطقة ما وراء النهر تسمع لملك الصين(٦) ، واعتبرت كاشغر الواقعة فى وسط بلاد الترك ؛ أدنى مدائن الصين(٧) .

ونحن نعرف أن العرب منذ استقرارهم فى خراسان كانوا قد قرعوا أبواب بلاد ما وراء النهر " وطمعوا فيها لكثرة خيراتها ، التى يصفونها فى كتبهم الجغرافية(٨) . ومع ذلك لا نظن أنه كان هناك خطة لغزوها فى عهد الخلفاء

---

(١) انظر . Chavannes : Documents, p.155. note (5) ؛ انظر . Gaud-Plat : Op. cit., p.2. ؛ René Grousset : Op. cit., p. 116 sqq.

(٢) انظر . بدر الدين ، ص ٧ ؛ René Grousset : Op. cit, p. 148.

(٣) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٢ س ٣٥٨ فما بعدها .

(٤) الاصطخرى ، مسالك ، ص ٤ .

(٥) انظر . René Grousset : Op. cit., p. 139 sqq.

(٦) معجم البلدان ، ٥ س ٤٠٩ .

(٧) الكامل ، ٤ س ١٣٥ (آخر الصفحة) . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Kashghar), t2, p.835 sqq

(٨) معجم البلدان ، ٧ س ٣٢٠ فما بعدها .

الأوائل ، ذلك لأن خراسان نفسها كانت ملتاثة إلى أن قتل يزد جرد فى عهد عثمان عام ٣١/٦٥١[1]، ثم بعد ذلك اضطربت طاعتها بعد وقوع الفتنة الأولى[2]، وأن الترك انتهزوا هذه الفتنة لمهاجمة خراسان[3] .

ولما استقرت الأمور فى عهد معاوية نجد أن العرب بدأوا يستطلعونها عن طريق إرسال السرايا والبعوث ؛ كما فعلوا فى معظم فتوحاتهم . ولكى يمهدوا لغزوها اتخذوا مَرْو قاعدة للغزو ، فى خراسان المقابلة لبلاد ما وراء النهر ، وهى التى كانت تعرف أيضا بمَرْو الشاهجان أو مرو العظمى[4] ؛ بحيث كانت أشبه بالثغر ؛ فأنزلوها جنودهم منذ سنة ٤٥/٦٦٥[5] . وكان أول من عبر النهر عبيد الله بن زياد فى سنة ٥٤/٦٧٤[6] ، ومن بعده سعيد بن عثمان فى سنة ٥٥ / ٦٧٥[7] ؛ وفى عهد يزيد عبره سلم بن زياد ومعه المهلب بن أبى صفرة فى سنة ٦١ / ٦٨٠[8] .

ولكن قامت الفتنة الثانية ، فتوقفت الحملات إلى أن انتهت فعادت ؛ ولذا كان غزوها لا يبدو منتظماً : ففى سنة ٧٧ / ٦٩٦ ، عبر النهر أمية بن عبد الله

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٩٥ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٤٥ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٣٩٩ ؛ انظر . شعيرة ، ممالك ما وراء النهر ، ص ٢ — ٣ .

(٣) الطبرى (طبعة مصر) ٤ ص ٤٢٤ .

(٤) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ٣٣ فما بعدها ؛ ٣ ص ٤٠٧ فما بعدها ، توجد مدن أخرى باسم مرو فى خراسان نفسها ، مثل مرو الروذ وهى على النهر ، إذ الروذ بالفارسية النهر .

(٥) فتوح البلدان ، ص ٤٠٩ .

(٦) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٨١ ؛ الذهبى ؛ تاريخ الدول ، ١ ص ٢٢ . يقول ياقوت تولاها ابن زياد أو أخوه عبد الرحمن . انظر . معجم ، ٢ ص ٨٤ .

(٧) اليعقوبى ، ٢ ص ٢٨٢ . يقول ياقوت قد يكون سعيد أول من قطع النهر . انظر . معجم ، ٢ ص ٨٥ ؛ ٥ ص ١٢٣ .

(٨) الكامل ، ٣ ص ٣٠٤ ؛ انظر . فيصل ، حركة الفتح الإسلامى ، ص ١٦٤ .

ابن خالد عامل خراسان ، وكاد أن يهلك لأنه لم يكن رجل جهاد ، بل كان رجلاً فيه زهو شديد ، فكان يقول : « ما تكفيني خراسان لمطبخي[1] » . ولما أصبحت خراسان ضمن عمل الحجاج غزاها عماله من قبله ؛ فغزاها عدة مرات المهلب ابن أبي صفرة ، الذي وليها بعد عزل أمية في سنة ٧٨ / ٦٩٧ . وقد كان المهلب على نقيض أمية ، يحارب هو وأبناؤه للجهاد لا للغارة[2] ، حتى أنه فقئت عينه في أثناء حربه في هذه البلاد[3] ؛ كما أنه كان يجني من حملاته فيها غنيمة هائلة ؛ ضرب الشعراء بها المثل[4] . وعلى عكس المهلب لما تولى ابنه يزيد عمل خراسان بعده كانت غاراته محدودة ، لوقوع فتنة ابن الأشعث ، وربما كان عزل الحجاج له بسبب رفضه غزو خوارزم[5] ؛ وإن عزله أيضاً خوفاً منه ؛ فاستدرجه من عمله وحبسه ، وإن هرب يزيد بعد ذلك إلى الشام .

وعلى العكس وجدنا في ذلك الوقت بعض العصاة العرب ، ممن هربوا إلى هذه البلاد مع شخص اسمه موسى بن عبد الله بن خازم ، خوفاً من أعدائهم من قبيلة بني تميم بخراسان ؛ حيث كان أبوه عبد الله قتل كثيراً منهم أثناء إمارته فيها فقتلهم أحد أبنائه في سنة ٦٦ / ٦٨٥[6] ، فالتجأ موسى إلى بلاد ما وراء النهر واستولى على ترمذ من أهم مدائن صغانيان على نهر جيحون[7] ؛

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٧٠ ـ ٧١ .

(٢) نفسه ٤ ص ٧٣ ـ ٧٤ ؛ فتوح البلدان ، ص ٤١٧ . لدينا تاريخ آخر لتوليه في سنة ٧٨/٦٩٧ : انظر . الذهبي ، دول الإسلام ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .

(٣) وفيات ، ٢ ص ٢٧٥ .

(٤) قال الشاعر :

ألا ذهب الغزو المقرب للغنى ومات الندى والجود بعد المهلب

نفس المرجع السابق ، ٢ ص ٢١٦ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ٩٧ س ٧ ـ ٨ .

(٦) نفسه ، ٣ ص ٣٧٦ ـ ٣٧٧ .

(٧) نفسه ، ٤ ص ٩٧ فما بعدها . عن ترمذ ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٢٦٢ فما بعدها .

كما أنه انضم إليه بعض ممن كانوا مع ابن الأشعث بعد قتله[1] ؛ فكان يقوم بغارات مستمرة فى هذه البلاد . ولم يكن عمال خراسان يتعرضون لموسى ، واعتبروه حلوصاً لعملهم ؛ ولكن لما عزل الحجاج يزيد وتولى أخوه المفضل ؛ فإنه أراد أن يحظى عند الحجاج بقتال موسى ؛ فقتله فى سنة ٨٥ /٧٠٤[2] .

ولكن سياسة فتح بلاد ما وراء النهر لم تنتظم إلا فى عهد الوليد بن عبد الملك. فقد أرسل الحجاج بدل المفضل بن المهلب قتيبة بن مسلم[3] ، وهو عربى من قبيلة باهلة ؛ كان أبوه كبير القدر عند يزيد ، حتى وصفه أحد الشعراء للمبالغة بأنه جدير بالخلافة إذا ما خرجت عن قريش[4] . أما قتيبة نفسه فوصف بأنه شهم مقدام ؛ وكان أول ما فعله حين وصوله إلى عمله بخراسان ، أن عرض الجند وخطبهم حاثاً على الجهاد[5] .

فنجد قتيبة يغزو فى بلاد ما وراء النهر كل عام تقريباً إلى وقت وفاة الوليد ؛ وإن اختلف فى سنة توليته خراسان، فقيل فى سنة ٨٦/٧٠٥ أو ٩٠/٧٠٨ — ٧٠٩[6] . كذلك يقول ياقوت إنه بدأ أولى غزواته فى سنة ٨٧ / ٧٠٦ ، ثم غزاها عدة غزوات

---

(١) الطبرى (Annales) ٢ : ١١٤٨ — ١١٥٠ ؛ انظر .
al-Hadj, p.219 : Périer.

(٢) الكامل ، ٤ ص ٩٧ فما بعدها .

(٣) وفيات ، ١ ص ٦٠٩—٦١٢ ؛ المعارف ، ص ٢٠٧ — ٢٠٨ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Kutaiba B. Muslim) t 2, p. 1232.
ولد فى سنة ٤٩/٦٦٩ — ٦٧٠ .

(٤) قال الشاعر عنه :

إذا ما قريش خلا ملكها فإن الخلافة فى باهلة

انظر . المعارف ، ص ٢٠٧ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ١٠٥ .

(٦) وفيات ، ١ ص ٦١٠ . أو حتى فى سنة ٨٥/٧٠٤ . الكامل ، ٤ ص ١٠٥ .

فى سنين سبع[1] . وفى الواقع إن تواريخ غزوات قتيبة واتجاهاتها غير دقيقة فى الكتب التى بأيدينا ؛ وإن يبدو أنه اتخذ مرو كثغر للغزو ؛ فكان إذا غزاها عاد إليها فى الشتاء .

وكان أول غزواته فى مملكة صغانيان العظيمة ؛ التى أسرع ملكها بتقديم الهدايا ، ومفاتيح بلاده الذهبية ؛ فتم فتحها فى سنة ٧٠٥/٨٦[2] . كذلك صالح ملكى شومان وآخرون — بنفس الإقليم — وترك فيهما عماله ؛ ولكن ملك شومان ثار عليه فيما بعد وطرد عامله فى سنة ٧١٠/٩١ ، فوضع قتيبة المجانيق أمام حصن شومان ، وقاتله ملكها إلى أن قتل[3] . ويبدو أن فتح ممالك هذا الإقليم سهله النزاع بين صغانيان من ناحية وشومان وآخرون من ناحية أخرى[4] .

بعد ذلك وجه قتيبة غزواته على الخصوص نحو الصغد ، وكان يكثر بها الفرس ، ويحكمها عدة ملوك ؛ وقد استمر يغزوها عدة سنوات متوالية . وكان أول ما فتح منها بيكند فى سنة ٧٠٦/٨٧[5] ، وذلك بعد قتال شديد ، حوصر فيه قتيبة وقطعت خطوطه ، وضيق عليه الخناق مدة شهرين ، حتى أن الحجاج خاف على المسلمين ، وأمر الناس بالدعاء لهم فى المساجد . كذلك قاومته بخارى ، التى كان العرب قد هاجموها من قبل عدة مرات[6] ، وبخاصة على يد ابن زياد الذى حاربه ملكتها الخاتون بعد وفاة زوجها ؛ ولما لم يستطع قتيبة فتحها ، طلب منه الحجاج أن يصورها له ؛ فبعث إليه بصورتها ؛ فكتب إليه أنها من مكان كذا وكذا ؛ ففتحها فى سنة ١٠٨/٨٩ أو ٧٠٩/٩٠[7] . وقد كان ملكها وقتئذ غلاماً حدثاً

(١) معجم البلدان ، ٥ ص ١٤٣ .
(٢) الكامل ، ٤ ص ١٠٥ .
(٣) نفسه ، ٤ ص ١١٨ .
(٤) نفسه ، ٤ ص ١٠٥ .
(٥) نفسه ، ٤ ص ١٠٧ — ١٠٨ .
(٦) انظر . نفسه ، ٣ ص ٢٤٧ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٨٢ ، النرشخى ، تاريخ بخارا ، تحقيق Schefer ؛ ص ٧ ؛ انظر . Ency. I, p. 796
(٧) الكامل ، ٤ ص ١١٠ ؛ ١١٣ — ١١٤ .

وهو ابن الخاتون ، فقتل قتيبة من يضاده . ثم فتح كش ونسف فى عام ٩١ / ٧٠٩ ، وهما من مدن الصغد الصغيرة ، وصالح فى هذا العام سمرقند عاصمة الصغد[١] ، التى يقيم بها طرخون التركى . ولكنه لم يلبث أن أعاد توجيه الحملات نحو سمرقند لعله بسبب اضطراب أحوالها الداخلية بقتل طرخون لنفسه ، لما رفض أهلها حكمه[٢] ؛ أو لأنها نقضت العهد[٣] . فكتب أهلها إلى جميع ملوك ما وراء النهر وإلى خاقان الترك يطلبون المدد ؛ وقالوا لهم : إن العرب إن ظفروا بنا أتوكم بمثل ما أتونا به . ولكن قتيبة صمم على فتحها ، فنصب أمامها المجانيق ، واستطاع أن يدخل من ثلمة فى سورها ؛ حتى هرب معظم أهلها ؛ فلما دخلها أحرق أصنامها ، وبنى المسجد ، وذلك فى سنة ٩٣/٧١٢ . ولعل قتيبة دخلها بالحيلة أيضاً ؛ بأن هيأ صناديق وجعل لها أبواباً تغلق من داخل وتفتح ، وجعل فى كل صندوق رجلاً معه سيفه ، ثم أرسل إلى دهقان — الذى يبدو أنه تولى بعد قتل طرخون — يعلمه برغبته فى مصالحته ، على أن يحفظ له عنده بعض الأموال والسلاح إلى أن يعود من غزوة بعيدة عنه ؛ فأجابه الدهقان إلى ذلك ، فأدخلت الصناديق إلى المدينة ؛ فلما جن الليل ؛ خرج الرجال حتى أتوا باب المدينة فقتلوا الحرس وفتحوا الباب ودخل قتيبة بالجيش[٤] .

وفى نفس الوقت كان قتيبة وعماله يحاربون فى طخارستان شرقى خراسان ، وكان ملكها جبغوية ضعيفاً ، ويخضع إما للترك أو الهياطلة المغول ؛ ممثلين فى شخص نيزك الذى يبدو أنه لقب مثل جبغوية ؛ وإن وصف بأنه عبد جبغوية[٥] ؛

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١١٨ .

(٢) نفسه ؛ انظر . Ency . t 4, p. 134

(٣) نفسه ، ٤ ص ١٢٦ — ١٢٧ ؛ انظر . شعيرة ، ممالك ماوراء النهر ، ص ١٩ ــ ٢١ .

(٤) الأخبار الطوال ، ٣١٤ ــ ٣١٥ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ١١٤ .

وأنه يملك لنفسه ناحية باذَ غِيش دار الهياطلة السابقة[١] . ومنذ أن جاء العرب خراسان ، ونيزك يعمل على المحافظة على استقلال بلاده : فأخرج المسلمين من بلخ أيام عثمان[٢] ؛ كما أن يزيد بن المهلب لم يتمكن من الاستيلاء إلا على قلعة من قلاعه قرب باذ غيش فى سنة ٨٤/٧٠٣[٣] . ولما تولى قتيبة عمل خراسان ، تردد نيزك فى مصالحته فى أول الأمر[٤] ، ثم صالحه على ألا يدخل أرضه ؛ ولكنه بعد ذلك قبل وجود عامل له ، وقاتل مع المسلمين أثناء غزو بخارى فى سنة ٩٠/٧٠٩[٥] ويبدو أنه خاف من فتوح المسلمين الناجحة ؛ فدبر فتنة بطخارستان : فحرض ملوكها وحكامها فى بلخ والطالقان وغيرهما ؛ كما أنه أخذ جبغوية وقيده بقيد من ذهب لئلا يخالف عليه . فسار قتيبة إلى طخارستان وصالح حكامها ، وتتبع نيزك إلى أن تمكن من قتله بالخديعة فى سنة ٩١/٧١٠ ؛ ثم أطلق سراح جبغوية الذى بعث به إلى الوليد[٦] .

وكذلك امتدت فتوحات قتيبة إلى دلتا نهر جيحون عند خُوارزم ؛ وهى البلاد التى رفض يزيد بن المهلب فتحها[٧] . ويبدو أن قتيبة ذهب إليها بناء على دعوة ملكها « الشاه » ، وكان أخوه قد ضاده ؛ فبعث إلى قتيبة بالمفاتيح والمال ؛ فوجه قتيبة إليه عدة جيوش قتلت أخاه ، وفك أسر الملك . ولكن

---

(١) نفسه ، ٤ ص ١٠٧ . عنها ، انظر . معجم ، ٢ ص ٣١ .

(٢) معجم البلدان ، ٣ ص ٤١٠ .

(٣) الكامل ، ٤ ص ٩٤ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ١٠٧ .

(٥) نفسه ، ص ١١٤ . لا يبدو أن عامله كان يعتمد على جيش . انظر . شعيرة ، ممالك ، ص ١٥ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ١١٦ ــ ١١٧ . عن هذه المدن ، انظر . قبله .

(٧) انظر . قبله .

أهل المملكة قالوا إنه ضعيف ووثبوا عليه وقتلوه ، فولى قتيبة أسجكموك أخاً ثالثاً للملك المقتول[1] ، وحفظ له لقب الشاهية وحده ، دون السلطان « الولاية[2] » ؛ كما أباد قتيبة بعض الترك النزّية الساكنين فى هذه الناحية ، ومزقهم شر ممزق . وربما كان فتحه لهذه البلاد فى نفس العام الذى استولى فيه على سمرقند ، وهو عام ٧١٢/٩٢[3] .

وامتدت فتوحاته أيضاً إلى الممالك السيحونية المتاخمة لبلاد الترك : فغزا الشاش بجيش من العراق أرسله الحجاج فى سنة ٧١٣/٩٥ — ٧١٤[4] ؛ وغزا فرغانة فى نفس العام ومعه للقتال عدد من أهل الصغد وخوارزم ؛ ففتح كاشان وخجنده ؛ كما أرسل جيشاً إلى كاشغر فى سنة ٧١٤/٩٦ ؛ وهى التى اعتبرت من أملاك الصين[5] . فلما قرب المسلمون من الصين ، أرسل ملكها إليه الهدايا ، وطلب منه أن يبعث إليه بوفد من قبله يعرفه بهم . ولعل قتيبة أرادالتوغل أكثر من ذلك ، لولا أنه سمع بموت الوليد .

بهذا الفتح العظيم أُعتبر قتيبة من كبار رجال الفتوح أمثال خالد ؛ ويكفى دليلاً على عظم قدره أنه لم تمتد الفتوح بعده فى هذه البلاد أكثر من ذلك . كذلك دل على براعة ومقدرة هائلة ؛ فمع أنه كثيراً ما وجد حلفاً من ملوك ما وراء النهر ، الذين كانوا دائماً يستعينون بالترك ؛ إلا أنه انتفع بذكائه من وجود

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٤٢٠ — ٤٢١ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٢٥ — ١٢٦ ؛ انظر . Encg. t2, p.961—2.

(٢) البيرونى ، آلاثار الباقية ، ٣٦ .

(٣) الكامل ، ٤ ص ١٢٧ (اخر الصفحة) .

(٤) نفسه ، ٤ ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٥) نفسه ، ص ١٣٥ — ١٣٦ . يقال أيضا قاشغر . صبح ، ٤ ص ٤٤٠ .

العداوة الطبيعية بين هؤلاء الملوك ؛ واستطاع أن يستولى على ممالكهم الواحدة بعد الأخرى . وأكثر من ذلك أنه أظهر مرونة وسيادة تليق بقائد عربى ؛ فلم يكن يخلع ملوك البلاد ؛ ولكنه كان يبقى أغلبهم ؛ لتكون شعوبهم أداة طيعة تحت يده .

٭

كذلك امتدت فتوحات المسلمين فى آسيا إلى بلاد السند[١] ، وهى تقع شرق إيران على ساحل بحر الهند ، عبارة عن دلتا نهر السند العظيم : « Indus » التى تعتبر المدخل لقارة الهند .

وقد كان يسكنها عناصر آرية « Aryas » ، تشبه سكان إيران ؛ وإن كان أغلب سكانها من عناصر تسمى الهندية — نسبت إليها البلاد — تميزت بلون أسود خاص ، مما جعل العرب يعدونهم من جملة السودان[٢] . وسكنتها أيضاً أصناف من قبائل مجهولة الأصل ، مثل : الزط[٣] والسيابجة[٤] ، حيث كانت الأولى من الرعاة ، الذين يتبعون الكلأ على الساحل : « الطفوف»[٥] ، وامتدوا

(١) معجم البلدان ، ٥ ص ١٥١ فما بعدها ؛ انظر .
Ency. de l'Isl (art Sind) t4, p.452, sqq.

(٢) ابن صاعد الأندلسى، ص ١١؛ انظر : Philips : India. London, 1947, p 21 ; Ency. t4, p.452.
يقول الاصطخرى إن هذه العناصر تعرف بالميد . مسالك ، ص ١٧٦ .

(٣) انظر . فتوح البلدان ، ٣٧٢ فما بعدها ؛ انظر .
Ency . de l'Isl (art Zott) t4, p. 1305 ; de Goeje :
Mem. sur les Migrations des Tsiganes. Leiden, 1903, p.21-23.
وهم سيعرفون بالنجر فيا بعد .

(٤) فتوح البلدان ، ص ٣٧٢ فما بعدها ؛ تاج العروس ، طبعة مصر ، ٢ ص ٥٦ ؛ انظر Ency. de l'Isl (art Sayâbidja) t4, p208—209.

(٥) فتوح البلدان ، ص ٣٧٣ (آخر الصفحة) . الطف هو الشاطىء . معجم البلدان ، ٦ ص ٥٠ .

حتى الخليج الفارسى والبحرين[1] ، وكان أسرام يعملون كجند مرتزقة فى جيش الفرس[2] . كذلك وجدت عناصر تركية كثيرة فى بلاد اسمها : « قيقان » ، على خراسان من الشرق ، وتعتبر من بلاد السند[3] .

وكانت الهند دائما ممالك متفرقة تتراوح بين القوة والضعف[4] ؛ لعل بعضها كان خاضعاً للفرس المجاورين لهم[5] . فيبدو أنه كان يوجد بالسند مملكة قوية قبل أن يغزوها الإسكندر الأكبر فى عام ٣٢٥ ق . م ، لعلها مملكة الموريا « Maurya » ، التى بقيت بعد هذه الغزوة[6] . ولكن قبائل الهون البيض (الهياطلة) — الذين تسببوا فى اسقاط دولة الصين وغزوا بلاد ما وراء النهر ، غزوا هذه البلاد أيضاً منذ القرن الأول قبل الميلاد ، وكونوا فيها مملكة راى القوية ، التى استمرت تحكمها مدة طويلة ، إلى أن سيطر عليها قبل الفتح العربى حصة ، ومن بعده ابنه ذاهر أو داهر ، الذى عرف بملك السند[7] .

وقد كان لسكان هذه البلاد ديانة قديمة مزدهرة عرفت بالبرهمية ؛ وهى ديانتهم الأولى[8] . ويقول مؤرخو العرب إنها ديانة تؤمن بإله واحد ؛ إلا أنها تبطل

(١) فتوح البلدان ، ص ٣٧٣ س ٢١ ؛ الأغانى ١٤ ص ٢٦ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٣٧٥ س ٦ — ٧ .

(٣) الكامل ، ٣ ص ٢١٨ و ٢٢١ . عنها ، انظر معجم البلدان ، ٧ ص ١٩٧—١٩٨ .

(٤) مروج الذهب ، ١ ص ١٦٢ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٩٦ .

(٥) الطبرى (طبعة مصر) ، ١ ص ٥٠٩ .

(٦) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ٩٦ ؛ انظر Ency. de l'Isl, t4, p-452. ؛ Philips : Op. cit, p.21. الساداتى ، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية ، ١ ص ٢٩

(٧) الكامل ، ٤ ص ١١١ ، انظر . Ency. t4, p. 452

(٨) اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٠٠ ؛ ١٠٥ س ١٧ . تنسب البرهمية إلى الإله المسمى براهما . (انظر . Saurat : Hist. des Relig, p.325 sqq) . ولكن اختلف المؤرخون العرب فى شخصيته ، كما ظن بعض الناس أن اتباعه سموا براهمة لانتسابهم إلى إبراهيم ، وإنما هو رجل منهم يقال له برهام . انظر . الشهرستانى ، كتاب الملل والنحل ، تحقيق Cureton ، طبعة London ، ١٨٤٦ ، ٢ ص ٤٤٤) . كذلك يقول المسعودى إن براهما اسم أحد ملوكهم . انظر . مروج ، ١ ص ١٥٧ .

النبؤات ، وتحرم ذبح الحيوان وتمنع من إيلامه[١] . وإن كان يبدو أنها مُزجت بالوثنية ، فبعض الهنود كان يعظم قوى الطبيعة ، أو أصنام الحكماء والملائكة[٢] . وكان البراهمن — رجل الدين — يمر بدرجات ليصل إلى هذه الرتبة : فعليه أن يتزهد ، ويطول شعره ، ويغتسل فى كل يوم ثلاث مرات ، ويقيم قربان النار فى طرفى النهار ، ويصوم يوماً ويفطر يوماً ، ويمتنع من أكل اللحم ، وهو يتزوج على ألا يطأ المرأة أكثر من مرة[٣] . وقد جمعت عقيدة البراهمة وقوانينها فى عدة كتب مقدسة عرفت : « بالفيدا » أى المعرفة[٤] ؛ عبارة عن كلام الإله وأغانى وتسابيح ، يتلوها البراهمة[٥] . هذه الديانة انتشرت بين شعوب الآريين ، فكانت دين الإيرانيين فى فارس قبل الزردشتية ، ووصلت إلى حدود الشام[٦] .

ولكن ظهرت حركة دينية إصلاحية بنيت على أساس الديانة البرهمية نفسها عُرفت بالبوذية ، وإن سماها العرب بالصابئة[٧] ، على يد أمير يسميه الشهرستانى شاكين أى السيد الشريف[٨] — وهو ساكيمونى — أو أيضاً بودا أى الحكيم[٩] ؛ عاش حوالى (٥٦٣ — ٤٨٣ ق . م) ؛ فعرف أتباعها العرب

(١) عن ذلك ، انظر . ابن صاعد ، ص ١٢ ؛ ابن حزم ، الفصل (طبعة ١٣١٧ هـ) ، ١ ص ٦٩ .

(٢) الشهر ستانى ، ٢ ص ٤٤٤ ؛ اليعقوبى ، تاريخ ، ١ ص ١٠٦ ؛ البيرونى ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ، تحقيق Sachau ، طبعة London ١٨٨٧ ، ص ٥٣ .

(٣) المرجع الأخير ، ص ٢٦٨ — ٢٦٩ .

(٤) انظر . Saurat: Op. cit, p.320;324.

(٥) س مقولة ، ص ٦٠ ؛ ٦٣ — ٦٤ .

(٦) نفسه ، ص ١٠ .

(٧) ابن صاعد ، ص ١٢ .

(٨) الشهرستانى ، ٢ ص ٤٤٦ ؛ انظر . Ency.de l'Isl,(art Budd) t I, p. 788— 789.

(٩) مروج الذهب ، ١ ص ١٥٦ ؛ انظر . Louis de la Vallée : Bouddhisme. paris 4ed p.19. Hastings : Ency of, Religion and Ethics, Vol 12, p. 821 .

بالبدة[1] ، وهم البوذيون . وقد قامت على أساس فكرة الزهد الفلسفية : «اليوجا» ؛ وذلك بالتعذيب والصيام والسيطرة على النفس والجسد ؛ حتى تستيقظ الروح وتصل إلى الراحة الأبدية أو الجنة المسماة : « النرڤانا »[2]. وهذه الديانة تؤمن بالتناسخ ، وترى أن الأرواح تتردد فى الأبدان حتى تصل إلى درجة بودا الأول ، ويصفه الشهرستانى ، بقوله : إنه عند شخص فى عالمنا لم يولد ، ولا ينكح ، ولا يطعم ولا يشرب ، ولا يهرم ، ولا يموت[3] . وقد أصبح الإيمان بالتناسخ عندهم كالشهادة عند المسلمين ، والتثليث عند النصرانية[4] . أما التى ترسب روحه ، ولا تصل إلى الجنة — أى النرڤانا — فهى تذهب إلى جهنمات ؛ وهى أصناف عديدة كل منها لذنب معين ، وتتردد فى النبات والحيوان[5] . وقد أصبحت البوذية ديانة جمهور الهند[6] ؛ وانتشرت فى أماكن عديدة فى آسيا مثل الصين[7] .

وقد كان أتباع هذه الديانة يعظمون صنم بوذا ، وهو فى كتب العرب يسمى البُد[8] ، وإن أطلق العرب هذه الكلمة على كل ما يعبد من غير البد أيضا[9] ، أو حتى موضع العبادة ، الذى شبه عندهم بكنائس النصارى

---

(١) الشهرستانى ، ٢ س ٤٤٦ .

(٢) انظر . Louis de la Vallée, p.23;25 oqq.:Sauret, p.360—391

(٣) الشهرستانى ، ٢ س ٤٤٦ . عن التعذيب ، انظر . مروج ، ١ س ١٥٦ .

(٤) مقولة ، س ٢٤ .

(٥) نفسه ، س ٢٩ . تبلغ ثمانية وثمانين ألف جهنم .

(٦) ابن صاعد ، س ١٢ .

(٧) انظر . قبله .

(٨) التنبيه ، س ٢٠١ س ٧ .

(٩) الكامل ، ٤ س ١١١

ويِيَع اليهود وبيوت النيران عنـــد المجوس[١] . كذلك كانوا يعظمون نهر كنك — الكنج — الذى يجرى من الشرق إلى الغرب ، ويتهادون ماءه كما يتهادى المسلمون ماء بئر زمزم[٢] ، ويحرصون على أن يغتسلوا فيه ويموتوا على ضفافه ؛ وبخاصة فى بلدة بارانس (بنارس) المقدسة[٣] ؛ حيث كانوا يحرقون جسد الميت ويذرون رماده فى هذا النهر[٤] . وكانوا يحجون إلى بلد اسمه : مُلتان (مُولْتان) فى أعالى الهند ، على سفح جبال الهميلايا[٥] ، عند نهر بَيَاس العظيم أحد أفرع السند[٦] ؛ فقد كان يوجد بها تمثال البد الأول أو الأكبر[٧] ، على صورة إنسان كبير متربع ، طوله مائة ذراع ، ألبس جلداً أحمر لا يبين منه إلا عيناه، عبارة عن جوهرتين ، وعلى رأسه تاج . وكان يحيط بالبدقبة عظمى ، وحوله بيوت سدنته البالغ عددهم ستة آلاف[٨] ؛ ولا يقيم بهذه البلدة المسكر لقداستها[٩] ، وإنما يسكنون خارجها . فكان الحجاج يأتونها من جميع أجزاء الهند والصين[١٠] ،

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٤٣٩ .

(٢) مقولة ، ص ٢٧٤ ؛ أبو الفداء ، المختصر ، ١ ص ٩٤ — ٩٥ . عن هذا النهر ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٨٦ .

(٣) مقولة ، ص ٣٧٢ ؛ ٢٧٥ .

(٤) نفسه ، ص ٣٨٣ .

(٥) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٤١٨ ؛ ٨ص ٢٠١ — ٢٩٢ . انظر أيضا . Ency.de l'Isl (art Multân) t 3,p. 771

(٦) عنه ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٣١٨ .

(٧) عن الأول ، انظر . التنبيه ، ص ٢٠٢ س ٧ ، أما الأكبر المراجع السابقة ، وغيرها

(٨) الكامل ، ٤ص١١٢ س ٧ .

(٩) معجم البلدان ، ٨ ص ٢٠٢ .

(١٠) نفسه ، ٥ ص ٤١٨ س ١٨

كما يأتى المسلمون مكة ، وإذا حجوا إليه حلقوا رءوسهم ولحاهم ، وقدموا الأموال والذهب ؛ حتى أن العرب سموا مُلتان : « بيت الذهب » ، لكثرة ما وجدوه منه فيها[1] . ولما غزا الإسكندر الأكبر الهند ، زار هذا البد الأكبر، وكتب عنه إلى مربيه أرسطا طاليس[2] .

ونحن نعرف أن العرب قبل الإسلام ؛ طالما ركبوا البحر إلى بلاد السند مستبضعين[3] . ولما جاء الإسلام نجد أن عامل عمر بن الخطاب على البحرين وعُمان ، كان متلهفاً على الغارة فى السند ؛ فأرسل إليها حملة فى البحر فى سنة ١٥/٦٣٦ ؛ مما أغضب الخليفة لتغريره بالمسلمين[4] .

ولكن ازداد اهتمام العرب ببلاد السند منذ أن استولوا على مُكران فى شرقيها ، التى فتحت عنوة فى أيام عمر أو معاوية ؛ بحيث أنه لما هاجموها حلف الجند بطلاق نسائهم ألا يهربوا وأن يقاتلوا أعداءهم ، واتخذوها مصراً يغيرون منها على السند[5] . كذلك كان المسلمون يغزون السند أحياناً من ناحية مفازة سجستان الواقعة شمالى مُكران ؛ التى كان فتحها قد تم فى أيام معاوية[6] .

ويذكر المؤرخون غارات العرب المبكرة على السند فى عهد عثمان ، وفى أواخر

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١١٢ .

٢) التنبيه ، ص ٢٠١ .

(٣) انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٦٤ و ٧٣ ؛ والمراجع بالهامش .

(٤) فتوح البلدان ، ص ٤٣١ ـ ٤٣٢ . يقول إنه وصل إلى تانة .

(٥) نفسه ، ص٤٣٢ س٦؛ ٤٣٣؛ ٤٣٦ س٦ـ٧ ، معجم البلدان ٨ ص١٣٠ـ١٣١ .

(٦) نفسه ص٤٣٢ س٦ الكامل ٣ ص ٢١٧ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص٣٧ فمابعدها . عن فتوحها ، انظر . فتوح البلدان ، ص٣٩٢ ، فما بعدها .

أيام علىّ ؛ إلا أنها لم تكن شديدة ومتصلة إلا فى أيام معاوية ؛ فقد قتل عدد من قوادها العرب[١] ؛ ويقول المؤرخ « Gibbon » إن بلاد الهند كانت ترتعش فى أيامه[٢] . ويبدو أن أغلب الغارات كانت على بلاد قيقان من أرض السند[٣] ، التى كان أهلها من الترك ، وأيضاً ضد الخلج وهم صنف من الهياطلة ، وقعوا فى قديم الزمان إلى أرض كابُل أو زبلستان[٤] ، التى بين الهند ونواحى سجستان ، حيث أن زنبيـــل أو رُتبيل[٥] — وهو لقب ملوكها كما يبدو — لقى منه عمال سجستان الأمرين ، على الرغم من محاربتهم الشديدة له . وأشهر من غزا نواحى السند فى أيام معاوية المهلب بن أبى صفرة القائد المعروف ، الذى توغل فى أعالى الهند وهزم أهلها عند بَنَّة ولَوْهر[٦] . ولكن انشغال العرب بالفتنة بعد موت معاوية ، ثم فتنة ابن الأشعث بسجستان أيام عبد الملك ، حد من نشاط العرب فى هذه الناحية ؛ وإن كان زنبيل قد صالح الحجاج بعد تسليمة ابن الأشعث وقبل دفع الجزية[٧] .

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٤٣٢ فما بعدها . فثلا غزاها الحارث بن مرة العبدى فى سنة ٣٩/٦٥٩ ، وقتل فيها سنة ٤٢/٦٤٢ ، وغزاها عبد الله بن سوار العبدى فى ٤٣/٦٦٣ (عن هذه الغزوة الكامل ، ٢ ص ٢١٨) و ٤٥/٦٦٥ ، ولكنه قتل فيها سنة ٢٧/٦٦٧ ، وقتل جميع الجيش : انظر . أيضا معجم البلدان ، ٧ ص ١٩٨ .

(٢) انظر . Decline, 5,p.388

(٣) الكامل ، ٣ ص ٢١٨ ؛ انظر . قبله .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٢١٧ ؛ فتوح البلدان ، ص ٣٩٦ فما بعدها . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٠١ ؛ انظر . Ency. de l'Isl,(art Kâbul) t2,p.633 sqq
لعل خلج موضع قرب غزنة ، انظر . معجم ، ٣ ص ٤٥٤ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ٤٠٠ فما بعدها ، انظر .
Arab, p.223 sqq. : Well .

(٦) غزاها فى سنة ٤٤/٦٦٤ (فتوح البلدان ، ص ٤٣٢) . عن بنه ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٢٩٤ . عن لوهور ، انظر . نفسه ، ٧ ص ٣٤٣ — ٣٤٤ . وهى تكتب بأشكال مختلفة ، مثل : لهاور ولاهور والأهور .

(٧) انظر . فتوح البلدان ، ص ٤٠٠ ؛ قبله .

وتروى الرواية العربية أن سبب غزو الحجاج لبلاد السند ، هو أن بعض قراصنتها سبوا نسوة لتجار مسلمين ، ولم يعاقبهم ملكها ذاهر ، على الرغم من مطالبة الحجاج بذلك[1] . ولكنا نظن أن خطة غزوها كانت مدبرة ، مثلما كان الحال بالنسبة للغزو فى بلاد ما وراء النهر ؛ ودليلنا هو أن الحملة أرسلت برية وبحرية ، وزودت بكل ما يحتاج إليه الجند حتى الإبر والخيوط والخل[2] ؛ كما أعدت آلات حربية كبيرة ، منها منجنيق اسمه العروس، كان يديره ساعة الرمى خمسمائة رجل .

وقد وكل الحجاج قيادة هذه الحملة إلى أحد أقربائه ، وهو محمد بن القاسم الثقفى صهره وابن عمه[3] ، الذى لم يكن يتجاوز سبعة عشر عاماً . وقد تمثلت فى هذا القائد الشاب سجايا الأمة العربية من سؤدد وشجاعة؛ بحيث كان بحق معجزة حربية، مثل الإسكندر الأكبر . فسار محمد من مُكران فى سنة ٨٩/٧٠٧ـ٧٠٨[4] ، ففتح أرمَئيل وهى مدينة كبيرة من أرض السند شرق مُكران[5] ، ثم سار إلى الدَّيْبل ميناء السند العظيم على ساحل بحر الهند[6] ، فوافته السفن التى كان قد حمّل فيها الرجال والسلاح ، فخندق أمامها ؛ ولكن لم يستطع فتحها ، إلا بعد أن جاءته توصية من الحجاج ، فقد كان يقدم له تقريراً عن سير الغزو كل ثلاثة أيام[7] ، فأمره الحجاج

---

(١) نفسه ، ص ٤٣٤ .

(٢) نفسه ، ص ٤٣٦ ؛ الكامل ، ٤ ص ١١١ .

(٣) انظر المراجع المختلفة ، ومقالات : عبد الحميد العبادى ، صور من التاريخ الإسلامى (محمد ابن القاسم الثقفى) ، ص ١٤٥ـــ١٥٤ ؛ عبد الغنى ، بطل السند ، سلسلة اقرا رقم ١٤٢ ؛
Ency. de l'Isl, (art Muhammad B. Kâsim) t3, p. 717—718.

(٤) الكامل ، ٤ ص ١١١ـــ١١٢

(٥) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٢٠٢ .

(٦) عنه ، انظر . نفسه ، ٤ ص ١١٨ .

(٧) أورد ذلك البلاذرى ، فتوح البلدان . ص ٤٣٧ س ٦ فما بعدها .

جنصب العروس ، فرمى الدقل وهو سارية لمنارة البد العظيمة بالمدينة فكسرها ، فتطير العدو وجزع ؛ فأمر محمد بالسلالم وصعد عليها الرجال ودخلوا المدينة ، واستمر القتال فيها ثلاثة أيام ؛ فهرب عاملها من قبل ذاهر ، وأنزل بها محمد جنده وبنى جامعاً ؛ وبذلك قضى على وكر كبير القرصان الهنود[١] .

ثم سار عنها محمد صاعداً إلى شمال السند ، وأخذ لا يمر بمدينة إلا افتتحها صلحاً أو عنوة ؛ كما انضم إليه عدد من قبائل الزط[٢] ؛ خصوصاً وأن المسلمين كانوا قد صالحوهم فى أثناء فتوحهم فى فارس[٣] ، مثلما فعلوا من قبل مع الجراجمة بالشام ، بل أن بعضهم هاجر إلى بلاد المسلمين ودخلوا الإسلام ؛ فكانوا فى جيش على[٤] ؛ كما أن معاوية نقل بشراً منهم إلى الشام[٥] . فلما بلغ ذاهر زحف محمد استعد لمحاربته ، وجمع جيوشاً عديدة مزودة بالفيلة ، وهو مستخف به . فلقيه محمد والمسلمون بعد أن عبروا نهر مهران على جسر ، وتغلبوا عليهم وقتلوهم كيف شاءوا[٦] ؛ وذلك لأن الهند كان معظمها رجالة لا دواب لها غير الفيلة[٧] ؛ وكان العرب فى أيام فتح فارس يتغلبون على الفيلة بقطع خرطومها[٨] ، وفى هذه المرة استخدموا النفط فى القضاء عليها ، ولما ترجل ذاهر قتل أيضاً[٩] .

بقتل ذاهر غلب محمد على بلاد السند ، ودخل عاصمتها راور[١٠] . وكان بها

(١) التنبيه ، ص ٥٥ .
(٢) فتوح البلدان ، ص ٤٣٨ س ٧–٨ ؛ انظر . Tsiganes, p.21. : De Goeje
(٣) فتوح ، ص ٣٧٣ .
(٤) نفسه ، ص ٣٧٦ .
(٥) نفسه ؛ انظر . قبله .
(٦) نفسه ، ص ٤٣٨ . عنه ، انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ٢٠٩ .
(٧) الطبرى (طبعة مصر) ١ ص ٥١٠ .
(٨) فتوح البلدان ، ص ٢٥٨ س ٤ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٠١ .
(٩) العبر ، ٣ ص ٦٠ .
(١٠) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٢١٤ ؛ انظر Ency. de l'Isl ,t4,p.453.

إمرأة لقاهر خافت أن تؤخذ فأحرقت نفسها وجواريها، ثم قطع محمد نهر بَيَاس[١] العظيم المؤدى إلى مُلتان المقدسة الغنية بذهبها، فقاتله أهلها وانهزموا، فحصرهم وقطع عنهم الماء، فعطشوا ونزلوا على حكمه، فقتل المقاتلة وسبى القرية، وأصابه المسلمون ذهباً كثيراً، وسماها محمد المعمورة بدلاً من مُلتان[٢]، وذلك فى سنة ٧١٣/٩٥[٣]. وكان محمد يحترم عقائد الهنود، ويقول: ما البد إلا ككنائس النصارى وبيع اليهود وبيوت نار المجوس[٤]. وبعدها أوغل فى شمال السند إلى مدينتى بَيلمان[٥] وقُنْدُهار[٦]، حتى وصل إلى أقصى حدود قشمير أو كشمير[٧]؛ التى كانت التى تجاور الترك.

وقد كان فتح محمد بن القاسم لبلاد السند من أعظم الفتوح الإسلامية، فبعده لم يتجاوز أحد من الغزاة فتوحاته فيها إلى أيام الغزنويين[٨]. كذلك كان فتحها مربحاً للغاية من الناحية المادية، فحينما نظروا فى النفقة وجدوا أنهم استرجعوها وزيادة[٩]؛ فضلاً عما وصل إلى الحجاج بن يوسف من زط السند، وأصنافه جواميسهم[١٠].

* * *

وبعد هذه الفتوحات العظيمة توفى الوليد أقوى خلفاء الأمويين

(١) عنه، انظر. معجم البلدان، ٢ ص٣١٨.
(٢) مقولة، ص ١١.
(٣) الكامل، ٤ ص ١٣٣. يقول المسعودى إن فتحها كان فى سنة ٨٩/٧٠٨-٧٠٨م. انظر. التنبيه، ص ٥٥.
(٤) فتوح البلدان، ص ٤٣٩؛ انظر. قبله.
(٥) الكامل، ٤ ص ١٣٣. عنها، انظر. معجم البلدان، ٢ ص ٣٤١.
(٦) مقولة، ص ١١. عنها، انظر. معجم البلدان، ٧ ص ١٦٧ - ١٦٨.
(٧) نفسه، ص ١١. عنها، انظر. نفسه، ٧ ص ٤. تقول مراجع أخرى أن آخر مافتحه الكيرج، وهذه لا ترد فى معجم ياقوت. انظر. الكامل، ٣ ص١٣٤.
(٨) مقولة، ص ١١.
(٩) الكامل، ٤ ص ١١٢.
(١٠) فتوح البلدان، ص ٣٧٥ س ١٠ - ١١.

فى سنة ٧١٦/٩٦(١) ، وهو الذى عمل على توسيع رقعة الإسلام إلى مدى لم تصله قبله أو بعده ؛ بحيث جعل الدولة العربية أشبه بهلال ضخم رأسه عند جبال البرتات، والآخر قرب الصين(٢) . كذلك أقام للمسلمين أفضل عمائرهم وأجلها ؛ وأثبت أن خلفاء الإسلام بناءون يتمتعون بذوق عالٍ(٣) .

وقد كان الوليد غير راض عن تولية أخيه سليمان الخلافة من بعده بناء على توصية عبد الملك(٤) ، ويريد أن يولى عهده لابنه عبد العزيز(٥) . ومن الجائز أن بعض خواصة حرضه على ذلك وعلى رأسهم الحجاج ، الذى كان يحقد على سليمان لإيوائه يزيد بن المهلب بعد عزله من خراسان وهروبه من حبسه فى العراق . وكان الوليد قد هيأ ابنه عبد العزيز لمنصب الخلافة ، فأشركه فى الصوائف(٦) ؛ ففعل مثل خلفاء بنى أمية قبله . ولكن سليمان أبى التنحى عن ولاية العهد وشنع على الوليد(٧) ؛ كما أن كثيراً من الناس لم يجيبوا الوليد إلى تولية عبد العزيز ؛ مما جعل الوليد لا يتمكن من خلع سليمان(٨) ؛ فبويع لسليمان بعده بالخلافة فى جمادى الآخرة سنة ٧١٥/٩٦ .

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١٣٧ .

(٢) انظر . قول : Périer : Al-Hadj, p.xII

(٣) انظر . Ency. t 4, p.1170

(٤) مصنف مجهول ، ص ٢٤٣ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ١١٤ — ١١٦ .

(٦) العبر ، ٣ ص ٧١ س ٨ .

(٧) العقد ، ٢ ص ٣٢٨ س ٨

(٨) الكامل ٤ ص ١٣٨ س ٦ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Sulaïmän B. Abd al-Malik) t 4, p.556.

وقد ولدت محاولة إقصاء سليمان عن الخلافة فى نفسه الحقد والرغبة فى الانتقام هؤلاء الذين وافقوا الوليد على تنحيته ؛ وكان معظمهم من عمال الحجاج وقواد الفتوح ؛ فضلاً عن أنه كما يصفه المؤرخون كان مغروراً معجباً بنفسه ، يملؤه الحقد نحو كل من يرتفع اسمه ؛ فكان إذا نظر فى المرآة قال : «أنا والله الملك الشاب»[1] ؛ ولذلك سموه بفتى العرب[2] . فما تولى الخلافة ، حتى أمر عامله بمكة خالد بن عبد الله القسرى بشتم الحجاج ونشر عيوبه وإظهار البراءة منه[3] . كما أن قتيبة الذى كان عاملاً للحجاج على خراسان والقائد المظفر فى بلاد ما وراء النهر ؛ وكان قد وافق على خلع سليمان وتولية عبد العزيز ، خاف من أن يعزله سليمان ويسىء إليه ؛ فكتب إليه يعزيه ويعرفه قدره وبلاءه وطاعته لعبد الملك والوليد ، ويطلب منه أن يؤمنه ويقره فى عمله ؛ وإلا خلعه خلع النعل[4] . ولكن سليمان عزله ؛ مما جعل قتيبة يخلعه بفرغانة فى سنة ٩٦/٧١٥ أو ٩٧/٧١٦ ؛ فحرض سليمان عليه ، فقتل هو وبعض أفراد بيته فى نزاع قبائل اليمانية والمضرية[5] ؛ وذلك بعد أن ولى خراسان ثلاث عشرة سنة[6] . كذلك أمر سليمان بعزل محمد بن القاسم فاتح السند مع أنه لم يقم بفتنة وذلك لأنه كان من أقرباء الحجاج وعامله ؛ وجعل يزيد بن أبى كبشة السكسكى يعذبه بأن وضعه فى أديم بقرة ، ثم خيط عليه الأديم وحمله إلى دمشق ،

---

(١) ابن سعد ، ٥ ص ٢٤٧ س ٢ ؛ مروج الذهب ، ٥ ص ٤٠٣ .

(٢) مصنف مجهول ، ص ٢٤٣ .

(٣) العقد ، ٣ص ١٣ – ١٤ . وليها فى سنة ٨٩ . الكامل ، ٤ ص ١١٠–١١١ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ١٣٨ – ١٣٩ ؛ وفيات ، ٢ ص ٤٠٢ . أرسل مع رسوله ثلاثة كتب : أحدها للتهنئة وبيان قدره إن لم يعزله ، كتاب آخر يعلمه فيه فتوحه ويذم المهلب ويهدد بخلعه ، والثالث فيه خلعه ، وطلب من رسوله أن يتصرف فى دفع هذه الكتب ، ويراعى أن يدفع إليه بالأول ، ويحبس الكتابين الآخرين إذا وجد منه قبولاً لإبقائه .

(٥) وفيات ، ١ ص ٦١٠ ؛ انظر . Ency. t 2, p. 67

(٦) المعارف ، ص ٢٠٧ .

ففاضت روحه بالطريق ؛ وقيل إن قتله بسبب شكوى بنات ذاهر من آمه عبثه بهن ، وأن كانت المصادر العربية لا تذكر ذلك[(١)] ؛ وقد كان موت محمد خسارة فادحة ، أبكت أهل الهند أنفسهم لاحترامه عقائدهم ولعدالته[(٢)] . وقد أساء سليمان أيضا معاملة قواد المغرب والأندلس ؛ مع أنهم لم يكونوا من عمال الحجاج أو أقاربه ؛ فلعله حقد عليهم لأنهم أقاموا مواكب النصر فى عهد سلفه ، وكان يريدها لنفسه ؛ فلم نعد نسمع أى خبر عن طارق[(٣)] . كما انتقم من موسى ابن نصير بأن وضعه فى الحبس وأساء معاملته ، وكان يأمره بالوقوف فى الشمس حتى يغشى عليه خصوصاً وأنه كان رجلاً بادناً[(٤)] ؛ وتوفى وهو فى طريق سليمان للحج فى سنة ٩٧/٧١٥ ، أو فى سنة ٧٢١/١٠٣[(٥)] . كذلك حرض سليمان على قتل عبد العزيز بن موسى فى الأندلس ، الذى كان أبوه تركه بعد رجوعه إلى الشام فى سنة ٩٥/١٧٣ ، فقتل وهو يصلى فى المسجد فى سنة ٩٧/٧١٦ ، وحملت رأسه إلى أبيه فى محبسه ؛ وقد قيل فى سبب قتله أنه خلع طاعة سليمان واستبد بالأمر ، أو لسخط سليمان على أبيه موسى[(٦)] ، أو لأن عبد العزيز كان قد تزوج أرملة روذريق التى يسميها العرب أيلة « Egilona » ، وهى التى أصبحت تعرف باسم أم عاصم — على اسم ابنه — فحملته على أن يحسن معاملة النصارى ، ويلبس

---

(١) العبر ، ٣ ص٦٦ ؛ انظر . Ency. t 3, p.717 -718 ؛ العبادى ، صور من التاريخ الاسلامى (العصر العربى) ، ص ١٥٢ — ١٥٤ .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٤٤٠ (آخر الصفحة) .

وقد قال عن نفسه :

أضاعونى وأى فتى أضاعوا ليوم كريهة وسداد ثغر

(٣) نفح الطيب ، ٢ ص ١٢٩ .

(٤) نفسه ، ٢ ص ١٣٦ ؛ البيان ، ١ ص ٤٥ — ٤٦ ؛ ٢ ص ٢٠ فما بعدها ؛ انظر . عنان ، دولة الاسلام فى الأندلس ، ص ٦٨ .

(٥) الكامل ، ٤ ص١٤٦ .

(٦) البيان ، ١ ص ٤٧ .

التاج ، ويأمر أصحابه ورعيته بالسجود إذا دخلوا عليه كما كان يُفعل لملوك القوط؛ مما أغضب المسلمين حتى ظنوا أنه تنصر فقتلوه ؛ وإن قيل إن سليمان لما بلغه مقتل عبد العزيز شق عليه موته[1] . كذلك عزل سليمان عبد الله بن موسى ، الذى تركه أبوه على المغرب ، فى نفس العام الذى قتل فيه عبد العزيز[2] ، وأمر عامله محمد بن يزيد أن يعذبه ويسجنه ، ثم يقتله[3] . وقد كان هذا التصرف الشائن نحو كبار الفاتحين سبباً فى أن حرم الدولة من أهم قوادها ؛ كما عمل على القضاء على عمود فقرى فى السياسة الداخلية ، وهو الاعتماد على رجال مخلصين يضع الخلفاء فيهم ثقتهم ؛ مما سيكون له أثره أيضاً فى فقدان الدولة سيطرتها على الولايات التى تحكمها .

ولما تولى سليمان الخلافة تحول من دمشق إلى الصحراء ، فأخذت له البيعة فى الرملة[4] ؛ وذلك مثلما فعل أسلافه الأمويون الذين أحبوا العيش فى الصحراء ، أو ملوك الغساسنة من قبل ؛ الذين كانوا يتنقلون بين جلق والجابية ، ويبنون المدن فى الصحراء[5] . ويفسر البعض ظهور روح التبدى بين الأمويين ؛ بسبب أنهم عرب كانوا يحنون إلى الصحراء بهوائها المنعش والحياة فيها؛خصوصاً وأن الأموال التى تدفقت كالنهر بسبب الفتوح جعلت من دمشق مدينة حضرية تختلف عن ذوق الأمويين ؛ بحيث كانوا يختنقون فيها[6] ؛ كما أنهم كانوا يرمون أيضا

(١) نفسه ، ٢ ص ٢٣ — ٢٥ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٤٤ ؛ ابن القوطية ، ص ١١ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٢٠ — ٣١ ؛ انظر .

Eucy. de l'Isl ,(art 'Abd al-'Aziz B. Mûsa B. Nusaîr) t 1, p.37.

وهو توفى فى سنة ٩٨ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١١٤ .

(٣) البيان ، ١ ص ٤٧ .

(٤) انظر . بعده .

(٥) معجم البلدان ، ٤ ص ٢٥٥ س ٨ فما بعدها .

(٦) انظر . Les Chateaux Arabes (Miss, : Jaussen et Savignac Arch. en Arabie), III. Paris, 1922, p. 115

إلى تنشئة أبنائهم فى بيئة عربية خالصة بعيدة عن المدن [١] . ورأى آخر هو أن بنى أمية كانوا يهربون إلى الصحارى من الطاعون ، الذى كان يقع بالشام من آن لآخر [٢] ، أو من البق [٣] ؛ أو من جوار الماء خوفاً من البعوض الكثير [٤]. فلقد لاحظ ابن خلدون أن العرب لعهد بنى أمية كانوا لا يزالون يسكنون البيوت من الوبر والصوف [٥] . ومن قبل أحس عمر بحنين العرب للصحراء ؛ فبنى لهم الأمصار على حافتها ؛ ولما جاء هو بنفسه إلى الشام أقام فى الجابية،وليس فى دمشق .

وقد كان ترك الأمويين دمشق إلى الصحراء إيذاناً بأفول نجم هذه المدينة ، وظهور العواصم الصحراوية السورية ؛ ولدينا من العصر الأموى بقايا ما يقرب من ثلاثين منها ؛ أغلبها للخلفاء [٦] ؛ كما أن بعض النساء الأمويات بنين لهن قصوراً [٧] . فأقام الأمويون مكان الخيام مبانى فخمة مفتوحة من كل جانب للريح ؛ يقيمون فيها فى الربيع والشتاء وحتى فى الصيف : وهى عبارة عن بيوت عليها قباب ، وتحاط بالأسوار ، وحوائطها مزخرفة ، وأرضها مفروشة بالرخام أو البازلت ، وتوجد بها صهاريج الماء [٨] . فمثلاً كان معاوية يحب الإقامة بجانب بحيرة طبرية؛

---

(١) انظر . Lammens : Mo 'â ler, p. 442.

(٢) العيون والحدائق ، ص ١٠١ ؛ انظر . Denys : Op. cit, p. 32 ; 39.

(٣) معجم البلدان ، ٤ ص ٢٥٦ س ٦ .

(٤) الأغانى (طبعة بولاق) ، ٢ ص ١٠٩ س ٤ ؛ انظر . Lammens : Etudes, p. 325

(٥) المقدمة ، ص ٢١١ ؛ انظر .

(٦) انظر . G.Marcais: L'Art de l'Isl, p.26. Sauvaget: La Mosquée Omeyyade de Médine, p. 122 sqq.

(٧) عن قصر أم حكيم ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٩٨ — ٩٩ .

(٨) نفسه ، ٤ ص ٢٥٢ـ٢٥٦ ؛ انظر . Jaussen et Savignac : Op. cit, p. 110.

وكذلك ابنه يزيد[١] . وبنى الوليد قصوراً صحراوية ؛ ويُنسب إليه بناء قصر المشتى قرب البحر الميت[٢] . أما سليمان فأنشأ الرَّمْلَة على الطريق الممتد من القدس إلى البحر ، التي قد يكون بناها حينما ولى جند فلسطين من قبل الوليد بن عبد الملك ، واستكملها في خلافته : فبنى فيها القصر والمسجد ، وحفر الآبار ، واحتفر القناة ، كما بنى الناس حوله[٣] ؛ ويبدو أنه بناها ليفاخر بها المباني التي أقامها الوليد . وقد استمر خلفاء بني أمية بعده يسكنون الصحارى ؛ ويبتون بها المواسم الصحراوية[٤] .

هذه المواسم الصحراوية كانت أشبه ببيوت السرور ؛ حيث أن سليمان قد عرف بميله إلى حياة اللهو ؛ فهو يوصف بأنه كان نكاحاً أكولاً شرهاً[٥] ؛ يعتني بملبسه ، فيلبس ثياب الوشي ، كما كان رجال قصره يلبسون منه أيضاً ؛ وحتى طباخه كان يدخل عليه وفي صدره وشي ، وعليه جبة مثقلة بالذهب[٦] . كذلك كان

(١) انظر Jaussen et Savignac. : Op. cit,p. 109.

(٢) انظر Van Berchem :
Au Pays de Moab et d'Edom. ext, J. des Savants. Juillet-août. Sept 1909, p. 23 . يبدو أنه من بناء الوليد الثاني . عن ذلك ، انظر . G. Marçais : L'Art de l'Isl, p.27-29. Jaussen et Savignac : Op. cit, p.110. ; Ency. de l'Isl, (art Mashatta) t3,p.653sqq.

(٣) فتوح البلدان ، ص ١٤٣ ؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٢٨٦ – ٢٨٨ .

(٤) فمثلا عمر بن عبد العزيز سكن خناصرة بليدة شرقي حلب (تقويم البلدان ، ص٢٣٢) ، ويزيد بن الوليد بموقر في البلقاء قرب دمشق (الأغاني ، ١٣ ص ١٦٠ س ٣ . عنها ، انظر معجم البلدان ، ٨ ص ١٩٩) ؛ وهشام بالرصافة بين حلب والرقة على الفرات (انظر Denys, p.23. عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٤٦ – ٤٧) ، أو الرصافة الواقعة على طرف البرية غربي الفرات (معجم البلدان ، ٤ ص ٢٥٥ فما بعدها) ؛ أما الوليد الثاني ؛ فعله هو الذي بنى قصر مشتى وغيره ، انظر . بعده

(٥) العيون والحدائق ، ص ٣٤ .

(٦) المسعودي ، مروج ، ٥ ص ٤٠٠ – ٤٠١ .

خلفاء الأمويين يجمعون فى هذه المواسم الشعراء ؛ الذين كانوا ينظرون إلى الخليفة كسيد القبيلة ؛ بحيث حلت محل أسواق العرب ؛ مما ترتب عليه تقدم الشعر فى عهدهم ؛ وشبه شعراء عصر الأمويين بشعراء فى الجاهلية : فشبه جرير بالأعشى ، والفرزدق بزهير ، والأخطل بالنابغة[1] .

وعلى الرغم من نقائص سليمان وحبه الملذاته ؛ فإن الفتوحات لم تقف : ففى آسيا الصغرى كانت عمليات تدمير حصون العدو فى عهد عبد الملك والوليد ؛ قد جعلت العرب يطمعون فى العودة إلى غزو العاصمة البيزنطية . كذلك كان العرب قد استعادوا بعض نشاطهم فى البحر ؛ بسبب أنهم عرفوا سر تكوين النار الإغريقية ، التى سببت حرق أسطولهم ، وانسحابهم من جزر البحر الأبيض فى أواخر أيام معاوية وأوائل حكم يزيد ؛ فأصبح النفط من ضمن أدوات قتالهم[2]. ونجدهم عادوا إلى مهاجمة صقلية ، وهى جزيرة كبيرة خصبة علكها الروم مقابلة لإفريقية ، كان الروم قد هربوا إليها فى أثناء غزو العرب للمغرب ؛ فأغاروا عليها فى سنة ٨٢/٧٠١ أو ٨٣/٧٠٣[3] ؛ كما عادوا إلى احتلال قبرس[4]. ومع ذلك يبدو أن نشاط العرب فى البحر كان على نطاق ضيق ، بدليل أن البيزنطيين

---

(١) الأغانى ، ٧ ، ص ٣٨ ؛ انظر . Lammens ؛ Nallino : Etudes, p.220: La littérature Arabe des origines à l'époque de la dynastie Umaiyyade. trad. Paris, 1950, p. 110,

(٢) العيون والحدائق ، ص ٢٤ (آخر الصفحة) ؛ انظر . قبله ، ص ٤٨ .

(٣) الذهبى ، دول الاسلام ، ص ٣٩ ؛ انظر . قبله ، ص ٤٧ .

(٤) فتوح البلدان ، ص ١٥٤ ؛ Michel le Syrien t 2. fasc 3,p.470. ؛ انظر . قبله ، ص ٤٨ .

استطاعوا غزو الساحل المصرى فى سنة ٧٠٩/٩٠ [١]، وأسروا خالد بن كيسان صاحب البحر، فأهداه ملكهم إلى الوليد [٢]؛ كما هاجموا قبرس [٣].

والذى هيأ للعرب السير فى مشروع غزو العاصمة البيزنطية، هو حدوث اضطراب خطير فى دولة الروم المعاصرة لحكم الوليد؛ نتيجة لتعاقب الأباطرة والثورات الكثيرة، وطمع الأعداء من جيرانها [٤]. فقد تولى عرش مملكة الروم عدة أباطرة يذكرهم المسعودى [٥]؛ منذ أن قتل جستنيان الثانى (اسطنيانس) « Justinianus II »، الذى حاربه عبد الملك والوليد. ويظهر أن الروم قدرت نيات العرب فى غزو عاصمتهم، فأرسل الإمبراطور فيليبقوس « Philippicus »، الذى تولى بعد جستنيان الثانى سفارة، للصلح وللاطلاع على استعدادات العرب، وذلك فى آخر حكم الوليد فى سنة ٩٥ / ٧١٤ [٦]؛ ولكن الوليد رفض. وبعد موت فيليبقوس جاء نسطاس الثانى « AnastasiusII »، الذى سعى هو الآخر إلى طلب الصلح من الخليفة سليمان فى سنة ٧١٥/٩٦ [٧]، على غير جدوى؛ كما أنه فى نفس الوقت، كان قد أعد حملة فى جزيرة رودس لمهاجمة الساحل السورى، بقصد القضاء على استعدادات العرب [٨]. ولكن

(١) الخطط، ١ ص ٣٤٥.

(٢) الكامل، ٤ ص ١١٦.

(٣) انظر Michel, t 2, fasc 3, p.470.

(٤) انظر . Nicephorus : Historia (Pat. Graeca de, Migne), tloo, p.58 ؛ انظر Diehl et Marçais : Le Monde, p.248.

(٥) التنبيه، ص ١٦٤ــ١٦٥.

(٦) انظر. Canard : Les Expéd., Janv-Mars, 1926, p.80. ؛ Theophanis, p.384. ؛ Cheïra : La Lutte, p.181.

(٧) أغابيوس، ٣/٨ (القسم الثانى) ص ٥٠١ [٢٤١]؛ انظر. Cheïra : La lutte, p.181.

(٨) انظر . Michel t 2. f 3, p.479. ؛ انظر . Cheïra : La lutte, p.181

حدثت ثورة ضده أدت إلى عزله ، وتولى بعده تيدوس الأرمنى «Theodosius II» حيث ثار عليه حاكم عمورية « Amorium » ، المسمى ليون الرعشى « Leon – Isauriko s »[1] ، الذى يبدو من اسمه أنه من أصل سورى من عناصر الجراجمة الساكنة على حدود الشام[2] ؛ فجاء إلى سليمان وطلب منه معاونته على الوصول إلى عرش الروم على أن يحكم باسمه[3] ؛ بخاصة وأنه كان فصيحة بالعربية[4] . ويقول « Denys » الأرمنى إن قصده فى الحقيقة كان خداع العرب وإيقاف سفك دماء بنى وطنه (٥) .

وقد استعد سليمان لهذه الحملة استعداداً هائلاً ؛ لا سيما وأنه كان قد حدثه جماعة من العلماء أن الخليفة الذى يفتح القسطنطينية اسمه اسم نبى ، ولم يكن فى ملوك بنى أمية من اسمه اسم نبى غيره، فطمع فى ذلك[6] . فجمع فى مرج دابق ، بقرب[7] حلب فى منطقة الثغور ، جنوداً من كل أنحاء الامبراطورية الإسلامية وعلى الأخص من الشام والجزيرة ؛ بلغ عددهم أكثر من مائة وعشرين ألفاً ، وأخرج معهم جماعة من الفقهاء (٨) ؛ كما جمع أدوات الحرب من كل صنف للصيف والشتاء ، مثل : أدوات الحصار من المجانيق والنفط وغير ذلك ، وأصبح من اهتمامه بالحملة يقيم فى دابق أكثر مما يقيم فى الرملة .

---

(١) انظر . Theophanis, p.366 – 371

(٢) انظر . Denys, p.12.

(٣) الكامل ، ٤ ص ١٤٦ . يسميه أليون ؛ وأغابيوس لاون ؛ انظر .

(٤) العيون والحدائق ، ص ٢٥ ؛ انظر .
La Monde, p.251. : Diehl et Marçais.

(٥) انظر . Denys, p.12 ؛ انظر . La lutte, p.182 : Cheîra

(٦) العيون والحدائق ، ص ٢٤

(٧) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٣ .

(٨) التنبيه ، ص ١٦٥ ؛ العيون والحدائق ، ص ٢٤ — ٢٥ .

وقبل تحرك الحملة ، قام العرب بالصائفة فى سنة ٧١٥/٩٧ ، وعلى رأسها داود ابن سليمان وأخوه مسلمة ؛ ففتحوا بعض الحصون(١)؛ ولكن الحملة الرئيسية التى كانت أشبه بالنابة المتحركة لكثرتها خرجت وعلى رأسها مسلمة فى سنة ٩٨/ ٧١٦(٢). وقد سار مسلمة سالكاً طريق مرعش من ناحية الشام(٣) ، وهجم عليه الشتاء وهو فى الطريق فشتا ، ثم خرج طالباً القسطنطينية . وفى أثناء زحفه بلغ الذعر مداه عند سكان آسيا الصغرى ؛ بحيث أن الجيش العربى جمع من الروم أسرى كثيرين ؛ وكان سكان ولايات بأكلها يهربون أمامه (٤) . ويبدو أن الإمبراطور الروى نفسه لما سمع بما فعله ليون ، وزحف الجيش العربى ، اعتزل الحكم وحلق رأسه وعاش عيشة الرهبان (٥) ؛ وإن ذكر ابن الأثير أنه كان قد مات(٦) .

ونحن لا نعرف كيف وصل ليون إلى القسطنطينية ؛ وإن كانت الرواية العربية تذكر أنه لالتجاء إلى سليمان بالشام سير معه مسلمة ، ثم خادع مسلمة لما وصل القسطنطينية ودخلها (٧) . أو أن مسلمة لما وصل إلى عمورية خدعه ليون ؛ فجعله يوادعه ويرفع الحصار عنها ، ويسهل وصوله إلى القسطنطينية (٨). على العموم ولى ليون عرش الروم باسم ليون الثالث ، وعقدوا على رأسه التاج (٩) ووعدهم

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١٤٦ .

(٢) نفسه ؛ انظر . Gibbon : : Op. cit,5,p.391. يقول المسعودى إن خروجها فى سنة ٩٧ . التنبيه ، ص ١٦٥ .

(٣) العيون والحدائق ، ص ٢٥ . يقول « Denys » : طريق ملطية . انظر. Chronique, p. 12

(٤) انظر .Denys, p. 12

(٥) انظر . Idem

(٦) الكامل ، ٤ ص ١٤٦

(٧) نفسه

(٨) العيون والحدائق،ص٢٥؛ ·Theophanis, p.386 - 371؛انظر . Canard: La lutte, p.183 : Cheira : Les Expéd, p.82,

(٩) انظر . Denys, p.13

أن يخلصهم من العرب الغزاة ؛ فقد كان يعتبر مقاومة المسلمين دفاعاً عن المسيحية(١). لذلك أعاد تقوية الحوائط والأسوار ، وأرسل جيشاً لقطع خطوط تموين المسلمين(٢) ؛ الذين ألقوا الحصار حول العاصمة ووضعوا المجانيق عليها(٣).

وفي نفس الوقت ، كان سليمان قد جمع أساطيل عديدة من سورية ومصر وأرسلها في البحر لتعاون الجيش البرى(٤) . فأخذ الأسطول يغزو سواحل أرض الروم(٥) ؛ إلى أن وصل إلى الخليج — وهو بحر مرمرة — فألقى مراسيه أمام القرن الذهبي ، وحاصر القسطنطينية من البحر أيضاً(٦) . ولكن بحكم العرب حصارهم عبروا المضيق بقواتهم إلى أوربا ، ليهاجموا البلغار — أو ما يسميهم العرب أيضاً برجان — الذين كانوا نزلوا البلقان وسيطروا فيه منذ القرن السابع الميلادى ؛ إذ يبدو أنهم ساعدوا الروم وهاجموا العرب ؛ لتقديرهم بأنه إذا سقطت بيزنطة تحول العرب نحوهم(٧).

ولكن الحصار طال وهجم الشتاء ، وكان البرد شديداً ، ولم يقدر الخليفة إزاء هجمات الروم أن يمدهم(٨)؛حتى أنه لما أرسل مدداً من الجند فرقه الروم(٩)؛كما

(١) الطبرى ٢ : ١٣١٥ ؛ انظر .Les Expéd, p.93
(٢) انظر .Denys, p.13
(٣) الكامل ، ٤ص ١٤٧ .
(٤) التنبيه ، ص ١٤١ ؛ انظر .La lutte, p. 182 : Cheïra
(٥) الكامل ، ٤ ص ١٤٦ .
(٦) التنبيه ، ص ١٤١ ؛ ١٦٥ ؛ مروج ، ٢ ص ٣١٧ ؛ Theophanis, p. 395 ؛ انظر .Ency. de l'Isl, (art Constantinople) tl, p. 889
(٧) انظر . الكامل ، ٤ ص ١٤٧ ؛ Theophanis, p.397 ؛ انظر Gibbon. : Op. cit. 5, p. 392.
عن هذا الشعب ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٢٧٢ فما بعدها ؛ انظر . O'Hsson: Des peuples du Caucase, p. 213; n (28).
(٨) الكامل ، ٤ص ١٤٧ س ٧ .
Denys.

أتلفوا قسماً كبيراً من المؤونة ؛ بحيث اضطر مسلمة إلى الأمر بالزرع وإنشاء الحقول والبيوت الخشب : فكانت الجنود تأكل كل أصول الشجر والورق وكل شىء غير التراب[1] ؛ أو حتى الموتى والبغال كما يقول « Denys » الأرمنى[2] . كذلك يبدو أنه استخدمت النار الإغريقية فى تدمير الأسطول ؛ كما أن العواصف لم تبق منه غير قليل من المراكب[3] . وقد استمر الحصار طول حكم سليمان ؛ إلا أنه أمام هذه الكوارث لم يعد ينتظر منه أى أمل ؛ لذلك فإن خلفه عمر بن عبد العزيز أمر بالانسحاب فى سنة ٩٩/٧١٧ ؛ بعد أن زود المسلمين بالمؤن والمدد ، وإن اضطروا إلى القتال وهم يتقهقرون[4] .

وقد ترتب على فشل هذا الحصار أن هاجم الروم ثغور المسلمين فى سورية[5] ؛ كما حدث بعد فشل الحصار الأول . ويحاول مؤرخو العرب أن ينسبوا فشله الثانى إلى مسلمة ؛ فهو على حد قولهم وإن كان شجاعاً ، إلا أنه كان عاجزاً لا رأى له فى الحرب ، بل لم يكن فى أصحابه من له رأى[6] . ولكنّا نعتقد أن سبب فشل هذا الحصار هو أن الروم كانوا لا يزالون أقوياء ؛ وأن العرب ما كان يضيرهم هذا الانسحاب فى شىء ، كما حدث فى المرة السابقة ؛ إذ أنهم لم يلبثوا حتى عادوا إلى الغزو بنفس الرغبة فى قتال الروم ودك حصونهم[7] .

•

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١٤٧ .

(٢) انظر Chronique, p. 13.

(٣) انظر . Les Expéd, p. 83—4 : Canard ; Theophanis, p.395 ؛ Le Monde, p. 252. : Diehl et Marçais

(٤) انظر . Denys, p. 13-14 ؛ انظر . بعده .

(٥) انظر . Id ؛ البلاذرى ، فتوح ، ص ١٣٣ ؛ انظر . La lutte, p. 190 ; 211 : Cheira

(٦) العيون والحدائق ، ص ٢٧ — ٢٨ ؛ انظر . Les Expéd, p. 93. : Canard

(٧) انظر بعده .

وعلى النقيض نجح سليمان فى فتح بلاد فى الشرق لم تكن قد فتحت من قبل، وذلك على يد عامله يزيد بن المهلب، الذى ولاه العراق والمشرق، بعد أن عزل يزيد ابن أبى مسلم كاتب الحجاج، فى سنة ٩٧[١]/٧١٥. فنحن نعرف أن الحجاج كان يكره يزيد لما رأى فيه من النجابة خوفاً من أن يفعل مثل ابن الأشعث، أو لأن يزيد لم ينفذ رغبته فى غزو بلاد ماوراء النهر؛ فعزل الحجاج يزيد عن خراسان وحبسه وعذبه، ولكن يزيد تمكن من أن يهرب مع إخوته إلى سليمان بالرملة فى سنة ٧٠٩/٩٠؛ حيث آواه وأمنه. وعلى الرغم من أن الحجاج كتب إلى الوليد يحذره من آل المهلب، وطلب الوليد من سليمان تسليمهم؛ فإن سليمان أرسل يزيد إلى الوليد مع أيوب - أحد أبناء سليمان - مقيداً فى سلسلة واحدة، مما جعل الوليد يضطر إلى أن يؤمن يزيد وإخوته، ويطلب من الحجاج أن يكف عنهم[٢]. وقد أثبت يزيد بن المهلب جدارته؛ فذهب إلى فتح بلاد لم تكن فتحت من قبل[٣].

فقد كان فى شمال هضبة إيران حول بحر قزوين[٤] « Caspium » - وهو عرف أيضاً بأسماء الشعوب التى تحيط به - مناطق أغلبها جبلية، ظلت فى أيدى حكامها العجم أو الترك؛ الذين استطاعوا أن يصدوا العرب عنها. وقد اكتفى العرب منذ عهد عثمان، باتخاذ بلدة قَزْوِين[٥] - التى كان الفرس أنفسهم قد اتخذوها من قبل لمهاجمة هذه النواحى، وسموها (كشور) أى الحد المرموق - ثغراً أو مصراً أى آخر الحدود؛ فكان العرب يغزون منها حتى عصر الحجاج[٦]؛

---

(١) وفيات، ٢ ص ٤٠٢؛ ٤١٠؛ الكامل، ٤ ص ١٤٤.

(٢) الكامل، ٤ ص ١١٤ - ١١٦.

(٣) نفسه، ٤ ص ١٤٧؛ وفيات، ٢ ص ٣٩٦.

(٤) اشتهر ببحر الخزر، وعرف ببحر طبرستان وجرجان وخراسان والجيلى. عنه، انظر. معجم البلدان، ٢ ص ٦٦ - ٦٨؛ ماجد والبنا، الأطلسى التاريخى، خريطة رقم ٧ و ٨.

(٥) الكامل، ٤ ص ٧٧؛ معجم البلدان، ٧ ص ٧٩ - ٨١.

(٦) معجم البلدان، ٨ ص ٣٨٢.

الذى أقام فيها الناظر للمراقبة ؛ وإن كانوا أيضاً هاجموها من ناحية خراسان(١) .

وقد بدأ يزيد بقُوهستان(٢) ، وهى كلمة تعنى بلاد الجبال لأن كوه بالفارسية هى الجبل ؛ وقد أطلقت على أجزاء كثيرة فى الهضبة الإيرانية لطبيعتها الجبلية ؛ بحيث يقول ياقوت إن أكثر بلاد العجم لا تخلو من موضع يقال له قوهستان . ولكن المشهور بهذا الاسم هى الولاية التى غزاها يزيد ، وهى تقع جنوب شرق بحر قزوين أغلبها صحارى أو جبال ولا توجد بها الأنهار ، وعاصمتها قاين(٣) . وقد كان يسكنها العجم وعنصر مغولى من الهون (الهياطلة) — يسميهم ابن الأثير الترك(٤) — قدموا من الشرق من أواسط آسيا واستولوا على بلاد ماوراء النهر ، ثم انتقلوا إلى هذه النواحى(٥) ؛ أو حتى لعلهم بقايا الحيثيين الذين سمعنا عنهم فى العصور القديمة(٦) .

غزيت هذه البلاد لأول مرة فى عهد عمر من كرمان ؛ فاستولى العرب على ناحية طبس وقريتها كرين وهما حصنين ، أوما عرف بالطَّبسَين ، فسمى الصلح : صلح الطبسَين(٧) . وفى أثناء فتح خراسان ؛ غزيت قوهستان وفتحت عنوة وهزم الهياطلة ، وذلك فى أيام عثمان سنة ٣٠/٦٥٢ . وفى أيام معاوية سنة ٥١/٦٧١ ،

(١) انظر . بعده .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٤٧ س ١٨ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ١٨٧ — ١٨٨ ؛ الاصطخرى ، مسالك ، ص ٢٧٣ — ٢٧٤ ؛ Le Strange.: Lands, p. 352-63.; Ency. de l'Isl, (art Khusitân) t 2, p. 1173 sqq.
وهى تكتب أيضا قهستان .

(٣) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٠ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ١٤٧ .

(٥) فتوح البلدان ، ص ٤٠٣ ؛ انظر . شعيرة ، ممالك ماوراء النهر ، ص ٤ .

(٦) انظر . فان فلوتن ، السيادة العربية ، ترجمة حسن إبراهيم وزكى ابراهيم، ص ٤٤ .

(٧) فتوح البلدان ، ص ٤٠٣ . عن طبس ، انظر . معجم ، ٦ ص ٢٨ . وعن كرين ، انظر . نفسه ، ٧ ص ٢٤٨ .

غزيت قوهستان من جديد ، وضمت إلى خراسان(١) . ولكن لكثرة غارات أهلها وقتالهم العرب ، حتى أنهم كانوا قد حاربوا قتيبة(٢) ؛ غزاها يزيد من جديد : فكان يحاصرهم فى حصونهم إلى أن يجوعوا ؛ بحيث أرسل ملكها التركى واسمه صول — لعله لقب — يطلب الصلح ؛ فصالحه يزيد ودخل عاصمتها قاين ؛ وكتب يزيد ببشارة النصر إلى سليمان .

بعد ذلك سار يزيد إلى البلاد المجاورة ، التى تقع بجوار خراسان جنوبى شرقى بحر قزوين ؛ فعرفت العرب باسم : جُرْجان(٣) ، واليونان قديماً باسم : « Hyrcania » ، وسمى البحر باسمها : بحر جرجان ، وقديماً أرقانيا(٤) : « Mare Hyrcanum » ؛ وهى عبارة عن سهول كثيرة تجرى فيها عدة أنهار ؛ كما توجد حولها سلسلة جبال البرز الشاهقة ، التى عُرفت أيضا بجبال جرجان . وقد كانت جُرجان تنقسم إلى نواحى كبيرة ، مثل دِهستان فى أدنى البلاد(٥) ، وبَكَرَ أباد(٦) ؛ أما جرجان نفسها فلم تكن يومئذ مدينة وإنما كانت جبالاً ومسالك(٧) . وقد كان يسكنها الفرس الذين يحكمهم مرزبان ، والترك — بخاصة فى دهستان — الذين يحكمهم ملك اسمه أو لقبه أيضا : صول(٨) .

---

(١) الطبرى (Annales) ٢ : ١٠٦ .

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٣١٤ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ١٤٧ ؛ العيون والحدائق ، ص ٢١ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ، ص ٢٥ ؛ le Strange : Lands, pp. 379. ; Ency. de l'Isl, (art Dujrdjân) t I, p. 1097 sqq.

(٤) عنه ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٥) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ١١٤ ؛ انظر . Ency, t I, p. 521

(٦) عنها . نفسه ، ٢ ص ٢٥٥ .

(٧) الكامل ، ٤ ص ١٤٧ .

(٨) فتوح البلدان ، ص ٢٣٦ ؛ انظر Ency, I, p.1097

وقد قبلت جرجان دفع الجزية منذ أن قرب العرب من حدودها في سنة ١٨/ ٦٣٩[1] . ولكن في عهد عثمان سنة ٣٠/٦٥٠ ، دخلها سعيد بن العاص وصالح أهلها قبل أن يغزو قوهستان ؛ وبعد سعيد لم يأت إلى جرجان أحد إلى أن جاء يزيد[2] . والذي هيأ ليزيد فتحها ، هو وجود نزاع بين المرزبان الفارسي وصول التركي ؛ بحيث اضطر المرزبان إلى الهروب إلى يزيد وهو في خراسان ، وتغلب صول على جرجان[3] . فدخل يزيد مع المرزبان جرجان ، وحاصر صول وهو في بحيرة تقع في بحر قزوين ، وقتل عدداً كبيراً من الترك ، ولعله صالح صول أو قتله[4] ولكن لم يلبث أهل جرجان أن ثاروا على المسلمين الذين تركهم يزيد فيها وقتلوهم عن آخرهم[5] ، فعاد يزيد إلى جرجان ثانية وقتل عدداً كبيراً من أهلها[6] ، وهو ماعرف : « بالفتح الثاني » . وقد بنى يزيد مدينة جرجان في وادٍ عظيم ، تطل على البحر والجبال[7] ، ولم تكن بنيت قبل ذلك ، وأصبحت أكبر مدينة بهذه البلاد .

ولما فرغ يزيد من جرجان هاجم طبرستان[8] ، وهي تسمى أيضاً مازندران[9] في

---

(١) معجم البلدان ، ٣ ص ٧٧ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٤٧ — ١٤٨ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ١٤٨ — ١٤٩ .

(٤) فتوح البلدان ، ص ٣٣٦ ؛ وفيات ، ٢ ص ٣٣٦ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ١٤٨ — ١٥٠ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ١٥٠ ؛ وفيات ، ٢ ص ٤٠٤ س ١٧ .

(٧) معجم البلدان ، ٣ ص ٧٥ .

(٨) الكامل ، ٤ ص ١٤٨ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ١٧ فما بعدها؛ انظر : le Strange ; Ency. de l'Isl, (art Tabaristân) t 4, p.608-9 Lands, p.368; 376.

(٩) بخاصة : معجم البلدان ، ٧ ص ٣٦٣ .

التى تقع فى جنوب بحر قزوين ، شمال جبال البرز الشاهقة ، وتحيط بها بلاد جرجان من الشرق ، وجيلان (أو كيلان) الجبلية ، التى تسكنها شعوب الجيل والديلم من الغرب[١] : وهى عبارة عن بلدان واسعة وسهول وجبال كثيرة ؛ قصبتها آمُل[٢] . وقد سكنتها عناصر فارسية كانت تميل إلى الحروب ، وتستخدم فى قتالها الطبر أو الفؤس ، ولذلك كان اسم طبرستان يعنى : بلاد الفؤس[٣] . ولم تكن قد خضعت للعرب ؛ فكان يحكمها الأصبهبذ[٤] (أو الاَسْبَهْبذ) ، وتعنى رئيس الجند ؛ إذ أنه من سلالة أسرة فارسية قديمة ، كان يوليها ملوك الفرس على أهالى هذه المنطقة[٥] .

ولم يكن من السهل فتح هذه البلاد لحصانتها ومنعتها ؛ لذلك صالحها العرب لما فتحوا فارس ورضوا منها بالشىء اليسير . ولكن فى عهد عثمان سار نحوها سعيد بن العاص فى سنة ٢٩/٦٥٠[٦] — ولعل الحسن والحسين كانا معه — وفتح سهولها وجبالها من ناحيـــــة خراسان . وفى عهد معاوية أرسل مصقلة ابن هبيرة[٧] ، فاستدرجوه إلى ممرات فى الجبال ، وأرسلوا الصخور منها على رءوسهم ، فهلك هذا الجيش أجمع مع أن عدده عشر آلاف أو عشرون ألفا ،

---

(١) عنها ، انظر . نفسه ، ٣ ص ١٩٤ — ١٩٥ ؛ ٤ ص ١٨٦ — ١٨٧ .

(٢) عنها ، انظر . نفسه ، ١ ص ٦٣ .

(٣) نفسه ، ٦ ص ١٨ .

(٤) الطبرى (طبعة مصر) ١ ص ٥٢٦ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٢٢١ . وهى اسم لكورة .

(٥) معجم البلدان ، ٦ ص ١٩ .

(٦) نفسه ؛ فتوح البلدان ، ص ٣٣٤ .

(٧) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٥٨ — ٥٩ .

وأصبح يضرب بمصقلة المثل ، فقالوا : حتى يرجع مصقلة من طبرستان[١] . وفى ولاية ابن زياد على العراق ، أرسل محمد بن الأشعث فاستدرجوه أيضا وقتلوا ابنه . ولما غزا يزيد طبرستان ، توجهت طلائعه إليها ؛ فاستعان أهلها بأهل جيلان والديلم المجاورين ، واستطاعوا أن يهزموا هذه الطليعة[٢] . وقد كانت هذه الهزيمة من الأسباب التى دعت أهل جرجان إلى الغدر بالمسلمين وقتلهم ؛ ولذلك استخدم يزيد الخديعة واضطر إلى مصالحة الأصبهبذ الذى أرسل إليه المال .

* * *

استمر حكم هذا الخليفة الشاب زهاء ثلاث سنين[٣] ، ووافاه أجله بدابق ، وهو ابن تسع وثلاثين فى سنه ٩٩/٧١٧[٤] . ويبدو أن الناس أحبوه لحبه للحياة ؛ حتى أنهم فى زمنه تطبعوا بطابعه ، وكانوا يسألون بعضهم بعضاً عن النكاح والطعام مثله[٥] ؛ أو لأنه أحسن إليهم ، وأخلى السجون ، ولم يستعمل معهم الشدة[٦] ؛ على عكس ما كان فى عهدى عبد الملك والوليد . أما فتوحه ، وإن لم تكن حاسمة أو مثمرة ؛ كما هى فى عهد سلفه ؛ إلا أن حماسه فى مد رقعة الإسلام كان شديداً لا يقل عن حماس سابقيه من الخلفاء

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٣٣٥ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٤٨ .

(٣) الأخبار الطوال ، ص ٣١٦ .

(٤) المسعودى ، مروج ، ٥ ص٣٩٧ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ١٣٧ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ١٥١ .

وقد كان سليمان يرغب فى أن يولى عهده أحد أبنائه : فولى أيوباً فى سنة ٩٨/ ٧١٦[١] — وكان يتكنى به[٢] — إلا أنه مات قبله ، فعزم على تولية داود ، ولكنه كان غائباً فى حملة القسطنطينية ، ولا يدرى أهو حى أم ميت ، فعول على أن يولى ابناً آخر غلاماً لم يبلغ[٣] . وعلى الرغم من أن سليمان كان يميل ظاهرياً إلى حياة اللهو والمجون ، إلا أنه فى قرارة نفسه كان على النقيض يميل إلى التقوى ؛ فكان يجمع حوله الفقهاء والزهاد ويستشيرهم ؛ مما جعله يوم موته تحت تحريض أحدهم واسمه رجاء بن حيوة[٤] — وكان من المقربين لعبد الملك والوليد — يولى عهده ابن عمه عمر بن عبد العزيز[٥] ، الذى لم يكن صاحب حق فى الخلافة ، اختاره فقط لذيوع فضله وتقواه ؛ مما لفت إليه الأنظار . كذلك لعل سليمان قد امتنع عن تولية أحد أبناء عبد الملك أو الوليد خوفاً من أن يتنازعوا ؛ بخاصة وأن يزيد بن عبد الملك ، الذى كان أبوه ولاه عهده بعد الوليد وسليمان ، كان غائباً[٦] . ولكى يأخذ رجاء البيعة لخليفته الجديد ، جعل اسمه فى كتاب مختوم ، وأخذ من بنى أمية البيعة رجلاً رجلاً ، على ما أمر سليمان ، وهو فى النزع الأخير . ولما مات سليمان جمعهم رجاء من جديد ؛ ليبايعوا لعمر مع اعتراض بعضهم[٧] ، وذلك فى صفر ٩٩/ أكتوبر ٧١٧ .

*

(١) نفسه ، ٤ ص ١٤٧ .

(٢) التنبيه ، ص ٣١٨ س ١٤ .

(٣) الكامل ، ٤ ص ١٥٢ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٢٤٧ .

(٤) العيون والحدائق ، ص ٣٤ ؛ انظر أيضاً ملاحظة Well : Arab, p. 264.

(٥) صبح الأعشى ، ٣ ص ٢٥٧ .

(٦) الكامل ، ٤ ص ١٥٢ .

(٧) نفسه ، ٤ ص ١٥٣ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٢٤٨ .

هذا الخليفة[١] الذى جاءته الخلافة على غير انتظار ، هو : حفيد عمر ابن الخطاب المشهور بعدله وورعه وزهده ، فأمه أم عاصم بنت عاصم بن عمر ابن الخطاب ؛ أما أبوه فهو عبد العزيز بن مروان ، الذى ولى مصر فساسها بالحكمة والعدل ، وكان مرشحاً للخلافة بعد عبد الملك ، ولكنه توفى قبله ؛ مما جعل عبد الملك يبايع لابنه الوليد[٢] . وقد ولد عمر بن عبد العزيز بالمدينة فى سنة ٦٣/ ٦٨٢[٣] ، وأمضى شطراً كبيراً من حياته فيها ؛ إلى أن استدعاه عبد الملك بعد وفاة أبيه فى سنة ٨٥/٧٠٤ ، وزوجه ابنته فاطمة[٤] . ولما تولى الوليد الخلافة ولاه إمارة الحجاز فى سنة ٨٧/٧٠٦[٥] ؛ فكان فيها مثال العامل الرحيم على عكس ما كان من بقية العمال فى ذلك العصر من قسوة مثل الحجاج ؛ فجعل مجلساً من فقهاء عشرة ، لا يقطع أمراً إلا برأيهم ؛ حتى عُرف بالرجل الصالح . وفى أثنائها قام بهدم الضريح النبوى فى عام ٨٧/٧٠٦ ، وأعاد بناءه على نحو أوسع وأروع ؛ بحيث لما حج الوليد فى سنة ٩١/٧١٠[٦] ، دخله وأعجب به ، وأخلى الناس منه ليتمتع ببهائه . وقد كان لعدل عمر فى عمله أن التجأ إليه فى المدينة

---

(١) عن حياته ، انظر عدة مراجع منها : ابن سعد ، ٥ ص ٢٤٢ — ٣٠٢ ؛ العيون والحدائق ، ص ٣٧ — ٦٤ ؛ ابن الجوزى ، مناقب عمر بن عبد العزيز ، تحقيق Becker ، طبعة Leipzig ، ١٨٩٩ ؛ انظر .
: Ency. de l'Isl., (art 'Omar B. 'Abd Al-'Aziz) t 3, p. 1044.
العبادى ، صور من التاريخ الإسلامى (العصر العربى) ، ص ١٥٥ فما بعدها .

(٢) انظر . قبله .

(٣) ابن سعد ، ٥ ص ٢٤٣ س ٧ .

(٤) انظر . قبله .

(٥) ابن سعد ، ٥ ص ٢٤٤ — ٢٤٧ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٠٦ .

(٦) الكامل ، ٤ ص ٢٠٩ ؛ الذهب المسبوك ، ص ٢٩ — ٣٢ . انظر . قبله .

عدد كبير من الفارين من قسوة عمالهم ؛ مما جعل الحجاج يحرض الوليد عليه ، فنحاه الوليد عن الإمارة فى سنة ٩٣/٧١١ — ٧١٢[١] ؛ وذلك بعد ولاية استمرت أكثر من سبع سنين[٢] .

ولما اختاره سليمان لمنصب الخلافة ، كان على غير علم منه وزهد فيها[٣] ؛ فأصبح الخليفة المثالى فى الحكم والخلق ، حتى أنه قال فى أول خطبة له : « إنى لست بخيركم ، ولكنى رجل منكم ، غير أن الله جعلنى أثقلكم حملاً »[٤]. وقد جعلته هذه المثالية ينزع إلى طريقة الخلفاء الأربعة والصحابة جهده[٥] ؛ مما جعله يختلف اختلافاً تاماً عمن سبقه من الخلفاء الأمويين ، الذين كانوا يعيشون فى بذخ ، ويسيرون فى الحكم سيرة السكر والدهاء ؛ وبخاصة الخليفة السابق المغرور[٦] . لذلك أخرجه المؤرخون من بين الخلفاء الأمويين ، وعدوه خامس الخلفاء الراشدين[٧] . ولعله ورث هذه المثالية عن جده عمر بن الخطاب ، الذى جعله مثلاً أعلى له حتى أنه طلب أن يكتب له بسيرته[٨] ؛ أو جاءته عن طريق اختلاطه بأتقياء أهل المدينة مثل أنس بن مالك جامع الأحاديث المشهور[٩] ؛ أو لثقافته بإقباله على دراسة

---

(١) الكامل ، ٤ س ١٢٩ ؛ الطبرى (Annales) ، ٢ : ١٢٠٤ ؛ انظر .Well : Arab., p. 251.

(٢) العيون والحدائق ، س ٤

(٣) الكامل ، ٤ س ١٥٣ .

(٤) ابن سعد ، ٥ س ٢٥١ س ٣ .

(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، س ١٦٣ .

(٦) ابن سعد ، ٥ س ٢٤٧ س ٢ ؛ انظر . قبله .

(٧) الكامل ، ٤ س ١٦٤ (قرب نهاية الصفحة) .

(٨) ابن سعد ، ٥ س ٢٩٢ س ٢٥ .

(٩) نفسه ، ٥ س ٢٤٤ س ١٠ .

علوم الدين ، حتى أن العلماء كانوا معه تلامذة[١] ؛ وهو نفسه أول من أمر بجمع الأحاديث وتدوينها[٢] . وتبدو مثاليته فى أنه تناسى حق نفسه وحق أسرته ؛ فلبس الملابس الخشنة الرخيصة[٣] ،ورفض أن يحاط بحرس كما كان الحال فى عهد سلفه[٤]؛وبعد أن كان شاباً غليظاً ممتلىء الجسم ، أصبح بعد توليته الخلافة نحيلاً قد اصفرّ لونه وذهب شعره[٥] ؛ ولصق جلده بعظمه حتى ليس بين الجلدوالعظم لحم[٦] ؛ كما أخذ من أفراد أسرته إقطاعاتهم[٧] ؛ وجعل زوجته نفسها تترك جوهرها لمال المسلمين[٨] .

وليقوم بمنصب الخلافة على الوجه الأكمل صالح أعداء الأمويين ، مثل العلويين: فقدكان الولاة من بنى أمية قبله يسبون علياً من على المنابر،فلما تولى الخلافةأمسك عن ذلك[٩]. كذلك وصل بنى هاشم وأحسن معاملتهم[١٠]؛ بعد أن أساء سليمان إليهم، ودس السم لكبير منهم هو أبو هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية[١١]؛ كما رد فدك

(١) نفسه ، ٥ ص ٢٧٦ .

(٢) انظر . العبادى ، صور من التاريخ الإسلامى (العصر العربى) ، ص ١٧٢ .

(٣) ابن سعد ، ٥ ص ٢٩٦ .

(٤) نفسه ، ٥ ص ٢٩٤ .

(٥) نفسه ، ٥ ص ٢٧٢ — ٢٧٣ .

(٦) ابن الجوزى ، نفس المرجع ، ص ٣٠ س ١٥ — ١٨ .

(٧) ابن سعد ، ٥ ص ٢٧٥ س ١١ .

(٨) نفسه ، ٥ ص ٢٩٠ — ٢٩١ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٥٣ (قرب آخر الصفحة) .

(٩) نفسه ، ٥ ص ٢٩٢ س ٥ — ٦ ؛ الكامل ، ١ ص ١٥٤ .

(١٠) ابن سعد ، ٥ ص ٢٨٩ س ١٠ — ١٢ .

(١١) الكامل ، ٤ ص ١٥٩ .

— قرية قرب المدينة — كانت للنبي بعد فتحها ، وجعلها أبو بكر ملكاً للدولة، ثم انتقلت للأمويين ؛ فجعلها عمر إلى ولد فاطمة[1] . ولم يكن عمر يقاتل الخوارج إلا إذا تحركوا لسفك الدماء ، وأرسل إليهم يناظرهم ؛ فانضم بعضهم إليه ، كما توقف نشاطهم فى عهده[2] . فهذه السياسة ضد أعداء الأمويين لم تكن معروفة من قبل .

٥

والواقع أنه يرجع إلى عمر الفضل فى كسب الشعوب المفتوحة إلى الإسلام ، ولكى يغريها قدم لها كل لون من ألوان الإغراء[3] . فقد أمر عمال الإمبراطورية بالسهر على مصالح رعاياهم[4] ، وأرسل إليهم الكتب يبين فيها أنهم يجب أن يخافوا الله فى أعمالهم[5] ؛ وحاسبهم فى سبيل ذلك أشد الحساب[6] . فأعيدت أراض كثيرة إلى أصحابها من أهل الذمة ، بعد أن كانت قد ضمت إلى أملاك الدولة الأموية ؛ فأعيد كثير من الكنائس والبيارات إلى أصحابها[7] ، واحتفظ لهم بأوقافهم[8] ؛ كما رد لأهل نجران الذين

---

(١) معجم البلدان ، ٦ ص ٣٤٢ فما بعدها ؛ انظر Ency. t3, p. 1045 .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٣) أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمة حسن إبراهيم وعابدين والنحراوى ، الجيزة ١٩٤٧ ، ص ٧٦ .

(٤) ابن الجوزى ، فى نفس المرجع ، ص ٧٠ .

(٥) صبح الأعشى ، ٦ ص ٣٩١ .

(٦) الكامل ، ٤ ص ١٥٧ . مثلا ، قبض على يزيد بن المهلب ، وحاسبه على الأموال

(٧) سعيد بن بطريق ، ٢ ص ٤٤ .

(٨) ابن سعد ، ٢ ص ٢٦٢ س ١٥ — ١٦ .

خلفهم عمر إلى البصرة والكوفة ما طلبوه من أموالهم[١] ؛ فلذلك اعتبره الرهبان المسيحيون صديقاً لهم .

كذلك ردّ المظالم ، وهي لفظة مفردها « ظُلامة » أو «مظلمة» من « ظَلم » ، بمعنى انتهاك حق شخص ، وهو تعبير في العالم الإسلامي يدل على الظلم ، الذي يأتي من التعدي أو الفساد ، وعجز القضاة العاديين لسبب ما عن النظر فيه ، فيرفع أمره إلى الخليفة مباشرة[٢] . فهذا النوع من القضاء يتناول على الخصوص تصرفات الولاة والدواوين ؛ ولا يشترط في نظره البينة القاطعة ، وإنما بأيسر من ذلك ، وذلك لما كان يعرف من غُشم الولاة للرعية[٣]. لذلك كان الخليفة عمر الثاني متحمساً لهذا القضاء لأنه يرتبط بالعدل والإسلام ؛ فضلاً عن أنه فيه إعلاء لشأن العرب ، عن طريق أنهم أمة العدل .

وهذه العادة في رد المظالم ترجع إلى ملوك الفرس الساسانيين ، الذين كانوا أول من مارسوه[٤] . ولم يظهر رد المظالم رسمياً في الخلافة الإسلامية إلا في عهد عبد الملك ، الذي كان يتصفح المظالم ، دون أن يباشرها بنفسه ، وإنما يرد أغلبها على القاضي ، ولكن عمر بن عبد العزيز هو أول من ندب نفسه للنظر في المظالم وجلس لها في مركز الخلافة[٥] ، وأمر بها في جميع الولايات[٦]:

---

(١) فتوح البلدان ، ص ١٧ .

(٢) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ص ٦٤ فما بعدها ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ١ ص ١٥٥ — ١٥٦ .

(٣) ابن سعد ، ٥ ص ٢٥٢ س ١٣ فما بعدها .

(٤) نظام الملك ، سياسة نامة ، ترجمة Schefer ، طبعة Paris ، ١٨٩١ ، ص٥٦ فما بعدها ؛ انظر . نظم الفاطميين ، ١ ص ١٥٦ .

(٥) الخطط ، ٣ ص ٣٣٦ .

(٦) ابن سعد ، ٥ ص ٢٥٢ س ١١ — ١٢ ، هي خاصة بالعراق .

فكان يدعو بشمعة لينظر فى المظالم ولو ليلاً(١) ، وسمح لأى شخص بالدخول عليه ليشكو من ظلمه حتى من عماله(٢) ؛ كما رد المظالم من أفراد أسرته ، وأخذ منهم حقوقاً(٣) .

أضف إلى ذلك أنه نظم السجون لأول مرة ، فأوجد لها الديوان(٤) ، وفصل بين حبس الرجال والنساء ، وبين أهل الجرائم ، ومن حبس فى دين(٥) . وقد أمر ألا يقيد أحد فى المحابس(٦) ، وكتب للمسجونين من أى لون برزق الصيف والشتاء شهراً شهراً ، وبكسوة فى الصيف وكسوة فى الشتاء(٧) ، وسمح للمسلمين منهم بأن يؤدوا فروض الدين . كذلك كان بنو أمية إذا سخطوا على أعدائهم من رجال الدولة ، ينفونهم إلى جزيرة فى البحر الأحمر أمام سواكن اسمها : دَهْلك : وكانوا ينفون إليها الفسقة واللصوص أيضاً(٨) .

ولكن أهم عمل لعمر بن عبد العزيز هو تنظيمه الضرائب : وكانت قد فرض منها فى عهد عمر بن الخطاب ضريبتا الخراج والجزية على سكان البلاد المفتوحة ، للدلالة على أنهم خضعوا للمسلمين(٩) ، ولدفع عطاء الجند ؛ كما قرر على أهل القرى من دون المدن ضيافة العرب إذا مروا بهم ثلاثة أيام(١٠) . وقد كان من المفروض أن من

(١) نفسه ، ٥ ص ٢٥٦ س ٧
(٢) نفسه ، ٥ ص ٢٥٣ س ١٠ – ١١ .
(٣) نفسه ، ٥ ص ٢٥٢ س ٦ .
(٤) نفسه ، ٥ ص ٢٥٧ س ٢ – ٣ .
(٥) نفسه ، ٥ ص ٢٦٣ .
(٦) نفسه ، ٥ ص ٢٧١ س ٢٣ .
(٧) نفسه ، ٥ ص ٢٦٢ س ٢٢ فما بعدها .
(٨) الكامل ، ٤ ص ١٥٧ ؛ معجم البلدان ، ٤ ص ١١٤ — ١١٥ .
(٩) ابن عبد الحكم ، ص ٨٤ س ١٧ ؛ انظر . قبله الجزء الأول .
(١٠) الماوردى ، الأحكام السلطانية ، ص ١٢٩ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ٦ ص ٢٣٤ – ٢٣٥ .

يسلم يمنع من دفع الضريبتين(١)، وأن يترك لأهل القرى الحرية فى أن يذهبوا من قراهم إلى الأمصار أو المدن للاستقرار فيها(٢) . ولكن عمال الخلفاء الأمويين ، الذين اهتموا بجمع المال المستخرج من البلاد المفتوحة اهتماما شديداً ، حتى أنه وجد فى عهدهم منذ معاوية وظيفة والى الخراج(٣) ، رأوا فى إسلام أهل الشعوب المفتوحة خراباً لخزانة الخلافة بحرمانها من الضريبتين ، وخراباً للزراعة لنقص الأيدى العاملة بهجرتها إلى المدن ؛ لذلك رفضوا أن يتكفلوا لمن أسلم بالحقوق التى وضعها عمر بن الخطاب : فكانوا يعفون من أسلم من الجزية مع استمرار فرض ضريبة الخراج(٤) ، والحد من هجرة أهل الريف إلى المدن حتى أن الحجاج كان يأمر بأن يوسم اسم القرية على يد المولى حتى لا يخرج منها(٥) ؛ بل يبدو أنهم أضافوا أيضاً الضيافة على أهل المدن (٦) ، وفى بعض الأحيان يستمر فرض ضريبة الجزية على من أسلم(٧) . كذلك كان بعض الولاة إذا قبلوا الإعفاء من الجزية ، فإنهم يمتحنون من أسلم بالختان(٨) ، كما كانوا يحملون الموالى يغزون مع العرب بلا عطاء ولا رزق ؛ وكانت نتيجة هذا التشدد الرجوع عن الإسلام.

ولكن عمر بن عبد العزيز لم يرض أن يحيد عن السنة الأولى فى عهد عمر بن الخطاب ؛ إذ أن المال فى رأيه لا يهم ، والدليل على هذا أن الله بعث محمداً

---

(١) أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٤٦ .

(٢) مصنف مجهول ، ص ٣٣٦ (آخر الصفحة).

(٣) اليعقوبى ، تاريخ ، ٢ ص ٢٥٨ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ١٥٨ س ٨ — ٩ .

(٥) نفسه ، ٤ ص ١٨٢ ؛ العقد ، ٢ ص ٩٢ ؛ انظر . قبله ، ص ١٦٢ .

(٦) ابن سعد ، ٥ ص ٢٥٨ س ١٨ .

(٧) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٦ س ١ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٨٢ .

(٨) الكامل ، ٤ ص ١٥٨ س ١٣ .

داعياً ، ولم يبعثه جابياً[١] ؛ فنشر الإسلام وإقبال الناس عليه هو الأهم . لذلك أزال ضريبة الجزية على من أسلم[٢] ؛ وجعل العرب والموالى فى الرزق والكسوة والمعونة والعطاء سواء[٣] ، وأطلق الحرية للناس فى التنقل من الريف إلى المدن؛ وإن منع أهل الذمة من الدخول إلى أمصار المسلمين بالخمر[٤] . ولمنع خراب خزانة الدولة أوجد حلاً لمسألة الخراج ، فرأى أنه لا يؤخذ الخراج ممن أسلم بحكم أنه جزية فى الأصل[٥]، وإنما أبقى على الأرض على أنها من فيء المسلمين[٦]؛ وبذلك لم يعد هناك أرض مملوكة لأصحابها كما فى عهد عمر بن الخطاب وإنما للدولة ؛ كما أنه منع الضيافة على أهل المدن[٧] . كذلك نظم دفع المسلمين للزكاة ؛ وخصص جزءاً منها للمؤلفة قلوبهم كما ينص القرآن ؛ بقصد الترغيب فى الإسلام[٨] ، وجعل خمس الغنائم للأمة الإسلامية ، وليس للخليفة[٩] .

وقد أتت هذه السياسة العادلة النادرة ثمرتها ؛ فأقبلت الشعوب المفتوحة فى عهده على الإسلام ، وهم الذين عرفوا بالموالى[١٠] ؛ حتى أننا نجد له لقب : أمير

---

(١) ابن سعد ، ٥ ص ٢٨٣ س ١٦ — ١٧ ؛ انظر . Gibb:
The Fiscal rescript of Umar II. Arabica. Janvier 1955 fasc, I, p. 8,
يعتمد على مقالة ابن عبد الحكم عن عمر بن عبد العزيز .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٥٨ س ١١ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٢٦٢ س ١٧ — ١٨ .

(٣) ابن سعد ، ٥ ص ٢٧٧ س ٥ — ٦ .

(٤) نفسه ، ٥ ص ٢٦٩ س ٤ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ١٦٣ س ١٠ .

(٦) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٤ س ٨ ؛ انظر . Gibb : Op. cit, p . 3; 8-9.

(٧) ابن سعد ، ٥ ص ٢٥٨ س ١٨ .

(٨) نفسه ، ٥ ص ٢٥٨ س ١١ — ١٢ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ١٣٢ . انظر أيضاً سورة ٩ آية ٦٠ .

(٩) ابن سعد ، ٥ ص ٢٥٨ س ٥ ؛ انظر . Gibb : Op. cit., p.10.

(١٠) الكامل ، ٤ ص ١٥٨ .

المسلمين[١] ، وليس فقط : أمير المؤمنين . ومع ذلك لا نعتقد أن التحول للإسلام مبعثه حل مشكلات اجتماعية أو اقتصادية ؛ ولكن أيضاً له علاقة بالظمأ الروحى ؛ حتى أن الفقه صار فى ذلك الوقت فى جميع البلدان إلى الموالى ؛ كما يلاحظ ياقوت[٢] .

ففى مصر كثر عدد من أسلم ، بحيث استطاع الإسلام أن ينافس الديانة القبطية ، وكان دخول المصريين فيه بنفس السرعة ، التى اعتنقوا بها النصرانية فى القرن الرابع الميلادى . ونجد حيان بن شُريح عامل مصر ، يكتب إلى عمر ابن عبد العزيز يقول له : إن أهل الذمة أسرعوا إلى الإسلام[٣] .

كذلك كثر الإسلام فى عهده بين الفرس وبخاصة فى خراسان ، فقد كان سلمان الفارسى ــ صديق النبى ــ أول من أسلم منهم ؛ حيث أسلم عدد كبير من الفرس ، وكانوا يغزون مع العرب[٤] . ولما كتب عمر إلى ملوك ماوراء النهر يدعوهم إلى الإسلام ، أرسل بعض الملوك يعلنون إسلامهم[٥] . كذلك أسلم عدد كبير من ترك هذه النواحى ؛ خصوصاً وأن دين الترك الوثنى والأديان الأخرى المنتشرة بينهم مثل المجوسية ، لم تكن تستطيع أن تقف أمام الإسلام المنتصر[٦] .

وكتب عمر إلى ملوك السند يدعوهم أيضاً إلى الإسلام والطاعة ، على أن يملكهم ولهم ما للمسلمين وعليهم ما عليهم ؛ فأسلم جيشبة بن ذاهر ملك الهند وبقية الملوك ، وتسموا بأسماء العرب[٧] . وقد كان أثر ذلك كبيراً ؛ فهذه الأجزاء

---

(١) نفسه ، ٤ ص١٦٣ س ١٩ .
(٢) معجم البلدان ، ٣ ص ٤١٣ س ١ فما بعدها .
(٣) ابن سعد ، ٥ص ٢٨٣ س ١٥ ؛ انظر . أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ص٩٣ .
(٤) الكامل ، ٤ ص ١٥٨ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ٤٠٩ ، انظر . أرنولد ، الدعوة ، ص ٧٦ .
(٥) فتوح البلدان ، ص ٤٢٦ .
(٦) انظر . شعيرة ممالك ما وراء النهر ، ص ٣٧ .
(٧) البلاذرى ، فتوح ، ص ٢٩٤ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٣٤ .

من الهند لا زالت مسلمة ، وترتب على تحولها خلق لغة جديدة هي اللغة الأردية ، التي ظهرت نتيجة لإختلاط الهندية بالعربية بالفارسية[١] .

ولكن أثر هذه السياسة كان على الخصوص قوياً في بلاد المغرب بين البربر . حقا إن أبا المهاجر يُعتبر صانع الإسلام بين البربر ؛ إذا كان حريصاً على دعوتهم إلى الإسلام[٢] ؛ كما أن أبا موسى بن نصير قد نجح في كسبهم إلى الإسلام ؛ فكان يشترى الرقيق ويحوله إلى الإسلام ويعتقه ، وترك بين المغاربة الفقهاء لتعليمهم الدين ، حتى أن سكان المغرب الأقصى في زمنه أسلموا إسلاماً صحيحاً ، وجاهدوا مع العرب بغزو الأندلس[٣] . وفي عهد عمر بن عبد العزيز نجح عامله إسماعيل بن عبد الله بن أبي المهاجر ، وكان فقيهاً ، من أن ينشر الإسلام في جميع أرجاء المغرب ، حتى لم يبق في شمال إفريقية أى ساكن إلا وتحول إلى الإسلام[٤] . وحتى الأديان السماوية الأخرى ، التي انتشرت في المغرب عن طريق مصر أو أوربا ، مثل اليهودية والنصرانية اضمحلتا[٥] ؛ فهذه البلاد — أى المغرب — كما يلاحظ المؤرخون كانت سريعة التأثر بالمحتل على الخصوص[٦] .

أما في سورية والجزيرة والعراق ، فيبدو أن تحولها إلى الإسلام كان منذ زمن مبكر ، لأن غالبية سكانها من العرب ، الذين أقبلوا بطبيعة الحال على دينهم القومي.

---

(١) انظر . India, p. 25, : Philips
(٢) انظر . قبله .
(٣) انظر . قبله : عبد الله (نص جديد) ص ٢٢٤ ؛ العبر ٦ ص ١١٨ .
(٤) البيان ، ١ص ٤٨ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٣١ .
(٥) انظر L'Islamisme et le Christianisme, : Bonet - Maury en Afrique. Paris, 1906, p. 6.
(٦) العبر ، ٦ ص ١١٦ — ١٠٧ ؛ انظر. Coup d'oeil sur l'Islam,:Bel en Berbérie. Paris, 1917, p. 3-4.

وقد اتبع عمر بن عبد العزيز سياسة حدود تختلف عن سياسة جميع خلفاء الدولة العربية : فهو على عكس ما يظن لم يوقف الغزو ؛ لأنه كان يقدر أهمية الجهاد لوقف خطر أعداء الإسلام ؛ الذين كانوا مشتبكين معه فى كل مكان . ولكنه أراد أن يكون الغزو لوجه الجهاد خالصاً ؛ لا مجرد حملات للبحث عن الغنيمة، أو للسلب والنهب والرغبة فى القتل[1] . وفى الواقع لم يكن يهم عمر بن عبد العزيز أن تكون له الفتوح العظيمة كسابقيه ؛ ولذلك كانت فترة حكمه القصيرة ، التى امتدت إلى سنتين ، خالية من الغزوات الكبيرة .

فنى الجبهة البيزنطية كتب إلى مسلمة يأمره بالقفول فى سنة ٩٩/ ٧١٧[2] ، وأرسل إليه مدداً ومؤناً من خيل وطعام كثير ؛ إذا لم يكن العرب يستطيعون الصمود بعد ما لاقوه من شدة فى حملتهم فى عهد سليمان . ويبدو أنهم على الرغم مما لحق بهم فى أثناء تقهقرهم ؛ تمكنوا من القضاء على جيش بيزنطى كبير اعترض طريقهم ؛ بحيث أنه لما أرسل نحوهم جيش آخر وعلم بهذه المذبحة عاد أدراجه[3] . ولكن لا يعنى هذا أن حملات العرب على الروم قد توقفت ؛ وإنما اعتبرت دائماً بلادهم أرض حرب[4] ، واستمر خروج الصوائف ونصب المجانيق لدك حصون العدو[5] ؛ وجعلت ملطية كما كانت فى أيام معاوية ، مركزاً لها[6] . وقد كان

(١) العقد ، ١ ص ٤٨ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٥٤ ؛ انظر . قبله .

(٣) انظر . Denys, p. 14

(٤) ابن سعد ، ٥ ص ٢٦١ س ٩ .

(٥) نفسه ، ٥ ص ٢٦٠ .

(٦) الكامل ، ٤ ص ١٥٩ — ١٦٠ . يبدو أن المسلمين منذ عهد عبد الملك ، كانوا قد انتقلوا إلى حصن طرندة قرب ملطية ، فأمر عمر بالقفول منه بعد أن خرب ، وذلك فى سنة ١٠٠ هـ . عنها ، انظر . معجم البلدان ٦ ص ٤٦ .

عمر يقاتل الروم على أساس السنة القديمة ؛ فكان يدعو الحصن من حصون الروم إلى الإسلام أو الجزية أو القتال[١] . ومن ناحية أخرى نظم للمجاهدين فى الثغور حياتهم ؛ فجعل الرباط أربعين يوماً[٢] ؛ وكان يأخذ مرتكبي المخالفات منهم بالعقاب ؛ إذ كان يعتبر إقامة الحدود كإقامة الصلاة والزكاة[٣] .

وتظهر طبيعة عمر بن عبد العزيز الإنسانية فى محاولة معالجة مسألة الأسرى ؛ لا من المسلمين فقط ، ولكن من الروم أيضاً ؛ مما يدل على امتلاء قلبه بحب البشرية . فقد دخل فى مفاوضات مع البيزنطيين للبحث فى مسألة فداء المسلمين الأسرى ، الذين وقعوا فى الحملات التى وجهت فى آسيا الصغرى طول حكم الخلفاء السابقين[٤] ؛ فكانت المفاوضات فى سبيل ذلك أول أمر وقع بين بيزنطة والعرب ؛ ولكن يحثهم على ذلك عرض عليهم ملطية[٥] ، وكان يعطى برجل من المسلمين عشرة من الروم[٦] . كذلك حفظ للأسير امرأته ، فقضى بألا تنكح وزوجها فى الأسر[٧] . ومن ناحية أخرى كان يكره قتل أسرى العدو ، فكانوا يسترقون أو يعتقون[٨] ، مع أن سليمان وحاشيته بما فيها من الشعراء ؛ كانوا يتسلون بقتل الأسرى[٩] .

---

(١) ابن سعد ، ٥ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .
(٢) نفسه ، ٥ ص ٢٦١ س ١٨ — ١٩ .
(٣) نفسه ، ٥ ص ٢٧٨ س ٢٨ .
(٤) البلاذرى ، فتوح ، ص ١٣٣ ؛ انظر . Cheira : La lutte, p. 208-9.
(٥) العيون والحدائق ، ص ٦٣ . يقول مائة ألف أسير .
(٦) ابن سعد ، ٥ ص ٢٦٠ س ٢٦ — ٢٧ .
(٧) نفسه ، ٥ ص ٢٥٩ س ١٠ — ١١ .
(٨) نفسه ، ٥ ص ٢٦١ س ٣ — ٤ .
(٩) الكامل ، ٤ ص ١٥١ .

وفى ناحية الشرق ، كان العرب بعد فتوحهم العظيمة قد وصلوا إلى بلاد وثنية وكان موقف المسلمين منها إما تحويلها إلى الإسلام أو القضاء عليها. وكانت حملات الشرق على يد يزيد بن المهلب عامل العراق ، قد جلبت أموالاً كثيرة ؛ إلا أنه كان فيها قسوة شديدة ؛ لذلك عزله لمآخذ عليه ، وولى بدله الجراح بن عبد الله الحكمى[(١)] ، إلا أنه كان فيه جفاء ، فولى غيره[(٢)] ؛ وأمر بأن تكون الحملات فى هذه النواحى حملات جهاد حق[(٣)] : فاستمر الجهاد ضد الديلم من سكان بحر قزوين ، الذين أغاروا على المسلمين فى ثغر قزوين فحاربهم وحمى الثغر[(٤)] ؛ كما حارب الترك من ناحية آذربيجان[(٥)] ؛ وكذلك قام عامله عمر بن مسلم الباهلى أخو قتيبة بن مسلم بغزو مظفر فى الهند[(٦)] .

وفى جبهة الأندلس كان العرب بعد قتل عبد العزيز بن موسى فى سنة ٩٧/ ٧١٥[(٧)] ، قد ولوا عليهم أيوب بن حبيب اللخمى أحد أقرباء موسى ، فقام بنقل العاصمة من أشبيلية[(٧)] ، التى اتخذها عبد العزيز قصبة للعرب منذ الفتح إلى قرطبة[(٨)] ؛ وسك عملة إسلامية صرفة فى سنة ٩٨/ ٧١٦[(٩)] . وقد كان تصرف سليمان

---

(١) نفسه ، ٤ س ١٥٤ ؛ ١٥٧ . وذلك فى سنة مائة . انظر . أيضاً . فتوح البلدان ، ص ٣٣٧ .

(٢) نفسه ، ٤ ص ١٥٧ — ١٥٨ .

(٣) العقد ، ١ ص ٤٨ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ٧٧ .

(٥) نفسه ، ٤ ص ١٥٤ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ١٦٠ .

(٧) انظر . قبله ؛ لسان الدين بن الخطيب ، كتاب أعمال الأعلام ، تحقيق ليفى بروفنسال ، ١٩٥٦ ، ص ٦ . هو أسر اخت موسى بن نصير .

(٨) البيان ، ٢ ص ٢٣ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٢١ .

(٩) انظر . Lavoix : Op. cit. I, p. 97. ؛
Guiliou : Les Monnayages Latino - Arabes, p. 61.
مجلة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد ، العدد الثالث ، المجلد الأول ، سنة ١٩٥٥ .

فى هذه الناحية أن أوقف الزحف ، ولم يحدث شىء جديد فى عهده ، بخاصة أنه غير العامل[١] ، إلى أن جاء السَّمح بن مالك الخولانى من قبل عمر بن عبد العزيز فى سنة ١٠٠ /٧١٨[٢] ؛ فعاد إلى الغارة فى الأراضى الواقعة شمال جبال البرت .

*

هذا الخليفة المثالى ، الذى عمل على نشر العدل والإنسانية بين سكان دار الإسلام ، حكم أقل من ثلاث سنوات ، وتوفى بخناصرة بليدة قرب حلب فى البادية ، وهو شاب لم يتجاوز الأربعين[٣] ؛ أو لعله مات مسموماً على يد بنى أمية ، الذين خافوا أن يخرج الأمر منهم ، فسقوه السم فمات[٤] .

* * *

وبعد عمر بن عبد العزيز تولى الخلافة يزيد بن عبد الملك بعهد من أخيه سليمان أو من أبيه عبد الملك[٥] . وكان سليمان قد حاول تنحيته عن ولاية عهده بتولية أحد أبنائه ؛ ولكن لم يلبث أن أسلم الأمر لابن عمه عمر ؛ لاسيما وأن يزيد كان وقتئذ غائباً[٦] . ورجل مثالى كعمر لا بد أنه لم يكن يرغب أيضاً فى أن يولى عهده يزيد ؛ لما عرف عنه من تبذله وميله إلى اللهو ؛ حتى أن الخوارج كانت تحرضه على عزله[٧] . ولكنا لا نعتقد أن عمر أراد أن يفعل كما فعل معاوية الثانى ، فيخرج

(١) هو الحر بن عبد الرحمن الثقفى . انظر . البيان ، ١ ص ٤٧ .

(٢) المرجع الأخير ١ ، ص ٤٨ ؛ ٢ ص ٢٦ . لا نصدق قول ابن القوطية إنه كان من رأى عمر بن عبد العزيز أن يقفل أهلها منها ؛ لإنقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين . انظر . افتتاح الأندلس ، ص ٢٠٦ .

(٣) الكامل ، ٤ ص ١٦١ . عن خناصرة ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٤٦٧ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ١٥٧ .

(٥) نفسه ، ٤ ص ١٥٢ ؛ صبح الأعشى ، ٣ ص ٢٥٧ ؛ انظر . قبله .

(٦) الكامل ، ٤ ص ١٥٢ . . يقول فى الموسم ، ولعله يقصد فى الحج .

(٧) نفسه ، ٤ ص١٥٦ .

الخلافة من بنى أمية ؛ لاعتقاده بأن هذا الحق ليس لهم ؛ وإنما نرى أن عمر كان أموياً عربياً يرى أن الخلافة يجب أن تبقى فى هذا البيت ؛ إلا أنه كان لا يريدها ليزيد ؛ وهدد بنى مروان بالانسحاب إلى المدينة ليجعلها شورى[1] . لذلك ربما قد يكون ليزيد يد فى موته مسموماً[2] . وإن كتب عمر إليه وهو على فراش الموت يوصيه بالأمة[3] . وقد بويع ليزيد فى اليوم الذى توفى فيه عمر ، وذلك فى رجب من سنة ١٠١[4] / فبراير ٧٢٠ .

٥

وقد كان هذا الخليفة مثل غيره من الأمويين يحب حياة البادية ، فينزل فى موضع اسمه مُوَقَّر فى البلقاء قرب دمشق[5] ، واستسلم لغرائزه ، وشغف بحب جاريتين إحداهما تسمى حبابة[6] والأخرى سلامة القس[7] ، وكلاهما كانت تغنى وتضرب بالعود . وكان أخوه مسلمة — القائد المعروف — يلومه فى الإلحاح على الغناء والشراب وتشاغله عن مصالح الأمة ؛ ولكنه لم يقبل غير نصيحة حبابة التى غنته : ما العيش إلا ما تلذ وتشتهى[8] . كذلك ظهرت له تصرفات غريبة

(١) ابن سعد ، ٥ ص ٢٥٣ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٥٧ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ١٦٦ س ١ — ٢ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ١٦٥ ؛ العيون والحدائق ، ص ٦٤ . عنه ، انظر المراجع الواردة فى هذه الهوامش ، وبخاصة المرجع الأخير ، ص ٦٤ فما بعدها ؛ وأيضاً
Ency. de l'Isl, (art Yazîd B. 'Abd al - Malik) t4, p. 1226.

(٥) الأغانى ، ١٣ ص ١٦٠ س ٣ ؛ معجم البلدان ، ٨ ص ١٩٩ ؛ انظر . قبله .

(٦) حبابة مولدة من المدينة ، وكان اسمها العالية ، اشتراها يزيد أيام أخيه سليمان حينما حج إلى المدينة ، وهو الذى سماها حبابة ، وأجبره سليمان على بيعها لرجل من إفريقية ، فلما ولى الخلافة اشترتها له زوجته على أن يجعل ابنها الوليد ولى عهده . عنها ، انظر . الأغانى ، ٤ ص ١٥٤ فما بعدها .

(٧) سلامة القس كانت لرجل عابد يسمى القس لعبادته وأخذها يزيد منه . الكامل ، ٤ ص ١٩١ — ١٩٢ .

(٨) الأغانى ، ١٣ ص ١٥٧ — ١٥٨ .

أخذها عليه المؤرخون ، مثل : أمره بقتل كل ما هو أبيض من كلاب وحمام وديوك ورجال شقر ، وقطع ذراع السارق وليس يده ، وهدم الصور في الكنائس ، مما جر إلى احتقار أهل عصره له على حد قولهم[١] . هذه الحياة العابثة جملته لا يهتم بأحوال الدولة ، وإنما تركها للولاة أو لجواريه ؛ بحيث أن حبابة كانت تولى وتعزل العمال بغير أمره[٢] . فضاعت المثالية في الحكم التي وضعها عمر ، وعادت الأمور إلى أسوأ ما كانت عليه من قبل ؛ فهو على حد قول ابن الأثير : عمد إلى كل ما صنعه عمر بن عبد العزيز مما لم يوافق هواه فرده[٣] .

فقد جرت سياسته الداخلية إلى بعث روح العصبية بين اليمانية والمضرية ؛ مما جعلها تنخر في عظام الخلافة الأموية ، إلى أن قضت عليها . حقاً إنه منذ أن صالح عبد الملك المضرية ونفوذها في ازدياد ، لاسيما وأن الحجاج — وهو مضرى — كان يسيطر على الدولة في عهدى عبد الملك والوليد . ومع ذلك فإن الخليفتين كانا يمسكان العصا من وسطها ، ولا يظهر أنهما تعصبا لفريق دون آخر ، بل كانا يستخدمان من اليمانية عمالاً في عمل الحجاج نفسه . ولما جاء سليمان الذى كان يحقد على الحجاج، لم يتبع سياسة نصرة اليمانية على القيسية ، وإنما حفظ التوازن بين القبيلتين . ولكن يزيد ، الذى كان متزوجاً بنت أخى الحجاج[٤] ، أعلن انضمامه صراحة للمضرية ، وجعلها تستأثر بعطف الخلافة الأموية على

---

(١) انظر Denys. p. 17—18
(٢) الأغانى ، ١٣ ص ١٥٧ .
(٣) الكامل ، ٤ ص ٦٦ س ٧ — ٨ .
(٤) نفسه ، ٤ ص ١٦٠ .

حساب أهل الشام[١] ؛ مع أن اليمانية كانوا أغلب سكان سورية التي بها مركز حكم الأمويين ؛ فأنقص يزيد عطاء اليمانية وجعله نصف عطاء المضرية ؛ مما أدى إلى حدوث اضطراب في سورية نفسها[٢] .

ولكن غضب اليمانية على خلافة يزيد بلغ غايته في عمل العراق حينما هرب إليها يزيد بن المهلب[٣] ؛ الذي كان عاملاً للحجاج على خراسان بعد وفاة أبيه في سنة ٧٠٢/٨٢[٤] ؛ ثم عزله عبد الملك برأي الحجاج ، ثم ولى قتيبة بن مسلم - كما ذكرنا - في سنة ٧٠٤/٨٥[٥] ؛ لأن الحجاج كان يرى فيه النجابة ويخاف منه ؛ فأخذ الحجاج يزيد وحبسه إلى أن تمكن يزيد من الهروب في سنة ٧٠٨/٩٠ - ٧٠٩[٦] . وقد أجار سليمان يزيد بالشام وأخذ له الأمان من الوليد ، بأن أرسله مقيداً مع ابنه أيوب في سلسلة واحدة. ولما تولى سليمان الخلافة عزل يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج من عمل العراق ، وولاه إياه في سنة ٧١٥/٩٧[٧] ، على حربه وصلاته وليس على خراجه[٨] . ولم يلبث يزيد بن المهلب أن سيطر على عامل الخراج أيضاً ، وطمع في خراسان فوليها[٩] ؛ فقام بفتوح عظيمة في نواحي بحر قزوين .

إلا أنه لما تولى عمر بن عبد العزيز عزله لما أخذ عليه : ربما لأنه كان يكرهه وأهل بيته ويقول عنهم : هؤلاء جبابرة ، أو لأن يزيد كان يقول عن عمر إنى لأظنه

---

(١) انظر . Denys, p. 18.

(٢) الطبري (Annales) ، ٢ : ١٨١٤ ؛ Theophanis., p. 412.

(٣) العيون والحدائق ، ص ٥٠ فما بعدها ؛ انظر . قبله .

(٤) الكامل ، ٤ ص ٨٣ ؛ انظر . قبله .

(٥) نفسه ، ٤ ص ٩٦ ؛ وفيات ، ٢ ص ٣٩٣ ؛ انظر . قبله .

(٦) الكامل ، ٤ ص ١١٤ - ١١٦ ؛ انظر . قبله .

(٧) وفيات ، ٢ ص ٤٠٢ .

(٨) الكامل ، ٤ ص ١٤٤ .

(٩) نفسه ، ٤ ص ١٤٥ .

حراثياً[1]. ولكن السبب الحقيقى هو مماطلة يزيد بن المهلب فى إرجاع خمس الغنائم التى حصل عليها فى حروبه التى قام بها فى نواحى بحر قزوين ؛ وكان قد وقع فى يد عمر كتاب مرسل منه إلى سليمان ؛ يخبره فيه أنه قادم ومعه غنائم كثيرة[2]. وعلى الرغم من أنه لم تثبت على يزيد البينة بأخذه هذه الأموال وأنه قال فى ذلك[3]: « إنما كتبت إلى سليمان من باب المباهاة »؛ فإن عمر أنذله بأن أراد أن يرسل به إلى دَهْلَك وهى جزيرة فى البحر الأحمر بجوار سواكن ، حيث كان خلفاء بنى أمية يحبسون فيها من ينقمون عليه ؛ ولما أظهرت عشيرته غضبها ؛ اكتفى عمر بحبسه فى حصن حلب سنة ١٠٠/٧١٨[4].

وقد استطاع يزيد بن المهلب الفرار من سجنه هذه المرة أيضا ، لما سمع بموت عمر بن عبد العزيز فى سنة ١٠١/٧١٩[5] ؛ لخوفه من يزيد بن عبد الملك ، لأن ابن المهلب كان قد عذب آل الحجاج ، بأن أخذهم إلى بادية الشام وحبسهم ، ولم يشفع فى زوجة يزيد أو أختها من بنات الحجاج إلا لما جاءه يزيد بنفسه ؛ بحيث أن هذا الأخير هدده وقال له : « أما والله لئن وليت من الأمر شيئاً لأقطعن منك عضواً » ، فقال ابن المهلب : « والله لئن كان ذلك لأرمينك بمائة ألف سيف » . وقد هرب يزيد بن المهلب إلى واسط بالعراق ، لوجود قبيلته الأزد بها ، ولأنه لما ولى العراق لسليمان اتبع سياسة تخالف سياسة الحجاج ، فأخلى المحابس وأحسن إلى الناس بما حبسهم فيه[6] ؛ ولعله لم يختر خراسان — عمله السابق — لوجود قبائل مضرية

---

(١) نفسه ، ٤ ص ١٥٧ .

(٢) نفسه ؛ فتوح البلدان ؛ ص ٣٣٧ .

(٣) وفيات ، ٢ ص ٣٩٧ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٥٧ .

(٤) نفسه ، ٢ ص ٤٠٥ ؛ نفسه .

(٥) الكامل ، ٤ ص ١٦٠ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ١٥١ .

حوية بها[١] ؛ ولأنه كان قد أساء لأهل الشام فيها[٢] . وفى أول الأمر طلب الأمان من سميه يزيد[٣] ، وحاول أن يتفادى خلعه أو قتال عدىّ بن أرطأة عامله بالبصرة ، وجاءت اليمانية إلى ابن المهلب ، والمضرية إلى عدى . وقد تظاهر عدىّ برغبته فى التفاوض ، وفى الوقت نفسه حبس بعض أخوة ابن المهلب ، فلم يكن بد من أن يحدث قتال ؛ إلا أن عسكر ابن المهلب تمكنوا من الانتصار على عسكر عدىّ ، الذين مالوا إلى ابن المهلب لكرمه . وبعدها خلع ابن المهلب الخليفة ، ودعا إلى الرضا من بنى هاشم ، أو الشورى فى اختيار الخليفة ؛ فكانت بيعته على كتاب الله وسنة نبيه[٤] . وهكذا عاد العراق إلى الثورة على الخلافة الأموية ، كما حدث فى فتنة المختار ومصعب وابن الأشعث من قبل ، وعاد النزاع بين الشام والعراق .

ولكن الخليفة أرسل إليه أخاه مسلمة بن عبد الملك وعباس بن الوليد ، وكلاهما من كبار القواد ، فتمكنا من صده عن أخذ الكوفة[٥] . بعد ذلك التقى ابن المهلب مع الجيوش الشامية فى مكان العَقْر أو عقر بابل قرب كربلاء يمين الفرات فى سنة ١٠٢/٧٢٠[٦] ، وكان معه أخوته ؛ وهم كثيرون[٧] ، بخاصة

---

(١) انظر . Well : Arab. p. 315—316.

(٢) لعل سليمان هو الذى طلب منه التأكد من أن قتيبة خلعه ، إذ كانت قيس تزعم أنه لم يخلع ، فقام بأذى أهل الشام أثناء تحقيقه ذلك . الكامل ، ٤ ص ١٤٥—١٤٦ .

(٣) العيون والحدائق ، ص ٥٢ ــ ٥٤ .

(٤) نفسه ، ص ٦٥ .

(٥) وفيات ، ٢ ص ٤٠٧—٤٠٨ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٦) الكامل ، ٤ ص ١٧١ — ١٧٢ .

(٧) قد يبلغ عددهم ثلثمائة . انظر . وفيات ، ٢ ص ٢١٦ س ٢٥ .

وأن أباهم المهلب قبل موته أوصاهم بألا يتفرقوا[١] . ولكن كفة جيوش الشام رجحت بسبب انضمام مضرية البصرة إليهم[٢] ، ولأن الحسن البصرى الفقيه المعروف كان يثبط همم أهل البصرة فى الانحياز إلى آل المهلب[٣] . وبعد قتال استمر ثمانية أيام تغلب مسلمة بالخديعة ، بأن أحرق جسراً على فرات البصرة ؛ فظن عسكر ابن المهلب أنها الهزيمة ، وتسللوا[٤] . ومع أن ابن المهلب كان فى أثناء القتال قد أصيب بالحمى ، ووُضع على كرسى ؛ إلا أنه لما شعر بالهزيمة امتطى جواده وقاتل إلى أن قتل[٥] . وقد هرب آل المهلب إلى كرمان المجاورة فى سفن ، فأرسل مسلمة فى طلبهم وقتل أغلبهم ؛ إلا من استطاع الفرار إلى الهند[٦] . وبذلك قضى على فتنة قوم كانوا قد تفانوا فى خدمة الأمويين ، وقاموا بفتوحات عظيمة ، وضرب بهم الشعراء المثل فى الكرم ، حتى قيل لم يكن فى بنى أمية أكرم من بنى المهلب[٧] .

ولسوء سياسة يزيد عاد الخوارج أيضا إلى مهاجمة العراق . فنجد شوذب الخارجى المسمى أيضاً بسطام ، الذى ظهر فى عهد عمر وهادنه يهاجم الكوفة ، ويهزم جيوشها عدة مرات . ولكن مسلمة حينما دخل الكوفة لحرب ابن المهلب أرسل نحوه جيشاً ضخماً تمكن من قتله بعد معركة شديدة[٨] . ولما استدعى

---

(١) قبل وفاته أحضر سهاماً فحزمت ، وقال لأبنائه : أتكسرونها مجتمعة ؟ قالوا : لا ، قال : أفتكسرونها متفرقة ؟ قالوا : نعم ، قال : فهكذا الجماعة . الكامل ، ٤ ص ٨٣ .

(٢) الوجيز الأخير ، ٤ ص ١٦٩ س ١٠ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ١٧٠ . توفى فى عهد هشام سنة ١١٠ . نفسه ، ٤ ص ٢٠٥ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ١٧٣ .

(٥) العيون والحدائق ، ص ٧١ .

(٦) الكامل ، ٤ ص ١٧٥ ؛ وفيات ، ٣ ص ٤٠٩ .

(٧) وفيات ، ٢ ص ٣٩٥ . انظر قصائد ثابت قطنة فى : الطبرى (طبعة مصر) ، ٥ ص ٣٤٨ — ٣٤٩ .

(٨) العيون والحدائق ، ص ٦٤ — ٦٥ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٦٦ — ١٦٧ .

يزيد مسلمة من عمل العراق ، وولاه عمر بن هبيرة فى سنة ١٠٢/٧٢٠ ؛ بناء على سعاية جاريته حبابة ، ولأنه كان من أتباع الحجاج الذين عرفوا بالنجابة ، كان ابن هبيرة يحارب الخوارج فى عمله[1] ؛ كما أن يزيد نفسه اضطر إلى استعطاف حرورى اسمه عقفان ومصالحته[2] .

أما فى الولايات : ففى عهده رجع العمال إلى سياستهم الأولى فى الإساءة إلى الموالى ، بالاعتماد على القوة وحدها ؛ مما جعلهم يثورون على الخلافة ، ويكفرون بالإسلام .

ففى أول خلافته ولى يزيد بن أبى مسلم مولى الحجاج وصاحب شرطته على المغرب ؛ وهو دميم قصير ، اشتهر بقسوته مثل الحجاج فى العراق ، وكان سليمان قد عزله وولى ابن المهلب ؛ كما أن عمر بن عبد العزيز حبسه ؛ لأنه كان يكره سيرة الحجاج[3] . فسار يزيد بن أبى مسلم فى البربر بسيرة الحجاج مخالفاً سياسة عامل عمر قبله ؛ فأعاد الجزية على من أسلم ، وكان يرسم اسم حرسه على أيديهم كما تصنع الملوك من غير المسلمين ؛ فثار عليه البربر وقتلوه[4] ؛ وكتبوا إلى يزيد أنهم لم يخلعوا أيديهم عن الطاعة ؛ فادعى أنه لم يقره على فعله[5] ، ثم ولى عليهم عاملاً آخر هو بشر بن صفوان سار على نفس السياسة المعادية للبربر ، وأخذ فى تعذيب آل موسى بن نصير[6] .

(١) الكامل ، ٤ ص ١٩٠ . عن ابن هبيرة ، انظر . العبر ، ٣ ص ٨٢ — ٨٣ ؛ Ency. de l'Isl, (art. Ibn Hubaira) t2, p. 411.

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٨٩ — ١٩٠ .

(٣) وفيات ، ٢ ص ٤١١ — ٤١٢ . تولاها فى سنة ١٠١ أو ١٠٢ . الكامل ، ٤ ص ١٨٢ .

(٤) البيان ، ١ ص ٤٨ ، فتوح البلدان ، ص ٢٣١ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ١٨٢ .

(٦) البيان ، ١ ص ٤٩ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٣٠٢ ؛ الخطط ، ٢ ص ٨٦ .

وفى بلاد ما وراء النهر ، عاد العمال إلى استخدام القسوة أيضاً ؛ مما جر إلى نقض أغلب ممالكها حلفها مع المسلمين؛ مثل : الصغد[١] وفرغانة[٢] وكش ونسف[٣]؛ بل إن كثيراً من الأهالى ارتدوا من الإسلام ، الذى كانوا قد أقبلوا عليه فى عهد عمر بن عبد العزيز . كذلك شغل العرب فيها بنزاعهم القبلى ، فلم يهتموا بإخماد ثورة أهلها ؛ حتى وسموا بالجبن[٤] ، واستفحلت الفتنة بحيث لما أرسل مسلمة من العراق عاملاً اسمه سعيد ، سموه خذينة لضعفه ولينه ، وهزموه هزيمة منكرة[٥] . فلما تولى ابن هبيرة العراق عزل سعيد خذينة، وأرسل بدله سعيد بن عمر الحرشى — كان عُرف بشجاعته فى قتال الخوارج[٦] — فحث العرب على الجهاد، وصالح كثيراً من بلاد ما وراء النهر الثائرة ، مثل كش ونسف ؛ كما أنه حارب الصغد بمساعدة خوارزمشاه وأخرون وشومان ، وقتل كثيراً منهم[٧] . إلا أن ابن هبيرة مالبث أن عزله فى السنة الأخيرة من خلافة يزيد ، وتولاها مسلم بن سعيد ؛ الذى لم يفعل شيئاً[٨] ؛ مما أضعف سيطرة العرب فى هذه النواحى .

أما سياسته الخارجية ، فنجد أن الأمور تتأزم بسبب الفرصة التى أتاحها عمر بن عبد العزيز بسياسته المثالية ، وإهمال يزيد للجهاد بإقباله على اللهو ، فلم نعد نسمع عن غزوة عظيمة فى عهده ، وإنما أصبح هم قواده أن يبقوا ما استطاعوا على أملاك الخلافة ، ووقف خطر الأعداء الطامعين فيها .

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٢) الطبرى ، ٢ : ١٤٤٠ .

(٣) الكامل ، ٤ ص ١٨٦ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ١٧٧ .

(٥) نفسه ، ٤ ص ١٧٩ — ١٨٠ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ١٦٧ ، انظر . قبله .

(٧) نفسه ، ٤ ص ١٨٦ ؛ العبر ، ٦ ص ٨٣ .

(٨) نفسه ، ٤ ص ١٨٨ — ١٨٩ ؛ نفسه ، ٦ ص ٨٥ .

فني الجبهة البيزنطية كادت الحملات تقف ، ولم نسمع إلا عن غزوات معدودة(١) ؛ حتى أن ابن المهلب ، وصف جند الشام في عهده بأنهم برابرة وجرامقة وأبناء فلاحين وأوباش وأخلاط(٢) ، بل نزل الروم إلى الساحل المصري(٣) ؛ وفي الشرق عاد خاقان الترك إلى التدخل في بلاد ما وراء النهر ، منتهزاً ثورتها على الخلافة ؛ بحيث تحالف مع دهاقنة كثيرين فيها(٤) ؛ كما أن الشعوب القوقازية على حدود أرمينية بدأت تغير فيها وتهزم عمال العرب ؛ لولا أن يزيد أرسل إليهم أحد قواد المسلمين المهرة وهو الجراح بن عبد الله الحكمي ، الذي أوقف تقدمهم(٥) ، دون أن يقضي على خطرهم ؛ أما في الهند فلم نسمع عن حملات ؛ وإن كان في الأرض الكبيرة المجاورة للأندلس نسمع بقتل عامل الخلافة السمح بن مالك الخولاني(٦) .

وقد جاء موت هذه الخليفة العابث بعد حكم دام أربع سنين في ١٠٥/٧٢٤ ؛ بسبب حزنه على جاريته حبابة التي رماها بحبة عنب ، فدخلت حلقها فشرقت وماتت ، فتركها ثلاثة أيام لا يدفنها وهو يشمها ويقبلها ؛ فعاتبه مسلمة عن الشيء ، وبقي خمسة عشر يوماً ، ومات ودفن إلى جوارها(٧) .

* * *

(١) الكامل ، ٤ ص ١٨٢ . غزاهم عمر بن هبيرة وعباس بن الوليد في سنة ١٠٢ هـ .
(٢) نفسه ، ٤ ص ١٧٠ س ٨ .
(٣) الخطط ، ٢ ص ٨٦ . في ولاية بشر بن صفوان .
(٤) نفسه ، ٤ ص ١٧٨ — ١٧٩ .
(٥) نفسه ، ٤ ص ١٨٦ — ١٨٧ .
(٦) البيان ٢ ص ٢٦ ؛ فجر الأندلس ، ص ٢٤٦ .
(٧) الكامل ، ٤ ص ١٩٠ — ١٩١ .

وفى يوم موت يزيد، بويع لهشام بن عبد الملك فى شعبان سنة ١٠٥/٧٢٤(١) : فقد ولى عهده منذ أن وجه الجيوش إلى العراق، فطلب منه العباس بن الوليد أن يعهد لخلف له ، خوفاً من أن يفت فى عضد الجند ، إذا ما قال أهل العراق مات أمير المؤمنين ولم يترك خلفاً ، وطلب منه أن يولى ابنه الوليد ؛ حيث كان يزيد يسعى إلى ذلك . ولكن أخاه مسلمة بن عبد الملك ، تدخل فى الأمر ، وطلب منه أن يعين هشاماً ، لأن الوليد حدث لما يتجاوز عمره يومئذ إحدى عشرة سنة ، على أن يولى ابنه بعده(٢) . ولم يطلب مسلمة أو العباس الخلافة لنفسيهما؛ لأن الأول كانت أمه من الرقيق(٣) ، والثانى كانت أمه رومية(٤) .

*

وقد كان لحسن حظ الخلافة الأموية أن هشاماً اهتم بشئون الدولة العربية ؛ وإن أحب سكنى البادية مثل غيره من خلفاء الأمويين ، فكان يقيم قبل خلافته وإلى وقت وفاته بموضع فى وسط الصحراء غربى الفرات ، كان لملوك الغساسنة وتكثر به الكنائس العظيمة فعرف باسمه، وهو: رُصَافَة هشام أو رُصَافَة الشام؛ وكان شرب سكانها من صهاريج(٥)؛ لأنه لم يكن عندها نهر ولا عين جارية. وعلى نقيض يزيد كان هشام تقياً ؛ إلا أن هوايته بدت فى أنه كان يقيم فى أكثر المدن الحوانيت والخانات والبيوت ليستغلها(٦) . ولا يعنى هذا أن هشاماً قد تمكن

---

(١) الكامل ، ٤ ص ١٩٢ . عنه ، انظر . عدة مراجع ، منها : العيون والحدائق ، ص ٨١ فما بعدها ؛
Ency. de l'Isl, (art Hishâm B.'Abd al-Malik) t2, p. 337-338
(٢) الكامل ، ٤ ص ١٧٧ — ١٧٨ ؛ الأغانى ، ٦ ص ١٠١ — ١٠٢ .
(٣) انظر . Ency. (art Maslma) t3, p. 447
(٤) الطبرى (طبعة مصر)، ٥ ص ٢٣٣ .
(٥) فتوح البلدان ، ص ١٨٠ ؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٢٥٥ — ٢٥٦ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art al-Rusâfa) t3, p.1265 sqq. الرصافة مواضع كثيرة .
(٦) أغابيوس ٨/٣ (القسم الثانى) ص ٥٠٥ [٢٤٥] .

من القضاء على النتائج السيئة لسياسة سلفه يزيد ، الذى أوغر صدور العرب اليمانية ، وشعوب البلاد المفتوحة ؛ إلا أنه حاول أن يصلح مافسد ، وإنقاذ ما يمكن إنقاذه ؛ وإن لم يصل فى سياسته إلى مثالية عمر بن عبد العزيز . ولمجهوده فى هذا الصدد ، وصفه الخليفة المنصور العباسى بأنه بحق : رجل بنى أمية[١] .

ففى ولاية العراق كانت اليمانية لا تزال تحقد على الخلافة الأموية ؛ بسبب هزيمتها على يد يزيد بن عبد الملك . ولكى يخفف هشام من حدة غضبها عزل عاملها القيسى ابن هبيرة ، وأرسل خالد بن عبد الله القسرى[٢] ، وهو من قبيلة بجيلة فى شمال جزيرة العرب ، التى يبدو أنها كانت محايدة فى نزاع اليمانية والمضرية[٣] . وقد اشتهر خالد بالرأى والخطابة ، فاستطاع أن يهدىء من حدة نزاع القبائل ، ويقضى على فتن الخوارج[٤] ، ويقدم للعراق فترة استقرار طويلة ؛ إذ اهتم بتحسين أحواله الزراعية ، وجوّد عملته ، التى عرفت باسمه : الخالدية[٥] ؛ فأحبه أهل العراق ، خصوصاً وأنه كان لا يحب سيرة الحجاج لقسوته ، وشنع عليه .

ولكن فجأة غضب هشام على خالد وعزله فى سنة ١٢٠/٧٣٨ ، وأرسل مكانه ابن عم الحجاج ، يوسف بن عمر الثقفى[٦] ، الذى كان قد ولى اليمن

---

(١) مصنف مجهول ، ص ١٧٢ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٩٢ . عنه بالتفصيل ، انظر . وفيات ،١ ص ٢٣٨ — ٢٤٢ ؛
Ency. de l'Isl, (art Khâlid B. 'Abd Allah al - Kasrî), t2 p. 929-930.

(٣) الأغانى ، ١٣ ص ٤ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Badjîla) t1, p. 569.

(٤) العيون والحدائق ، ص ١٠٩ — ١١١ ؛ الكامل ، ٤ ص ٢٣٠ — ٢٣٣ .

(٥) الماوردى ، الاحكام السلطانية ، ص ١٣٩ ؛ انظر . قبله .

(٦) الكامل ، ٤ص ٢٣٥ . عنه بالتفصيل ، انظر . وفيات ،٢ ص ٥٣٦ — ٥٤٣ ؛
Ency. de l'Isl, (art Yusûf B. 'Omar) t4, p. 1245—1243.

لهشام منذ سنة ١٠٦/٧٢٤ ؛ وذلك مع كره أهل العراق لسيرة الحجاج . ويبدو أن تغيير هشام لعامله ، راجع إلى رغبته فى تغيير سياسته نحو أهل العراق ؛ فلعله عزل خالداً بسبب أنه مالأ الشيعة حتى قواهم ؛ أو لأن ولايته ذل للإسلام ؛ فأمه كانت نصرانية ، وكان الحكم فى عهده لأهل القسمة[1] . وفعلاً عاد يوسف إلى سيرة الحجاج ، فعزل عمال خالد كلهم ، واستخدم الشدة ، وأخذ الناس بالمشاق ؛ كما أخذ خالداً وعذبه وضربه بالسياط ؛ وكان هو نفسه أحق متناقضاً .

وقد ترتب على تغيير هشام سياسته أن عاد العراق إلى الفتنة ؛ بخاصة من قبل الشيعة الذين كانوا قد قبلوا الخضوع للأمويين ؛ منذ أن أخمدت فتنة المختار . فقد ثار زيد بن علىّ زين العابدين بن الحسين فى الكوفة سنة ١٢٢/٧٤٠[2] ، بحجة إصلاح الخلافة التى فسدت بتولية الأمويين ؛ فكان أول علوى بعد الحسين يثور على الخلافة . فهو على خلاف أبيه علىّ بن الحسين، الذى كان ينهى عن الفتن[3]، وأظهر خضوعاً مطلقاً للأمويين إلى وقت مماته فى عهد الوليد سنة ٩٤/٧١٢ — ٧١٣[4]، حتى أنه للأهوال التى رآها — وهو صغير مع الحسين — كانت تأخذه رعدة إذا قام للصلاة[5] .

---

(١) ربما لأنه أيضاً كان يطلق لسانه فى حق هشام ، أو لحقد هشام عليه لأمواله الكثيرة، أو لتدخله فى ولاية العهد . عن كل ذلك ، انظر . وفيات ؛ الكامل ، ٤ ص ٢٣٥ — ٢٣٨ .

(٢) عن هذه الفتنة ضمن مراجع أخرى ، انظر . مقاتل الطالبين ، ص ٩٢ فما بعدها ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٢٣٩ فما بعدها ؛ انظر الخطط ، ٤ ص ٣٠٧ فما بعدها ؛
Ency. de l'Isl, (art Zaîd. B. 'Alî) t4, p. 1260.

(٣) ابن سعد ، ٥ ص ١٦٠ س ١٥ .

(٤) نفسه ، ٥ ص ١٦٤ ؛ انظر . قبله ، ص ١٢٤ .

(٥) ابن سعد ، ٥ ص ١٦٠ .

ويتبين من روايات المؤرخين أن زيداً لم يفكر أول الأمر فى الخروج ؛ فقد كان يقيم بالمدينة ، كثير العبادة يُنشى عليه من اجتهاده فيها (١) ؛ ولكن أمير العراق الجديد يوسف بن عمر استدعاه بحجة أخذه المال ، الذى أودعه عنده خالد — العامل قبله — الذى كان يصل بنى هاشم . فلم يذهب زيد إلى العراق ، وإنما ذهب رأساً إلى الرصافة التى بها هشام خوفاً من يوسف ؛ ولكن هشاماً أساء معاملته وأذله ، فخرج غاضباً إلى الكوفة (٢) ؛ على الرغم من تحذير أقربائه له بألا يركن إلى أهلها (٣) . فلما دخلها أقبل عليه أهلها وألحوا فى الخروج ؛ ولكنه تردد وذهب إلى القادسية ؛ فلاحقوه إلى أن أعادوه إلى الكوفة ؛ فبايعوه على جهاد الظالمين ، والدفع من المستضعفين ، وأعطوه العهود والمواثيق . وبرغم هذه الروايات ، نعتقد أن زيداً كان طامحاً إلى الخلافة ، حتى أن هشاماً قال له : « بلغنى أنك تذكر الخلافة وتتمناها » ، وكان بنو هاشم يحضون أهل الكوفة على مبايعته (٤) ، وقال هو نفسه (٥) : إنه خرج على الأمويين لأنهم قاتلوا جده الحسين ، وأغاروا على المدينة يوم الحرّة ، ورموا بيت الله بالمجانيق . أضف إلى ذلك أنه كان له أنصار من الشيعة فى كل مكان فى : الكوفة والبصرة وواسط والموصل وجرجان وخراسان (٦) .

ولكن لما بدأ يوسف يبحث عنه ، وحصر أنصاره فى مسجد الكوفة

---

(١) مقاتل ، ص ٩٣ .

(٢) نفسه ، ص ٩٧ — ٩٨ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٢٣٩ ؛ الكامل ، ٤ ص ٢٤٠ فما بعدها . قيل فى استدعاء هشام له أسباب أخرى .

(٣) الكامل ، ٤ ص ٢٤١—٢٤٢ ؛ انظر . دونلدسن ، عقيدة ، ص ١٢٦ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ٢٤٦ س ١٢ — ١٣ .

(٥) الفرق بين الفرق ، ص ٢٥ .

(٦) مقاتل ، ص ٩٨ .

تفرق عنه أتباعه ؛ فلم يبق معه إلا مائتا رجل ، حتى أنه كان يبكى ويقول : «أما أحد يغضب لرسول الله » ؛ فقاتل زيد ومن معه (١) ، حتى قتلوا عن آخرهم ؛ مما يدل على أن الذى دعا إلى تأييده هو حماس الجموع ؛ وأنهم لم يكونوا منظمين فى جيوش للمقاومة . ومع أن أصحاب زيد دفنوه إلا أن يوسف أخرج الجثة وصلبها وحرقها ، وحملت رأسه إلى الأقطار (٢) ؛ ويبدو أن هشاماً ساءه مقتله إذ كان يكره سفك الدماء . وقد ترتب على ذلك أن تفرق أتباع زيد وأنصاره ، الذين عُرفوا فيما بعد باسم الزيدية(٣) ، وكانت لهم مدرسة فقهية لها أراؤها فى القرآن والشرع ، وتمكنوا من تكوين دولة جنوب بحر قزوين ؛ كما هرب ابنه يحيى إلى خراسان ، ونزل عند أحد الدهاقنة(٤) ، فكتب يوسف إلى نصر ابن سيار — وكان عامله على خراسان فى آخر أيام هشام — أن يأخذ يحيى أشد الأخذ ، فتمكن نصر من حبسه(٥) . ولما توفى هشام ، وولى الوليد بن يزيد بعده فإنه أمّنه ، وأمر بإرساله إليه ؛ ولكن بدلاً من أن يذهب إلى الوليد ثار فى الجوزجان ، فحاربه جند نصر وقتلوه وصلبوه

---

(١) نفسه ، ص ١٠٣ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ٢٥ ــ ٢٦ .

(٢) مقاتل ، ص ١٠٤ ــ ١٠٥ . قتل فى سنة ١٢٠ أو ١٢٢ . ابن سعد ، ٥ ص ٢٤٠ .

(٣) النوبختى ، ص ٥٨ ، الفرق بين الفرق ، ص ٢٥ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art al-Zaidîya) t4, p.124 sqq.

(٤) النوبختى ، ص ٥٨ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ٢٦ ؛ مقاتل الطالبين ، ص ١١١ فما بعدها ، ابن سعد ، ٥ ص ٢٣٩ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Yahya B. Zaîd al-Husaîni) t4, p.1214—1215 Das Staadsrecht der Zaiditen Srtassbourg : Strothmann : 1912, p. 74; 107.
عن الجوزجان ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ١٦٧ .

(٥) مقاتل ، ص ١١٣ ــ ١١٥ .

كأبيه فى العراق ، وذلك سنة ١٢٥ /٧٤٣[١]؛ وبقيت جثته إلى وقت ظهور العباسيين فأنزلوه ، فأقام له أتباعه مشهداً[٢] . وعلى العكس بقى أخوه محمد مقرباً من هشام[٣] ، إذ كان يحب السلام وترك الخصام ويهتم بالعلوم فقط[٤] ، حتى أنه سمى بالباقر لتبقره فى العلم وسبر غوره[٥] ؛ فضلاً عن أنه كان صغير السن لا يتجاوز تسع عشرة سنة[٦] .

وقد كانت خراسان من عمل العراق ، هى الأخرى فى قلاقل مستمرة ؛ بسبب النزاع بين مضر واليمانية ، مما أضعف من نفوذ العرب؛ وكانت رغبة هشام فى أن يسود السلام بين القبيلتين[٧] . فنى سنة ١٠٦ /٧٢٤ ، تباطأت ربيعة والأزد فى الغزو ، فأرسل إليهم هشام نصر بن سيار وكان وقتئذ أحد قواده على رأس مضر ، فأعادهم إلى الصواب[٨] . ولكن أحد عمال هشام فى سنة ١١١ /٧٢٩ ، واسمه الجنيد بن عبد الرحمن ، كان لا يستعمل فى نواحى عمله إلا مضرياً[٩] . ومع أن هشاماً فى آخر حكمه ولى خراسان نصر بن سيار بعد استشارة خلصائه

---

(١) نفسه ، س ١١٤ — ١١٥ .

(٢) نفسه ، س ١١٦ ؛ الإمامة ، ٢ س ٢١٢ .

(٣) عنه ، انظر ابن سعد ٥ س ٢٣٥ — ٢٣٨ ؛ انظر .
؛ Ency. de l'Isl, (art Muhammad B. 'Ali) t3, p. 715.
دونلدسن ، س ١٢٣ فا بعدها . توفى فى سنة ١١٤ و ١١٧ ، ١١٨ .

(٤) ابن سعد ، ٥ س ٢٣٦ س ٥ ؛ انظر . دونلدسن ، س ١٢٩ .

(٥) اليعقوبى ؛ تاريخ ، ٢ س ٣٨٤ .

(٦) ابن سعد ، ٥س ٢٣٨ .

(٧) فمثلا عزل أسد فى سنة ١٠٩ /٧٢٧ ، لأنه تعصب . انظر . الكامل ، ٤ س ٢٠٠ .

(٨) نفسه ، ٤ س ١٩٣ — ١٩٤ .

(٩) نفسه ، ٤ س ٢٠٦ س ٢١ .

فى سنة ٧٣٨/١٢٠؛ لأنه وصف له: على أنه رجل عفيف مجرب عاقل(١)؛ فإن نصراً بذل جهده ليهدم من حدة عصبية القبيلتين؛ إلا أنه لم يستطع أن ينتزع العداوة بينهما؛ مما أضعف من نفوذ العرب فى سيطرتهم على أهالى البلاد المفتوحة، فى هذه النواحى.

كذلك فى بلاد ما وراء النهر ساءت حالة الموالى، بسبب سوء معاملة الولاة لهم. ففى سنة ٧٢٨/١١٠؛ كتب عامل خراسان واسمه أشرس، إلى عماله أن يستمروا فى أخذ الخراج على من أسلم لأن فيه قوة المسلمين، وفرض الجزية، وعزل العمال الذين لم يوافقوه؛ مما جعل أهالى ما وراء النهر يثورون ويرتدون عن الإسلام(٢). وقد ظهر عربى لم يقبل تصرف عمال الأمويين، واسمه الحرث بن سريج، فخرج على الخلافه فى سنة ٧٣٤/١١٦، لتخليص المضطهدين، ودعا إلى كتاب الله وسنة نبيه، والبيعة لمن يرتضيه المسلمون «الرضا»(٣)؛ فانضم إليه كثير من أهالى نهرى جيحون وسيحون. ولما أرسل هشام نحوه القواد من قبله حاربهم فى معارك شديدة(٤)، ثم هرب إلى الترك وقاتل معهم(٥)، واستمر يقاتل العرب إلى أن قتل بعد هشام فى سنة ٧٤٥/١٢٨(٦). ولم يخفف من غضب الموالى على الخلافة، إلا لما بعث هشام على عمل خراسان هذا الرجل المجرب العاقل نصر بن سيار، الذى عاد إلى سياسة عمر ابن عبد العزيز فى حكم هذه البلاد؛ ما جعلهم يقبلون على الإسلام: فأقام المظالم وعفا عمن كان مسلماً فارتد عن الإسلام، ووضع الجزية عمن أسلم(٧). وقد أنكر

(١) نفسه، ٤ ص ٢٣٩ س ٢ — ٣، انظر،
; Ency. de l'Isl, (art Nasr B. Sayâr) t3, p. 933—935.
انظر. بعده.
(٢) نفسه، ٤ ص ٢٠٢ — ٢٠٣.
(٣) نفسه، ٤ ص ٢١٨؛ انظر، حسن إبراهيم، الدولة العربية، ص ٢٥٤؛ انظر. بعده.
(٤) نفسه، ٤ ص ٢١٨ — ٢٢١. حارب عاصما وأسداً من عمال هشام.
(٥) نفسه، ٤ ص ٢٤٤؛ ٢٤٧.
(٦) نفسه، ٤ ص ٢٩٢ فما بعدها.
(٧) نفسه، ٥ ص ٢٤٣.

معاصروه هذا الدين . ولكن هشاماً أقره على ذلك(١) ، ممـا أبقى على سيطرة الخلافة عليها .

وفى الهند ترتب على سوء حكم الولاة أيضاً،أن ارتد ملوكها عن الإسلام، مع أنهم أقبلوا عليه فى عهد عمر بن عبد العزيز . وتسموا بأسماء عربية . فحاربهم الجنيد بن عبد الرحمن — وكان وقتئذ عامل الهند فى سنة ١٠٧ / ٧٢٥ — فأسر جيشبة بن ذاهر وقتله ، كما قتل أخاه صصه الذى كان يريد أن يمضى إلى العراق؛ ليشكو غدر الجنيد ؛ مما جر إلى أن كفر أهل الهند جميعاً (٢) . وقد نقل هشام الجنيد إلى عمل خراسان فى سنة ١١١/٧٢٩ ، وولى بدله الحكم بن عوام الكلبى ، الذى أخذ من غير جدوى فى إعادة نفوذ المسلمين ، بمساعدة عمرو بن محمد ابن القاسم . وبعد الحكم بن عوام كان الولاة لا يفتحون إلا ماتيسر ، بحيث أضطر المسلمون إلى الخروج من بلاد الهند ، وضاعت سيطرتهم عليها .

وفى مصر لم يصبر القبط على سوء معاملة عمال الأمويين لهم ؛ ففى عهد عمر ابن عبدالعزيز نقلت الجزية على الموتى إلى أقربائهم الأحياء(٣)،وفى عهد يزيد كسرت الأصنام والتماثيل فى الكنائس(٤) ، وفى عهد هشام زاد متولى الخراج عبيد الله ابن الحبحاب الخراج (٥) ، باعتبار أن مصر فتحت عنوة ، وأن أهلها عبيد للعرب؛ لهم أن يزيدوا عليهم ما يشاءون من المال (٦) ؛ كما أن هشاماً نقل إلى الحوف الشرقى

(١) نفسه، ٤ ص ٢٥٠ .
(٢) نفسه ، ٤ ص ١٣٤ ـ ١٣٥ .
(٣) ابن عبد الحكم ، ص ١٥٥ .
(٤) الخطط ، ٢ ص ٨٦ س ٧ ـ ٨ ؛ ساويرس ، سير البيعة المقدسة ، تحقيق Evetts (P.O.) ، ٥ ص ٧٣ .
(٥) الخطط ، ١ ص ١٢٧ (يقول عبد الله بن الحبحاب) .
(٦) الكامل ، ٢ ص ٣٩٧ س ٢٦ .

بعض بيوت قيس [١] ، التى استولت على أراضى المصريين . لذلك ثار القبط ثورتهم الأولى فى سنة ١٠٧/ ٧٢٥ ؛ واستمرت حتى سنة ١٢١/ ٧٣٣ ؛ بحيث عمت الدلتا والصعيد ، وكونوا الجيوش ، وحاربوا العمال ، وأجبروا أحدهم على التراجع إلى دمياط . ولكن الخليفة هشاماً أرسل نحوهم عدة عمال ، وتمكن حنظلة ابن صفوان عامله من القضاء عليها فى سنة ١٢٢/ ٧٣٩ ، بعد أن استعمل القسوة ، وقتل أناساً كثيرين من القبط [٢] .

كذلك وجد الخوارج فى المغرب أرضاً خصبة ؛ وهم الذين كانوا قد قصم ظهر مقاومتهم بالمشرق ، فاستغلوا سوء تصرف العمال لإثارة البربر على الخلافة الأموية ؛ حيث كان العمال يتهاونون بالبربر ومالهم ، وحيواناتهم [٣] ؛ واعتبروهم أقل من العرب . ويمكننا أن نقدر مدى نجاح دعوة الخوارج بين البربر ، فى أنها كانت تدعو إلى المساواة ، وأن البربر أقبلوا على الإسلام حباً فى المساواة . وقد تمكن فيهم مبدأ الخوارج الأباضية والصفرية [٤] على الخصوص ، مع أن هاتين الفرقتين فى الشرق لم تكونا حرباً على الخلافة كالأزارقة ، وأن الصفرية كانت قد رأت القعود وعدم القتال ، وربما كانت تسميتهم صفرية بسبب قعودهم واصفرار وجوههم [٥] ؛ ولكن حركتهم فى المغرب أصبحت أقسى من حركة الأزارقة بالشرق . كذلك كانت بعض القبائل البربرية تنشر الردة ، والعودة إلى عباداتها قبل الإسلام [٦] .

وقد ثار البربر على هشام لأول مرة فى سنة ١٢٢/ ٧٤٠ ، وتزعمهم خارجى

(١) الخطط ، ١ ص ١٢٨ — ١٢٩ .
(٢) نفسه ، ١ ص ١٢٧ — ١٣٨ ؛ ساويرس ، نفس المرجع ، ٥ ص ٢٦ .
(٣) العبر ، ٦ ص ١١٨ .
(٤) أخبار مجموعة ، ص ٢٨ .
(٥) انظر . قبله ، ص ١٤٣ .
(٦) العبر ، ٦ ص ١١٨ س ٢٥ .

من الصُّفرية اسمه ميسرة المدغرى أو الحقير ، كان بائع ماء من برر البتر ، استطاع أن يجمع البربر حوله ، وتسمى بأمير المغرب[١] ؛ بحيث أن ظهوره أرجع للبربر حماسهم القديم ، الذى ظهر فى عهدى كسيلة والكاهنة من قبل . ولا ريب أن الذى دفع ميسرة إلى جمع البربر هو سوء تصرف عمال هشام ، فعامل طنجة عمر ابن عبد الله أساء السيرة وأراد تخميس البربر أى جعلهم فيئاً للمسلمين ، وإسماعيل بن عبيد الله عامل السّوس — ابن عبيد الله بن الحبحاب عامل المغرب ووالى مصر — أساء السيرة أيضاً ، وكان يسرق فتيات المغرب البربريات الجيلات[٢] . لذلك انتهز ميسرة فرصة إرسال حملة للغارة على صِقلية ، وهجم بجموع البربر التى هبت تؤيده وتشد من أزره ؛ فعملوا على الفتك بوالى طنجة ووالى السوس[٣] .

ولكن ميسرة ما لبث أن أساء السيرة ، فنقم عليه البربر وقتلوه ، وولوا خالد بن حميد الزناتى ، الذى أعلنها هو الآخر حرباً شعواء ضد العرب[٤] . فأسرع عبيد الله بن الحبحاب — عامل مصر والمغرب — باستقدام حملة صقلية ، وأرسل عرب القيروان ، ووجههم بقيادة خالد بن أبى حبيب الفهرى . ولكن البربر تغلبت على العرب قرب طنجة ، فى موقعة على وادى شلف ، عُرفت بغزوة الأشراف فى سنة ١٢٣ / ٧٤١ ، لأنه بعد قتال شديد لم يسمع قط مثله ، حاصر البربر العرب من أمام وخلف ، فلم يهرب منهم أحد أنفة الفرار ، فقتلوا جميعاً ، بما فيهم خالد بن أبى حبيب . وكان للانتصار على جيش والى المغرب رنة فرح

(١) البيان ، ١ ص ٥٢—٥٣ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Berbères) tl. p. 717.
يقول ابن خلدون مضغرة (العبر ، ٦ ص ١١٨) ، أو حق المطغرى (نفسه ، ٦ ص ١١٠) .
(٢) البيان ، ١ ص ٥٢ .
(٣) نفسه ؛ العبر ، ٦ ص ١١٩ ؛ أخبار مجموعه ، ص ٢٨ .
(٤) البيان ، ١ ص٥٣—٥٤ ؛ العبر، ٦ ص ١١٠—١١١ .

كبرى فى أرجاء بلاد المغرب ؛ بحيث أن البربر بعدها انتصروا على العرب فى كل مكان .

وقد غضب هشام لهذا الإنتصار البربرى ، وقال : « والله لأغضبن لهم غضبة عربية ، ولأبعثن لهم جيشاً أوله عندهم وآخره عندى[١] » . فأرسل نحوهم فى نفس العام كلثوم بن عياض القشيرى ، وهو شيخ كبير ، ومعه جيش من عرب مصر وطرابلس وبرقة ، عدده ثلاثون ألف ؛ كما أرسل جيشا ثانياً من جند الأردن بقيادة بلج بن بشر القشيرى[٢] ، ابن أخى كلثوم . وبعد قتال شديد بقدورة[٣] ، على نهر سُبو[٤] قرب طنجة ، دارت الدائرة على العرب ، وتمكن البربر من هزيمتهم ، مع أن البربر لم يكونوا فى خيل[٥] ؛ فقد انقسم البربر قسمين ، قسم يقاتل كلثوماً ، وقسم يقاتل بلجاً ؛ فقتل كلثوم وقواده ، واضطرت فلول بلج إلى الهروب إلى سبتة ، فحاصرهم البربر ، إلا أن بلجاً قاتلهم إلى أن أرسلت إليه السفن ودخل الأندلس .

بعد هذه الهزيمة المنكرة ، عادت الأمور كما كانت عند فتح المغرب ، حيث لم يبق العرب إلا فى القيروان ، التى سعى البربر إلى الاستيلاء عليها أيضاً ؛ خصوصاً وأن فتنة البربر كانت قد امتدت إلى طرابلس ، بثورة قبيلة هوارة . ونجد

(١) البيان ، ١ ص ٥٤ — ٥٥ . عنه ، انظر .
Ency. l'Isl, (art kalthûm B. 'Iyâd al-Kushairi) t2, p. 1179.
(٢) أخبار مجموعة ، ص ٣٠ . عنه ، انظر .
Ency. de l'Isl, (art Baldj B. Bishr) tI, p. 630.
(٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٢ .
(٤) عنه ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٣٢ .
(٥) أخبار مجموعة ، ص ٣٣ — ٣٥ ؛ ٣٧ — ٣٨ ؛ البيان ، ١ ص ٥٥ — ٥٦ .

لهم وقتئذ عدة قواد ، منهم : طريف الذى قد تنسب إليه إحدى مدن الأندلس ، وعكاشة بن أيوب الصفرى وعبد الواحد بن يزيد الهوارى ، وكلاهما من قبيلة هوارة . وهؤلاء القواد أخذوا على عاتقهم أن يطهروا المغرب من ولاة الدولة الأموية فى القيروان ، ولذلك أرسلوا نحوها جيشاً فى ثلاث مائة ألف[1] .

عندئذ أدرك هشام أنه أمام ثورة عارمة تحتاج إلى عناية كبرى ، فأرسل جيشاً كبيراً بقيادة حنظلة بن صفوان الكلبى فى سنة ١٢٤/٧٤١ ، الذى كان عامله على مصر منذ سنة ١١٩/٧٣٧ ، وقضى على ثورتها الكبرى ، وهو أخو بشر بن صفوان الذى كان يزيد قد ولاه على مصر ثم المغرب من قبل[2] . وقد قابل حنظلة البربر بخطة بارعة ، لا سيما وأن أهل القيروان ردوا طريفاً عنها ، فخرج حنظلة لمقابلة جيوش البربر كل جيش على حدة ؛ بحيث دارت الدائرة على البربر ، فهزم عبد الواحد وقتله فى قرن جبل بإفريقية[3] ، ثم هزم عكاشة وأخذه أسيراً وقتله . وقد قتل من البربر ما لا يحصى ، بحيث أنه ليتسير إحصاؤهم وضعوا قصبة عند كل قتيل ، ثم جمعت القصب وعدت ، فكان القتلى مائة وثمانين ألفاً . وقد كان لانتصار حنظلة رنة فرح كبرى ؛ بحيث قورن هذا النصر بالنصر فى بدر . وبهذا تم إخضاع المغرب للخلافة ، وقصم ظهر الخوارج الصفرية .

---

(١) البيان ، ١ ص ٥٦ — ٥٩ ؛ العبر ، ٦ ص ١١١ .

(٢) انظر أيضاً . الخطط ، ٢ ص ٨٦ — ٨٧ . عنه ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Hanzala B. Safwân) t2. p. 278.

(٣) عن قرن ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٦٦ .

كذلك انقسمت الأندلس فى منازعات داخلية ، فضلاً عن أن الخلافة الأموية بمنذ أن عملت على قتل عبد العزيز بن موسى ، أصبح أهل الأندلس يولون أغلب ولاتهم بأنفسهم؛ كما أن بعض ولاة الخلافة كانوا لا يمكثون فى الحكم إلا شهوراً[١].

وحينما قامت الفتن بالمغرب ، وتوفى عامل الأندلس عقبة بن الحجاج السلولى أو خُلع وقتل[٢] ، ولى عرب الأندلس على أنفسهم عبد الملك بن قطن الفهرى فى سنة ٧٤٠/١٢٢ ، الذى كان ولـيها من قبل فى سنة ٧٣٢/١١٦ ؛ فأخذ فى مطاولة البربر بالأندلس الذين ثاروا على العرب تضامناً مع بربر المغرب . لذلك لما التجأ بلج بن بشر إلى الأندلس من إفريقية بعد قتل كلثوم فى سنة ٧٤١/١٢٣ ، أرسل إليه ابن قطن السفن ؛ فقاتل معه البربر الذين احتشدوا فى كل مكان ورأسوا عليهم أحدهم ، حتى جاءوا نهر تاجه ؛ فأخرج ابن قطن إليهم عرب بلج ، وأقبلوا على مدينة طليطلة . فصمد لهم ابن قطن وقاتلهم بيسالة حتى قضى على مقاومتهم ؛ وبعدها تفرق العرب فى أنحاء الأندلس ، فقتلوا البربر فى كل مكان حتى أطفئوا جمرتهم[٣] .

ولـكن ما لبث أن حدث نزاع بين عرب ابن قطن وعرب بلج ، خصوصاً وأن عرب ابن قطن كان أغلبهم من عرب الحجاز ، الذين أتو الأندلس بعد موقعة الحرّة ، وعرب بلج من عرب الأردن[٤] ؛ فتنازعوا على السيطرة ، وادعى

---

(١) الـكامل ، ٤ ص ٢١٤ س ٣ — ٤ . بعد السمح دخلها عنبسة بن سحيم الـكلبى ، فملك أربع سنين وخمسة أشهر ، ثم دخل يحيى بن سلامة ، فملك سنة وستة أشهر ، ثم حذيفة بن الأحوص القيسى ، فملك ستة أشهر ، ثم ولى عثمان أبى نسعة الخثعمى ، فملك ستة أشهر ، ثم ملك الهيثم بن عبيد الـكلابى أربعة أشهر ، ثم عبد الرحمن بن عبيد الله الغافقى ، سنتين وسبعة أشهر ، ثم ولى عبد الملك بن قطن الفهرى ثلاث سنين وشهرين ، ثم عقبة ابن الحجاج السلولى . انظر . لسان الدين ، أعمال ، ص ٦٠ .

(٢) الـكامل، ٤ ص٢٥٠؛ أخبار مجموعة، ص ٢٩ ؛ العبر ، ٦ ص ١١٩ ، عنه ؛ انظر
Ency. de l'Isl ,(art Abd al-Malik B. Katan) tI, p. 49.

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٤٠ ؛ البيان ، ٢ ص ٣٠ — ٣١ .

(٤) أخبار مجموعة ، ص ٣٠ .

بلج ولايتها من قبل هشام ؛ وتذاكروا يوم الحرّة[١] . وفى أول الأمر كان ابن قطن قد رفض إدخال بلج حينما كان محاصراً فى سبتة ، أو حتى أن يمده بالميرة ، فأكل جنوده دوابهم ، لولا أن بلجاً استحلفه بمروبته[٢] ، وكان ابن قطن يريد أن يقضى على فتنة البربر . فلما تمت هزيمة البربر ، طلب ابن قطن من بلج وجنوده الرجوع إلى سبتة ، إلا أنهم رفضوا ، وأوقعوا بابن قطن بمساعدة يمانية الأندلس فى سنة ٧٤١/١٢٣ ؛ فأخذه عرب بلج وقتلوه وصلبوه ، مع أنه كان شيخاً كبيراً تجاوز عمره التسعين سنة[٣] . ولكن صاحب أربونة ـ وهى ثغر العرب فى الأرض الكبيرة ـ عبدالرحمن بن علقمة اللخمى لم يلبث أن قتل بلجاً فى سنة ١٢٤ / ٧٤٢ ؛ فولى عرب الأندلس عليهم ثعلبة بن سلامة من أهل الشام ، فقام بقتال العرب والبربر[٤] .

هذا الاضطراب فى الأندلس ، جعل عربها وبربرها يكتبون إلى حنظلة والى المغرب من قبل هشام أن يرسل إليه عاملاً يجمعهم ، ويأخذ بيعتهم له ولأمير المؤمنين ، لا سيما وأن فتن بربر المغرب كانت قد انتهت ، فسمى لهم هشام عاملاً اسمه أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبى ؛ فوصل الأندلس فى سنة ١٢٥/٧٤٢ ، وكان من خيار أهل الشام ، فجمع الكلمة[٥] .

*

كذلك تفاقم الخطر الخارجى فى عهد هشام ، وتعددت جبهاته ، وتوقفت الفتوح ، ومع ذلك فقد حافظ هشام على الفتوحات السابقة ، بفضل قواد عظام .

(١) البيان ، ٢ ص ٣٢ ؛ المعجب ، ص ١٣
(٢) أخبار مجموعة ، ص ٣٧ ـ ٣٨ .
(٣) نفسه ، ص ٤١ ـ ٤٢ .
(٤) نفسه ، ص ٤٤ ـ ٤٥ ؛ لسان الدين ، أعمال ، ص ٧ .
(٥) نفسه ، ص ٤٥ ـ ٤٦ ؛ الكامل ، ٤ ص ٢٦٠ ؛ المعجب ، ص ١٣ .

ففى عهده عادت من جناحى الثغور الشامية والجزرية حملات الصوائف والشواتى بانتظام ، فنسمع عن الصائفة اليسرى واليمنى[١] ؛ كما عاد غزاتهم فى البحر ، مثل غزو صقلية من أملاك الروم[٢] ؛ مما يدل على نشاط هذا الخليفة فى القيام بالجهاد . ولكن بسبب المدنة الطويلة التى أتاحتها مثالية عمر ، وإهمال يزيد ؛ تقوى الروم ، فكان العرب يفقدون فى الشتاء ما يجنونه فى الصيف[٣] ؛ كما أن الروم هاجموا الساحل المصرى بأسطولهم فى أثناء انتفاض القبط[٤] . ومع ذلك استطاعت جيوش هشام أن تتوغل فى داخل آسيا الصغرى مرة واحدة بقيادة ابنه سليمان ، حينما حدث انقسام داخلى فى مملكة الروم ؛ بسبب محاولة الأمبراطور ليون الثالث « Leontios III » ، منع عبادة صور المسيح ومريم ، وهو ما عرف بالحركة الأيقونية[٥] ، إذ أن ليون كما قلنا كان سورياً شرقياً ؛ وربما كان قد تأثر بالوحدانية الإسلامية ؛ فقد خرج عليه أحد الثوار وزحف المسلمون على القسطنطينية ، ولكنهم تراجعوا لنجاح ليون فى القضاء على غريمه وسمل عينيه[٦] .

ولم يلبث أن اختل الثغر بموت مسلمة البطل الكرار فى سنة ٧٣٩/١٢١ ، كما يلاحظ المؤرخون[٧] ، وهو الذى دل بنشاطه ومهارته على مقدرة هائلة فى حرب الروم ؛ فقد هاجمهم من أيام عبد الملك إلى وقت هشام . لذلك حدث بموته رد

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٢١٦ .

(٢) غزاها فى سنة ٧٢٧/١٠٩ (الكامل ، ٤ ص ٢٠١ قبل آخر الصفحة بثلاثة سطور) ، وفى سنة ٧٣٤/١١٦ (نفسه ، ٤ ص ٢١٩) وفى سنة ٧٣٥/١١٧ (نفسه ، ٤ ص ٢٢٢) .

(٣) أغابيوس ، ٣/٨ (القسم الثانى) ص ٢٤٥ .

(٤) الخطط ، ٢ ص ٨٦ . نزل الروم على تروجة قرية بالبحيرة قرب الاسكندرية (عنها انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٣٨٤) ، فحاصروها ثم اقتتلوا مع العرب فأسروا .

(٥) أغابيوس ، ٣/٨ (القسم الثانى) ص ٢٤٦ ؛ الكامل ، ٤ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ .

(٦) انظر Denys, p. 24-25

(٧) الأغانى ، ٦ ص ٧٠٤ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Maslama) t3, p. 447.

قبل من جانب الروم ، فقد أصيب جيش عربي عدده خمسون ألفاً بخسارة كبيرة في سنة ١٢٢/٧٤٠ ، فلم يتبق منهم إلا عشرة آلاف ، وقتل قائده البطال[1] . بل أكثر من هذا أن الروم نقلوا القتال في آخر حكم هشام إلى الحدود العربية ذاتها ، حتى أنهم جاءوا بقيادة أمبراطورهم قنسطنطين الخامس « Constantinus V » ، الذي جاء بعد ليون، للهجوم على حصن ملطية في ١٢٣/٧٤١ ؛ بحيث أن نساء العرب لبسن العمائم وقاتلن مع الرجال ؛ ولما جاء هشام من الرصافة بالمدد ، كان الروم قد رحلوا[2] . وقد ترتب على نقل الروم الهجوم إلى ثغور الشام ، أن العرب سعوا إلى تقوية حصونهم القديمة ، وأنشأوا حصوناً دفاعية ، مثل : حصن المثقب ، وقطرغاش ، وهما بجوار المصيصة ، وبوقة (أو بوقا) من عمل أنطاكية[3] .

ولا ريب أن الذى أضعف الحملات على الروم ، هو الخطر الذى أحدق بفتوحاتهم في أرمينية منذ عمر بن عبد العزيز ؛ بحيث أن الدفاع عنها أخذ الجزء الأكبر من نشاط الخلافة وقوادها المعروفين . فقد غزت أرمينية عناصر جبلية متوحشة ، كانت تسكن حول بحر قزوين والبحر الأسود ، عند الجبال التي في شمالها ، المعروفة باسم : قبق[4] أو القبج[5] (القوقاز) ، وهي شعوب كثيرة لها أسماء مختلفة ، حتى يقول ياقوت إنهم سبعون لساناً ، لا يعرف كل شعب لسان

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٢٤٨ — ٢٤٩ ؛ انظر . Ency, p. 25.
وقيل أيضاً سنة ثلاثة وعشرين ومائة .

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٨٦؛ انظر. La Lutte, p. 230 – 231 : Cheira Arab, p.340 : Weil

(٣) فتوح البلدان، ص ١٦٦ ــ ١٦٧ .عن مثقب ، انظر. معجم البلدان، ٧ ص ٣٨٣ ، وقطرغاش (نفسه ، ٧ ص ١٢٤) ، وبوقا (نفسه ، ٢ ص ٣٠٧ ــ ٣٠٨).

(٤) عنها، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٧ .

(٥) مروج الذهب ، ٢ ص ١ فما بعدها .

الآخر[١] : فلعلها هجرات حديثة جاءت من وسط آسيا تحت ضغط موجات الهون (الهياطلة) إلى المناطق القوقازية ؛ فهي لا تذكر في النصوص قبل القرن السادس الميلادي .

وقد كان أظهر هذه الشعوب الخَزر[٢] — الذي هو اسم مملكة — حتى أن بحر قزوين عُرف باسمها : بَحْرُ الخَزر[٣] . ولعلهم من نفس أصل الشعب البُلغاري ، إذ أقاموا معاً على نهر الفُولجا ، الذي يطلقون عليه في لغتيهما إتل أي النهر[٤] ، كما أن لسان البلغار مثل لسان الخزر ، كما يلاحظ الاصطخري[٥] . وعلى النقيض يتكلم الخزر لغة مخالفة كل الاختلاف عن التركية والفارسية ؛ وإن كانت لهم عادة الترك في بيع أولادهم[٦] . وينقسم الخزر إلى سمر كالهنود ويسمون قراخزر وبيض ؛ ويدينون بعدة أديان منها الوثنية والنصرانية واليهودية والمجوسية[٧] . وقد كانت مملكة الخزر كبيرة تمتد في سهول واسعة حول نهر إتل (الفولجا) ، فكان البلغار في شمالهم يدفعون الجزية لهم[٨] ،

---

(١) البلدان ، ٧ ص ٢٧ . انظر أسماء بعض هذه الأمم المتعددة . نفسه، ٧ ص ١٠ .
(٢) نفسه ، ٣ ص ٤٣٢ ؛ فما بعدها ؛ انظر .

: Minorsky : Ency. de l'Isl, (art khazar) t2, p. 99 sqq
The Khazars and the Turks in Ahkâm al - Morgân. Reprinted from The Bull. of. S. O. S. Vol IX, Part I, 1937

(٣) معجم البلدان ، ٢ ص ٦٦ — ٦٨ .
(٤) نفسه ، ١ ص ١٠٣ — ١٠٤ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Bulghâr) tI, p. 805 ; Barthold, p. 22.

(٥) المسالك ، ص ٢٢٥ .

(٦) معجم البلدان ، ٣ ص ٤٣٤ س ٥ — ٦ ؛ الاصطخري ، مسالك ، ص ٢٢٣ ؛
Op. cit, p. 34. D'hsson. انظر ؛

(٧) معجم البلدان ، ٣ ص ٤٣٣ س ١٣ ؛ Denys, 22. 3.

(٧) انظر . Op. cit, p. 197. : O'hsson

وملوكهم كملوك الترك يتلقبون بالخاقان(١) .

كذلك كان يوجد بجوار شعب الخزر شعبان آخران كبيران يتردد إسماها معاً فى كتب المؤرخين العرب ، هما اللاّن فى طرف أرمينية شمال القوقاز مجاورين الخزر ؛ وهى مملكه واسعة عاصمتها مفص ، ويعتنق أهلها المسيحية(٢) . والشعب الآخر هو شعب السرير(٣) — اسم مملكة — يجاور اللان ، ويمتد حتى دَرْ بَند(٤) ، وهى مدينة أو قلعة بناها ملك الفرس أنوشروان على بحر قزوين ، عُرفت أيضا باسم باب الأبواب(٥) أو الباب ، لأنها تحيط بها أفواه شعاب جبال القبق التى أقيمت عليها الحصون ، كما أن من نواحيها مدينة شَرْوَان على اسم هذا الملك(٦) . ولعل هذا الشعب الأخير من البدو ، و إن كان الملك يتلقب عندهم بلقب : « شاه(٧) »

وقبل الإسلام كانت الشعوب القوقازية وبخاصة الخزر تغير فى مملكة فارس وتدخل فى بلادها ، حتى أن الفرس بنوا على أفواه جبال القبق ما عُرف بالأبواب أى الحصون لمنع غارتهم (٨) ، منها باب الأبواب المذكور عند بحر قزوين ، كما أنهم ساعدوا هرقل على استعادة أرمينية من

---

(١) معجم البلدان ، ٣ ص ٤٣٣ ؛ الاصطخرى ، ص ٢٢٤ .

(٢) نفسه ، ٧ ص ٣١٦ ؛ مروج الذهب . ٢ ص ٤٢ ؛ انظر . Minorsky : Caucasica III. The Alân capital Magas and the Mongol Campaigns, Reprinted from the B. S. O.A. S.1952, XIV/2, p. 223.

(٣) معجم البلدان ، ٥ ص ٨٠ ؛ المسعودى ، مروج الذهب ، ٢ ص ٤٢ ؛ انظر . O' hsson : Op. cit, p. 163,175.

(٤) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٥٠ .

(٥) عنها ، انظر . نفسه ، ٢ ص ٩ فما بعدها .

(٦) عنها ، انظر . نفسه ، ٥ ص ٢٥٨ .

(٧) المسعودى ، مروج الذهب ، ٢ ص ٤٢ .

(٨) معجم البلدان ، ٢ ص ١٠ — ١٢ ؛ فتوح البلدان ، ص ١٩٤ — ١٩٥ .

الفرس[1] . فلما فتح العرب فارس فى عهد عمر بن الخطاب ، أغاروا على بلاد الخزر حوالى سنة ١٩/٦٤٠[2]، ولما فتحوا أرمينية فى عهد عثمان ، قوبلوا باشتراك الخزر واللان مع الروم فى مقاومتهم[3] . وبعد أن أتم العرب فتح أرمينية توغل قوادهم فى بلاد الخزر ، وبلغوا بَلَنْجَر العاصمة[4] . وفى الفتنة الثانية تحالف الخزر مع الروم ، إذ زوج الخاقان الخزرى ابنته من ملك الروم جستنيان الثانى حينما هرب من بلاده فى إحدى الثورات ، وعاد بعدد منهم ومن البلغار[5] .

وقد عاد خطر القوقازيين إلى الظهور فى خلافة عمر بن عبد العزيز ، حيث أنهم نزلوا أذربيجان فى فارس سنة ٧١٧/٩٩ ، فأرسل عمر ليناوشهم وقتل كثيراً منهم وأخذ بعض الأسرى[6] . وفى خلافة يزيد أغاروا على أرمينية سنة ٧٢٢/١٠٤ ، فأرسل يزيد نحوهم جيشاً من أرمينية دخل بلادهم ، فاجتمعوا عليه ومعهم ترك من القفجاق المجاورين ، فقتلوا من المسلمين كثيراً وغنموا جميع ما عندهم،ورجع المسلمون إلى الشام مدحورين ، فوبخهم يزيد[7]. وقد تبع هذه الهزيمة أن طمعوا فى بلاد المسلمين ، وجمعوا حشوداً كبيرة ، فاستعمل يزيد أحد عمال عمربن عبدالعزيز ، واسمه الجراح بن عبد الله الحكمى عاملاً له على أرمينية[8] ، وأمده بجيش كثيف وأمره بغزو الخزر وغيرهم ، فسار الجراح إليهم وهزمهم

---

(١) أغابيوس ، ٣/٨ (القسم الثانى) ص ٤٦٣ (٢٠٣) ؛ انظر . O'hsson : Op. cit, p. 46.

(٢) معجم البلدان ، ٢ ص ١٢ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ١٩٧ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٤٨ .

(٤) معجم البلدان ، ٢ ص ٢٧٨ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ١ ص ٢٤٨ .

(٥) انظر .Michel,t2, fasc 3, p. 478 ؛ انظر .O'hsson: Op. cit, p. 50.

(٦) الكامل ، ٤ ص ١٥٤ .

(٧) نفسه ، ٤ ص ١٨٦ .

(٨) نفسه ، ٤ ص ٢٠٧ س ١٥ .

وشعوباً كثيرة منهم ، ووصل إلى حصن بلنجر ، إلا أنه لم يقض على خطرهم[(١)] .

ولما جاء هشام أقر الجراح على عمله[(٢)]، وأرسل إليه المدد ؛ فكان الجراح يغزو بجرأة وتهور فى بلاد الخزر واللان[(٣)] . ولكنهم اجتمعوا عليه حينما دخل بلادهم فى سنة ١١٢/٧٣٠ ، فاستشهد فى بلنجر ، ومعه عدد كبير من المسلمين[(٤)] . فلما قُتل طمع الخزر فى بلاد المسلمين وأوغلوا فيها ، فاستولوا على أذربيجان وقاربوا الموصل ، وعظم الخطب على المسلمين ، فجمع هشام أناساً كثيرين للجهاد مع قائد جديد اسمه الحرشى ، الذى تمكن من استعادة أراضى المسلمين ، وهزيمة ابن خاقان قرب باب الأبواب[(٥)] . وفى نفس العام ولى هشام أخاه مسلمة على أرمينية ، فكان يغزو شعوب القوقاز كل سنة حتى وقت سقوط الثلج ، ويُنزل بهم خسائر فادحة ، ويثير فيهم الرعب ، حتى أشبع طيور السماء ووحوش الأرض منهم ، كما أنه هدم أحد الأبواب أو الحصون التى كان بناها الأسكندر المقدونى[(٦)] . ويبدو أن هشاماً لم يعجبه أن يكتفى مسلمة بالغارة ، وأراد أن تكون الحملات أشد ، فاستدعاه وأرسل بدله مروان بن محمد بن الحكم فى سنة ١١٤/٧٣٢[(٧)] ؛ فكان مروان يغير على بلادهم من أرمينية وأذربيجان ،

---

(١) نفسه ، ٤ ص ١٨٦ — ١٨٧ ؛ انظر . دحلان ، الفتوحات الاسلامية جـ ١ ص ١٧١ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٨٨ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ١٩٣ ؛ ١٩٦ ؛ Denys, p. 22. غزاهم فى سنتى ١٠٦ و ١٠٧ هـ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ٢٠٧ ؛ Ibid, p. 22

(٥) الكامل ، ٤ ص ٢٠٧ — ٢٠٨ .

(٦) انظر . Denys, p. 22.—23

(٧) الكامل ، ٤ ص ٢١٥ — ٢١٦ . عنه ، انظر .
Ency. l'Isl, (art Marwân B. al - Hakam) t3. p. 356.

وأوغل فيها وخربها ، وغنم وسبى ووصل إلى أقصاها : فى سنة ٧١٧/١١٦ عرفت غزوته بالسائحة وفتح بلاداللان[١] ، وفى سنة ٧٣٨/١٢٠ غزا قلعة السرير فقتل وسبى حتى البحر الأسود[٢] ؛ وفى سنة ٧٣٩/١٢١ أعاد غزو قلعة السرير ، وبلاداً أخرى لم تطأها أقدام المسلمين[٣] .

كذلك عاد خطر ترك وسط آسيا ، الذين كانوا قد تلقوا ضربات هائلة - على يد قتيبة فى ممتلكاتهم فى بلاد ما وراء النهر - انتهت باستيلاء المسلمين عليها ؛ مما جعل العرب يميدون إلى الأذهان صورة النزاع بين إيران وتوران[٤] . فقد كان ترك الخاقان يأتون لمساعدة بنى جلدتهم فى بلاد ما وراء النهر ، الذين ثاروا على العرب بسبب سوء حكم عمالهم[٥] ؛ أو حتى للغارة إذ كان أغلب ترك وسط آسيا من البدو[٦] . حقاً إنهم لا يهاجمون المسلمين بجيوش منظمة تقاتل صفاً أو زحفاً ، ولكن بحرب العصابات ، حيث كانوا يظهرون فى كل مكان . وساعدهم على ذلك طبيعة بلاد ما وراء النهر ، وما بها من جبال وأنهار كثيرة ، وغابات ذات شجر كبير[٧] . ومع ذلك فحروبهم ضد العرب كانت شديدة ؛ حتى أنه كان يشترك فيها الخاقان بنفسه وأولاده وقواده الكبار .

وقد كان العرب يدفعون هذا الخطر التركى عن طريق مراكز محصنة للتجمع ،

(١) الذهبى ، دول الإسلام ، ١ ص ٥٧ .
(٢) نفسه ، ١ ص ٥٨ .
(٣) الكامل ، ٤ ص ٢٤٥ .
(٤) انظر . شعيرة ، ممالك ما وراء النهر ، ص ٢ .
(٥) انظر . مثلا . الكامل ، ٤ ص ١٧٨ .
(٦) معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .
(٧) الكامل ، ٤ ص ٢٠٩ .

مثل : قصر الريح(١) والباهلي(٢) وكَمرْجة(٣) بالصغد — أغنى بلاد ما وراء النهر — فضلاً عن إقامة حاميات متعددة في المدن المختلفة ؛ وعن طريق تأييد الأعاجم أو الفرس الذين كانوا في عداء تقليدي مع الترك ، لا سيما وأن الإسلام كان قد انتشر بين الفرس(٤) . وقد كان طابع حروب العرب مع الترك أن الحرب سجال ؛ مرة ينتصرون ومرة يتلقون الهزيمة ؛ ففي عهد يزيد حاصر كورصول أكبر قواد خاقان ومعه دهاقنة الصغد قصر الباهلي الذي يقيم به العرب ونساؤهم في سنة ٧٢٠/١٠٢ ؛ ولكن العرب أجبروهم على ترك القصر ، مما مهد لسعيد خذينة عامل خراسان غزو الصغد الثائر(٥) . وفي أول خلافة هشام سنة ٧٢٤/١٠٦ ، تقابل عامل آخر اسمه مسلم بن سعيد مع ترك خاقان بفرغانة فقتل الترك من المسلمين كثيراً ، ونجا الجيش بأعجوبة ؛ بفضل مدد أتى به نصر بن سيار(٦) . وفي سنة ٧٢٨/١١٠ ، حاصر الترك العرب في كرجة فطلب هؤلاء الأمان من خاقان ؛ وقد كان يحاصرهم ومعه أهل فرغانة والشاش ونسف وبعض أمراء بخارى(٧) . وفي سنة ٧٢٩/١١١ ، تمكن عامل خراسان الجنيد بن عبد الرحمن من أسر ابن أخي خاقان في ناحية من نواحي بلاد سمرقند ، وبعث به إلى هشام(٨) . ولكن في السنة التالية ٧٣٠/١١٢ ، تمكن الترك من إنزال هزائم متوالية بقواد المسلمين ، لولا أن هشاماً أرسل مدداً كبيراً من جند البصرة(٩) .

وقد بلغ خطر ترك خاقان أوجه لما هاجم أسد بن عبد الله — أخو عامل العراق

---

(١) نفسه ، ٤ ص ١٨٤ س ٢١ ؛ انظر . شعيرة ، ممالك ، ص ٢٣ وهامش (١) .

(٢) نفسه ، ٤ ص ١٧٨ س ١٠ ؛ نفسه ، ص ٢٣ وهامش (٢) .

(٣) نفسه ، ٤ ص ٢٠٤ ؛ معجم البلدان ، ٧ ص ٢٧٩ ؛ انظر . شعيرة ، ممالك ، ص ٢٣ وهامش (٣) .

(٤) الكامل ، ٤ ص ٢٢٧ س ١٧ .

(٥) نفسه ، ٤ ص ١٧٨ — ١٨٠ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ١٩٤ — ١٩٥ .

(٧) نفسه ، ٤ ص ٢٠٤ — ٢٠٥ .

(٨) نفسه ، ٤ ص ٢٠٦ .

(٩) نفسه ، ٤ ص ٢٠٨ فما بعدها .

السابق خالد بن عبد الله — الختل على تخوم السند الشمالية فى سنة ١١٩/٧٣٧ ، وهى بلاد لم يكن قتيبة يعرض لها فى فتوحه[١] ؛ وإن كان أسد نفسه قد أغار عليها فى ولايته الأولى لخراسان سنة ١٠٨/٧٢٦[٢] . عندئذ جاء خاقان بنفسه ومعه الثائر الحرث بن سريج فى جيش كبير مدعياً أنها أرض آبائه وأجداده ، وحمل خاقان على الهجوم أولاً على العجم فى جيش أسد ، فتمكن من قتل صغان خداه[٣] . وبعدها نزل خاقان عند جوفوية فى طخارستان ، ومد غاراته إلى فارس ؛ فانسحب أسد إلى بلخ ، وقد كتب إلى الخليفة يستمده ؛ إلا أن خاقان الذى فرق جنوده لحقه فى عدد قليل من جنده ، فتمكن أسد من إنزال هزيمة منكرة به ، وأجبره على الرجوع إلى بلاده[٤] . ولم ينقذ العرب من عودة خاقان لقتالهم إلا حدوث نزاع داخلى فى مملكته ؛ فقد حقد عليه قائده كورسول وقتله[٥] . وقد مهد هذا النصر على خاقان ، أن عاد أسد إلى الختل ففتحها نهائياً ، وغلب على القلعة الكبرى وقتل الملك[٦] ، وهو الذى وصف على أنه كان أكثر الملوك محاربة للمسلمين[٧] . فلما علم هشام بقتل خاقان لم يصدق النبأ ، وسجد شكراً لله تعالى[٨] .

وبعد وفاة أسد فى سنة ١٢٠/٧٩٨ ، ولى هشام على خراسان نصر بن سيار ؛ وكان هو الآخر قائداً نشيطاً ، استعمله عليها عامل العراق يوسف بن عمر كما ذكرنا ، وبقى فيها إلى أيام بنى أمية[٩] . وقد كان لحسن تصرف نصر نحو الموالى ، وأهالى هذه النواحى ،

(١) نفسه ، ٤ ص ٢٢٦ ؛ انظر . شعيرة ، ممالك ، ص ١٧ .

(٢) نفسه ، ٤ ص ١٩٨ — ١٩٩ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ٢٢٧ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ٢٢٨

(٥) نفسه ، ٤ ص ٢٢٩ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ٢٣٣ .

(٧) نفسه ، ٤ ص ٢٣٠ س ٨ ؛ انظر . شعيرة ، ممالك ، ص١٧ .

(٨) نفسه ، ٤ ص ٢٢٩ س ٢١ — ١٢ .

(٩) وفيات ، ٢ ص ٥٤٠ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Nasr B. Sayâr) t3, p. 933 sqq.

أن جلب له أعواناً كثيرين(١) ؛ بحيث أنه كان يخرج فى غزواته ومعه أهل بخارى وسمرقند وكش ونسف(٢) . وقد تمكن من أن يكيل لترك وسط آسيا صفعة أخرى هائلة ، حينما هزم كورصول وهو فى الشـــاش سنة ١٢١/٧٤٠، وتمكن من أسره وقتله وإحراقه . وبعد هذا النصر المؤزر صالح ملوك أغلب بلاد ما وراء النهر بخاصة الصغد(٣) ، التى كانت قد ثارت على المسلمين ، واستعانت بالترك ، وضيق بذلك الخناق على الثائر الحرث بن سريج . وبذلك تمكن العرب من وقف خطر الترك ، الذين لا يلبث الإسلام أن يغزوهم، فيكونون ساعده وحماته .

أما فى جبهة الأندلس ، فإن الحوادث هى التى جر بعضها بعضاً ؛ فالعرب منذ أن فتحوا هذه البلاد ، تطلعوا إلى الغارة فى الأراضى الواسعة ، الواقعة شمال جبال البرنيوه(٤) « Pyrenaei » ـ الحاجز أو الفاصل أو البرت ـ التى أطلقوا عليها اسم الأرض الكبيرة ، لأنها تمتد من المحيط حتى القسطنطينية(٥) ؛ وهى عبارة عن أمم كثيرة ، فوصفت لهم : بأنها ذات الألسن الكثيرة(٦) .

ولكن غارات العرب فيها تركزت فى البلاد الواقعة شمالى بلاد الأندلس ، المعروفة باسم : بلاد أفرنجة العظمى — على اسم أمة — أو أفرانسة(٧) ؛ وهى

---

(١) انظر . قبله .

(٢) الكامل ، ٤ ص ٢٤٣ — ٢٤٤ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ٢٥٠ .

(٤) تقويم البلدان ، ص ١٦٩ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٣٥٠ ؛ انظر . قبله ، ص١٩٨ .

(٥) ابن صاعد الأندلسى ، ص ٦٤ .

(٦) المقرى ، نفح الطيب ، ١ ص ٢٥٨ .

(٧) ابن صاعد ، ص ٦٤ .

جزء من بلاد أفرنجة التى كانت قبل الإسلام تمتد جنوباً حتى رودس ، وشرقاً إلى رومية مقر البابا[١] ؛ وإن عُرفت للأوربيين باسم : بلاد غالة : « Gallia »[٢] . وكانت تسكنها عناصر نصرانية من أصول مختلفة ، مثل : الجير والسلت القدمين واللاتين ، الذين غزوها وضموها إلى امبراطورية الرومان، والتبربرين الذين قضوا على دولة الرومان ، ومنهم : الهون والوندال والقوط ، وبخاصة الفرنجة : « Franks »[٣] .

وكان يوجد فى هذه البلاد عدة ممالك ؛ وإن كان العرب لايميزونها جيمها بأسمائها مثل : مملكة واسعة تقع فى شمال اللوار ، تُعرف باسم الأسرة الميروفنجية « Merovingiens » ، التى أسسها كلوفس « Clovis » وامتدت حتى ألمانيا ؛ وإن سيطر عليها أمراء القصر « Majordomes » ؛ بحيث أصبح ملوكها لا قيمة لهم « Rois Fainéants »[٤] . أما جنوب اللوار فوجدت إمارة أقطانية (الأكوتين) « Aquitaine » ، المستقلة ، التى كان يحكمها أمراء « ducs » من نسل كلوفس[٥] ؛ وسبتمانية « Septimania » ، التى سميت هكذا لأنها تشتمل على سبعة « Sept » مدن ملاصقة لجبال البرنيوه، ويبدو أنها كانت خاضعة لدولة القوط؛ ولنجدوك « Languedoc » ، أى أرض القوط « Land Got » ، لأنها كانت خاضعة لهم أيضا ، ولذا عرفت باسم « Gothie » ؛ والبروفنس « Province » المجاورة للبحر الأبيض ، وكانت خاضعة إما للقوط أو للبيزنطيين[٦] .

---

(١) معجم البلدان ، ١ ص ٢٩٩ – ٣٠٠ . هى مجاورة الرومية .

(٢) انظر . Brémond, p. 282.

(٣) انظر . Ibid, p. 247 sqq

(٤) انظر . Ibid, p.251 ؛ Halphen : Les Barbares, 4 éd, p. 151.
نسبة إلى جده Mérovée

(٥) انظر . Id. ؛ Ibid, p. 256

(٦) انظر Brémond, p. 256-7. ؛ عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس ، ص ٦٩ هامش (١) ؛ Reinaud :
Invasions des Serrazins en France. Paris, 1816, introd, p. XI.; 1 - 4.

وفى أول الفتح العربى للأندلس ، كانت معظم غارات العرب فى البلاد المجاورة لجبال البرنيه ، فاستولوا على حصنى قَرْقَشُونَة(١) « Carcassonne » وأرْبُونَة(٢) « Narbonne » . ويبدو أن سيطرة العرب عليهما كانت تامة ، حتى أننا نجد عمر بن عبد العزيز يرسل الفقهاء إلى قرقشونة لتعليم أهلها الإسلام(٣) .

ولكن فى عهد يزيد وهشام توغل قواد العرب بغاراتهم فى بلاد أفرنجة ؛ حيث قوبلوا بمقاومة شديدة ، وقُتل معظمهم : فالسمح بن مالك الخولانى توغل فيها وقتل سنة ١٠٢/٧٢١ ، واضطرت فلوله إلى التراجع بقيادة عبد الرحمن الغافقى ، المعروف للمسيحيين باسم « Abdérame »(٤) . ولما عُزل عبد الرحمن وجاء بعده عنبسة بن سحيم « Anbeza » ، أخذ يغير فى بلاد الفرنجة منذ سنة ١٠٣/٧٢٢(٥)، ولكنه ربما يكون قد قُتل على ضفاف نهر ردانة (الرون) سنة ١٠٧/٧٢٥(٦) . ولما عاد عبد الرحمن الغافقى فى سنة ١١٢/٧٣٠(٧) ، عاد إلى الغزو والتوغل ، خصوصاً وأنه تمهم أحد زعماء البربر ويسميه الأوربيون منوسة « Munuza »(٨) ، وكان قد هرب إلى أمير الأكوتين المسمى إيد « Eudes » ، فقتله عبد الرحمن ، وهرب أمير الأكوتين إلى قارله

(١) البيان ، ٢ ص ١٢ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٥٩ .

(٢) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ١٧٦ ؛ انظر . Reinaud : Op. cit, p.13.

(٣) معجم البلدان ، ٧ ص ٥٩ .

(٤) نفح الطيب ، ٢ ص ١٣٨ ؛ انظر . Brémond, p. 262-263.

(٥) نفسه ، ٢ ص ١٣٨ ؛ البيان ، ٢ ص ٢٧ .

(٦) البيان ، ٢ ص ٢٧ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٩٧ ؛ Isidoro: Cron. 52:53. ، انظر . فجر الأندلس ، ص ٢٤٧ فما بعدها ؛ Brémond, p. 263—264.

(٧) البيان ، ٢ ص ٢٨ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art 'Abd al-Rahmàn B. 'Abd-Allah al-Ghâfiqî) tl, p. 55.

(٨) عن هذه الغزوة ، انظر . Isodoro : Cron. 58. Bremond, p. 266sqq ; Redidud, p. 20 sqq ; Lévi - Provençal ; Arab, p. 341. : Weil =

(كارل) « Karl »، سيد القصر فى المملكة الميروفنجية . فتابع عبد الرحمن غارته حتى وصل إلى بلدة فى جنوبى غربى باريس اسمها تور « Tours »، فوجد فى انتظاره جيش الفرنجة ، بقيادة كارل ، ومعه النمساويون والبرغنديون والبُلنار[1] ؛ وهى عناصر من الفرنجة . فقاتلوا العرب بشدة فى سنة ٧٣٢/١١٤ ، واستشهد عبد الرحمن ، واضطرت فلوله إلى التراجع[2] . وقد كان وصول العرب إلى هذه النواحى ، هو أقصى ما وصلت إليه غاراتهم .

وبالغ الأوربيون فى وصف انتصار كارل على المسلمين والنتائج التى ترتبت عليه ؛ بحيث أن بابا رومية ، منحه لقب : مطرقة الله « Martel » ؛ فقد اعتقدوا أنه لولا انتصاره لانساح الإسلام فى أوربا وحل محل المسيحية . ولقد كانت هناك نتيجة ملموسة لهذا الانتصار للمسيحية ، فقد قوى شأن كرسى البابوية فى رومية ، التى كانت تسعى إلى التخلص من خضوعها للقسطنطينية . فاستفاد كارل من انتصاره ، وهاجم أملاك المسلمين فى أربونة فى عدة غارات بخاصة فى سنة ١١٩/ ٧١٣ ، ولكن المدينة قاومته ، واضطر إلى رفع الحصار ؛ بسبب أن بقية أمراء الفرنجة لم يكونوا يرضون عن توسعه .

أما العرب ، فإنهم لم يتكلموا كثيراً عن هذه الوقعة أو عن غيرها من الغارات ، وكل ما قالوه هو أن عبد الرحمن استشهد ، وأن الوقعة اسمها : « بلاط الشهداء[3] » . ومن الجائز أيضاً أن تكون قلة كلامهم عنها بسبب أن انسياحهم نحو الشمال لم يكن بقصد الغزو والفتح ؛ وإنما للغارة ؛ لا سيا وأن مثل كل

= Hist. de l'Esp, p. 60;n (1) ؛ عنان دولة الإسلام فى الأندلس، ص ٨١ — ٨٢ .

(١) عن ذلك ، انظر Halphen : Les Barbares, p. 151.

(٢) البيان، ٢ ص ٢٨ .

(٣) نفح الطيب ، ٢ ص ١٣٩ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٢٥ ؛ انظر Ency, (art Balât) tI, p. 628. كلمة بلاط كلمة لاتينية أو يونانية تعنى طريق .

فالأندلس الداخلية وقتئذ لاتسمح بالقيام بالفتح ؛ لنزاع القبائل العربية من ناحية ، والبربر والعرب من ناحية أخرى . ويؤيد ذلك أن العرب عادوا إلى الغزو حتى بعد المعركة مباشرة ، فقام عبد الملك بن قطن بالغزو فى السنة التالية ١١٥/٧٣٣[1] ؛ وقام عقبة بن الحجاج بغارة شديدة فى سنة ١١٦/٧٣٤[2] . كذلك نسمع عن عقب صاحب أربونة[3] ؛ مما يدل على أن هذه المدينة بقيت ثغراً هاماً للغزو .

هذه هى ظروف الخلافة فى عهد هشام ، تميّزت بثورة الشعوب المفتوحة ، وبتفاقم الخطر الخارجي ؛ وإن استطاع هشام المحافظة على دولة الإسلام كاملة .

* * *

(١) نفح الطيب ، ٢ ص ١٤٠ .
(٢) البيان ، ٢ ص ٢٩ .
(٣) انظر . قبله .

الفصل الثانى

سقوط الدولة العربية

صراع بنى أميـة — اندلاع الفتن بين العرب — دعوة آل البيت — الشعوبية — سقوط الدولة العربية .

يبدو أن نظام الوراثة الذى أقامه معاوية ، لم يعد حلاً لمسألة خلافة النبى الشائكة ؛ حتى أن أفراد بيت بنى أمية أنفسهم تكالبوا على منصب الخلافة فى أخريات أيام الدولة العربية ، دون احترام للمبدأ الوراثى ؛ مما أدى بدولتهم إلى السقوط .

٥

فبعد وفاة هشام بن عبد الملك ؛ تولى الخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك فى ربيع الآخر سنة ١٢٥/فبراير ٧٤٣[1] ، بعهد سابق من أبيه . وقد حاول هشام أن يعزل الوليد عن ولاية العهد ، ويوليها لابنه مسلمة ؛ فطالبه هشام بأن يخلع نفسه ، وحرمه من العطاء هو وسائر مواليه ، وجفاه جفاءً شديداً ؛ بحيث كان يكثر من تنقصه أمام الناس ، ويسمح بسبه فى حضرته ، وعمل سراً فى البيعة

---

(١) صبح الأعشى ، ٣ ص ٢٥٧ . يقول ابن قتيبة تولاها سنة ٧٤٣/١٢٦ . (الإمامة ، ٢ ص ٢١٠) ، وهو لم يتول الخلافة مباشرة بعد أبيه لأنه كان صغيراً ؛ ابن خمس عشرة سنة .

لمسلمة ، فأجابه بعض الناس . ولـكن مسلمة توفي قبل أبيه ؛ مما هيأ للوليد الفرصة في أن يلي الخلافة بعد هشام (١) .

وكان الوليد(٢) مثل غيره من خلفاء بني أمية يحب البادية ، وزاد شغفه ببناء القصور المائلة فيها : فحينما كان أميراً بنى قصر عمرة (٣) . وبعد توليه الخلافة نُسب إليه بناء قصر المشتى(٤) ، وكلاهما من أكبر مواصم الصحراء في شرق الأردن ، كما عرفت له بالبلقاء عـدة قصور أخرى ، وردت أسماؤها في كتب المؤرخين ، مثل : الأزرق (٥) والأغداف (٦) والمؤلؤة (٧) .

ولقد شابه الوليد أباه ؛ فطلب اللذات وشُغل عن أمور الدولة(٨) ؛ لاسيما وأنه تولى الخـلافة في أوج الشباب في سن الخامسة والثلاثين (٩) ؛ فكان يجمع في مواصم البادية الندماء والشعراء والمغنين ؛ كما أنه أحب الصيد(١٠) . ولـكنه انفرد عن سابقيه من الخلفاء بإجادة الشعر والغناء(١١) . ومن الجائز أن أعداءه هم الذين ألصقوا به تهمة الـكفر والتهاون بالدين (١٢) ، فأورد المؤرخون

(١) الأغاني ، ٦ ص ١٠٢ — ١٠٣ ؛ الـكامل ، ٤ ص ٢٥٦ .

(٢) عن سيرته ، انظر من بين عدة مراجع : الأغاني ، ٦ ص ١٠١ فما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art al - Walîd B. Yazîd) t4, p. 1171 - 1172.

(٣) عن هذا القصر ونقوشه وطبوغرافيته ، انظر . Ency. de l'Isl ,(art 'Amra) t1, p. 341 sqq.

(٤) انظر Ibid, (art Mashatta) t3, p. 653 sqq. وهو ربما يكون بناه أبوه يزيد بن عبد الملك أو الوليد .

(٥) الـكامل ، ٤ ص ٢٥٧ س ٨ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ٢٦٧ س ٥ .

(٧) الطبري (Annales) ، ٢ : ١٨٠٢ .

(٨) الـكامل ، ٤ ص ٢٥٦ س ١٩ .

(٩) نفسه ، ٤ ص ٢٥٦ .

(١٠) نفسه ، ٤ ص ٢٦٤ .

(١١) الأغاني ، ٦ ص ١٠١ .

(١٢) الـكامل، ٤ ص ٢٦٩ س ٢٠ فما بعدها .

إنه كان يفرّق بين زوجات أمراء بيته وأزواجهن ليتخذهن لنفسه، ونكح أمهات أولاد أبيه (١)، وأنه حل الكلاب وأراد أن يقيم فوق سقف الكعبة قبة يشرب فيها الخمر، لولا خوّفه أصحابه مغبة هذا العمل (٢)؛ لذلك كان عمه هشام يراه غير جدير بولاية عهده (٣).

أضف إلى ذلك أن الوليد أظهر حبّاً في الانتقام والتشفي: فما أن ولي الخلافة حتى حجز أموال هشام بالرصافة، وقبض على أولاده وجلد بعضهم (٤)، وأخذ سليمان ابن هشام — الذي اشتهر في حرب الثغور — فضربه بالسوط، وحلق رأسه ولحيته وسجنه (٥). كذلك أساء معاملة خالد بن عبد الله القسري عامل الأمويين السابق على العراق؛ إرضاء ليوسف بن عمر الثقفي من أقرباء الحجاج، الذي كان يعاند خالداً وولي بعده العراق؛ والوليد نفسه كان زوج أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي (٦). وقد كان هشام عزل خالداً عن عمل العراق وولاه يوسف، ثم استدعاه إلى الشام لما أراد يوسف قتله، وأطلق سراحه. فلما توفي هشام وتولى الوليد الخلافة، نصح أهل خالد له بالفتنة في دمشق، أو بالتواري لقرابة الحجاج للوليد؛ ولكنه كره الاثنين؛ حتى لا تحدث فتنة. فسعى يوسف بن عمر إلى الوليد ليسلمه خالد، واشتراه منه؛ مع أن خالداً كان شيخاً لا يقوى على المشي، وإنما يحمل على كرسي. فتقدم به يوسف إلى العراق وعذبه وهو لا يتأوه، وقتله في سنة ١٢٦ / ٧٤٣؛ كما أن الوليد نفسه أخذ

---

(١) نفسه، ٤ ص ٢٦٤ س ٨ فما بعدها.

(٢) نفسه، ٤ ص ٢٥٦.

(٣) الطبري (Annales) ٢ : ١٧٤١.

(٤) الكامل، ٤ ص ٢٥٨ س ٨.

(٥) نفسه، ٤ ص ٢٦٤.

(٦) نفسه، ٤ ص ٢٦٨.

يزيد بن خالد وحبسه (١) . وفي عهد الوليد قُتل أيضاً يحيى بن زيد ، الذي فر بعد قتل أبيه في العراق إلى خراسان ؛ فطارده عمال الوليد ، وقتلوه وصلبوه بجوزجان في سنة ١٢٥/٧٤٣ (٢) .

هذه التصرفات جملته يثقل على رعيته وجنده (٣) ، وبخاصة اليمانية منهم لبغض الخلفاء لهم منذ هشام (٤) ، وتقريبهم القيسية ؛ كما كرهه أفراد بيته ، وكانوا مدفوعين إلى ذلك إما باحتقار تصرفاته ، أو بسبب طمعهم في السلطة . فثارت اليمانية لأول مرة ضد أحد الخلفاء الأمويين وعلى رأسها قضاعة ، حيث كانوا وقتئذ أكثر جند الشام (٥) ، وحرضوا ابن عمه يزيد بن الوليد بن عبد الملك على البيعة لنفسه (٦) . فاستولى يزيد على دمشق وأرسل جيشاً إلى الوليد ، الذي كان يقيم في البادية هرباً من الطاعون ، وهاجموه في قصره بالأغداف . وقد أراد الوليد التفاهم مع مهاجميه ؛ فأحضر يزيد بن خالد من محبسه ، وطلب منه التدخل في رد اليمانية ، ولكن يزيد بن خالد هرب وانضم إلى مهاجميه (٧) ؛ فتوسل الوليد بخلع نفسه دون جدوى . عندئذ أخرج الوليد راية مروان في الجابية وقاتلهم بمن معه من مضر فهزموه ؛ فدخل إلى القصر وأخذ مصحفاً فنشره وأخذ يقرأ فيه وقال يوم كيوم عثمان .

---

(١) عن ذلك ، انظر . نفسه ، ٤ ص ٢٦٢ ــ ٢٦٣ ؛ الإمامة ، ٢ ص ٢١١ ــ ٢١٣ ؛ وفيات ، ١ ص ٢٣٩ ؛ ٢ ص ٥٤١ ؛ انظر .

Ency. de l'Isl, (art Khâlid B. 'Abd al - Allah al - Kasri) t2, p. 930.

يقول الدينوري محمد بن خالد . الأخبار الطوال ، ص ٢٣٢ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ٢٥٩ ــ ٢٦٠ ؛ الفرق بين الفرق ، ص ٢٦ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٦٧ . يبدو أنه أمنه في أول الأمر .

(٣) الكامل ، ٤ ص ٢٦٤ س ٤ .

(٤) الدينوري ، الأخبار الطوال ، ص ٣٢٥ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ٢٦٢ س ١٤ ــ ١٥ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ٢٦٥ .

(٧) نفسه ، ص ٢٦٧ — ٢٦٨ ؛ الإمامة ، ٢ ص ٢١٥ — ٢١٦ .

فدخلوا عليه وذبحوه فى سنة ٧٤٤/١٢٦ ، وحملوا رأسه إلى دمشق ؛ وأخذوا ابنيه الصغيرين عثمان والحكم وليى عهده ، وسجنوهما[(١)] .

* * *

بعد قتله ، بايع يزيد بن الوليد بالخلافة لنفسه فى جمادى الآخرة سنة ٧٤٤/١٢٦[(٢)] ؛ فخطب الناس خطبة برر فيها قتله للوليد بن يزيد ؛ وأنه ما فعل ذلك إلا غضباً لله ودينه . وقد كان يزيد على خلاف الوليد ذا دين وورع ، يظهر النسك ويتواضع[(٤)] ؛ فهو صاحب مذهب القدرية[(٥)] ، أى الذى يقول بقدرة الإنسان فى عمله وأنه خالق الأفعال ، وبالقدر شره وخيره ؛ وهو نفسه مذهب المعتزلة حيث كانوا يلقبون أيضاً بالقدرية . فدعا الناس إلى القدر وحملهم عليه ؛ مع أن مثل هذه الأقوال حوربت فى عهد هشام[(٦)] ، وأعتبر معتنقوها من المجوس[(٧)] ، لنفى العمل الإنسانى أو ما عرف من القيسية بالجبرية[(٨)] .

ولكن اعتماد يزيد على تأييد اليمانية جره إلى العمل على إخماد ثورة القيسية فى أماكن متعددة فى سورية : فإن أهل حمص من القيسية لما قتل الوليد لم يرضوا بيعة يزيد، فأرسل إليهم وحاربهم وهزمهم وأخذ بيعتهم؛ وهزم أيضاً أهل فلسطين لما وثبوا على عاملهم[(٩)] . كما حبس يوسف بن عمر عامل العراق وقريب الوليد ، الذى

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٢٥٩ .
(٢) صبح الأعشى ، ٣ ص ٢٥٨ ؛ الإمامة ، ٢ ص ٢١٦ .
(٣) العقد ، ٢ ص ١٧٦ .
(٤) الكامل ، ٤ ص ٢٦٤ س ١٠ ؛ الذهبى، تاريخ الدول ، ١ ص ٦٠ .
(٥) الذهبى ، تاريخ الدول ، ١ ص ٦١ . عن هذا المذهب ، انظر . الشهرستانى ، الملل والنحل ، ١ ص ٢٩ — ٣٠ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Kadarîya) t2, p. 644 — 5.
(٦) الطبرى (Annales) ٢ : ١٧٧١ .
(٧) الشهرستانى ، الملل ، ١ ص ٣ .
(٨) نفسه ، ١ ص ٥٩ — ٦٠ .
(٩) الكامل ، ٤ ص ٢٧٠ — ٢٧١ ،

كان الوليد قد أقره بعد هشام؛ فلما قُتل الوليد هرب يوسف وهو في زى النساء، وبلغ يزيد استخفاؤه فجاءوا به في وثاق، فحبسه يزيد مع الحكم وعثمان[1]؛ وولى على العراق بدله عبد الله بن عمر بن عبد العزيز في سنة ٧٤٤/١٢٦[2]. وبذلك استتب الحكم لهذا الخليفة المنتصب مدة ستة أشهر إلى وقت وفاته في ١٩ من ذى الحجة سنة ٧٤٤/١٢٦[3] . وقد وصفه أعداؤه بالناقص سباً له؛ وإن كان يبدو أن هذه التسمية بسبب أنه أنقص أعطيات الجند، التي كان الوليد زادها[4] .

* * *

قام بالخلافة بعده أخوه إبراهيم بن الوليد بعهد منه، على أن يتولاها عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك بعده[5]. ولكن بيعة إبراهيم لم تتم؛ أو أن خلافته لم تمتد إلى أكثر من أربعة أشهر أو أربعين يوماً، ثم خلع نفسه لما ظهر له منافس من أهل بيته[6] ؛ لذلك كان يسلم عليه تارة بالخلافة وتارة بالإمارة، وتارة لا يسلم عليه بواحدة منهما[7] .

وقد كان منافسه اسمه مروان بن محمد الجعدى، خرج بحجة المطالبة بدم الوليد المظلوم[8]. ويتبين من سيرة مروان أن أباه محمداً كان من أشد ولد مروان وأشجعهم،

---

(١) نفسه، ٤ ص ٢٧١ — ٢٧٢ ؛ وفيات، ٢ ص ٥٤١ — ٥٤٤ .

(٢) انظر. الكامل، ٤ ص ٢٧٤ . عنه، انظر .
Ency. de l'Isl, (art' Abd - Allah B. 'Omar) tI, p. 29

(٣) صبح الأعشى، ٣ ص ٢٥٨ ؛ العقد؛ ٢ ص ٢٤٧ ؛ انظر Lavoix. : Cat, I, p. 128.

يقول ابن عبد ربه سمي بالناقص لفرط كماله . العقد، ١ ص ٣٠ ؛ انظر جبور، ابن عبد ربه، ص ٥٧ — ٥٨ وهامش .

(٤) الكامل، ٤ ص ٢٦٩ ؛ الطبرى (Annales) : ٢ : ١٨٣٧ ؛ ١٧٨٩ .

(٥) وفيات، ٢ ص ٥٤٢ .

(٦) صبح الأعشى، ٣ ص ٢٥٨ .

(٧) الكامل، ٤ ص ٢٧٨ .

(٨) نفسه، ٤ ص ٢٧٧ ؛ الطبرى (Annales) ٢ : ١٨٧٠ . عنه، انظر .
Ency. de l'Isl, (art Marwān II) t3, p. 355.

حتى كان عبد الملك يحسده على شجاعته ، وهو الذى قتل مصعب بن الزبير بالعراق[1] أما أم مروان فكانت كردية ، أما سبب تسميته بالجعدى نسبة له إلى مؤدبه[2] .
وقد ولي مروان نفسه الجزيرة وأرمينية لهشام والوليد بن يزيد[3] ، وقاتل خلالها القبائل الشديدة المراس ؛ فعرف لصبره بالحمار[4] ؛ وكان يُوصف بأنه شيخ بنى أمية وكبيرهم[5] .

ويروى فى خروج مروان ؛ أنه لما قتل الوليد بن يزيد ترك بلاد الخزر وانصرف إلى بلاد الجزيرة واستولى عليها[6] . ويرى المؤرخون أنه هو أول من سمى يزيداً بالناقص سباً وشتيمة[7] ،وتلكأ فى بيعته ، ثم بايعه بعد أن أبقاه فى عمله[8] . إلا أنه لما ولى إبراهيم ، طالبه مروان بدم الوليد الذى قتله أخوه ، وسمى الوليد كعثمان بالخليفة المظلوم[9] . فسار مروان فى جند الجزيرة متوجهاً إلى حمص؛ التى كان أهلها قد رفضوا بيعة يزيد وثاروا عليه ، لولا أنه أرسل إليهم جيشاً وهزمهم ؛ فلما مات يزيد امتنعوا عن بيعة إبراهيم ، فأسرع مروان ودخلها وساروا معه[10] . فلما سمع إبراهيم بسير مروان نحوه ارتعدت أوصاله ، وأرسل جيشاً من دمشق هزمه مروان ، فأرسل إبراهيم

---

(١) أنساب ، ٥ ص ١٨٥ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ٣٣٢ ؛ انظر . حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسى ، ١ ص ٢٥٦ . وهو الجعد بن درهم

(٣) أنساب ، ٥ ص ١٨٧ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ٣٣٢ ؛ انظر . Arab, p. 371. : Weil

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٣٣٤ .

(٦) الكامل ، ٤ ص ٢٨٢ .

(٧) نفسه ، ٤ ص ٢٦٩ ؛ الطبرى (Annales) ٢ ، ١٨٧٥ .

(٨) الكامل ، ٤ ص ٢٨٢ .

(٩) أنساب ، ٥ ص ١٨٧ ؛ الطبرى (Annales) ٢ : ١٨٥٠ ؛ ١٨٥٢ ؛ ١٨٧٠ .

(١٠) الكامل ، ٤ ص ٢٨٣ س ٢٣ ،

إليه جيشاً آخر كبيراً بقيادة سليمان بن هشام ، الذى كان الوليد قد حبسهُ وهرب بعد قتله مع عدد كبير من اليمانية ، وأهل بيت القسرى[١] . ولكن مروان قابل هذا الجيش عند عين الجرّ بين بعلبك ودمشق ؛ وهزمه فى معركة قاسية دامت أياماً ؛ فهرب سليمان وعدد كبير من اليمانية إلى دمشق[٢] .

بعد هذه الهزيمة أسرعت اليمانية بقتل ولدى الوليد الحكم وعثمان ، كما قتل يزيد بن خالد ومواليه يوسف بن عمر ، الذى قتل أباه من قبل؛ حيث جروا جسد يوسف فى الشوارع[٣] . ولكن مروان دخل دمشق وأخمد فتنتها ؛ التى قتل فيها عبد العزيز بن الحجاج بن عبد الملك ولىّ عهد إبراهيم ، واضطر إبراهيم وسليمان إلى الهروب ؛ ونبش قبر يزيد وسلبت جثته[٤] ، فبايع أهل دمشق مروان بالخلافة فى سنة ٧٤٤/١٢٧ . ولكنه لم يأمن على نفسه الإقامة فى دمشق لكثرة اليمانية ؛ فانتقل إلى حرّان قصبة ديار مضر ؛ وأتاه ابراهيم وسليمان فأمّنهما ؛ حيث خلع الأول نفسه من الخلافة[٥] .

*

وقد لازم هذا التطاحن على منصب الخلافة صراع شديد بين المضرية (القيسية) واليمانية ؛ وبخاصة أن هذه الأخيرة رأت فى تولية مروان الخلافة انتصاراً للمضرية عليها ؛ وهو صراع امتد حيث توجد المضرية واليمانية فى جميع أجزاء الامبراطورية العربية ؛ فعادت أيام العصبية القديمة[٦] ؛ كما قامت الفتن من كل لون .

---

(١) عن ذلك ، انظر . نفسه ، ٤ ص ٢٧٠ .

(٢) انظر . Denys , p. 40 — 41 ؛ الكامل ، ٤ ص ٢٨٣ . عن عين الجر ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٢٥٤ .

(٣) وفيات ، ٢ ص ٥٤٢ ؛ الطبرى (Annales) ٢ : ١٨٧٩ .

(٤) الكامل . ٤ ص ٢٨٣ .

(٥) نفسه ، ٤ ص ٢٨٤ ، عن حران ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٢٤١ — ٢٤٢ . يقول الدينورى إنه قتل إبراهيم بن الوليد وولى عهده عبد العزيز . الأخبار الطوال ، ص ٣٣٤ .

(٦) الكامل ، ٤ ص ٢٨٦ .

ففي سورية نفسها ؛ ثارت الكلبية في حمص وما يجاورها ، بعد انتقال مروان إلى حرّان ؛ فاضطر مروان إلى الرجوع لقمعها ، ومعه في الأسر إبراهيم المخلوع وسليمان بن هشام ؛ ثم أرسل مروان جيشاً إلى الغوطة قتل يزيد بن خالد الذي ثار بها ، وجيشاً آخر إلى فلسطين أنهى فتنتها .

ولكن لما ترك مروان سليمان بالرصافة ترضية له ، جاءت اليمانية هذا الأخير وألحت عليه بالخروج وأعلنته خليفة في ١٢٧/٧٤٤ ؛ فعسكر سليمان بقنّسرين قرب حمص ، وكاتب أهل الشام منها فأتوه من كل مكان . فسار عليه مروان وهزمه ، فهرب إلى حمص ومن أفلت معه فحاصره بها ؛ وأخيراً هرب إلى تدمر ومنها إلى العراق [1] .

كذلك كان العراق نفسه يتأجج بالعصبية والفتن : فلما بويع ليزيد بن الوليد تحرك أحد العلويين يدعو لنفسه ، وهو عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر ابن أبي طالب [2] ؛ الذي كان جده عند معاوية لما ولد أبوه ، وطلب أن يسمى ابنه باسمه ففعل [3] . فقد انتهز عبد الله بن معاوية اضطراب أحوال البيت الأموي ودعا أهل الكوفة إلى بيعته في سنة ١٢٧/٧٤٤ ، فاجتمع إليه نفر منهم ، وإن اعتزله أغلبهم لكثرة من قتل منهم في الفتن ؛ ولسوء سيرته وقسوته حتى أن بعض الشيعة سموه بالزنديق ، فنصحوه بأن يقصد فارس [4] . ولكن قبل أن يخرج قاتله عامل يزيد بن الوليد ، وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز وهزمه ، حيث ترك الناس ابن معاوية وبقي يقاتل وحده [5] ، ثم ولى ابن معاوية منهزماً إلى فارس ، فتمكن من التغلب

---

(١) نفسه ، ٤ ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

(٢) نفسه ، ٤ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ ؛ مقاتل الطالبيين ، ص ١١٨ فما بعدها ؛ انظر Ency. de l'Isl, (art 'Abd Allah B. Mu'àwiya) tl, p. 27.

(٣) الكامل ، ٤ ص ٣٠٧ .

(٤) مقاتل ، ص ١٢١ — ١٢٢

عليها ، بعد أن أتاه أنصار كثيرون حتى من العراق ، فأرسل إليه مروان جيشاً قوياً ، فهرب عبد الله بن معاوية إلى خراسان ، طمعاً فى شخص اسمه أبو مسلم ، كان يدعو إلى الرضا من آل محمد .

ولكن مروان لم يترك العراق لابن عمر - عامل يزيد - وإنما أرسل عاملاً آخر بدله اسمه النضر بن سعيد الحرشى [1] ، فانضمت اليمانية إلى ابن عمر بالحيرة ، ومعه سليمان ابن هشام ، الذى هرب إليه من الشام ، والمضرية مع ابن سعيد الحرشى بالكوفة ؛ فأخذوا يقتتلون ؛ حتى ظهر خطر الخوارج ؛ مما جعلهم يوقفون القتال ويتفقون على قتالهم . فقد تزعم الشراة فى الجزيرة أثناء هذه الفتن بالشام شخص اسمه الضحاك بن قيس الشيبانى [2] ، وزحف بهم على العراق فى سنة ١٢٧ / ٧٤٥ ؛ واستطاع الاستيلاء على الكوفة ؛ وهرب ابن سعيد الحرشى إلى واسط وما لبث أن لحق به ابن عمر . ولكن عادت العداوة بينهما لأن ابن سعيد الحرشى تسلل دون ابن عمر وتركه يقاتل الضحاك ، فعاد الضحاك إلى الهجوم على الاثنين فى واسط ؛ فانسحب ابن سعيد الحرشى إلى الشام ، أما ابن عمر فاضطر إلى عقد اتفاق مع الضحاك ، وحرضه على أن يذهب إلى قتال مروان . فتمكن الضحاك من السيطرة فى العراق ، ومد نفوذه حتى أطراف الجزيرة فى الموصل ، التى سقطت بين يديه ، وطُرد عامل مروان منها [3] .

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٢٨٥ ؛ ٣٠٦ — ٣٠٧ .

(٢) نفسه ، ٤ ص ٢٨٨ — ٢٩٠ ؛ انظر .

Ency. de l'Isl, (art al—Dahhâk B. Kais al Shaibani) II, p. 915—916.

(٣) نفسه ، ٤ ص ٢٩٥ — ٢٩٦ .

ولـكن عادت الأمور إلى نصابها فى العراق بتولية يزيد بن عمر بن هبيرة الأزدى من قبل مروان فى سنة ١٢٨/٧٤٦[1] ، الذى كان أبوه عاملاً على العراق أيام الوليد ابن يزيد ، وكان هو نفسه ولى قنّسرين له ، وسار مع مروان يوم أن غلب على دمشق . فحارب عامل مروان الجديد خوارج الضحاك بن قيس بالكوفة وهزمهم ، ثم اجتمع الخوارج بالبصرة فهزمهم أيضاً ؛ كما هرب سليمان إلى الجزيرة. فاستولى يزيد بن عمر على العراق ، وأخذ ابن عمر من واسط وأرسله إلى الجزيرة ، وحبسه فى حرّان إلى أن مات (٣) .

أما فى الجزيرة ، فإن مروان كان يقاتل فى الشام لما اندلعت فتنة الضحاك واستولى على الكوفة،ومدنفوذه إلى الموصل بالجزيرة . فجاء مروان والتقى بالضحاك فى نصيبين وقتله فى سنة ١٢٨/ ٧٤٦ (٤) . فولى الخوارج عليهم ابن الخيبرى خلفاً له ؛ وكان معه سليمان بن هشام الذى هرب من العراق ؛ فتمكن ابن الخيبرى من هزيمة جند مروان ، ودخل خيمته ، إلا أن موالى مروان تمكنوا من قتله على غرة[5] . فتزعمهم بعده شيبان الحرورى وكان معه سليمان أيضاً ، فقاتله مروان، وخندق بإزائه فى الموصل ، واستمرت المساجلة بينهما عشرة أشهر ؛ إلى أن تمكن مروان من هزيمته بفضل خطط الكراديس بدلاً من حرب الصف . فاضطر شيبان بعد هزيمته إلى الهروب إلى بلاد فارس ثم عُمان ؛ حيث قتل هناك فى سنة ١٣٤/٧٥١[6] ، أما سليمان فإنه هرب إلى السند وبقى فيه إلى أن ولى العباسيون الخلافة .

---

(١) عنه ، انظر . وفيات ، ٢ ص ٤١٢ — ٤١٧ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ٢٨٨ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ٢٩٨ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ٢٩٦ .

(٥) نفسه ، ٤ ص ٢٩٦ — ٢٩٧ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ٢٩٨ — ٢٩٩ .

وفى خراسان وقعت العصبية بين المضرية واليمانية ، خصوصاً وأنها كانت بلاداً ثغرية أتتها قبائل عربية عديدة ، مثل : اليمانية من الأزد التى انتقلت من عُمان على يد المهلب وابنه يزيد (١) ، وقبائل مضر وربيعة من الجزيرة . وقد رأينا أن هـذه القبائل كانت فى قتال مستمر ، بسبب تعصب الخلفاء ، حتى أن هشاماً كان يبغض اليمانية فى خراسان ؛ وإن كان همه هو سد الثغر ضد أعداء الإسلام ؛ ولذلك اختار له نصر بن سيار الليثى : العفيف المجرب الباسـل المحنك (٢) . ولكن نصراً كان مثل خلفاء الأمويين متعصباً على اليمانية مبغضاً لها ، فـكان لا يستعين بأحد منهم فى عمله ، وعادى أيضا ربيعة لميلها إلى اليمانية (٣) ، ولوجود حلف قديم بينهما يرجع إلى أيام الجاهلية (٤) . لذلك عاتبه زعيم اليمانية جديع بن علىّ الأزدى ، المعروف بالـكرمانى لأنه ولد بكرمان ، وكان أبوه مع المهلب عند محاربته الأزارقة ؛ ولـكن نصراً لم يقبل عتابه وحبسه فى القلعة « القُهندز (٥) » . وقد تمكن الـكرمانى من الهروب ، فاجتمعت إليه الأزد وسائر من بخراسان من اليمانية ، وانحازت أيضاً ربيعة إليه . فعرف نصر خطأه وحاول أن يصلح الأمور ، ولـكن اليمانية قررت أن يكون السيف وحده بينها وبين المضرية التى انضمت إلى نصر ؛ وكان هذا الخلاف عام ١٢٦ / ٧٤٤ .

فى ذلك الوقت قـــدم الحرث بن سريج ، الذى دعا من قبل إلى تخليص المضطهدين ، وكان قد هرب إلى الـترك وأمضى فى بلادهم اثنتى عشرة

---

(١) الطبرى (Annales) ٢ : ١٢٩٠ — ١٢٩١ ؛ انظر Well. Arab, p. 427.

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٣٢٥ ــ ٣٣٦ .

(٣) نفسه ، ص ٣٣٤ .

(٤) نفسه ، ص ٣٣٦ ؛ الـكامل ، ٤ ص ٢٧٥ .

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٣٣٥ — ٣٣٦ .

سنة [1] ، وقاتل معهم السلمين . فنجد يزيد بن الوليد وقتئذ يأمر نصراً بمنحه الأمان ؛ فأسرع نصر يحسن استقباله ؛ خوفاً منه ؛ وتقربا ليزيد ، الذى تردد فى عزله عن عمله [2] . ولكن لما ولى مروان ، خاف ابن سريج ألا يؤمنه ، وعاد إلى مطالبة نصر بالشورى والإصلاح كما كان الحال من قبل . وقد عظم شأن ابن سريج بانضمام الجهمية إليه ؛ وهى فرقة دينية نسبت إلى شخص كان مع ابن سريج اسمه جهم بن صفوان ، تقول إن الإمامة يستحقها كل من قام بها إذا كان عالماً بالكتاب والسنة ، وأنها لا تثبت إلا بإجماع الأمة كلها . ومع أن نصراً الذى خاف أن ينضم الكرمانى إلى ابن سريج ، طمأن ابن سريج من ناحية مروان ، وعرض عليه أن يوليه ما وراء النهر ؛ إلا أن ابن سريج رفض وصمم على أن يعتزل نصر عمله ، واستعد للحرب [3] .

عندئذ خاف نصر واضطر إلى الخروج من مرو [4] ؛ بحيث غلب عليها الكرمانى وهدم دور المضرية . ولما دعا ابن سريج الكرمانى إلى دعوته ، أبى الكرمانى الاستماع إليه ، وحدث بينه وبين أنصاره قتال انتهى بقتل ابن سريج فى سنة ١٢٨ /٧٤٦ . عندئذ أرسل الكرمانى إلى نصر كتاباً يناديه بالقتال ؛ فنادى نصر فى جنوده ، فعسكر فى ناحية من الصحراء وحفر خندقاً ، وفعل الكرمانى ذلك وخندق ، وسمى المكان لذلك بالخندقين . فمكثوا كذلك عشرين شهراً ، ينهض بعضهم إلى بعض كل يوم يتقاتلون [5] ؛ إلى أن دهمهما أنصار الدولة العباسية .

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٢٧٦ — ٢٧٧ .

(٢) نفسه ، ٤ ص ٢٧٢ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ٢٩٤ — ٢٩٣ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ٢٩٣ — ٢٩٤ .

(٥) الأخبار الطوال ، ص ٣٣٧ — ٣٣٨ .

وفي الجزيرة العربية ظهرت في الحجاز فرقة من الخوارج الأباضية بزعامة شخص اسمه أبو حمزة الخارجي ، استولت على المدينة ، وكانت تدعو إلى خلاف مروان . وفي اليمن ظهر رجل آخر اسمه عبد الله بن يحيى الحضرمي المعروف بطالب الحق — لعله خارجي — ودعا إلى خلاف مروان أيضاً . وقد حدث اتفاق بين الاثنين بحيث أن الأول بايع الثاني على الخلافة (١) ؛ ولكن مروان هزم جيش أبي حمزة وقتله ؛ لما تطلع إلى مد نفوذه إلى الشام عام ١٣٠/٧٤٧ .

وعلى خلاف ذلك ، لم تحدث اضطرابات بين عرب مصر أو قبطها في أول الأمر بسبب رضاهم عن عاملهم منذ هشام : حفص بن الوليد الحضرمي ؛ حتى أنه لما أرسل مروان والياً عليها من قبله ، ثار الجند ضده وطردوه ، وولى مروان حفصة على كره منه . ثم أرسل من جديد الحوثرة بن المجلان الباهلي في سنة ١٢٨ / ٧٤٥ ، فتمكن من قتل حفصة ؛ وبعدها اضطربت البلاد وتتابع الولاة وثارت القبط (٣) .

وفي المغرب كان عاملها منذ هشام حنظلة بن صفوان الكلبي ؛ يعمل على تهدئة العصبية بين العرب . ولما تولى الخليفة الوليد بن يزيد ، خرج عليه رجل من القيسية ، كان أبوه قد قتل مع كلثوم بن عياض في سنة ١٢٢/٧٤٢ ، اسمه عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع . وكان حنظلة لا يرى القتال إلا لكافر أو خارجي ، لذلك تنازل له عن طيب خاطر عن عمله ورحل هو إلى الشام (٤) . ولقد لقي حبيب معارضة من القبائل اليمانية والبربر ؛ وإن استطاع التغلب عليها .

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٢٩٧ ؛ ٣٠٧ ؛ ٣١٤ .
(٢) نفسه ، ٤ ص ٣١٥ .
(٣) الخطط ، ٢ ص ٨٧ — ٨٨ .
(٤) الكامل ، ٤ ص ٢٧٨ فما بعدها .

وفى الأندلس خلع العرب أميرهم أبا الخطار فى سنة ١٢٧/٧٤٥ [1] ، الذى كان قد جمع الكلمة فى عهد هشام ؛ ولكنه بعد ذلك تعصب لليمانية على مضر ، وأخذ يعيى على خلفاء بنى أمية إبعاد اليمانية ، مع أنه بفضل تأييدهم عادت إليهم الخلافة فى يوم مرج راهط [2] . وقد ظهر له منافس من أشراف مضر فى شخص الصميل بن حاتم ، الذى دخل الأندلس مع بلج . ولكى يقبض الصميل على زمام السلطة فى الأندلس وينتزعها من اليمانية ، حرض على أبى الخطار ثوابة بن سلمة ، الذى كان عامل أبى الخطار على إحدى مدن الأندلس وعزله ، على أن تكون له الأمارة إذا انتصر على أبى الخطار ، فحارب ثوابة والصميل أبا الخطار وانتصرا عليه ، وأسراه وسجناه ؛ بحيث أصبح لثوابة اسم الإمارة وللصميل الحكم [3] . فلما توفى ثوابه فى سنة ١٢٩/٧٤٧ ، اختلف الناس : فالمضرية أرادت أن يكون الأمير منهم ، واليمانية أرادت أن يكون الأمير منهم ، فخاف الصميل الفتنة وضياع السلطة من يده ، فاختار لهم والياً من قريش ، وهو يوسف بن عبد الرحمن الفهرى . ولكن أبا الخطار ، الذى كان قد فر من سجنه جمع اليمانية وزحف بهم إلى يوسف ، فتقابل الطرفان بمكان قرب قرطبة ، وتقاتلا أياماً بشدة ؛ فكانوا يرمون بالتراب فى وجوه بعض ، حتى شُبهت المعركة بصفين ، ولكن دارت الدائرة على اليمانية .

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٢٩٠ — ٢٩١ .

(٢) انظر شعره ، بقوله :

أفادت بنو مروان قيسا دماءنا وفى الله إن لم يعدلوا حكم عدل

كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ولم تعلموا من كان ثم له الفضل

وقيناكم حر القنا بنحورنا وليس لكم خيل تعد ولا رجل

انظر الكامل ، ٤ ص ٢٦٠

(٣) عن الصميل ، انظر . مراجع الهامش

Encp. de l'Isl. (art Sumail) tIV, p. 575 — 76.

وأسر أبو الخطار وقتله الصميل ؛ وقد بقى يوسف فى الإمارة له الاسم والصميل الحكم ، إلى سقوط دولة بنى أمية (١) .

هذه الاضطرابات الخطيرة فى الدولة الأموية ، لم تغب عن أعين منافسيهم من بنى هاشم ؛ الذين كانوا يتربصون بهم الدوائر : فنشطوا للاستفادة منها هذه المرة بزعامة فرع آخر هو بنى العباس من نسل العباس عم النبى ؛ بقصد المطالبة بحق آل البيت فى الخلافة . ونحن إذا تتبعنا تاريخ بنى العباس الأوائل ، لا نجد أنهم كانوا يسمون إطلاقاً إلى الخلافة مع علو مركزهم كسادة لبنى هاشم ؛ وإنما كان كل همهم هو تعضيد بنى علىّ فى المطالبة بها ؛ فهم إذن كانوا يؤمنون بأحقية بنى علىّ ؛ ويعترفون بجرأتهم فى طلبها .

فالعباس(٢) — رأس هذا البيت — لم يثبت أنه طالب بالخلافة ، ربما بسبب أنه لم تكن له سابقة فى الإسلام ؛ فقد تأخر إسلامه إلى ماقبل فتح مكة (٣) . ومع ذلك تحرص روايات المؤرخين على إظهاره بمظهر المؤيد للدعوة الإسلامية منذ ظهورها ، وأنه لم يحمل لها الحقد مثل غيره من أعمام النبى كأبى لهب : فهو الذى خرج مع النبى عند بيعة العقبة ليمهد له الأمر (٤) ، وكان يكاتبه سراً وهو بالمدينة ، وربما كان

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٣٠٨ ؛ البيان ، ٢ ص ٣٣ فما بعدها ؛ أخبار مجموعة ، ص ٥٦ فما بعدها .

(٢) عن سيرته ، انظر . ابن سعد ، ٤/١ ص ١ فما بعدها ؛ أسد الغابة، ٣ ص ١٠٩ فما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl,(art 'Abbâs. B. 'Abd al—Muttalib) 1, p. 9 — 10.

(٣) ابن هشام ، ٢ ص ٨١٤ ؛ انظر قبله . التاريخ السياسى ، ١ ص ١٢١ .

(٤) ابن سعد ، ٤/١ ص ٣ .

أسلم قبل بدر(١) . وقد كان العباس شديد الرغبة فى أن تكون رئاسة المسلمين لعلىّ ؛ ففى أثناء مرض النبى كان يقول لعلىّ اذهب بنا إلى رسول الله ، فإن كان هذا الأمر فينا ، وإلا أوصى بنا الناس(٢)، كما كان دائم السؤال عما إذا كان النبى أوصى بها لغير علىّ . ولكن علياً لم يذهب خوفاً من أن النبى إذا رفضها لهم لم يصلوا إليها إطلاقاً ؛ وكان يقول : «ياليتنى كنت أطعت عباساً (٣) » . كذلك بعد موت النبى أقبل العباس على ابن أخيه علىّ ، وقال له : « أبسط يدك ولنبايعك» لكن علياً تباطأ أيضاً ، وانشغل بدفن النبى(٤) . وعلى الرغم من أن العباس لم يظهر طموحاً للرئاسة ، فإن عمر بن الخطاب لم يكن يتهيب عنه مركزه فى بنى هاشم ؛ فكان ينظر إليه على أنه رأس أسرة النبى ؛ ففرض له فى الديوان وبدأ به ؛ وقد توفى العباس فى خلافة عثمان سنة ٣٢/٦٥٢(٥) .

وابنه عبدالله بن العباس ، كان غير طامح للخلافة هو الآخر ؛ لعله بسبب تأخره فى الإسلام أيضاً ؛ وإن كان يبدو أنه أسلم قبيل أبيه(٦) . ولكنه مثله آمن هو الآخر بحق علىّ فى الخلافة ، وحرص على تأييده : فحارب معه وكان أحد أمرائه ، كما أراد علىّ أن يختاره للتحكيم ، ولما أنجب ولداً سماه باسم على ، أحب الناس إليه(٧).

---

(١) نفسه ، ٤/١ ص ٥ .

(٢) نفسه ، ٤/١ ص ١٨ — ؛ النزاع والتخاصم ، ص ٣٤ — ٣٥ .

(٣) النزاع ؛ ص ٦ ؛ انظر . قبله التاريخ السياسى ، ٢ ص ١٤٠ .

(٤) الكامل ، ٢ ص ٣٥٠ .

(٥) ابن سعد ، ٤/١ ص ٢٠ .

(٦) عن سيرته ، انظر . أسد الغابة ، ٣ ص ١٩٢ فما بعدها ؛
Ency. de l'Isl, (art 'Abd Allah B. al—'Abbâs) t I, p. 19—20; Zaid, I, p. 41—42.

انظر ما قبله ، ص ٨٣ — ٨٤

(٧) الكامل ، ٣ ص ٢٠٩ .

وبعد مقتل علي وتسليم الحسن ، اعتزل عبد الله الفتنة وأقام بمكة ، واهتم بجمع الحديث حتى نبغ فيه ؛ فعرف بالبحر لعلمه[١] . وفي فتنة ابن الزبير رفض مبايعته ، فلما أساء معاملته خرج مع ابن الحنفية — وهو ابن علي — إلى الطائف ، وبقي فيها إلى أن توفي في حوالي سنة ٦٨/٦٨٧ . ولعلو مركزه هو أيضاً كان معاوية ينظر إليه بعد موت الحسن ، على أنه سيد بني هاشم[٢] .

ولا نعرف أن علي بن عبد الله بن العباس سعى إلى الخلافة أو طالب بها — وكان يشكي بالسجاد لتعبده — وقد ولد في الليلة التي قتل فيها علي فسماه أبوه علياً . وقد قدم الشام على عهد عبد الملك ، وكان يقيم في قرية الحُميمة في أطراف الشام من شرق الأردن ، ربما بأمر الأمويين ليكونوا تحت رقابتهم ، وعاش فيها إلى وقت وفاته في سنة ١١٨/٧٣٦[٣] .

ولكن فجأة ظهر طموح بني العباس للخلافة على يد محمد بن علي ؛ وإن ذكر المؤرخون أن ذلك كان بمحض الصدفة ، لما جاءه أبو هاشم عبد الله ابن محمد بن الحنفية وريث الدعوة الشيعية المعروفة بالكيسانية[٤] ، أو باسمه : الهاشمية[٥] ، وأوصى له بها . فقد كان أبو هاشم في زيارة سليمان ليقضي حوائجه ، فلما رأى سليمان علمه وفصاحته خافه ؛ فوضع له من سقاه السم في اللبن ، فلما أحس أبو هاشم بالسم ، قصد الحميمة وكان بها محمد بن علي ، فأوصى له بأن يرثه في إمامة الشيعة ؛ خصوصا وأن أبا هاشم لم يكن له عقب . كذلك تذكر رواية

(١) أسد الغابة ، ٣ ص ١٩٣ — ١٩٤ .

(٢) اليعقوبي ، تاريخ ، ٢ ص ٢٦٨ .

(٣) الكامل ، ٤ ص ٢٢٦ ، ٢٥٣ ؛ النوبختي ، ص ٣٣ ؛ ٣٩ .

(٤) النوبختي ، ص ٢٧ ؛ انظر . قبله ، ص ١١٨ وهامش (٤) .

(٥) الشهرستاني ، الملل ، ١ ص ١١٢ ؛ الكامل ، ٤ ص ١٥٩ ؛ ابن سعد ، ٥ ص ٢٤٠ فما بعدها ؛ انظر . Il Testamento di Abu Hasim : Moscati (R. O. S.) 1952. p. 28 sqq. Ency. de l'Isl. (art Abû Hâshim) tI ,p. 94; 2 ed, tI, p. 128.

أخرى أن الوصية دفع بها أبو هاشم إلى علىّ بن عبد الله بن العباس، وذلك لأن محمد بن علىّ كان صغيرا، وأمره أبو هاشم أن يدفعها إلى محمد إذا بلغ، فهو الإمام[١]. ولم يكتف أبو هاشم بتوريث محمد الإمامة، وإنما نقل إليه أيضا العلم الدنى الخاص بالتأويل الذى ورثه من أبيه محمد بن الحنفية[٢]. ومع ذلك يرى بعض الشيعة أن الإمامة كانت خرجت من أبي هاشم، وانتقلت إلى عبد الله بن معاوية بن جعفر أو إلى غيره من العلويين وليس إلى محمد بن علىّ[٣].

مهما يكن كانت هذه الدعوة التى ورثها محمد بن علىّ من أقوى الدعوات وأكثرها إيجابية وتنظيماً: فمنذ أن قامت بالدعوة لابن الحنفية بعد تسليم الحسن أو قبل ذلك، كانت قائمة على قدم وساق فى ستر وكتمان، بإرسال الدعاة وجمع الزكاة ليوم الوثوب[٤]. ولما تسلمها المختار وأظهرها، أعلنها حرباً شعواء على الأمويين، وكل من وقف أمامها. كذلك ظلت الكيسانية بعد المختار ترمى إلى قتل آل أبى سفيان، وهدم دمشق[٥]. فلما آلت الدعوة إلى محمد بن علىّ أبقى على إيجابيتها، وجعل قصدها القضاء على دولة بنى أمية، وإعلان الخلافة فى بنى هاشم؛ وذلك بالدعوة الغامضة: الرضا من آل محمد[٦]، دون أن يذكر الدعاة المقصود أهو فرع آل علىّ أو آل العباس؛ وإن كان عليهم أن يبينوا فضلهما، وظلم بنى أمية، وإشاعة أحاديث نبوية، تؤيد ذلك[٧]. كذلك استمر محمد بن علىّ فى إرسال الرجال والدعاة؛ وكان أبو هاشم طلب من الدعاة الطاعة له[٨]، وأصبحت الدعوة أكثر تنظيما على يديه: فجعل لها مجلسا يشرف عليها يتكون

---

(١) النوبختى، ص ٣٣
(٢) الملل، ص ١١٢.
(٣) نفسه، ص ١١٣؛ الفرق بين الفرق، ص ٢٨؛ النوبختى، ص ٣٣.
(٤) ابن قتيبة، الإمامة، ٢ ص ٢٠٧ — ٢٠٨؛ انظر. قبله، ص ١١٩.
(٥) النوبختى، ص ٤٢.
(٦) الكامل، ٤ص ٣٠٧ س ٤.
(٧) نفسه، ٤ ص ٣٢٣.
(٨) نفسه، ٤ ص ١٥٩؛ مروج الذهب، ٥ ص ٨٩؛ الطبرى (Annales) ٢، ١٢٢١. عن تفسير هذا العدد، انظر. ماجد، نظم الفاطميين، ١ص ١٨٤ وهامش (٤).

من اثنى عشر نقيباً ، لعله على نسق الاثنى عشر نقيباً من بنى إسرائيل المذكورين فى القرآن (٥ : ١٢)، أو عدد الاثنى عشر رجلاً من الأوس والخزرج ، الذين عاهدوا النبى على الولاء فى العقبة[١] ، أما الدعاة فكان عددهم كبيراً بلغ السبعين ، وكانوا ينعبون فى زى التجار مستبضعين . وكان محمد يجتمع بهم فى موسم الحج ويأتون إليه بالمال ويأخذون الأوامر[٢] .

وقد وجدت هذه الدعوة آذاناً صاغية عند الشعوب المفتوحة ؛ الذين كانوا قد أسلم بعضهم ؛ إلا أن العرب لم يهتموا بإسلامهم ، وإنما كان همهم أخذ خيراتهم ، وألا تنقص إيراداتهم ، فاستمروا فى فرض الجزية والخراج عليهم ؛ بل أطلقوا على من أسلم منهم اسم : الموالى مفردها مولى[٣] ، وهى كلمة لها معانٍ متعددة ؛ وإنما أصبحت فى عهد دولة العرب تعنى الخاضعين لقبائل العرب ، وكان هذا هو كل حظهم من المساواة . ولقد حاول عمر بن عبد العزيز — كما بينّا — أن يصلح الأمور بين العرب والموالى ، وينفذ الاتفاقات الأولى بينهم أثناء الفتوح ، فنحهم المساواة فى كل شىء ؛ ثم عاد عمال الأمويين بعده إلى ما كانوا عليه ؛ فكانت محاولة عمر بن عبد العزيز تنبيهاً لهم إلى حقوقهم .

لذلك ظهرت بين الموالى فى أواخر عهد الدولة العربية الحركة التى عرفت

---

(١) نفسه ، ٤ ص ٣١٠ س ٩ .

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٣٥٧ .

(٣) لسان ، ٢٠ ص ٢٨٩ فما بعدها ؛ انظر . النجار،الموالى فى العصر الأموى ، ص ١٤ ؛ Ency. de l'Isl, (art Mawlâ) t3, p. 479.; Culturgeschichte des unter den Califen 2,p. 154 suiv.: Kremer

بالشعوبية[1]، أى الطالبة بحقوق الشعوب التى أسلمت فى المساواة ؛ وهى كلمة من أصل شعوب بلفظ الجمع لتعنى غير العرب ؛ لأن العرب يطلق عليهم القبائل[2] . وهناك اسم آخر يظهر منه هدف الموالى من هذه الحركة ، فقد سموا أنفسهم: بأهل التسوية[3] ، لأنهم كانوا يطالبون بالمساواة . وهذه الحركة فى الطالبة بالمساواة امتدت إلى شعوب مختلفة من عجم وعراقيين وفراعنة وروم ويهود[4]؛ مما يدل على أنها كانت عامة فى أركان الأمبراطورية العربية .

وهى حركة بدأت كلامية فى أول الأمر ،اعتمدت فى تأييد حقها فى المساواة على آيات القرآن ؛ مثل : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ٤٩ : ١٣ ﴾ ، وعلى أحاديث نبوية ، مثل : ﴿ ليس لعربى على عجمى فضل إلا بالتقوى ﴾ . وقد وجد بين أتقياء العرب من كانوا يعطفون على هذه الحركة ؛ فقد شاهدوا بفزع سوء معاملة العرب من أفراد الطبقة الحاكمة لإخوانهم المسلمين من غير العرب ؛ مما لا يتفق مع شريعة الله ومبادىء الرسول . ولكن العرب المتعجرفين ، لم يعترفوا بسوء سياستهم؛ بحيث تطورت هذه الحركة، وأصبح الحكام والمحكومون يتقاذفون بالكلام ، ويظهر كل فريق احتقاره للآخر . فالعرب فى الزواج كانوا يميزون بين الصريح والدخيل[5] ، وكانوا يقولون : « لا يقطع الصلاة إلا ثلاثة : حمار أو كلب أو مولى[6] » . أما الموالى فأخذوا يصغرون من شأن العرب؛ ويفتخرون

---

(١) العقد ، ٢ ص ٨٦ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Shûbîyâ) t 4, p. 410.

(٢) انظر . لسان ، ١ ص ٤٨٧ س ١٥ ؛ العقد ، ٢ ص ٥٥ .

(٣) العقد ، ٢ ص ٨٦ .

(٤) عن ذلك ، انظر . نفسه ، ٢ ص ٨٥ — ٨٨ .

(٥) انظر . Kremer : Cult., I, p. 69. ; Khuda Bukhsh : Essay, p. 64.

(٦) العقد ، ٢ ص ٩٠ ؛ انظر . النجار ، الموالى ، ص ٣٨ .

بملوكهم وتاريخهم(١) ، خصوصاً وأنهم كانوا عماد العلوم ـ التى اعتبرها العرب من الصنائع التى لاتليق بهم(٢) ـ بحيث أصبحت كلمة شعوبى بمعنى الذى يصغّر من شأن العرب ، ولا يقيم لهم فضلاً(٣) .

ولكن هذه الحركة لم تظهر بقوتها مثلما ظهرت بين الفرس ؛ حيث أن كلمة شعوب بلفظ الجمع ، أصبحت تعنى قبائل غير عربية أى عجم ، وهو الاسم الذى أطلقه العرب بلغة الجمع على الفرس خاصة(٤). فهؤلاء مع أنهم اعتبروا أهل كتاب(٥) ، وقد دخلوا الإسلام فى أعداد كبيرة دون إجبار منذ عهد مبكر، قبل بقية الشعوب الأخرى ؛ ولأن الدهاقين وهم كبار الملاك الفرس، أرادوا الاحتفاظ بأملاكهم(٦) ، فاتخذوا أسماء عربية ، كما أن بعض قبائلهم صاروا موالى لبعض قبائل العرب(٧) ، ولكن الأمويين لم يهتموا باسلامهم ، فأطلقوا عليهم باحتقار اسم : العجم أو العلوج(٨) ، أى الذين يتكلمون لغة غير مفهومة . لذلك ومنذ عهد مبكر ، اعتنق الفرس المبادىء التى تناوىء الأمويين، بخاصة المبدأ الشيعى، الذى كان

---

(١) فمن قول أحد شعراء الفرس :

أصلى كريم ومجدى لا يقاس به	ولى لسان كحد السيف مسموم
من مثل كسرى وسابور الجنود معا	والهرمزان الفخر أو التعظيم

انظر . الأغانى ، ٤ ص ١٢٥ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٥١ ـــ ٤٥٣ .

(٣) لسان ، ١ ص ٤٨٢ ؛ النزاع والتخاصم ، ص ٦٥ ـــ ٦٦ .

(٤) لسان ، ١ ص ٤٨٢ ؛ انظر .

Ency. de l'Isl, (art 'Adjam) tl, p. 143.

(٥) عن ذلك ، انظر . فتوح البلدان ، ص ٧٩ ؛ أبو يوسف ، الخراج ، ص ١٥٥.

(٦) انظر . Menant: Les Zoroastriens de Perse. R. M. M. vol 3, Oct et Nov. 1907, p. 196 — 197.

(٧) فتوح البلدان ، ص ٤٤١ ؛ انظر . Gold: Muh. Stud , 1, p. 104 suiv ؛ فان فلوتن ، السيادة العربية، ترجمة حسن إبراهيم وزكى إبراهيم ، القاهرة ١٩٣٤ ، ص ٣٧.

(٨) أبو يوسف ، الخراج ، ص ٢٩ ـــ ٣٠ ، انظر . قبله ، ص ١٦١ .

يدعو إلى ولاية أسرة النبي الخلافة ، لا سيما وأنهم نظروا لهذه الأسرة نظرة كسروية ؛ حيث كان الحسين قد تزوج بابنة يزدجرد الثالث آخر ملوك الساسانيين(١) ؛ فكان معظم الشيعة من الفرس . أضف إلى ذلك أن مناطق كثيرة في فارس ، مثل كرمان وسجستان ، كانت وكراً للخوارج الثائرين على الأمويين(٢) .

وقد هيأ هذا الاستياء بين الموالي في فارس على الخصوص ، فرصة نادرة لدعوة آل البيت . فمنذ أن انتقلت الدعوة للعباسيين ، وهم يوجهون نشاط دعوتهم إليها ، وبخاصة إلى منطقة خراسان النائية عن مركز الخلافة الأموية ؛ فاستجاب لهم بها أناس كثيرون(٣) . وقد ساعد على ذلك أن أهل خراسان أسلموا قبل غيرهم في أعداد كبيرة ، وأظهروا حماساً للدين الجديد بالاشتراك مع العرب في الجهاد كما فعل البربر ؛ إذ كانت خراسان ثغراً لقتال الترك . ولكن العرب لم يحسنوا معاملتهم ولم يسووا بينهم وبين أنفسهم في العطاء ، بل كانوا أحياناً يجعلونهم يغزون دون عطاء ولا رزق(٤) ؛ إلى أن جاء عمر بن عبد العزيز وقرره لهم . لذلك كان محمد بن عليّ ، يوصي دعاته بالخراسانيين ، فيقول لهم(٥) : « فإن هناك العدد الكثير ، والجلد الظاهر »

(١) النوبختي ، ص ٥٣ (آخر الصفحة) ؛ انظر . قبله ، ص ٧٧ .

(٢) انظر . قبله ، ص ١٣٤ فما بعدها .

(٣) الأخبار الطوال ، ص ٣١٩ س ١٠ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ١٥٨ س ٨ ؛ انظر . قبله .

(٥) معجم البلدان ، ٣ س ٤١٠ .

وهناك صدور سليمة وقلوب فارغة لم تتقسّمها الأهواء ، ولم تتوزعها النحل ، ولم يقدم عليهم فساد ، وهم جند لهم أبدان وأجسام ومنا كب وكواهل وهامات ولحى وشوارب ، وأصوات هائلة ولغات فخمة ... » . ويبدو أن بنى أمية كانوا يخافون من حدوث انقلاب فى خراسان ، فكانوا يرون أنهم يقدرون أن يرتقوا أى فتق إلا من خراسان(١) .

غير أن محمد بن علىّ مات قبل أن ينال غرضه من الدعوة فى سنة ١٢٤/٧٤٢ أو ١٢٦/٧٤٤ ، فعهد بالإمامة إلى ولده إبراهيم ، الذى عُرف بالإمام(٢) . وقد استمر إبراهيم فى الدعوة بحماس فى خراسان ، فأرسل إليها أكبر الدعاة ، مثل بُكير ابن ماهان ، الذى كان من المجاهدين فى ثغر الهند ، أرسله إليها ليعلن موت محمد وولايته(٣) . ولما مات بكير فى سنة ١٢٧/٧٤٥ ، عين إبراهيم مكانه أبو سلمة الخلال(٤) ، الذى كان من الرقيق وأعتق ، وجعل له سيطرة تامة على الدعوة ، فعرف : بوزير آل محمد ، وكان كثير التنقل بين خراسان والحيمة مركز الإمام . ويبدو أن إبراهيم قرر أمراً حاسماً للدعوة فى خراسان ، لما اختار لها قائداً شاباً يبلغ التاسعة عشرة ، من أصل لا شك أنه إيرانى من أصبهان ، اسمه عبد الرحمن بن مسلم(٥) ، وإن تكنّى بأبى مسلم بناء على طلب إبراهيم ؛ إذا كان مملوكاً لأحد الدعاة فى سواد

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٣٢٣ س ٤ — ٥ .

(٢) نفسه ، ٤ ص ٢٥٣ ؛ الأخبار الطوال ، ص ٣٢٤ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Ibràhîm B. Muhammed) t2, p. 462.

(٣) الأخبار الطوال ، ص ٣١٩ — ٣٢٠ .
انظر . Ency. de l'Isl, (art Bukair B. Màhàn) t1, p. 794—5 . يقول الدينورى إن الذى أعلم وفاة الامام هو أبو مسلم . انظر ، ص ٣٢٤ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ٢٩١ ؛ انظر — Ency. de l'Isl, (art Abû Salama al—Khalâl) t1, p. 108.

(٥) انظر . الكامل ، ٤ ص ٢٥٢ فما بعدها ؛ الأخبار الطوال ، ص ٣٢٢ — ٣٢٣ ؛ وفيات ، ١ ص ٣٩٧ — ٤٠١ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Abù Muslim), Arab, p. 518 sqq. : Well : t1, p. 103—104; 2 ed t1, p. 145 . فمثلا قيل إنه من ولد سليط بن عبد الله بن العباس . الكامل ، ٤ ص ٣٥٣ .

الكوفة ، ثم اشتراه أبو محمد وآل إليه وأعجب به . فجعل إبراهيم لأبي مسلم سلطة تامة على الدعوة بخراسان في سنة ١٢٨/٧٤٦ ، وأمر بقية الدعاة بطاعته ؛ وقد زوده بنصائح في سبيل نصرة آل البيت ، بأن يفرق بين طوائف العرب ؛ باستمالة اليمانية ومعاداة المضرية ، حتى يقتل بخراسان من يتكلم العربية[1] . فشمر أبو مسلم للدعوة ، ووجه كل رجل من أصحابه إلى ناحية في زي التجار[2] ، بحيث انضم إليه في ليلة واحدة أهل ستين قرية من نواحي مرو[3] .

فلما اشتدت شوكته ، أظهر الدعوة في شهر رمضان سنة ١٢٩/٧٤٧[4] ، بناء على أمر الإمام ، بأن تكون الطاعة لبني العباس . فعقد اللواء والراية اللذين بعث بهما الإمام ، ويدعى الأول الظل والثاني السحاب ، ومعناهما أن خلفائه العباسيين يظللون الأرض إلى آخر الدهر ، وكان يتلو: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ٢٢ : ٣٩ ﴾ ؛ واتخذ أبو مسلم السواد شعاراً ، فعرف جيشه بالمسودة ، نسبة إلى شعار العباسيين الأسود ، حزناً على الشهداء من بني هاشم ، ونعياً على بني أمية في قتلهم . كذلك أوقدوا النيران ، وأضاءوا المشاعل الكبيرة على قمم الجبال ؛ فأخذ ينضم إليه عدد كبير من الموالين .

ومع ذلك فان أبا مسلم بقي شهوراً دون أن يستولي على مرو عاصمة خراسان؛ وإنما أخذ يحتل الأماكن المحيطة بها ؛ وساعده على ذلك انشغال نصر والكرماني بالقتال فيما بينهما منذ عدة شهور [5] . وكان أبو مسلم إذا كتب لنصر يكتب للأمير نصر ، فلما قوى بمن اجتمع إليه بدأ بنفسه [6] . وقد كتب نصر إلى ربيعة

(١) الكامل ، ٤ ص ٢٩٥ .

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٣٢٧ .

(٣) الكامل ، ٤ ص ٣٠٠ س ١٢ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ٢٩٩ — ٣٠٠ س ١٢ .

(٥) انظر . قبله

(٦) الكامل ، ٤ ص ٣٠٠ — ٣٠١ :

واليمن في مرو يحضهم على ترك العصبية ، التي أدت إلى قتل كثير من الطرفين ، والاتحاد في قتال أبي مسلم ، فمن قوله إليهم :

أبلغ ربيعة في مرو وفي يمن أن اغضبوا قبل ألا ينفع الغضب[1] .

ولكن الكرماني رفض الصلح ، وصمم على عزل نصر[2] ؛ مما جعل هذا الأخير يكتب إلى مروان يطلب منه مدداً ضد الكرماني ، وقال له هذه الأبيات :

أرى خلل الرماد وميض نار ويوشك أن يكون لها ضرام
فإن النار بالعودين تذكى وإن الحــــرب مبدؤها كلام
فقلت من التعجب ليت شعري أأيقاظ أميــــة أم نيام[3] .

ولكن مروان كان مشغولاً عن نصر بمقاومة الخوارج[4] ، وأرسل إلى نصر يقول له اضبط ثغرك بجندك ؛ واهتم هو بالقضاء على رأس الدعوة إبراهيم بالحيمة ، فأرسل إليه من أوثقه وزج به في السجن ، ثم أمر به أن يخنق أو تلف رأسه في داخل جراب[5] ، كما أن عامل العراق يزيد بن عمر بن هبيرة لم يتمكن من أن يمده نصراً ، وقال له ليس عندنا رجل[6] .

وكان أبو مسلم يذكي العداء بين نصر والكرماني ، ويكاتب الاثنين ، كما أنه نزل في خندق ثالث بين خندقيهما . ولما لم يجد نصر فائدة مع الكرماني ، دس إليه ابن الحرث بن سريج ؛ الذي تمكن من قتل الكرماني غيلة . عندئذ خرج ابنا الكرماني ومعهما جمع كثير وانضموا لأبي مسلم لقتال نصر ، فتمكن أبو مسلم

(١) نفسه ، ٤ ص ٣٠٤ .

(٢) الأخبار الطوال ، ص ٣٣٨ — ٣٣٩ .

(٣) وفيات ، ١ ص ٣٩٩ ؛ الكامل ، ٤ ص ٣٠٣ ؛ الأخبار الطوال ، ص ٣٤٠ (يكتبها بكلمات مختلفة) ؛ انظر . فان فلوتن ، السيادة العربية ، ص ١٢٨ وهامش (٣) .

(٤) وفيات ، ١ ص ٣٩٩ .

(٥) الأخبار الطوال ، ٢ص ٣٤٠ .أو أنه هدم على إبراهيم بيتا فقتله. الكامل، ٤ص ٣٢٩

(٦) نفسه ، ص ٣٤٢ .

من دخول مرو أثناء قتال العصبيتين فى ربيع الآخر سنة ١٣٠/٧٤٨ ؛ حيث اعترف ابنا الكرمانى لأبى مسلم بالأمارة[١] . ولكن أبا مسلم ما لبث أن قتل ابنى الكرمانى خوفاً من أن تتفق اليمانية مع نصر[٢] ، كما قتل ستمائة إنسان[٣] ، من بينهم عبدالله بن معاوية ، الذى كان قد استولى على فارس ، وهرب إلى خراسان وبها أبو مسلم ، حينما علم بدعوته للرضا من آل محمد طمعاً فيها ، فدس أبو مسلم له السم[٤] ؛ كذلك قتل أبو مسلم الخوارج التى اجتمعت على قتله[٥] . فلما رأى نصر ماجاء به أبو مسلم من اليمانية والربعية والعجم ، خرج هارباً إلى نيسابور ، فلما لحقه جند أبى مسلم بقيادة الداعية قحطبة هرب نصر إلى الرى ، حيث توفى بجوارها فى سنة ١٣١/٧٤٨[٦] . وبذلك غلب أبو مسلم على خراسان وسك العملة بها ، باسم أمين آل محمد ، وعين العمال[٧] .

بعد ذلك زحف جيش الداعية قحطبة ، الذى أرسل وراء نصر ، فدخل نيسابور ثم الرى ، ثم استولى على أصفهان وقتل عامل مروان بها ، ثم حارب فى نهاوند ، ثم فى فارس[٨] . فخرج يزيد بن عمر بن هبيرة عامل مروان على العراق لمنعه من دخوله ، بأن عسكر فى جلولاء ، واحتفر الخندق التى كان العجم احتفروه أيام وقعة جلولاء . ولكن قحطبة لم يسر على جلولاء وسار رأساً إلى الكوفة فعسكر قريباً منها ، فجاءه يزيد بن عمر بن هبيرة ، فهزمه قحطبة إلا أن قحطبة غرق فى سنة ١٣٢/٧٤٩ ، فقام الحسن بن قحطبة مقامه ، واضطر يزيد إلى الهروب

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٣٠٣ ؛ ٣٠٩ — ٣١٥ .

(٢) نفسه ، ٤ ص ٣١٢ .

(٣) النزاع ، ص ٥١ .

(٤) مقاتل الطالبيين ، ص ١٢٣ .

(٥) الكامل ، ٤ ص ٣١١ .

(٦) نفسه ، ٤ ص ٣١٠ — ٣١١ ؛ ٣١٣ ؛ ٣١٧ .

(٧) انظر . Guest. :
A Coin of Abu Muslim, J. R. A. S. July 1932, p. 555—9.

(٨) الكامل ، ٤ ص ٣١٧ فما بعدها .

إلى واسط ، التى كان هرب إليها الحجاج من قبل[1] . كذلك ما لبث عامل الكوفة محمد بن خالد بن عبدالله القسرى من قبل يزيد بن عمر بن هبيرة أن سلم المدينة للعباسيين ، حيث كان أغلب أهلها من الشيعة ، يرحبون بالقضاء على الدولة الأموية . فلما دخلها عبد الله أبو العباس ، الذى بقى مستخفياً خارجها أربعين ليلة بعد أخذ أخيه إبراهيم من الحيمة وقتله ، نجد أن وزير آل محمد أبو سلمة الخلال يعلن خلافة أبى العباس ، ويبايع له فى ربيع الثانى ١٣٢/٧٤٩ ، وقد تسمى أبو العباس بأمير المؤمنين ؛ وكان أخوه أبو جعفر المنصور يأخذ البيعة له . وقد خطب أبو العباس فى هذه المناسبة ، فبين حق أسرته فى الخلافة ، وكيف أن بنى حرب وبنى مروان توثبوا عليها وتداولوها .

بعد ذلك أرسل أبو العباس نحو مروان بالجزيرة عمه عبد الله بن على على رأس جيش بلغ عدده ثلثمائة ألف ، جُمع من أطراف بلاد الفرس[2] ؛ مما يدل على الحقد ضد الأمويين . فخرج مروان فى عشرين ومائة ألف من قبائل قضاعة وبنى سليم والسكاسك والسكون ، فلقيهم على نهر الزّاب الأعلى قرب الموصل فى أرض مملوءة بالأودية والجبال ، وذلك فى جمادى الآخرة سنة ١٣٢ / يناير ٧٥٠ . فدارت معركة رهيبة مدة يومين هُزم فيها مروان ، وغرق كثير من جيشه منهم إبراهيم بن الوليد المخلوع ؛ إذ كانت القبائل المشتركة ترفض النزول فى المعركة . ولما أرسل عبد الله بن على خبر النصر لأبى العباس ، صلى أبو العباس ركعتين ، وأمر لمن شهد الوقعة بخمسمائة دينار .

---

(١) نفسه ، ٤ ص ٣٢٠ فما بعدها

(٢) نفسه ، ٤ ص ٣٢٧ — ٣٢٩ . عنه ، انظر .

Ency. de l'Isl, (art 'Abd Allàh B. 'Alt) tl, p. 44·

عن الزاب ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٤٦٤ .

ولكن أبا العباس أمر بمطاردة مروان ، الذى احتار وفكر فى الهروب إلى ملك الروم ، لولا أن أصحابه أبوا عليه ذلك ؛ عندئذ قرر أن يهرب إلى مصر لكثرة مالها وخيلها ورجالها ، وإن غُلب فيها ذهب إلى إفريقية[١] . فهرب نحو دمشق وترك عاملاً بها ليقاتل ويؤخر زحف العباسيين ؛ فلحق به عبد الله واستولى على دمشق بعد حصار أيام[٢] ؛ فلما دخلها قتل بها ألوفاً كثيرة من الجند والأمراء ، كما نبش قبور بنى أمية . ولما وصل عبد الله إلى فلسطين عند أبى فُطرُس قرب الرملة نادى بالأمان فى بنى أمية[٤] ، فاستأمن له بضعة وسبعون رجلاً منهم[٥] . فأدخلوا فى سرادق عقدلهم مع بنى هاشم ، الذين كانوا على الكراسى وبنو أمية على الوسائد قد ثنيت لهم ، مع أنهم كانوا أثناء دولتهم يجلسون مع الخلفاء على السرير ويجلس بنو هاشم على الكراسى . فأمر عبد الله بقتلهم ، فعجلت الخراسانية إليهم بالعمد فقتلوهم ؛ فلما قتلوا دعا عبد الله بالغداء ، وأمر يبسط ، فبسطت عليهم وجلس فوقهم يأكل وهم يضطربون تحته ، فلما فرغ من الأكل قال : ما أعلمنى أكلت أكلة قط أهنأ ولا أطيب لنفسى منها . ثم جروهم من أرجلهم ، وعليهم سراويلات الوشى ، ثم حفر لهم بئراً ألقاهم فيها[٦] . أما من لم يستأمن منهم ، فقد هرب إلى كانم بأقاصى الغرب[٨] ، وحتى إلى الحبشة[٩] ، أو إلى الأندلس[١٠] . وبذلك أصبح اسم عبد الله مرهوباً ، فسماه أبو قتيبة: بالسفاح[١١] .

---

(١) الأخبار الطوال ، ص ٣٤٧ .
(٢) الكامل ، ٤ ص ٣٣٠ .
(٣) الذهبى ، تاريخ الدول ، ١ ص ٦٤ .
(٤) النزاع والتخاصم ، ص ٥ . عنه ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٣٨٦ .
(٥) أخبار مجموعة ، ص ٤٧ .
(٦) عن ذلك ، بالتفصيل ، انظر . الأغانى ، ٤ ص ٩٢ فما بعدها . (هو يقول إن أبا العباس هو الذى فعل ذلك)
(٨) معجم البلدان ، ٧ ص ٢١٠ .
(٩) الكامل ، ٤ ص ٣٣٢ س ٥ .
(١٠) نفسه ، ٤ ص ٣٦٠ فما بعدها .
(١١) الإمامة ، ٢ ص ٢٣٢ س ٣ . تؤيد رواية ابن قتيبة ما قاله المرحوم استاذنا الجليل=

ولكن مروان لما دخل مصر عن طريق الفرما ، لحقته الجنود الخراسانية ؛ كما قاتلته اليمانية من أنصار العباسيين ، بزعامة أحد أبناء بنى هشام الحاقدين على مروان . وفى قرية بوصير بالأشمونين فى ذى الحجة سنة ١٣٢/٧٥٠ ؛ قطعت رأس مروان وهو نائم[١] ؛ بعد أن تعب من المطاردة . فلما حملت الرأس بين يدى أبى العباس خر ساجداً[٢] .

وقد تم انتصار بنى العباس ، باخماد بعض فتن متفرقة : فقد ثارت كلاب فى دمشق وقنسرين[٣] ، وبيضوا أى جعلوا أعلاماً بيضاً دلالة على ثورتهم ضد بنى العباس ، الذين اتخذوا اللون الأسود ، ودعوا إلى السفيانى أحد الأمويين ؛ ولكنهم هزموا . كذلك قضى أبو العباس على فتن الموصل ، حيث أرسل إليهم ابن أخيه يحيى بن محمد مع الخراسانيين ، فاستباحها ثلاثة أيام بعد دخولها ؛ فقتـــل جميع العرب وحتى الديكة والكلاب . وفى العراق أجبر أبو جعفر المنصور — أخو الخليفة — يزيد بن هبيرة على التسليم بالأمان بواسط ، ولكن لم يلبث المنصور أن غدر به وقتله[٤] .

= عبد الحميد العبادى ، من أن الملقب بالسفاح هو عبد الله بن على ، وإن تلقب أبو العباس بالسفاح خطأ (انظر . مثلا : الكامل ، ٤ ص ٣٢٥ س ١٢) . فن سيرة الأول يظهر الجور ، على عكس سيرة أبى العباس (انظر . مثلا عن سيرته الأغانى ، ٤ ص ٩٢ ؛ النزاع ، ص ٥٥) ؛ خصوصاً وأن هذه التسمية لأبى العباس بالسفاح ، لم ترد إلا فى كتب المتأخرين . انظر . مقالة العبادى ، صور وبحوث من التاريخ الإسلامى (عصر الدولة العباسية) ، ص ١ — ٥ .

(١) الإمامة ، ٢ ص ٢٢٨ فما بعدها ؛ الأغانى ، ٤ ص ٩٢ . عن بوصير ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٣٠٦ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ٣٣٢ س ٢ .

(٣) نفسه ، ٤ ص ٣٣٤ — ٣٣٦ ؛ ٣٣٩ ؛ ٣٠٤ ؛ النزاع ، ص ٥٤ .

(٤) وفيات ، ٢ ص ٤١٥ .

والخلاصة أن بنى العباس أزالوا بعجم خراسان خلافة بنى أمية[1]، بعد أن حكم منهم أربعة عشر خليفة، وتملك العجم كل شيء فى دولتهم. فلذلك لاحظ المؤرخون قيام عصر جديد فى تاريخ المسلمين؛ فقالوا: إن دولة بنى أمية عربية، ودولة بنى العباس أعجمية[2].

• • •

(١) النزاع، ص ٥٠ س ١٥ — ١٦.
(٢) البيان، ٢ ص ٦٤ س ٤.

الخاتمـــة

مما سبق يتبين أن دراسة تاريخ الدولة العربية لم يقف عند التفتيش عند روايات المؤرخين العرب وحدهم ، بل أصبح يعتمد بالضرورة على الاطلاع على وجهة نظر مؤرخين من غير العرب ، مثل : اليونان والأرمن والمصريين ، وأيضاً المصادر التي أوجدها البحث الحديث من وثائق ونقوش ومسكوكات .

ومن المحقق أن العرب لم يستطيعوا أن يكونوا دولة إلا بفضل رسالة الإسلام ، فالرسول جعلهم أمة واحدة تسودها الرابطة الدينية ، فهي وحدها التي استطاعت كما لاحظ ابن خلدون أن تخلق منهم جماعة قوية ، زادها تأكيداً قضاء أبي بكر على الردة وجمع العرب حول خلافته ، كما قوى من وحدتها التنظيمات التي وضعها عمر بن الخطاب ، ومن جاء بعده من الخلفاء .

ونحن لا نعرف دولة كتبت لها صفحة فخار ومجد في التاريخ مثل الدولة العربية ، التي أقامت الفتوحات العظيمة ، وعربت لغة الدواوين ، وجمعت المسلمين القرآن في نص واحد ، وأنشأت بذور الحضارة الإسلامية .

والذي هيأ لهذه الدولة القيام بكل هذا ، هو أن خلفاءها من الراشدين والأمويين ، لم يذهبوا مذهب البطالة والكسل كما لاحظ ابن خلدون ، ولكنهم كانوا خلفاء متحركين للعمل لصالح أمتهم ؛ كأنما خلقوا للملك .

ولكن الاهتمام بجنس العرب وحده ، وإغفال حقوق الشعوب المفتوحة ، التي تحولت إلى الإسلام كان السبب الرئيسي في القضاء على دولتهم ؛ بحيث يمكننا أن نقول إن سقوط هذه الدولة هو بسبب عدم مجاراتها لتطور الزمن ، وإغفال حقوق الشعوب .

الجـــــداول

(أ) جدول المصادر والمراجع

(أ) كتب عربية

القرآن الكريم

الأبشيهى ، المستطرف فى كل فن مستظرف، جزءان بولاق ١٢٦٨ هـ .

ابن الأثير ، الكامل فى التاريخ ، تصحيح عبد الوهاب النجار ، مصر ١٣٤٨ هـ فما بعدها (أجزاء ١ — ٤) .

، أسد الغابة فى معرفة الصحابة ، ٥ أجزاء، طبعة مصر ١٢٨٥ هـ .

أحمد الساداتى ، تاريخ المسلمين فى شبه القارة الهندية وحضارتهم ، الجزء الأول ، من الفتح حتى قيام الدولة المغولية ، من الألف كتاب (١٥٨)، القاهرة

أحمد السباعى ، تاريخ مكة ، مكة ١٣٧٢ هـ .

أحمد أمين ، فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٢٨ .

احمد الحوفى ، أدب السياسة فى العصر الأموى ، القاهرة ١٩٦٠ .

أخبار مجموعة فى فتح الأندلس ، وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بها بينهم ، تحقيق La fuente y Alcantara ، طبعة Madrid ، ١٨٦٧ .

الإدريسى ، المغرب وأرض السودان ومصر والأندلس ، مأخوذ من كتاب نزهة المشتاق ، تحقيق de Goeje ، طبعة Leyde ، ١٨٦٦ .

أرنولد ، الدعوة إلى الإسلام ، ترجمه إلى العربية حسن إبراهيم وعابدين والنحراوى ، القاهرة ١٩٤٧ .

الريس ، النظريات السياسية الإسلامية ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٢ (ظهرت طبعة ثالثة) .

الأزدى (أبو اسماعيل)، كتاب فتوح الشام، تحقيق وترجمة W. N. Lees، طبعة Calcutta، ١٨٥٤.

الأزرق، كتاب أخبار مكة شرّفها الله، وما جاء فيها من الآثار، تحقيق Wustenfeld، طبعة Leipzig، ١٨٥٨.

ابن اسحق، كتاب فتوح مصر وأعمالها، القاهرة ١٢٧٥ هـ.

الأصطخرى، مسالك الممالك، تحقيق de Goeje، طبعة Leyden ١٨٧٠ (B. G. A).

الأصفهانى، كتاب الأغانى، ٢٠ جزءاً، بولاق ١٢٨٥ هـ؛ وطبعة دار الكتب، القاهرة ١٩٢٧ (لم تتم)

، مقاتل الطالبيين، النجف ١٣٥٣ هـ.

الألوسى، بلوغ الأرب فى معرفة أحوال العرب، ٣ أجزاء، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٢٤ — ١٩٢٥.

أمير علىّ، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامى، ترجمة رياض رأفت، القاهرة ١٩٣٨.

، مركز المرأة فى الاسلام.

أنستاس الكرملى، النقود العربية وعلم النميات، القاهرة ١٩٣٩.

أومان، الامبراطورية البيزنطية، ترجمة طه بدر، القاهرة ١٩٥٣.

أى شير، تاريخ كلد وأشور، فى جزءين، بيروت ١٩٣٢.

بتلر، فتح العرب لمصر، عربه فريد أبو حديد، الطبعة الثانية، القاهرة ١٣٦٥ /١٩٤٦

البحترى، الحماسة، القاهرة ١٩٢٩.

البخارى، صحيح، ٤ أجزاء، القاهرة ١٢٧٨/ ١٨٦١؛ وبولاق ١٣١٤هـ.

بدر الدين الصينى، العلاقات بين العرب والصين، القاهرة ١٩٥٠.

براون (ادوارد)، تاريخ الأدب فى إيران من الفردوسى إلى السعدى، نقله إلى العربية الشوارنى، القاهرة ١٩٥٤.

بروكلمان، تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه فارس والبعلبكى، فى جزءين، بيروت ١٩٤٨ — ١٩٤٩.

البغدادى : ، الفرق بين الفرق ، علق عليه محمد بدر ، مصر ١٣٢٨/١٩١٠.

بتلر ، مصر من الإسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ، ترجمة عواد وعبد اللطيف ، القاهرة ١٩٥٤.

البكرى ، معجم ما استعجم ، تحقيق مصطفى السقا ، القاهرة ١٩٥٤ ، (الجزء الأول).

البلاذرى ، فتوح البلدان ، تحقيق de Goeje ، طبعة Brill ، ١٨٦٦.

، أنساب الأشراف ، تحقيق de Goitein ، طبعة القدس ١٩٣٦ ، (الجزء الخامس) ، ولعل منه جزء (مصنف مجهول) ، تحقيق Ahlwardt ، الجزء الحادى عشر ، طبعة Greifswald ، ١٨٨٣ ؛ وترجمة جزء خاص منه بمعاوية بقلم Pinto و Levi dela Vida بعنوان : Il califfo, Moawiya I, secondo il Kitāb : Ansāb al Asrāf tradotto e annotato. Roma, 1938.

بنيامين فارنجتون ، مدنية الإغريق والرومان ، ترجمة أمين تكلا ، القاهرة ١٩٤٨.

البيضاوى ، أنوار التنزيل وأسرار التأويل ، جزءان ، بولاق ١٢٨٢ — ٣/١٨٦٥ — ٦.

البيرونى ، تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة فى العقل أو مرذولة ، تحقيق Sachau ، طبعة London ، ١٨٨٧.

، الآثار الباقية من القرون الخالية ، تحقيق Sachau ، طبعة Leipzig ، ١٩٢٣.

تاريخ النسطوريين ، (لمؤلف مجهول) نشره وترجمه Scher (فى مجموعة Pat. Or.) ، أجزاء : ٤ و ٧ و ١٣.

ترتون ، أهل الذمة فى الإسلام ، ترجمة وتعليق حسن حبشى ، القاهرة ١٩٤٩.

أبو تمام ، ديوان الحماسة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ.

الثعالبى ، غرر أخبار ملوك الفرس وسيرهم ، تحقيق وترجمة Zotenberg ، طبعة Paris ، ١٩٠٠.

الثعالبي (محمد بن ابراهيم)، كتاب قصص الأنبياء ، مصر ١٣٤٤ هـ .
الجاحظ ، البيان والتبيين ، جزءان ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٣١١ و١٣١٣/١٨٩٣ — ٥ .
، البخلاء ، القاهرة ١٣٢٣ هـ / ١٩٠٥ .
، المحاسن والأضداد ، القاهرة ١٣٢٤ هـ/١٩٠٦ .
، التاج في أخلاق الملوك ، حققه أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٩١٤ .
، كتاب الحيوان ، تحقيق محمد هارون ، ٧ أجزاء ، القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٨
، في معاوية والأمويين ، رسالة على بنشرها عزت العطار ، القاهرة ١٣٦٥/١٩٤٦ .
، العثمانية ، تحقيق محمد هارون ، القاهرة ١٩٥٥ .
جاد المولى ، أنصاف عثمان ، القاهرة ١٩٤٤ .
، محمد المثل الكامل ، مصر ١٣٥٦ هـ .
الجارم ، أديان العرب في الجاهلية ، الطبعة الأولى ١٣٤١/١٩٢٣ .
جبرائيل جبور ، ابن عبد ربه وعقده ، بيروت ١٩٣٣ .
، عمر بن أبي ربيعة ، في جزءين ، بيروت ١٩٣٥ — ١٩٣٩ .
جروهمان ، أوراق البردي العربية بدار الكتب ، ترجمة حسن إبراهيم ، القاهرة ١٩٥٣ .
جمال سرور ، قيام الدولة العربية الإسلامية ، القاهرة ١٩٥٢ .
جمال عياد ، نظم الحرب في الإسلام ، القاهرة ١٣٧٠ هـ .
جواد علي ، تاريخ العرب قبل الإسلام ، بغداد ١٩٥٠ فما بعدها .
ابن الجوزي ، تاريخ عمر بن الخطاب ، صححه حسن الهادي حسين ، القاهرة .
، مناقب عمر بن عبد العزيز ، تحقيق Becker ، طبعة Leipzig ، ١٨٩٩ .
حاجي خليفة ، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، في جزءين ، استانبول ١٣١١ هـ .

حتى ، العرب (تاريخ موجز) ، بيروت ١٩٤٦ .
ابن حجر ، الإصابة فى تمييز الصحابة، ٤ أجزاء، مصر ١٣٥٨/١٩٣٩، ١٩٠٧ .
ابن حزم ، الفصل فى الملل والأهواء والنحل، ٥ أجزاء، القاهرة ١٣١٧ هـ .
، جمهرة أنساب العرب ، تحقيق Lévi-Provençal، القاهرة ١٩٤٨ .
حسن إبراهيم ، النظم الإسلامية، بالاشتراك مع على إبراهيم، القاهرة ١٩٣٩ .
، تاريخ الإسلام السياسى والدينى والثقافى ، الدولة العربية الجزء الأول ، الطبعة الثانية ١٩٤٨ .
، اليمن ، مجموعة اخترنا لك ، رقم ٥٥ ، القاهرة .
حسن پيرينا ، إيران قديم ، طهران ١٣١٣ هـ . ش .
حسن محمود ، الإسلام والثقافة العربية فى إفريقية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٨ .
الحلبى (على بن برهان الدين) ، السيرة الحلبية ، القاهرة ١٣٢٠ هـ .
حميد الله ، مجموعة الوثائق السياسية فى العهد النبوى والخلافة الراشدة، جمعت وترجمت حواشيها إلى العربية ، القاهرة ١٩٤١ .
الخثعمى ، الروض الأنف فى تفسير ما اشتمل عليه حديث السيرة النبوية لابن هشام ، جزءان ، القاهرة ١٣٣٢/١٩١٤ .
الخربوطلى ، تاريخ العراق فى ظل الحكم الأموى، دار المعارف، بالقاهرة.
الخطيب البغدادى ، تقييد العلم ، حققه يوسف العش ، دمشق ١٩٤٩ .
ابن خلدون ، مقدمة ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .
، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، القاهرة ١٢٨٤ هـ، وطبعة أخرى ، القاهرة ١٣٥٥ /١٩٣٦ (الجزء الثانى).
خلف الله ، الفن القصصى فى القرآن الكريم ، القاهرة ١٩٥٠ — ١٩٥١ .
، صاحب الأغانى أبو الفرج الأصفهانى الراوية، القاهرة ١٩٥٣ .
ابن خلكان ، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان ، جزءان ، بولاق ١٢٧٥/١٨٥٩ .

دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، الجزء الأول ، بدون تاريخ .
دراز ، الدين ، بحوث ممهدة لدراسة تاريخ الأديان ، القاهرة ١٣٧١/١٩٥٢ .
درمنجهام ، حياة محمد ، نقله إلى العربية عادل زعيتر ، ١٩٤٥ .
دونالدولبر ، إيران ، ماضيها وحاضرها ، ترجمة عبد النعيم ، ومراجعة الشوارى ، القاهرة ١٩٥٨ .
ديمومبين ، النظم الإسلامية ، نقله الشماع والسامر ، بغداد ١٩٥٢ .
دينيه وسليمان الجزائرى ، محمد رسول الله ، ترجمة عبد الحليم ومحمد عبد الحليم ، القاهرة ١٩٤٩ .
الدينورى ، الأخبار الطوال ، طبعة مصر .
الذهبي ، دول الإسلام ، وهو مختصر على ترتيب السنين ينتهى إلى سنة ٧١٥ ، الطبعة الثانية ، حيدر آباد ١٣٦٥ هـ . (الجزء الأول) .
الرازى (فخر الدين) ، التفسير الكبير ، ٦ مجلدات ، القاهرة ١٢٧٨/٨٦٢ .
، اعتقادات فرق المسلمين والمشركين ، تحقيق النشار ، القاهرة ١٣٥٦ /١٩٣٨ .
ابن رشيق ، العمدة حققه محي الدين عبدالحميد، القاهرة ١٣٥٣ /١٩٣٤ .
الزركلى ، الأعلام ، قاموس وتراجم لأشهر الرجال والنساء من العرب والمستعربين فى الجاهلية والإسلام والعصر الحاضر جزءان ، القاهرة ١٩٢٧ .
الزمخشرى ، الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٢٦٥ /١٩٤٦ .
زيدان ، كتاب العرب قبل الإسلام ، القاهرة ١٩٠٨ .
، أنساب العرب القديمة ، الطبعه الثانية ، القاهرة ١٩٢١ .
، تاريخ آداب اللغة العربية ، ٤ أجزاء ، الطبعة الثانية ١٩٢٤ .

ساويرس بن المقفع ، تاريخ الجامع (فى مجموعة .P. O) ، ترجمة وتحقيق Leroy ، الجزء السادس .

، سير البيعة المقدسة ، (فى مجموعة .P. O) ، حققه وترجمة Evetts ، الجزء الأول والخامس والعاشر : ١٩٠٨ ، ١٩١٠ ، ١٩١٥ .

سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، الجزء الأول ، القسم الأول ، الطبعة الأولى ، ١٩٢٣ .

ابن سعد ، كتاب الطبقات الكبير ، تحقيق Sachau ، ١٥ جزءاً ، طبعة Leiden ، ١٩٠٥ — ١٩٢٨ .

سعد زغلول ، الترك والمجتمعات التركية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، المجلد العاشر ، ديسمبر ١٩٥٦ ، ص ٥٩ فما بعدها .

سعيد بن البطريق ، كتاب التاريخ المجموع على التحقيق والتصديق ، جزءان ، بيروت ١٩٠٥ — ١٩٠٩ .

ابن سلام ، طبقات الشعراء ، طبعة Leyden ، ١٩١٣ م .

السمعانى ، كتاب الأنساب ، تحقيق وتقديم Margoliouth ، طبعة Leyden، ١٩١٢ [W. Gibb. Mem. XX] .

سيدة كاشف ، مصر فى فجر الإسلام ، القاهرة ١٩٤٧ .

السيوطى ، تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة ، مصر ١٣٥١ هـ .

، كتاب الإتقان فى علوم القرآن ، الطبعة الثالثة ، فى جزءين ، مصر ١٣٦٠ هـ/١٩٤١ .

، حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة ، فى جزءين ، القاهرة ١٣٢٧/١٩٠٩ .

، كتاب الشماريخ فى علم التاريخ ، تحقيق Seybold ، طبعة Leyden ، ١٨٩٤ .

الشابشتى ، الديارات ، تحقيق كوركيس عواد ، بغداد ١٩٥١ .

ابن الشحنة ، الدر المنتخب فى تاريخ مملكة حلب ، حققه سركيس ، بيروت ١٩٠٩ .

شعيرة ، الملك الخليفة ، أو ممالك ماوراء النهر ، بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب جامعة فاروق ، المجلد الرابع، ١٩٤٨.

شكرى فيصل ، حركة الفتح الإسلامى فى القرن الأول ، القاهرة ١٩٥٢/١٢٧١ .

شكيب أرسلان ، الحلل السندسية فى الأخبار والآثار الأندلسية، الجزء الأول، مصر ١٣٥٥هـ/١٩٣٦ .

الشهرستانى ، الملل والنحل، تحقيق Cureton، طبعة London ، ١٨٤٦ .

شيخو ، شعراء النصرانية ، جمع وتصحيح ، بيروت ١٨٩٠ .

، شعر الأخطل ، بيروت ١٨٩١ .

ابن صاعد ، طبقات الأمم ، نشره وذيله شيخو ، بيروت ١٩١٢ .

الصاوى (عبد الله)، شرح ديوان جرير ، بدون تاريخ .

الطبرى ، تاريخ الأمم والملوك ، تحقيق de Goeje ، بعنوان : "Annales" ، ١٥ جزءاً ، طبعة Leyde ، ١٨٧٩ — ١٩٠١ ؛ طبعة القاهرة ١٣٥٧/١٩٣٩ .

، جـــامع البيان فى تفسير القرآن ، ٣٠ جزءاً ، القاهرة ١٣٣٠ هـ ؛ وطبعة دار المعارف ، ظهر منها جزءان ، تحقيق محمود شاكر .

ابن الطقطقى ، الفخرى فى الآداب السلطانية ، تحقيق Derenbourg،

طبعة Paris ، ١٨٩٥ .

طه حسين ، فى الأدب الجاهلى ، ١٩٢٧ .

، على هامش السيرة ، القاهرة ١٩٣٥ .

، الفتنة الكبرى ، طبعة دار المعارف .

، علىّ وبنوه ، طبعة دار المعارف ١٩٥٣ .

عبادة ، كتاب سفن الأسطول الإسلامى ، مصر ١٩١٣ .

العبادى ، صور من التاريخ الإسلامى (العصر العربى) ، الإسكندرية ١٩٤٨ ؛ (عصر الدولة العباسية) القاهرة ١٩٥٣ .

ابن عبد الحكم ، فتوح مصر والمغرب والأندلس ، تحقيق Torrey ، طبعة New-Haven ، ١٩٢٠ .

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٢٩٣ هـ .

ابن عبد المنعم الحميرى ، صفة جزيرة الأندلس ، تصحيح وتعليق Lévi-Provençal ؛ القاهرة ١٩٣٧ .

ابن العبرى ، (Barhebraeus) تاريخ مختصر الدول ، تحقيق صالحانى ، بيروت ١٨٩٠

العدوى ، الأمويون والبيزنطيون ، القاهرة ١٩٥٣ .

، الأساطيل العربية فى البحر الأبيض المتوسط ، القاهرة ١٩٥٨ .

ابن عذارى ، البيان المغرب فى أخبار الأندلس والمغرب ، نشر وتحقيق Colin و Lévi-Provençal ، فى جزءين ، طبعة Leiden ، ١٩٤٨ — ١٩٥١ .

ابن عساكر ، تاريخ مدينة دمشق ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، مطبوعات المجمع العلمى العربى بدمشق ، المجلدة الأولى ١٣٧١/١٩٥١ .

، التاريخ الكبير ، الجزء الأول ، دمشق ١٣٣٢ هـ .

العقاد ، معاوية بن أبي سفيان فى الميزان ، الطبعة الأولى ، كتاب الهلال ، عدد ٥٥ .

على إبراهيم ، عمرو بن العاص ، القاهرة .

، التاريخ الاسلامى العام ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٩ .

على عبد الرازق ، الإسلام وأصول الحكم ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٢/١٣٤٤ .

على مظهر ، العصبية عند العرب فى الجاهلية والإسلام حتى زوال دولة بنى أمية من المشرق ، مصر ١٣٤٢/١٩٢٣ .

عنان ، دولة الإسلام فى الأندلس من الفتح إلى نهاية مملكة غرناطة ، القاهرة ١٩٤٣ .

العينى ، عمدة القارىء فى شرح صحيح البخارى ، ١١ جزءاً ، طبعة القسطنطينية ١٣٠٩ — ١٨٩١/١٣١٠ — ١٨٩٣ .

ابن غالب البلنسى ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس فى تاريخ الأندلس ، تحقيق لطفى عبد البديع ، القاهرة ١٩٥٦ .

ابن غلبون ، تاريخ طرابلس الغرب ، المسمى التذكار فيمن ملك طرابلس وما كان بها من الأخبار ، تحقيق الزاوى ، القاهرة ١٣٤٩ هـ .

غنيمة ، الحيرة المدينة والمملكة العربية ، بغداد ١٩٣٦ .

ڤازيليف ، العرب والروم ، ترجمة شعيرة ، القاهرة .

ڤان ڤلوتن ، السيادة العربية والشيعة والإسرائيليات فى عهد بنى أمية ، ترجمه من الفرنسية حسن إبراهيم وزكى إبراهيم ، القاهرة ١٩٣٣ .

فتحى رضوان ، محمد الثائر الأعظم ، كتاب الهلال ، العدد ٣٨ .

أبو الفدا ، المختصر فى أخبار البشر ، الجزء الأول ، مصر ١٣٢٥ هـ .

، تقويم البلدان ، تحقيق Reinaud و de Slane ، طبعة Paris ، ١٨٤٠ .

ابن الفراء : كتاب رسل الملوك ، ومن يصلح للرسالة والسفارة ، تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٤٧ .

فلهوزن : أحزاب المعارضة الدينية ـ السياسة فى صدر الإسلام ، ترجمة عبد الرحمن بدوى ، القاهرة ١٩٥٨ .

فنسنك : مفتاح كنوز السنة ، معجم مفهرس عام تفصيلى ، نقله إلى العربية فؤاد عبد الباقى ، القاهرة ١٣٥٢/١٩٣٣ .

ابن قتيبة : المعارف ، تحقيق Wust ، طبعة Gottingen ، ١٨٥٠ .
: عيون الأخبار ، حققه Brockelmann ، ٤ أجزاء ، طبعة Berlin ، ١٩٠٠ .
: الشعر والشعراء ، صححه وعلق على حواشيه أبو فراس النعسانى ، ١٣٢٢ هـ
: الإمامة والسياسة ، صححه محمد محمود الرافعى ، القاهرة ١٣٢٢/١٩٠٤ .
: الميسر والقداح ، تحقيق محب الدين الخطيب ، القاهرة ١٣٤٣ هـ .

قدامة بن جعفر : كتاب الخراج ، طبعة Leyden ، ١٩٠٦ .

القرشى أبو الخطاب ، كتاب جمهرة أشعار العرب ، الطبعة الأولى ، بولاق ١٣٠٨ هـ .

قطب الدين : كتاب الأعلام بأعلام بيت الله الحرام ، تحقيق Wust ، طبعة Leipzig ، ١٨٥٧ .

القلقشندى : صبح الأعشى فى صناعة الإنشاء ، ١٤ جزءاً ، القاهرة ١٩١٣ — ١٩١٧ .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق Ribera ، طبعة Madrid ، ١٩٢٦ .

كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، دمشق ١٩٤٩/١٣٦٨ .

كريمر ، الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية ، تعريب مصطفى بدر ، الجيزة ١٩٢٧ (من الترجمة الإنجليزية للمؤرخ الهندى خدابخش) .

ابن كثير القرشى ، البداية والنهاية فى التاريخ ، مطبعة السعادة ، ١٩٣٢/١٣٥١ .

الكلبى ، كتاب الأصنام ، تحقيق أحمد زكى ، دار الكتب المصرية ١٩٢٤/١٣٤٣ .

الكندى ، كتاب الولاة والقضاة ، تحقيق Guest [انظر Gibb. Mém.S] ، طبعة London ، ١٩١٢ .

لسان الدين الخطيب ، أعمال الأعلام، تحقيق Lévi-Provençal، بيروت ١٩٥٦ .

ليفبول ، تاريخ العرب فى إسبانيا ، ترجمه إلى العربية على الجارم ، القاهرة ١٩٤٤ .

ماجد ، مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى ، القاهرة ١٩٥٣ .

، نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، جزءان ، القاهرة ١٩٥٣ — ١٩٥٥ .

، الأطلس التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، بالاشتراك مع على البنا ، القاهرة ١٩٦٠ .

مالك بن أنس ، الموطأ ، طبعة كلكتا ، ١٣٠٧ هـ .

المالكى (أبوبكرعبدالله)، رياض النفوس ، تحقيق حسين مؤنس ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥١ .

الماوردى ، الأحكام السلطانية ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .

المبرد ، كتاب الكامل فى اللغة والأدب ، جزءان ، مصر ١٣٦٥ هـ .

مجيب الدين ، شرح القاموس المسمى تاج العروس ، ١٠ أجزاء القاهرة ١٣٠٧ هـ .
محمد رضا ، محمد رسول الله ﷺ ، القاهرة ١٣٥٣/١٩٤٣ .
محمد توفيق ، الإمام علىّ بن أبى طالب ، مصر ١٢٥٨/١٩٣٩
أبو مخنف ، فى مقتل الحسين عليه السلام ، رسالة أخذ الثأر وانتصار المختار على الطغاة الفجار ، تحقيق محمد الشيرازى ، طبعة عباى ١٣٦١ هـ .
مراد كامل ، تاريخ الأدب السريانى ، من نشأته إلى الفتح الإسلامى ، بالاشتراك مع حدى البكرى ، القاهرة ١٩٤٩ .
المراكشى (عبدالواحد)، المعجب فى تلخيص أخبار المغرب ، حققه سعيد العريان والعربى ، القاهرة ١٩٤٩ .
مردم ، الجاحظ ، دمشق ١٩٣٠ .
المسعودى ، مروج الذهب ومعادن الجواهر (Les Prairies d'Or)، نص وترجمة Barbier de Meynard و Pavet ، ٩ أجزاء ، طبعة Paris ، ١٨٦١ — ١٨٧٧ .
، التنبيه والإشراف ، حققه de Goeje ، طبعة Leiden ، ١٨٩٤ (B. G. A) .
مسلم ، الجامع الصحيح ، طبعة القاهرة ١٩١١ — ١٩١٤ ؛ بولاق ١٢٩٠/١٨٧٣ .
مصعب الزبيرى ، كتاب نسب قريش ، تحقيق Lévi - Provençal ، القاهرة ١٩٠٤ .
مصنف مجهول ، (لعله جزء من كتاب أنساب الأشراف للبلاذرى) ، تحقيق Ahlwardt طبعة Greifswald ، ١٨٨٣ .
المقرى ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، تحقيق أحمد فريد رفاعى ، ٢٠ جزءاً ، القاهر ١٩٢٦ .

المقريزى ، المواعظ والاعتبارات فى ذكر الخطط والآثار ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٦ هـ .

، النزاع والتخاصم فيما بين بنى أمية وبنى هاشم ، تحقيق Vos ، طبعة Leyden ، ١٨٨٨ .

، إغاثة الأمة بكشف الغمة ، تحقيق زيادة والشيال ، طبعة ثانية ، القاهرة ١٩٥٧ .

، الذهب المسبوك فى ذكر من حج من الخلفاء والملوك ، تحقيق الشيال ، القاهرة ١٩٥٥ .

، النقود الإسلامية ، طبعة قسطنطينية ، ١٢٩٨ هـ .

ابن منظور ، لسان العرب ، ٢٠ جزءاً ، بولاق ١٣٠٠ هـ .

موزل ، شمالى الحجاز ، نقله إلى العربية عبد المحسن الحسينى ، الإسكندرية ١٩٥٢ .

مؤنس (حسين) ، فتح العرب للمغرب ، القاهرة ١٩٤٧ .

، فجر الأندلس ، دراسة فى تاريخ الأندلس ، من الفتح الإسلامى ، إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ — ٧٥٦ م) ، القاهرة ١٩٥٩ .

الميدانى (النيسابورى) ، مجمع الأمثال ، وبهامشها جمهرة الأمثال لأبى هلال النحوى ، جزءان ، طبع ١٣١٠ هـ .

النجار ، الموالى فى العصر الأموى ، ومذيل يبحث عن الرق والولاء فى الإسلام ، القاهرة ١٩٤٩ .

النجيرمى ، إيمان العرب فى الجاهلية ، القاهرة ١٣٤٣ هـ .

ابن النديم ، كتاب الفهرست ، تحقيق Flugel ، طبعة Leipzig ، ١٨٧١ — ١٨٧٢ .

نظام الملك ، سياسة نامة ، ترجمة Schefer ، طبعة Paris ، ١٨٩١ .

النعمان بن محمد ، دعائم الإسلام ، تحقيق فيضى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥١ .

نقولا زيادة ، صور من التاريخ العربي ، القاهرة ١٩٤٦ .
، برقة ، بيروت ١٩٥٠ .
نلينو ، علم الفلك ، تاريخه عند العرب في القرون الوسطى ، طبعة Roma ، ١٩١١ .
النوبختي ، كتاب فرق الشيعة ، صححه محمد صادق ، النجف ١٩٣٦/١٣٥٥ .
نولدكه ، أمراء غسان ، ترجمه بندلي جوزي وقسطنطين رزيق ، بيروت ١٩٣٣ .
النويري ، نهاية الأرب في فنون الأدب ، ١٤ جزءاً ، طبعة دار الكتب ١٩٢٣ .
ابن هشام ، كتاب سيرة سيدنا محمد رسول الله ، تحقيق Wust ، في جزءين ، طبعة Gottingen ، ١٨٠٨ — ١٨٦٠ .
هارون ، الميسر والأزلام ، القاهرة ١٩٥٣ .
الهمداني (ابن الحائك)، صفة جزيرة العرب ، تحقيق Muller ، في جزءين ، طبعة Leiden ، ١٨٩١ .
، الإكليل ، تحقيق نبيه فارس ، الجزء الثامن ، طبعة Princeton ، ١٩٤٠ .
هومل وغيره ، التاريخ العربي القديم ، ترجمة فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٥٨ .
هيكل ، حياة محمد ، الطبعة الرابعة ، القاهرة ١٩٤٧ .
، الصديق أبو بكر ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٣٦٢ هـ .
، الفاروق عمر بن الخطاب ، القاهرة ١٣٦٤ هـ .
وامف ، معجم الخريطة التاريخية للممالك الإسلامية ، تحقيق أحمد زكي باشا ، القاهرة ١٩٢٦ .

الواقدى	، فتوح الشام ، تحقيق W. N. Lees ، طبعة Calcutta ، ١٨٥٤
	، مغازى النبى ، تحقيق Kremer ، طبعة Calcutta ، ١٨٥٦ .
	، فتوح إفريقية ، طبعة أولى ، تونس ١٣١٥ هـ .
ولفنسون	، تاريخ اليهود فى بلاد العرب ، القاهرة ١٩٢٧ .
ولـكن	، الأمومة عند العرب ، ترجمة سليبا الجوزى .
وهب بن منبه	، كتاب التيجان ، طبعة حيدر آباد ، ١٣٤٧ هـ .
ياقوت	، معجم البلدان ، تحقيق أمين الخانجى ، ٨ أجزاء ، القاهرة ١٩٢٣/١٩٠٦ .
	، إرشاد الأريب إلى معرفة الأديب ، طبعة فريد رفاعى ، ٢٠ جزءاً ، القاهرة ١٩٣٦ .
يحيى نامى	، أصل الخط العربى وتاريخ تطوره إلى ما قبل الإسلام (بحث مستخرج من مجلة كلية الآداب) ، المجلد الثالث ، العدد الأول ، القاهرة ١٩٣٥ .
	، نشر نقوش سامية قديمة من جنوب بلاد العرب وشرحها ، القاهرة ١٩٤٣ .
	، نقوش عربية مجلة كلية الآداب ، المجموعة الأولى ، المجلد الأول ، مايو ١٩٤٧ ؛ المجموعة الثانية ، العدد السادس عشر ، ديسمبر ١٩٥٤ .
	، نقوش خربة معين ، القاهرة ١٩٥٢ .
اليعقوبى	، تاريخ ، تحقيق Houtsma ، طبعة Lug-Bat ، فى جزءين ، ١٨٩٣ .
أبو يوسف	، كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ترجمة وتعليق Fagnan ، طبعة Paris ، ١٩٢١ (فى جزءين) .
يوسف أحمد	، الإسلام فى الحبشة ، القاهرة ١٩٣٥ .
يوسف عبد الهادى	، ثمار المقاصد فى ذكر المساجد ، تحقيق وتذييل محمد أسعد اطلس ، بيروت ١٩٤٣ .

(ب) الكتب الأورية

Akkouch (Mahmoud) : Contribution à une étude des origines de l'architecture musulmané: La Grand-mosquée de Médine dans Mém. Inst. Fr. Arch. Or. t 68, I935.

'Ali Fahmy : Muslim Sea — Power in the East Méditerranean from the Seventh to the Tenth Century. Alexandria, I950.

Amélineau : Etude sur la Christianisme en Egypte au septèime siècle. Paris, 1887.

André (Pierre) : L'Islam et les Races. 2 tomes. Paris, 1922.

Arnold (T) : The Caliphate. Oxford, 1924.

Arnold von Gennep' : L'Etat actuel du Problème totémique. Paris, 1920.

Barbier de Meynard :Dictionnaire géographique historique et litteraire de la Perse et des contrées adjacentes. Paris, 1862.

Barthelemy : Mohamed et le Coran. Paris, 1865.

Barthold :Turkestan down to the Mongol invasion, 2 ed. london, I928, (Gibb. Mém)

: Hisroire des Turcs d'Asie centrale. Adap. franc. par Mme Donskis. Paris, 1945.

Becker : Studien zur Omajjadengeschichte : Omar II, dans Z. F. Ass, txy 1900, p. 1 — 36.

:Christentum undIslam.Tübingen,1907.

: The Expansion of the Saracens [The Cambridge Medieval History vol 2.] Cambridge, 1913.

: Islamstudien, 2 vol. Leipzig, 1924.

Bel : Coup d, oeil sur l'Islam en Berbérie Paris, 1917.

:La religion musulmane en Berbérie. Paris, 1938.

Bell : The origin of Islam in its Christian environment. London, 1926.
:The Administration of Egypt under the Umayyad Khalifate in Byzant. Zeitschrift XXVII, 1928, 278-299.
:The Qur'ân. Translated with a critical re-arrangement of the Surahs. 2 vol Edimbourg, 1937-39.

Benveniste : The persian religion according to the chief greek Texts. Paris, 1929.

Berger : l'Arabie avant Mahomet d'après les inscriptions. Paris, 1885.

Bertram (T) : Les Arabes, traduit de L'Anglais par Huret. Paris, 1946.

Bichr Farès L'Honneur chez les Arabes avant l'Islam.Etude de Sociologie. Paris,1932.

Blachère : Introduction au Coran. Paris, 1947.
: Le Problème de Mahomet. Paris,1952.
: L'allocution de Mahomet lors du pélerinage d'adieu, Mélange Louis Massignon I, 1956, pp. 223—249.

Blochet : Le Messianisme dans l'Herodoxie Musulman. Paris, 1903.
Christianisme et Mazdéisme chez les Turks-Orientaux, Paris, 1930. (Extrait de la Revue de l'Orient Chrétien.).

Bonet—Maury : L'Islamisme et le Christianisme en Afrique. Paris, 1906.

Bousquet : Observations sociologiques sur les origines de l'Islam. Stvdia Islamica.t2. Paris, 1954. p. 61 sqq.
: Observations sur la nature et les causes de la conquête arabe. Stvdia Islamica. Paris, 1956, p. 46sqq.

Brémond : Berbères et Arabes. Paris, 1942.

Browne : A Literary History of Persia, 4 vol Cambridge, 1920—1930.

Brunnow : Die Charidschiten unter den ersten Omayyaden. Leiden, 1884.

Brunnow ; Domaszewski :Die Provincia Arabia. Strasbourg,1904.

Brunschvig : Ibn Abdalhakam et la Conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes.Etude critique in. A. I. E. O. VI, 1942—47. p. 108 sqq.

Buhl : Das Leben Muhammeds. Leipsig,1930.

Burton : Pilgrimage to Mecca and Medinah 2 ed. 1857.

Combe, Sauvaget et Wiet : Répertoire chronologique d'épigraphie arabe. Le Caire, 1931.

Caetani :Annali dell'Islam10 vol.Milano, 1905-26

:Studi di Storia Orientale. Milano, 1911.

: Chronographia islamica, 5 vol. Paris, 1912.

Cahun : Introduction à l'histoire de l'Asia : Turcs et Mongols, des origines à 1405. Paris, 1896.

Canard : Les expéditions des Arabes contre Constantinople dans l'Histoire et dans la légende. J. A. janvier—mars 1926 t 208 p. 61 sqq.

Carra de Vaux : Les penseurs de l'Islam, 5 vol. Paris, 1921 – 1926.

Caton– Thompson : The Tombs and Moon Temple of Hureidha (Hadhramaut.) Oxford, 1944.

Caudel : Les premieres invasions des Arabes dans l'Afrique du Nord, J. A. 1900.

Caussin de Perceval : Essai sur l'histoire des Arabes avant l'Islamisme 3 vol. Paris, 1847–8.

Charles : Le Christianisme des Arabes nomades

sur les limes et dans le désert Syro-mesopotamien aux alentours de l'Hégire. Paris.1 936.

Cheira : La lutte entre Arabes et Byzantins. Alexandrie, 1947.

: La Documentation papyrologique de l'époque arabe. Catalogue des papyrus grecs publiés d'époque arabe concernant l'Egypte. Alexandrie, 1948.

: Les Statuts des pays des 'Ahd aux VIIe et VIIIe siècles.

(حوليات كلية الآداب ـ جامعة ابراهيم العدد (١) ١٩٥٠)

Christensen : L'Iran sous les Sassanides. Copenhague et Paris, 1936.

Cohen : Documents Sud-arabiques. Paris, 1934.

Cooke : Text Book of North Semitic Inscriptions. Oxford, 1903.

Coppée : History of the conquest of Spain by the Arab. Moors 2 vol. Boston, 1881.

Corpus Inscriptionum Semiticarum. Paris. t 4 vol I. 1889, 1892 1900, 1908 t 4. vol 2.1911, 1911,1914.

Creswell : Early Muslim Architecture I. Umayyads. Oxford, 1932.

Cronica Mozàrabe de 754 attribueda a Isidero Pacence par el P. Florey, 1885.

Darmester : Le Mahdi depuis les origines de l'Islam jusqu'à nos jours. Paris,1885.

Davies : Buddhist, India · London, 1903.

De Goeje : Mémoire sur la conquête de la Syrie 2 éd. Leyde, 1900.

: Mémoire sur les Migrations des Tsiganes à travers l'Asie. Leyde, 1903.

: L'encensement des morts chez les arabes. Ext. des Actes du XIV. Congrès Inter des Orientalistes. t LLI.

De Lafont : Le Mazdéisme : L'Aveste. Paris, 1897

Dennett :Conversion and Poll-Tax. Harvard, 1950.

Denys de Tell - Mahré : Chronique publ. et traduite par Chabot. Paris, 1895.

Derenbourg : Le Dieu Allah dans une inscription minéenne. J. A. 1892.

Desvergers : Histoire de l'Arabie. Paris, 1847.

Diehl : L'Afrique byzantine. Paris, 1896.

: Justinien. Paris, 1901.

: Histoire de l'Empire byzantin. Paris, 1934.

Diehl et Marçais : Le Monde Oriental de 305 à 1081, dans Histoire Genérale, t 3. Paris, 1936.

Diodorus of Sicily with an English translation by Oldfather in ten volumes, London, 1946.

Doughty : Travels in Arabia Deserta. 2ed. London, 1921.

Dozy : Etudes sur la conquête de l'Espagne par les Arabes. Leyde, 1881.

: Essai sur l'Histoire de l'Islamisme. trad. Chauvin. Leyde, 1887.

: Histoire des Musulmans d'Espagne, revue et mise à jour par Lévi-Provençal 3 tomes. Leyde, 1932 t I.

Drioton et Vandier : Les Peuples de l'Orient Méditerranéen. Paris, 1946.

Drapeyron : L'empereur Héraclius et l'empire byzantin en VIIe siècle. Paris, 1869.

Dubler : Survivance de l'ancien Orient dans l'Islam 51, VII, 1957, pp. 47 - 75.

Dulaurier : Chronologie arménienne. Paris, 1856.

Durkheim : Les Formes élémentaires de la vie religieuse. 2ed. Paris, 1925.

Dussaud : Les Arabes en Syrie avant l'Islam.

Paris, 1907.
: Le Temple de Jupiter Damascènien et ses transformations aux époques chrétiennes et musulmanes dans Syria,1926.
: Topographie historique de la Syrie antique et mediévale. Paris, 1927.
: Histoire d'Edesse. Paris, 1892.

Duvot : Histoire d'Edesse. Paris, 1892.
: La litterature Syriaque. Paris, 1900.

Eldon :The Holy Cities of Arabia. London,1928.

Essad Bey : Mahomet 571 - 632. Paris, 1948.

Février : Essai sur l'histoire politique et économique de Palmyre. Paris, 1931.

Flugel : Mani. Leipzig, 1862.
Concordantiae Corani Arabicae. Lipsiae, 1842.

Fournel : Etude sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes. Paris, 1881.

Gabrieli : al - Walîd ibn Yazîd: il califfo e il poeta. R S. O t XV, 1934, 1—64.

Gagnier (jean) : La Vie de Mahomet traduite et compilée de l'Alcoran, des Traditions authentiques de la Sonna et des meilleurs auteurs. Amesterdam, 1732.

Gaudefroy-Demombynes : Le Pèlerinage de la Mekke. Etude d'Histoire Religieuse. Paris, 1923.
: La Syrie. Paris, 1923.

Gaud et Platanov : Le Monde Musulman et Byzantin jusqu'aux croisades. Paris, 1931.

Gautier : L'Islamisation de l'Afrique du Nord: Les siècles obscurs du Maghreb 2ed. Paris, 1937.

(C) Ghévond : Histoire des guerres et des conquêtes des Arabes en Arménie traduite par Garabed Chah-Nazarian. Paris, 1856.

Gibb : The Arab Conquest in Central Asia. London, 1923.

: La Structure de la Pensée Religieuse de l'Islam. trad. de l'Angl. par Félix Arin. Paris, 1950.

: The fiscal rescript of Umar II. Arabica janv. fasc. I. t2 1955, pp. 1-16.

: Arab - Byzantine Relations under the the Umayyad Caliphate in Dumbarton Oaks Papers, XII, 1959, pp. 219-233.

Gibbon : The decline and fall of the Roman Empire.ed.Smeaton.6vol. London, 1950.

Glaser : Skizze der Geschichte und Geographie Arabiens. Berlin, 1890. 2vol.

Goldziher ; Culte des Ancêtres et le Culte des Morts. Paris, 1885.

: Le dogme et la loi de l'Islam, trad. de l'Allemand par Félix Arin. Paris, 1902.

: Etudes sur la tradition islamique extraites du tome 2 des "Muhammed' anische Studien,"traduites par Bercher. Paris, 1952.

Grimme : Muhammed 2 vol.Munster, 1892-1895.

Guest : A coin of Abu Muslim J. R A. S. July 1932 p. 555 - 6.

Guidi : L'Arabie antéislamique. Paris, 1921.

Guillou : les Monnayages Latino - Arabes, p. 51 sqq.

(مجلة المعهد المصرى فى مدريد ، العدد الثالث ، ١٩٥٥)

Halphen : Les Barbares 4 éd. Paris, 1940.

Hamidullah : Les Champs de Bataille au temps du Prophète. R. I. S. Année 1939; cahier I, p. I sqq.

: La lettre du Prophète à Héraclius. cf. Arabica, Janv 1955 p. 97 - 110.

; Le livre des généralogie d'al - Baladuruy, B. E. O. de l'Inst. F. de Damas t XIV, 1952 - 1954, pp. 197-221.

: The Christians of Pre-Islamic Mecca. Karachi, 1958.

: Le Prophête de l'Islam. 2 Vol Paris, 1959.

Herodotus :History transl by Godley.London,1920.

Hill : Catalogue of the Greek Coins of Arabia... London, 1922.

Hitty : History of the Arabs. L   don, 1937.

: History of Syria, 1951.

له ترجمة عربية من جورج حداد وغيره ، لم يستخدم)

Hogarth : Arabia. Oxford, 1922.

Hommel : Explorations in Arabia. Philadelphia, 1903.

: Grundriss der Geog. und Gesch. des Alten Orient t 1-2,Munchen,1904.; 1926.

Homo : Roman Political Institutions. London, 1929.

Houdas : L'Islamisme. Paris, 1904.

Huart : Selmân du Fars. Derenbourg, 1909.

: Nouvelles Recherches sur la légende de Selmân du Fars. Paris, 1913..

: Hist des Arabes. 2 vol. Paris, 1912 - 3.

Huart et Delaporte : L'Iran Antique. Paris, 1943.

Hughes : A Dictionary of Islam. London, 1885.

Huzayyin : Arabia and the far - east : Their commercial and cultural relations in greco - roman and irano - arabian times. Cairo, 1942.

Jackson : Zaroaster the Prophet of Aucient Iran. New - York, 1899.

Jaussen : Coutumes des Arabes au pays de Moab. Paris, 1908.

Jaussen et Savignac : Les Chateaux Arabes, de Qeseir 'Amra, Kharàneh et Tûba (Miss.Arch. en Arabie 3). Paris, 1922.

: Coutumes des Fuqara Miss. Arch. en Arabie 2). Paris, 1920.

Jean, Evêque de Nikiou : Chronique. Texte Ethiopien publié et traduit par Zotenberg(Notices et extraits des Manuscrits de la Bibliothèque Nationale et autres bibliothèques) t 24, Paris, 1879.

Josephus : Jewish Antiquites.transl by Thackeray (Books 1 - IV) in eight volumes. London, 1930.

Julien : Histoire de l'Afrique du Nord, de la conquête arabeà 1830, 2ed.Paris,1952.

Ivring : Lives of Mahomet and his successors. Paris, 1850.

Kammerer : Essai sur l'histoire antique de l'Abyssinie. Paris, 1926.

:La Mer Rouge. L'Abyssinie et L'Arabie depuis l'Antiquité. Le Caire, 1929.

Kennedy : Petra; its history and monuments. London, 1925,

Khuda Bukhsh : Essays indian and Islamic. London, 1912.

Koelle : Mohammed and Mohammedanism. London, 1889.

Krehl : Ueber die Religion der Vorislamischen Araber. Leipzig, 1863.

Kremer : Kulturgeschichte des Islams unter den Chalifen. 2vol. Wienne, 1875-1877

La Beaume : Le Coran analysé. Paris, 1878.

Lambert Les origines de la mosquée et l'Architecture religieuse des omeiyades. Stvdia Islamica. Paris, 1956, p. 5 sqq.

Lammens : Etudes sur le règne du calife omaiyade Mo'àwia 1er. Leipzig, 1908.

: Le berceau de l'Islam. Rome, 1914.

: Les Ahâbîch et l'organisatio militaire de la Mecque au siècle[illegible] égire A. 1916. p. 425 - 482.

: La Syrie. Précis Historique, prémier volume. Beyrouth, 1921.

: La Cité arabe de Taïf à la veille de l'hégire. Beyrouth, 1922.

: La Mecque à la veille de l'Hégire, Beyrouth, 1924.

: L'Islam, croyances et institutions, Beyrouth, 1926.

: L'Arabie occidentale avant l'Hégire. Beyrouth, 1930.

: Etudes sur le siècle des Omeyyades. Beyrouth, 1930.

Lamairesse et Dujarric : Vie de Mahomet d'après la Tradition 2 vol. Paris, 1897-98.

Langlois (Victor) : Collection des historiens anciens et modernes de l'Arménie, publiée en français sous les auspices de son Excellence Nubar Pacha. 2 vol. Paris, 1867 - 9.

Lagrange : Etudes sur les religions sémitiques. 3 ed. Paris, 1905.

Lane - Poole : The Mohammedan Dynasties. London, 1895.

Laurent : L'Arménie entre Byzance et les Arabes, depuis la conquête arabe jusqu'en 886.

Paris, 1919.

Lavoix : Catalogue des monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale, t I. Khalifes Orientaux. Paris, 1887.

Lecerf : Note sur la famille dans le monde arabe et islamique. Arabica, t 3, Janv. 1956, p. 31 sqq.

Leczinsky : Die Juden in Arabien sur Zeit Mohammeds. Berlin, 1910.

Legendre : Nouvelle Histoire d'Espagne. Paris, 1922.

Le Strange : Palestine under the Moslems. London, 1890.

: The Lands of the Eastern Caliphate 2 ed. Cambridge, 1930.

ترجمة عربية من بشير وسركيس ، بعنوان : بلاد الخلافة الشرقية ، بغداد ، ١٩٥٤ (لم تستخدم) .

Lévi - Provençal : Inscriptions arabes d'Espagne. Leyde-Paris, 1931.

: La civilisation arabe en Espagne. Paris, 1948.

: Histoire de l'Espagne Musulmane. La conquête et l'Emirat Hispano-umaiyade (710-912) t I. Nouvelle edition, Paris—Leiden, 1950.

Lewis (Bernard) : The Arab in History 3ed. London, 1955, trad. franc. Paris, 1958.

Littmann : Entzifferung der Safa Inschriften. Leipzig, 1901.

: Entzifferung der Thamudenischen Inschriften, 1904.

Loisy : Essai historique sur le Sacrifice. Paris, 1928.

Lokegaard : Islamic Taxation in the Classic Period. Paris, 1950.

Louis de la Vallée : Bouddhisme. Paris, 4 éd.

Macdonald : The Religious Attitude and life in Islam. Chicago, 1909.

Mac Michael : A History of the Arabs in the Sudan. Cambridge, 1923.

: Development of Muslim Theology. New - York, 1926.

Marçais (G) : La Berbérie musulmane et l'Orient au Moyen Age. Paris, 1946.

: L'Art de l'Islam. Paris, 1946.

Margolieuth : Mohamed and the Rise of Islam London, 1905.

: The early development of Mohamedanisme. London, 1914.

: The relations between Arabs and Israelites prior to the rise of Islam. London, 1924.

: Origins of Arabic Poetry. J. R. A. S. 1925.

Massé : L'âme de l'Iran. Paris, 1951.

Massé et Grousset : La civilisation iranienne. Paris, 1952.

Mercier et Séguin : Chares Martel et la bataille de Poitiers. Paris, 1944.

Michel le Syrien Chronique. ed. et trad Chabot. Paris, 1899 - 1910. 4 vol.

Miller : Mappae arabicae 5 vol Stuttgart, 1926 suiv.

Minorsky : The Khazars and the Turks in Akâm al - Morjân. Reprinted from the Bull. of S. O. S. vol IX. Part 1, 1937.

: Caucasica III. The Alân capital. Magas and the Mongol campaigns. Reprinted from the Bull. S. O. S. vol XIV/2. 1952.

:Studies in Caucasian history. London, 1952.

Moncaut :Histoire des peuples et d'états pérénéens, 3ed. 1873.

Montogomery : Arabia and the Bible. Philadelphia, 1934

Mordtmann : Beitrage zur Minaïshen Epigraphik. Weimar, 1896.

Mordtmann und Mittwoch: Sabaïsche Inschriften. Hamburg, 1931.

Moscati : Il testamento di Abû Häsim (R.S.O.) 1952. 585 sqq.

Moulton : Early Zoroastrianism. London, 1913.

Muir : Annals of the Early Caliphate. London, 1881,

: The life of Mohammed and History of Islam, 4 vol. London, 1858-61.

:The Caliphate its rise, decline and Fall. A new and revised edition by Weir, Edinburgh, 1924.

Musil : Arabia Petraea 3 vol. Vienna, 1907.

: Arabia Deserta. New-York, 1927.

: North Negd. New-York, 1928.

: Palmyrena. New-York, 1928.

: The Manners and customs of the Rawala Bedouins. New-York, 1938.

Nallino : La litterature arabe des origines à l'époque de la dynastie umayyade. trad. Pellat. Paris, 1950.

Nau : Les Arabes chrétiens de Mesopotamie et de Syrie du VIIe au VIII siècles (Cahiers de la Société Asiatique.) Paris, 1933.

Nicholson : A literary History of the Arabs. London, 1923.

Nöldeke : Geschichte der Perser und Araber zur Zeit der Sasaniden. Leyde, 1879.

:Geschichte des Qorâns-Gottingen,1860.

Ohsson : Les peuples du Caucase, 1828

O'Leary : Arabia before Mohammed. London 1927.

Palencia : Historia de la Espana mulumana. Bercelone—Buenos Aires. 4éd. 1940.

Paret : Mohammed und der Koran. Stuttgart, 1937.

Périer : Vie d'al - Hadjâdj ibn Yoûsof al-Taqafî. Paris, 1904.

Periplus of the Erythraean Sea : Travel and Trade in the Indian Ocean by a Merchant of the first Century, translated from the Greek by Schoff, N. York, 1912.

Perron : Femmes Arabes avant et depuis L'Islamisme. Alger, 1856.

: L'Islamisme son institution, influence et son avenir. Paris, 1877.

Philiby : Heart of Arabia. London, 1922.

Philips (H) : India. London, 1947.

Playfair : History of Arabia Felix.Bombay,1859.

Pliny : Natural History, transl. by Rackham. London, 1949. 10 vol.

Procopius : History of the Wars. transl. by Dewing 7 vol. London, 1954,

: Of the Buildings of Justinian. transl. by Stewart. London, 1886.

Quatremère : Mémoire sur le Kitab al - Agani ext. J. A. Paris, 1837..

: Mémoire sur les Asiles chez les Arabes. Paris, 1845.

: Observation sur le feu grégeois. ext. du J. A. Paris, 1850.

: Mém Hist sur la vie d'Abd Allah Ben Zobair, ext J. A. Paris, 1852.

:Mém. Hist. sur la dynastie des Khalifes abbassides, ext J. A. Paris, 1852.

Rehatsek : Some Beliefs and Usages among the Pre - Islamic Arabs. Bombay, 1876.

Reinaud : Invasions des Sarrazins en France. Paris. 1836.

: L'Art Militaire chez les Arabes. Paris, 1884.

Reinaud et Favé : Feu Grégeois. Paris, 1845.

René Grousset : Histoire de la Chine. Paris, 1947.

: Répertoire d'pigraphie Sémitique (Publ. par la comm. du Corpus Inst. Semit.) 1900 sqq.

Ricciotti :Histoire d'Israël trad. franc. par Paul Auvray 2 vol. Paris, 1948.

Roth :'Oqba Ibn Nafi'el'Fihri. Gottingen,1859.

Rothstein : Die Dynastie der Lakhmiden in al - Hîra. Berlin, 1899.

Runciman : La civilisation byzantine, 330 - 1453, trad. Lévy. Paris, 1952.

Ryckmans :La civilisation monarchique en Arabie Méridionale avant l'Islam (Ma'în et Saba.). Louvain, 1951.

Saavedra : Estudio Sobre la invasion de los Arabes en Espana. Madrid, 1882.

Sacy : Nouveau aperçu sur l'Histoire de l'Ecriture chez le Arabes du Hedjaz. Paris, 1827.

Saurat : Histoire des Religions, 11 ed. Paris.

Sauvaget :Les Monuments Historiques des Damas. Beyrouth, 1932.

: L'Architecture Musulmane en Syrie.

Ext. de la Rev. des Arts Asiatiques, Paris, 1934.

: Esquisse d'une Histoire de la ville de Damas, ext. R. E. I. (Année 1934) Paris, 1935.

: Introduction à l'Histoire de l'Orient Musluman. Paris, 1946.

: La Mosquée omeyyade de Médine. Etude sur les origines architecturales de la Mosquée et de la Basilique. Inst. F. de Damas. Paris, 1947.

Sauvaire : Matériaux pour servir à l'histoire de la numismatique et de la métrologie musulmanes. Paris, 1882.

Schmidt : Origine et Evolution de la Religion. Paris, 1931.

Schwally : Geschichte des Qorâns. Die Sammlung des Qorâns. Leipzig, 1919.

Scott In the High Yemen. 2 ed. London, 1947.

Sébéos Histoire d'Héraclius, traduite de l'arménien et annotée par Macler. Paris, 1904.

Seligman Les Races de l'Afrique trad. franc. Payot. Paris, 1935.

Sell Faith of Islam, 2 ed. London, 1896,

Shedd : Islam and the Oriental churches, Philadelphia, 1904.

Smith : Kingship and Marriage in early Arabia 3 ed. London, 1903.

Snouck Hurgronje : Mekka 2 vol. 2èd Haag, 1888 - 1889.

Sprengèr (Aloys) : Das Leben und die Lehre des Mohammed. 3 vol. I. Berlin, 1861—69.

: Die alte Geographie Arabicus. Berne, 1857.

Strabo : Geography, transl by Horace Jones 8 vol. London, 1949.

Streck : Die alte Landschaft Babylonien nach den arabischen Georgrophen. Leyde, 1900 – 1.

Theophanis : Chronographia in Patrologia Graeca de Migne t 108; ed Boor. Leipzig, 1883.

Theophrastus : Enquiry into Plants, transl. Hort. London, 1948.

Thoumin Histoire de Syrie 2ed. Paris, 1929.

Tor Andrae : Mahomet, sa vie et sa doctrine, trad. de l'Allemand, par Gaud-Demom. Paris, 1945.

Toussaint et Favé : Histoire de l'artillerie 1ère partie. Du feu grégeois, des feux de guerre et des origines de la poudre à canon. Paris, 1845.

Trimingham : Islam in the Sudan. London, 1949.

Tyan : Histoire de l'organisation judiciaire en pays d'Islam. 2 vol. Lyon - Beyrouth 1938 - 1943.

Van Berchem : La propriété territoriale et l'impôt foncier. Thèse de Leipzig, 1861.

: Matériaux pour un Corpus Inscriptionum Arabicarum 2 (Inst. F. d'Arch. Or. t 44). Le Caire, 1927.

Van Gelder : Mohtar de Valsche Praefect. Leiden, 1888.

Vesely (Rudolf) : Die Ansâr im ersten Bürgerkriege (36 , 40. d. h) Archiv orientalni, 26/1, 1958, pp. 36 – 58.

Vogué : Inscriptions s'emitiques. Paris, 1868 - 77.

Waddington : Inscriptions grecques et latines de la Syrie. Paris, 1870.

Walker : A Catalogue of the Arab Byzantine and Post Reform umaiyad Coins. London, 1956.

Wermington : The commerce between the Roman Empire and India. Cambridge, 1928.

Watt : Muhammed at Mecca. Oxford, 1953.

Weil : Geschichte der Chalifen 3 vol. Mannheim, 1849—51.

Wellhausen Reste arbischen Heidentums, zweite Ausgabe, 1897.

: Skizzen und Vorarbeiten. Berlin, 1899.

: Arab Kingdom and its Fall "Das ArabischeReich und sein Struz" Berlin, 1902," transl by M. Weir. Calcutta, 1927.

: Die Kampfe der Araber mit den Rômaern in der Zeit der Umaijaden, Nachrichten der König. Gesellschaft der Wissenschaften. Phil - hist. Klasse. Gottingen, 1901, p.414sqq.

Wensinck : Mohammed en de joden te Medina. Leiden, 1908.

: A handbook of early Muhammadan tradition, alphabetically arranged. Leiden, 1927.

: The Muslim Creed. Cambridge, 1932.

Westermarck : Survivances paiennes dans la civilisation Mahometane, trad. Franc par Robert Godet. Paris, 1935.

Wilson :The Persian Gulf:An historical sketch from the earliest times to the beginning of the XII the cent. Oxford, 1928

Winnet : A Study of the Libyanite and Thamudic Inscriptions. Toronto,) 1937.

Zaayer : Het Mekkaansche Feest-Leiden,1880.

Ziegler : Church and State in Wisigothic Spain. Washington, 1930.

Xenophen : Anabasis. transl. Todd.London, 1947.

(جـ) المجلات ودور المعارف والمجموعات

Acta Orientalis Academiae Scientiarum Hungaricae. Budapest.

al - Andalus : Revista de las Escuelas de Estudio Arabes de Madrid y Granada, Madrid - Grenade.

Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, Alger (A. I. E. O.)

Arabica, Revue d'Etudes Arabes. Paris.

Archiv Orientalni.

Ars Islamica, 1934.

Bibliotheca Geographorum Arabicorum. Leiden.

Bibliothek Arabischer Historiker und Geographen. Wien.

Boletin de la Real Academia de la Histeria de Espana. Madrid. (Bol. R. Ac. Esp.)

Bulletin of the American School of Oriental Research (Boasoor.)

Bulletin of the Royal School for Oriental Studies (B.S.O.S.) London, 1917.

Byzantion. Bruxelles, 1924 (Byz.)

Byzantinische Zeitschrift (Bys, Zeitschr).

Der Islam : Zeitschrift für Geschichte und Kultur des Islamischen Orients. Strasbourg, 1910 - 19 ; Berlin, 1919.. etc.

Encyclopedia Britannica . Cambridge, 1910 - 1911.

Encyclopaedia of Religion and Ethics. ed by Hastings. Edinburgh 1908 - 9121;

Encyclopédie de l'Islam 1ed Leyde,1913 - 1942 ; 2éd Paris,1954.
Hespéris. Paris, 1921.

Islamic Culture an English Quarterly. Hyderabad, 1927.

J. As : Journal Asiatique. Paris, 1822 sqq.

J. Am. O. S. : Journal of American Oriental Society.

J. Soc. Or. Res : Journal of Society of Oriental Research.

J. R. A. S. : Journal of the Royal Asiatic Society of Great Britain and Ireland. London, 1834 sqq.

Mémoire de l'Institut Français d'Archéologie Orientale du Caire (M. I. F. A. O.)

Mitteilungen der Vordersiatischen Gesellschaft (M. V. G.)

Museon.

Orientalische Litteratur Zeitung (O. L. Z.). Leipzig.

Patrologia Orientalis. (P. O.).

Revue des Etudes Islamiques (R. E. I.)

Revue des Etudes Juives. Paris.

Revue de l'Histoire des Religions (R. H. R.)

Revue du Monde Musulman (R. M. M.).

Rivista degli Studi Orientali (R. S. O.).

Stvdia Islamica (S. I.) Paris.

Zeitschrift der Deutschen Morgenländischen. Gesellschaft (Z. D. M. G.)

Zeitschrift für Assyriologie und verwandte. Gebiete (Z.F.Ass.)

صحيفة المعهد المصرى للدراسات الإسلامية فى مدريد.

حوليات كلية الآداب ، جامعة شمس :

———— ————

(٢) جـــدول الأسماء

(١) أسمـاء الأشخاص

(ب) أسماء قبائل وشعوب وممالك

(ج) أسماء الفرق

(د) أسماء جغرافية :

تصويب الخطأ

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٩	٦	سنه	سنة
١٧	هامش (٧)	القلقندى	القلقشندى
١٨	١٠	النطر	النظر
١٩	١	الخلافه	الخلافة
٢٠	هامش (١٠)	Eney	Ency
٢٨	هامش (٣)	أسد الغابه	أسد الغابة
٣٢	هامش (٧)	Par	par
٣٣	هامش (٤)	pat. or	Pat. Or
		حققة	حققه
		scher	Scher
٣٥	هامش (٦)	La lute	La Lutte
٣٨	٦	مصر	مضر
٤٨	هامش (١)	London, 1950, p. 5. 395	London, 1950, 5. p. 395
٥٢	هامش (٧)	La lute	La lutte
٥٥	٤	الفرمة	الفرقة
٥٦	هامش (١)	المعاف	المعارف
٥٨	٣	ولكنة	ولكنه
٦١	هامش (١)	Yaîd	Yazîd
٦٩	هامش ١٠	y	Ency
٧١	٥٠	ويسود	ويسوذ
٧٣	هامش (٧)	فيقول أبو مخنف أنهم	فيقول أبو مخنف إنهم
٨٣	٨	صحابة	صحابة
١٠٤	٤	صدته	سلته
١١٣	٣	فلنك	فلذلك
١١٧	٣	شيئه	سيئة
١٢٢	٧	كربلاء	كربلآء
١٢٤	هامش (٥)	جبوو	جبور
١٤١	هامش (١)	Hadj,	al-Hadj
١٤٤	هامش (٧)	بلاد ما رواء	بلاد ماوراء
١٥٦	١٠	وأخذ على بن أبي بكرة	وأخذ على ابن أبي بكرة
٢١٥	٦	أو الصينين وقد	أو الصيليين . وقد
٢٢٥	١٨	جبموية	جبغوية

صفحة	سطر	خطأ	صواب
٢٢٧	١٣	بهذا الفتج	بهذا الفتح
	هامش (١)	Ency	Ency
٢٢٨	هامش (٤)	تاج العروس	تاج العروس
٢٣٠	هامش(٩)	paris	Paris
٢٣٤	هامش (٤)	خلع	خلج
٢٥٥	١	يصرب	يضرب
٢٦٠	٧	يغربها	يغربها
	١٠	أرض	أواض
٢٦٩	هامش (٩)	المسرى	المصرى
٢٨٢	١	٧٢٤/١ ٦	٧٢٤/ ١٠٦
٢٩٣	١٢	والى للغرب	والى المغرب
٣٠٤	١٥	أرض لقوما	أرض القوط
٣١٣	١٠	منأربعة أشهر	من أربعة أشهر
٣٢٢	٦	أبى الخطار توابة	أبى الخطار توابة
٣٢٩	١٢	اعتنقو الفرس	اعتنق الفرس
٣٣٥	١١	على نصرهم القدير	على نصرهم لقدير
٣٣٦	هامش (٤)	ص ٥	ص ٤٣
٣٥٧	٥	برسالة	ورسالة
٣٦١	٢٢	Hisroire	Histoire
٣٦٦	٧	Histoire d'Edesse	تحذف
٣٧٧	٢٧	Arabica	Arabicaaum
٣٧٩	٢٠	for	of.
٣٨٢	٤	١٣٨	٢٣٨
٢٨٣	١	الحيرى	الحيرى

مطبعة الرسالة
٣ شارع حمودة . الفجالة . مصر

للمؤلف

- نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٣ . (مكتبة الانجلو المصرية) .

- مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامى . تعريف بمصادر التاريخ الإسلامى ومنهاجه الحديث، القاهرة ١٩٥٣ . (مكتبة الانجلو المصرية) .

- السجلات المستنصرية . سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنون ، صلوات الله عليه ، إلى دعاة اليمن وغيرهم قدس الله أرواح جميع المؤمنين ، تقديم وتحقيق ، القاهرة ١٩٥٤ . (مكتبة دار الفكر العربى) .

- نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر . دراسة شاملة لنظم القصر الفاطمى ورسومه ، الجزء الثانى، القاهرة ١٩٥٥ . (مكتبة الانجلو المصرية) .

- التاريخ السياسى للدولة العربية، فى جزءين، الطبعة الأولى، القاهرة، ١٩٥٦ — ١٩٥٧ . (مكتبة الانجلو المصرية) .

- الناصر صلاح الدين الأيوبى ، القاهرة ١٩٥٨ . (مكتبة الانجلو المصرية) .

- الحاكم بأمر الله ، الخليفة المفترى عليه ، القاهرة ١٩٥٩ . (مكتبة الأنجلو المصرية) .

- التاريخ السياسى للدولة العربية ، الجزء الأول ، الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة ، القاهرة ١٩٦٠ . (مكتبة الانجلو المصرية) .

- الأطلس التاريخى للعالم الإسلامى فى العصور الوسطى ، تصنيف وتحقيق ، بالاشتراك مع على البنا ، القاهرة ١٩٦٠ . (مكتبة دار الفكر العربى) .

- الإمام المستنصر بالله الفاطمى ، القاهرة ١٩٦٠ . (مكتبة الانجلو المصرية) .

- نظم المماليك ورسومهم فى مصر ، فى جزءين . (تحت الطبع) .

HISTOIRE POLITIQUE DE L'ETAT ARABE

A. M. MAGUED

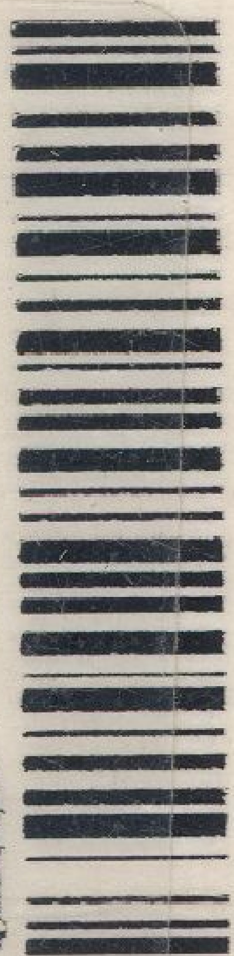
Professeur assistant a L'Université Aïn-Chams

Docteur ès-Lettres de la Sorbonne.

TOME 2.

Deuxième édition

الثمن ٩٠



Le Caire, 1960

Librairie Anglo-Egyptienne

Tél. 50337